تفريغ السلسلة الصادرة عن إذاعة البيان

شَحذُ الهِمَم لِدَفعِ عَادِيَةِ الأُمَم

الطبعة الأولى ١٤٤٧ هـ





بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ سلسلة

شحذ الهمم لدفع عادية الأمم

الصادرة عن إذاعة البيان

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ

مركز إنتاج الأنصار



مؤسسة صرح الخلافة



الفهرس

المقدمة

الحمد لله عظيمِ المنَّة، ناصرِ الدين بأهل السُنَّة، والصلاة والسلام على من جُعِلَ رزقُه تحت ظلِّ الأَسِنَّة، وعلى آله وأصحابه أهل العزيمة والهِمَّة؛ أما بعد:

فإن المتتبع لأحوال الأمَّة الإسلامية اليوم ليرى ما يبكي العينَ ويُحزِن القلبَ ويدمي الفؤاد، كيف لا وأعداؤها قد تألَّبوا وتحزَّبوا، وتحشَّدوا وتجمَّعوا عليها، {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)} [سورة الصف]، فأشعلوا النَّارَ ودهموا الدِّيار، مستخدمين سياسةَ "توزيعِ الورود والأزهار"؛ ذرًّا للرمادِ في العيون والأبصار، وخرَّبوا البلاد واستعبدوا العباد، وطمسوا من نور الشريعة المرضية، واستبدلوها بزبالات الكفر والقوانين الوضعية، فكان لا بدَّ من شحذ الهمم واستنهاض العزائم، بسرد قصص وبطولات أهل الثبات والمكارم، لتنهضَ الأمةُ وتردَّ الصيال، عن الدين والعرض والنفس والعقل والمال.

فكان من نصيب دولتنا -أعزها الله- أن بيَّنت للناس أمر دينهم، وأرشدتهم إلى سواء السبيل، وحذرتهم من بنيَّات الطريق، فأحيت فيهم العزة والنخوة والمروءة والشجاعة والإقدام، وحذرتهم وأنذرتهم وأماتتْ فيهم الذلة والمهانة والإحجام، ودقَّتْ نواقيسَ الخطر: "ألا فاحذروا الجبنَ والخور!".

فكان هذا هو الهدف من وراء نشرِ وإذاعةِ سلسلة (شحذ الهمم، لدفع عادية الأمم)، وهي سلسلةٌ مكوَّنةٌ من خمس عشرة حلقة، مزيَّنة بآياتٍ قرآنية، وأحاديثَ نبوية، وأقوالِ علماءِ الملةِ الحنيفيّة، وأشعارٍ عربيَّة، تستنهضُ هممَ وعزائمَ الأمة الإسلامية.

يسرُّ إخوانكم في مؤسسة صرح الخلافة أن يقدموا لكم التفريغ الكامل لهذه السلسلة المباركة، والتي نسأل الله أن ينفع ويبارك فيها، وكان إخواننا في مؤسسة البتار قد فرَّغوا فيما مضى عشر حلقات منها، فأكملنا الخمس الباقية وأتممنا المشروع، بفضل الله وتوفيقه.

ولقـد تمت المراجعـة الصـوتية للسلسـلة، وتعـديلُ وتصحيحُ مـا يخـالفُ النحـوَ واللغةَ إلى ما يوافقهما، ووُحِّدَتْ علاماتُ التنصيص للآياتِ والأحاديثِ والآثار كلٌّ على حسـبه، ووحـدتِ الألـوانُ للآيـاتِ والأحـاديثِ والأشـعار كلٌّ على حسـبه، وخُـرِّجَتِ الأحاديث.

فها هي بضاعةُ إخوانكم المزجاةُ تُعرَضُ عليكم، فما كان فيها من صوابٍ فمن الله الواحـدِ المنَّـان، ومـا كان فيهـا من خطـأ فمن طبيعـة النفس ووسوسـة الشـيطان، سائلين الله أن يجعلها نافعة وماتعة لكل مسلم غيور، وهادية لكل مارد متمرِّدٍ عاتٍ كفور، والحمد لله رب العالمين.

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة الأولى



الحلقة الأولى

الحمد لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعينِ الموحِّدين، ومبيدِ الطُّغاة والمارقين، وناصرِ المستضعَفين على من سلك سبيل المجرمين، وجعل العاقبةَ لهم ليكونوا همُ الوارثين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهُ الأوَّلين والآخرين، وأشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله مَن جاهد في الله حقَّ جهاده حتَّى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ناشري لواء الدِّين، وعلى من اتبعهم واقتفى آثارَهم في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكم الله وأحياكم، وجعل الجنَّة مأوانا ومأواكم، وقوَّى تقواكم، وأحسن أعمالكم، وأعاننا على من عادانا وعاداكم، وذخرًا للخلافة أعدَّكم، ترفعون راياتها، وتذودون عن حياضها، وتحاربون عدوَّها، وتنصرون جنودها، وترصُّون صفوفها، وتشيِّدونِ صروحها، وتضمِّدون جروحها، وعلى منهاج النُّبوَّة تَحمِلونها.

ها أنا ذا أعرضُ بضاعتي في سلسلةِ محاضراتٍ تُعنى بالتَّربية الجهاديَّة، فإنْ وافقتْ قبولًا فالحمد لله، وإنْ وافقتْ ردًّا فمِن نفسي والشَّيطان، وأستغفر الرَّحمن، راجيًا من الله أن تنالَ هذه الكلمات القبولَ والإعجاب، وأن تكونَ لنا زادًا على الطَّريق ومنارًا للسَّبيل وحجَّة لنا لا علينا يوم اللِّقاء.

ولستُ -والله- مثلَ الأوائل الأماثل في النَّسج والرَّقم، والجمع والضَّم، وإحكامِ الجواب، وبلاغة الخِطاب، ولكن حسبي أنِّي أقفو آثارَ من أجاد وأفاد، وأجمع من حلل الماضي عِقدًا أضعه على صدور المستمعين ما في صحيح السُّنَّة والكتابِ المبين، وسير السَّالفين من الصَّالحين والأئمَّة المتَّقين، وتاريخنا المشرقِ واسعِ البساتين، ثُمَّ أضمُّها وأؤلِّف بينها وأجمِّل سردها وعرضها لتكون مجموعة في أحسنِ تقويم، ثُمَّ ها أنا أهديها لك مملوءةً بالرَّياحين؛ لتستنشق من عبقها، وتأخذ من جمالها ورونقها ما يكون لك في السَّير إلى الله هاديًا ومعينًا، وأستغفر الله من كلِّ خطأ أو زللٍ أو عوجٍ خطَّته اليمين، وأعوذ بالله من شرِّ نفسي وسوءِ عملي وقولي وبه أستعين، وعليه أتوكَّل وإياه أرجو أن يجعلنا لهديه وهديهم متَّبعين.

أسيرُ خلفَ رِكابِ النُّجْبِ ذا عَرجٍ *** مؤمِّلًا كشفَ ما لاقَيتُ مِن عوجِ
فإنْ لحقتُ بِهم مِن بعدما سبقوا *** فكم لربِّ الورى في ذاكَ مِن فرجِ
وإنْ بقيتُ بظهرِ الأرضِ منقطِعًا *** فما على عرجٍ في ذاك مِن حرجِ

أمَّا بعدُ معاشرَ الآباءِ والإخوانِ والبنين؛ فإنَّه لا يخفى عليكم أنَّ جموعًا مِن الأمَّة الإسلاميَّة أخطأتِ الطَّريقَ لفسادِ الدَّليل، وقيادةِ الجاهل الضَّالِّ العليل، وإرشادِ المنافق المخذِّل المبدِّل الذَّليل؛ ولذلك لم تَهتدِ إلى الحق، ولم تُصبِ الصِّدق، ولم تَعرف الجواب، وتلتزمِ الصَّواب، وابتعدتْ عن نهرِ الشَّريعةِ العباب، ووقفت عند أهل الكفرِ مِن الغربِ والشَّرقِ تحت الميزاب، تبحثُ وتطلبُ السَّراب، فبقيتْ في الظَّمأ مِن دونِ ما يروي مِن شَراب، ولا غرابة!

إذا كان الغرابُ دليلَ قومٍ *** يدلُّهُمُ على جِيَفِ الكلابِ

ومنذ ذاك الحين ما رُفِعَت راياتُها، ولا عادت لها عزَّتُها، ولا ظهر دينها ولا استردَّت مجدَها وكرامتها، وما صانت شرفها وسيادتها، ولا أعادت ما سُلِبَ ونُهِبَ وأُخِذَ من مالها وأرضها، ولا دَفَعَتِ اللِّئامَ الطغامَ الأقزام عن أماكن الهدايةِ والقيادةِ والرِّيادة، ولأنَّ الأمَّة برأسها والخيمة بعمودها؛ فإنَّ هدايةَ وصلاحَ أمرِ النَّاس لا يكونُ إلا بالعلماءِ والأمراء الذين يهدون بالحقِّ وبه يَعدِلون، والذين يوفون بعهدِ الله ولا ينقضون الميثاق.

لذا كان -ولا بد- أن يكون رائد هذه الأمَّة وقائدها والآخذ بأزمَّتها نحوَ عزِّها وصلاحها في دينها ودنياها؛ هُمْ {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}، وليسوا من الَّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قَليلًا مِن منصبٍ أو مال أو جاهٍ أو شهرة أو سلامة أو رياسة.

تُهدَى الأمورُ بأهل الرَّأي ما صَلُحَتْ *** فإنْ تولَّت فبالأشرارِ تنقادُ
إذا تولَّى سراة القومِ أمرَهُمُ *** نمَا على ذاك أهلُ القومِ فازدادُوا
لا يَصلُح الناسُ فوضَى لا سراة لهُمْ *** ولا سراة لهم إذا جهَّالهم سادُوا
كيف الرَّشادُ إذا ما كنتَ من نفرٍ *** لهم عنِ الرُّشدِ أغلالٌ وأقيادُ
أعطَوا غواتهم جهلًا مقادتهم *** فكلُّهم في حبالِ الغيِّ منقادُ
حانَ الرَّحيل إلى قوم وإنْ بعدُوا *** فِيهم صلاحٌ لمرتادٍ وإرشادُ

لذا وجب أن يتقدَّم للرِّيادة، ويتنصب للقيادة، وأن يكون دليلَ الهداية، والمحذِّرَ من الغواية، والقائمَ بمهمة الدَّعوةِ والتَّحريضِ والدَّلالةِ، والأخذِ على طريق الله هُمْ أهلُ الجهادِ في سبيل الله، أهلُ الخلافة الرَّاشدة من مهاجرين وأنصار، أصحابُ السَّيف والكتاب، أهلُ الشَّوكة والسُّلطان، والجماعة والسُّنة والتَّوحيد والإيمان، أصحابُ التَّضحيات والبلاء في ذات الله، مَن صبروا على أمر الله، وذبُّوا عن شريعة الله، وهاجروا في سبيلِ الله؛ قال الله: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)} [سورة القصص].

ولذلك انتصب العلماء والأمراء أهلُ الحكمة والحنكةِ والسِّياسة والدِّيانة والدَّهاء من أبناء الدَّولة الإسلاميَّة وحملة الخلافة الرَّاشدة؛ للمنهج الحقّ يوضِّحون، ولسبيلِ المؤمنين يَدعُون، ولراية الإسلام يَحمِلون، ولطريقِ الأنبياء يُحَرِّضون، ولكتاب الله يحكِّمون، وبالسَّلف الصَّالح يقتدون، وللأمرِ الأوَّلِ الأمورَ يعيدون، ولِمَا ذهب مِن رسوم الملَّة يُحيُون، وما اندرس مِن أمرِ الشَّريعة يجدِّدون؛ فهؤلاء هُمُ الهُداة الأئمَّة المُتَّقون، الصَّالحون المصلحون، أصحابُ الطَّائفة المنصورة الظَّاهرة على عدوِّهم إلى قيام السَّاعة، فافهموها وعوها أيُّها المسلمون!

وينبغي لأبناء الدِّين وأهل الإسلام، وأصحابِ العقلِ والمروءةِ والإيمان؛ أن لا يعطوا آذانَهم لكلِّ منافقٍ جاهلٍ كذَّابٍ مفترٍ فُوَيْسِقَةٍ رويبضة أفَّاكٍ أثيمٍ يشتري بآيات الله ثمنًا قليلًا، يبيع دينَه بعرضٍ من الدُّنيا قليل، يدعو إلى الباطل، والمنهجِ العاطلِ، ينصر الطَّاغوت، ويقعد عن الجهاد ويثبِّط عنه، يناصب المجاهدين في سبيل الله العداء، ويَقطَع معهم حبلَ الودِّ والإخاء، يدعو لمذاهبَ هدَّامةٍ كفريَّةٍ، مِن العلمانيَّة والدِّيمقراطيَّة، والوطنيَّةِ والقوميَّة، والأكثريَّةِ والحريَّة، الخارجةِ عن أمر ربِّ البريَّة، يأمر بالبدعة والشِّرك الصُّراح، ويزيِّن القوانين الوضيعةَ الوضعيَّة، ويكثِّر سوادَ الفسَّاقِ والمجرمين، وأنصار الطَّاغوت والمرتدِّين.

إذا المجدُ الرَّفيعُ تواكلتْهُ *** بناةُ السُّوءِ أوشكَ أن يَضيعَا

على انتهاك حرمات الله ما غضب أو غار، وعن أهل النِّفاق والخيانة والضَّلالِ مجادلٌ ممار، الأمَّة في وادٍ وهو في وادٍ آخر، ثبَّط وخذَّل، وسكت وداهن وحرَّف وغيَّر

وبدَّل، متقلِّبٌ متذبذب، انتكس وارتَكس وأخلد إلى الأرض واتَّبع هواه؛ فهو من قطَّاعِ الطُّرق إلى الله، هذا هو حال أكثرِ مَن تصدر في القنواتِ الفضائيَّة، والمنتديات والمنابر في الشَّبكة العنكبوتيَّة إلَّا مَن رحم ربك وسلَّم واصطفى.

تَصدَّرَ للتَّدريسِ كُلُّ مُهوَّسٍ *** بليدٍ تَسمَّى بالفقيه المدرِّسِ
فحُقَّ لأهل العلم أن يتمثَّلوا *** ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كُلِّ مجلسِ
لقد هَزُلَت حتَّى بدا من هزالِهَا *** كلاها وحتَّى سامها كلُّ مفلسِ

يتكلَّمون على أنَّهم ناصحون، ولخير الأمَّة مريدون، يُظهِرون أنفسَهم أنَّهم حماة الأمَّة وبناة صرحها، فنقول لهم: {مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ}؛ مع أنهم في الحقيقة بمعاول ضلال دعوتهم للأمة يَهدِمون، وبحديد ألسنتهم للحقِ يرومون أن يكسروا، ولعرى الدِّينِ يَقطَعون، ولأعدائها ينصرون، وعلى قتلها ودفنها يعملون ويتواطؤون، يشعرون أو لا يشعرون!

إنَّ الأفاعي وإنْ لانت ملامسها *** عند التَّقلُّب في أنيابها العَطَبُ

{يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)} [سورة آل عمران]، {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)} [سورة المنافقون].

وإذا أرادت الأمَّة أن تعرف سبب انتكاستها، واختلال أحوالها وضياع أموالها، وسقوط هيبتها، وتداعي الأمم عليها وتعدِّي كلِّ وغدٍ لئيمٍ صغير، تافه كفور حقير، مجرمٍ ظالمٍ أثيمٍ مرير؛ فلينظر لمن تسلَّم زمامَ الأمور مِن الدَّعوة والقيادة في بلدان المسلمين، فلن يجد بعد أن يقلِّب بصره إلا كلَّ طاغٍ أو زنديق أو ضالٍّ منافقٍ جهول، لاهفٍ خلف أعداء الأمَّة، ومرتمٍ في أحضان الكافرين والمنافقين.

إذا ما الجرح رُمَّ على فسادٍ *** تبيَّن فيه تَفريطُ الطَّبيبِ

لذا وجب على المتبوع أن يستبينَ رُشدَ وهدى وصوابَ من يتَّبعه؛ فقد قال -عليه السلام- في الحديث الصَّحيح الذي رواه أحمد وغيره[١]: (إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ)، وإن لم يفعلِ المرء المسلمُ طالبُ النَّجاة ذا؛ فهو لا شكَّ نادم خاسر خائب غير معذور، وعلى سعيه غيرُ مشكور، بل مذمومٌ موزور.

سبكناه ونحسبه لُجَيْنًا *** فأبدى الكِيرُ عن خَبَثِ الحديدِ

قال تعالى: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)} [سورة الأحزاب].

ولأنَّنا الآن نعيش الزَّمنَ الذي تداعت وتكالبت وتجمَّعت وتحزَّبت وتألَّبت فيه أعداءُ الأمَّةِ المُسلمةِ عليها، ينهَشون لحمَها، ويسلبون مالَها، وينهبونَ كنوزها، وينتهكون عرضها، ويغتصبون أرضها؛ فإني سائلك أنت أيُّها المسلم: أين أنت من تداعي الأمم؟! أين أنت من تداعي الأمم؟!

الكفَّار للأُمَّة يسجنون شبابَها، ويهينون شيابها، ينتقصون دينها، ويُخْرِبون دنياها، يحاربون نهضتها، ويقتلون ويطاردون الصَّادقين مِن علمائها ودعاتها وقادتها وكوادرها، يملِّكون المنافقين والطُّغاة والعملاءَ والمجرمين أمورَها، ويجعلون للماجنين من أحذيتهم وبغالهم وحميرهم زمامَ قيادتها وسياستها، فأين أنت مِن كلِّ ذا؟! وأين أنت من تداعي الأمم؟! حتَّى تغيَّرتِ الأمور، وهُتكَت السُّتور، وتمنَّى الصَّالحون أن لو كانوا في القبور، من هول ما عاينوه مِن الكفر والفجور، وتسلَّط المرتدُّون والروافض والنَّصارى واليهود والهندوس والمجوس وعبدةُ الشَّيطانِ والملاحدة والباطنيَّة، تجبَّروا وتسلَّطوا، وتعدَّوا على المستضعفين من المسلمين على ما عندهم في كلِّ ذا مِن عُجبٍ وكبرٍ وشرور، على مذهب فرعون في الغرور: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}.

وأضعنا أمجادًا عالياتٍ باسقاتٍ ساميات، ذهبت المفاخر، وصرنا بين الأمم في الصَّفِّ الآخر، والكلُّ مِنا ساخر.

---

[١] رواه البزار والطبري في تفسيره. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجال أحمد رجال الصحيح.

لم يبقَ شيءٌ من الدُّنيا بأيدينا *** إلا بقية دمعٍ في مآقينا
كنَّا قلادةَ جيدِ الدَّهر فانفرطت *** وفي يمين العلا كنَّا رياحينا
كانت منازلنا في العزِّ شامخة *** لا تُشرِق الشَّمس إلَّا في مغانينا
فلم نزلْ وصروف الدَّهر ترمقنا *** شزرًا وتخدعنا الدُّنيا وتُلهينا
حتَّى غدونا ولا جاهٌ ولا نسبٌ *** ولا صديقٌ ولا خلٌّ يواسينا

فأين أنت مِن كلِّ ذا؟! وأين أنت مِن تداعي الأمم؟!

النبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- قد نبَّأنا بهذا الزَّمان وأخبرنا عن هذه الأيَّام؛ ففي الحديث الصَّحيح الذي رواه أحمدُ في مسنده وأبو داودَ في سننه وغيرهما عن ثوبانَ مولى النبيِّ ﷺ أنَّه قال: "(يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا)، قال: قلنا: يا رسول الله، أمِن قلَّةٍ بنا يومئذ؟ قال: (أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ)، قلنا: وما الوهن؟ قال: (حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)"، وفي روايةٍ[١]: "قالوا: وما الوهنُ يا رسول الله؟ قال: (حُبُّكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمُ الْقِتَالَ)".

وحسبنا الله ونعم الوكيل في هذا الحال، وكان وبشكل خاصٍّ تحزُّب الأحزاب، وتداعي الأمم، وتجمُّع جموع الكافرين، وتكالب المنافقين، وتواطؤ المارقين، وتحالف المتحالفين، مِن يهود ونصارى ومرتدِّين ومفسدين في الأرض، ومحاربين على الخلافة الرَّاشدة والدَّولة الإسلاميَّة؛ علاوةً على مَن سار في ركابهم مِن الخونة والعملاء والمنتكسين، وأعداء الأمَّة ممَّن ينتسبون إلى الأمَّة، وينتسبون إلى الإسلام مِن صحفيِّين وكتَّاب وخطباء ودعاة وإعلاميِّين وعصرانيِّين وموظَّفين في حزب الطَّاغوت، مِن أعوانه وحشوده وجيوشه ومَن معهم ولحقهم مِن المناصرين، وكذا مَن لحقهم مِن الحمقى والجهَّال والمغفَّلين، فقل لي بربك: أين أنت من كلِّ ذا؟! وأين أنت من تداعي الأمم؟!

وإخوانٌ عهدتهُمُ دروعًا *** فكانوها ولكن للأعادي
وخِلتهُمُ سهامًا راميات *** فكانوها ولكن في فؤادي

[١] رواه أحمد. قال الأرنؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف، عبد الصمد بن حبيب ضعفه أحمد وأبو زرعة والعقيلي، وقال البخاري وأبو حاتم: لين الحديث، وقال ابن معين: لا بأس به، وأبوه مجهول.

وقالوا قد صفتْ منا قلوبٌ *** لقد صدقوا ولكنْ عن وِدادِ
أترجو بالجرادِ صلاحَ أمرٍ *** وقد طُبِع الجرادُ على الفَسادِ

وكان اجتماع كلمتهم أجمعين بشكلٍ خاصٍّ على الطَّائفة المنصورة القائمةِ بأمر الله، المجاهدةِ في سبيل الله، الحاكمةِ بما أنزل الله، العاملةِ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ الذابَّة عن محارم الله والمسلمين، والماضيةِ على ما كان عليه سلف الأمَّة والصَّحابة والتَّابعون؛ لأنَّهم ممَّن أعاد وأحيا الخلافة الرَّاشدة على منهاج النبوَّة، لأنَّهم ممَّن أقام الدَّولة الإسلاميَّة، لأنَّهم ممَّن جاهد الكفَّار والمنافقين وأغلظ عليهم، لأنَّهم هدموا الحدود والسُّدود بين أقطار وأمصار المسلمين، وكفروا بالطَّاغوت وآمنوا بالله، ووالوا المؤمنين وعادوا الكافرين، وصدعوا بالتَّوحيد وحاربوا الشِّرك والتَّنديد، وأقاموا الشَّرائع وأحيوا الشَّعائر، ولزموا السُّنن وهجروا المحدثاتِ والبدع، لأنَّهم مَن أحيا بين المسلمين مِن دين الله مَا قد مات، وأظهروا ما غاب وفات، وأصلحوا ما اعوجَّ مِن العقائد والأحوال والعبادات، وأزالوا من بينهم الخرافاتِ والخزعبلات، وكذا لأنَّهم لم يساوموا على دين الله، وأحاطوه من كلِّ جوانبه -عليهم رحمة الله- علمًا وعملًا، دعوةً وأخلاقًا، سلوكًا وحكمًا ودولة.

إنَّ الأمم اليوم قد تداعت وتحالفت، وتحزَّبت وتكاتفت، وتناصرت وتجمَّعت على حرب الخلافة الإسلاميَّة، فأين أنت من كلِّ ذا؟! فأين أنت من تداعي الأمم؟! وإن تساءلت: لماذا كلُّ هذا؟! لماذا يعادوننا ويحاربوننا ويقاتلوننا ويبغضوننا؟! لماذا يطعنون ويسبُّون ويذمُّون ويستهزئون؟! فإنَّه -معاشر المسلمين- لا بدَّ أن تعلموا أنَّه لديننا الذي نحمله ولعقيدتنا ومنهجنا، لإسلامنا وإيماننا بالله واتِّباعنا رسولَ الله ﷺ؛ فقد بيَّن الله هذا الأمر في كتابه ووضَّحه وجلَّاه، فقال -جلَّ في علاه-: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)} [سورة البقرة]، وقال: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)} [سورة البقرة]، وقال: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [سورة المائدة: ٨٢].

وأمَّا ما يريدونه من أمَّتنا ويطلبون، ويسعون إليه ويحرصون، وأموالَهم في سبيله ينفقون ويبذلون؛ فلما بيَّنه الله، قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [سورة البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)} [سورة الأنفال].

وأمَّا حال الكفَّار مع المؤمنين في حال الظُّهور عليهم وغلبتهم وقهرهم؛ فقد بيَّنه الله: {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)} [سورة الكهف]، وقال: {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)} [سورة التوبة].

قال السَّعديُّ -رحمه الله- في تأويل الآية: "فالوصفُ الذي جعلهم يعادونكم لأجله ويبغضونكم هو الإيمان، فذبُّوا عن دينكم وانصروه، واتَّخذوا مَن عاداه لكم عدوًّا، ومَن نصره لكم وليًّا، واجعلوا الحكمَ يدور معه وجودًا وعدمًا، ولا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعةً تميلون بها حيث ما مال الهوى، وتتَّبعون فيهما النفس الأمَّارة بالسُّوء"، انتهى.

لذا فإنَّ اليهود والنَّصارى والشيوعيِّين والرَّوافضَ وطواغيتَ العرب وأممَ الكفر وأئمتَه لا يحاربون المسلمين والموحِّدين والمجاهدين إلا لأجل الدِّين الذي دانوه، والعقيدةِ التي يحملونها، والتَّوحيدِ الذي يعظِّمونه، والرَّسولِ الذي يطيعونه، والكتابِ الذي يتَّبعونه، وأكبر دليل حيٍّ ومشاهدٍ على ذلك؛ استهزاؤهم بالرُّسوم المسيئة بالنبيِّ ﷺ، وكذا شق المصحف الشَّريف وإلقاؤه في أماكن القاذورات، والسَّعي لتحريف المعنى بعد عجزهم عن المبنى للقرآن الكريم، واستهزاؤهم وسخريتهم بمظاهر الشَّريعة وشرائع الإسلام مِن حجاب وإعفاء لحية وتعدُّدٍ للزَّوجات وكذا الصَّلاة والأذان ورفع الإزار عن الكعب وغير ذلك، {قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ}.

كلُّ ذلك وغيرُه وذا وذا وكذا وهكذا وصولًا إلى احتلالِ بلاد المسلمين وقتلِهم وسجنِهم وتعذيبِهم وتبديلِ هوية المسلمين ومظاهرِهم وتغييرِ شريعتِهم ونظامِهم، وتنصيبِ حكَّامٍ طواغيت مجرمين مرتدِّين يفسدون الدُّنيا والدِّين عليهم، ثمَّ بثِّ وبعثِ الجمعيَّات والقنوات التنصيريَّة بين المسلمين؛ ليبدِّلوا دينَهم ويظهروا في الأرض الفساد، وإلى الله الرُّجوع والميعاد، فأين أنت من كلِّ ذا؟! وأين أنت من تداعي الأمم؟!

كلُّ العدا قد جنَّدوا طاقاتِهمْ *** ضدَّ الهدى والنُّورِ ضدَّكِ دولتي
إسلامنا هو درعنا وسلاحنا *** ومنارنا عبر الدُّجى في الظُّلمةِ
هو بالخلافة رافعٌ أعلامَهُ *** فامشي بظلِّ لوائها يا أمَّتي
لا الغربُ يبغي عزَّنا وصلاحَنا *** كلَّا ولا شرق التَّحلُّل إنَّه كالحيَّةِ
الكلُّ يبغي ذلَّنا وهواننا *** أفغير ربي منقذٌ من شدَّةِ

كلُّ هذا وغيره وأكثر يجري على مرأى ومسمع أكثر من مليار ونصف المليار مسلم، فلا تتحرَّك الألسن، ولا تقشعرُّ الجلود، ولا تحمل الأيدي السِّلاح، وينتفض أهل الإيمان والصَّلاح، ولا تسمع منكِرًا أو متأثِّرًا أو محرِّضًا أو محذِّرًا إلا مَن رحم ربُّك وسلَّم، فمتى يستفيق أبناء أمَّتي من السُّبات؟!

حتَّى متى وإلى متى *** لا تستفيقُ من اللُّعب

متى ينتبهون من الغفلات، ويَصحُون من السَّكرات، ويستدركون ما فات، ويعيدون الأمجاد السَّالفات والحقوقَ المغتصبات والشَّرائع المضيَّعات، وتكون لهم الكلمة بين الأمم، ويعودون في الأرض السَّادات، فمتى ذلك يكون؟! {قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا}.

ومَن طلب الفتح الجليل فإنَّما *** مفاتيحُه البيضُ الخفاف الصَّوارم

إنَّه قريبٌ -إن شاء الله- إنَّه قريبٌ -إن شاء الله- بهمَّة أهل العزائم والمروءات، بالكتاب والأسنَّة الماضيات، والأفعال الجليلات والعودة إلى ربِّ البريَّات، وسلِّ السُّيوف وتجييش الزُّحوف، وشهرِ الرِّماح وحمل السِّلاح، وإعدادِ المُدَافعِ وتذخير المَدَافِعِ، ورشقِ الرَّصاص وأخذ القصاص.

وما الأسدُ الضِّرغام إلا فريسةً *** إذا لم تَطُلْ أنيابُه والأظافرُ

فلن تفنى وتنهزمَ أمَّة الإسلام، بتداعي الأممِ عليها وأكفرِ الأنام، وتجمُّع الكفَّار مِن سائر الأقطار؛ لحربها وإزالتها وإفنائها، بل لتعلوَنَّ -إن شاء الله- ولتظهرَنَّ الخلافةُ الإسلاميَّة بإذن الله، ولسوف يبقى من الأمَّة طائفةٌ منصورة ظاهرة إلى قيام السَّاعة بحول الله، وليفتحَنَّ المسلمون رومية عقر دار الصَّليب، وليقاتلُنَّ اليهودَ وليطردُنَّهم من ديار المسلمين، وليدخلُنَّ المسجدَ كما دخلوه أوَّل مرَّة، وليتبِّروا ما علوا تتبيرا، ولتنهزِمَنَّ جيوشُ الصَّليبيّين في دابق، وليكونَنَّ للمسلمين فسطاطٌ في الغوطة، ولتُفتَحَنَّ جزيرةُ العرب وفارس، ولتُملَأنَّ الأرضُ من جديد خيرًا وإسلامًا وعدلًا، كما ملئت كفرًا وجورا، وليُكسَرَنَّ بحول الله الصَّليب، وليُقتلَنَّ الخنزير، ولتُوضعَنَّ الجزية على أهل الكتاب، وليظهرَنَّ دين الله وليتمَّنَّ نوره ولو كره الكافرون، قال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)} [سور الصف].

وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بعامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بعامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا)، و(لا تزال طائفةٌ مِن أمَّتي على الحقِّ ظاهرين، لا يضرُّهم مَن خالفهم حتَّى يأتي أمر الله) [رواهما الإمام مسلم].

فقل لي بربِّك بعد كل ذا: أين أنت مِن تداعي الأمم؟! ومع كلِّ هذه الجموع والحشود والجيوش والأحزاب والدُّول والتَّحالفات، ومع ما عند أعدائنا مِن سلاح وعَددٍ وعُددٍ وإعلامٍ وآلات، وأموال وطاقات، وعملاءَ ودهاة وطائرات؛ فلا حَزنَ ولا يأسَ ولا قنوط، ولا تراجعَ ولا ضعفَ ولا ملل، ولا لينَ ولا عجزَ ولا كسل، ولا جبنَ ولا خورَ ولا فشل، ولا تلكُّؤ ولا وهنَ ولا وهل.

خلق اللهُ للحروبِ رجالًا *** ورجالًا لقصعةٍ وثريدِ

فَخُلِقْنَا رجالًا للتجلُّدِ والأسى *** ولسنا نساءً للبكا والمآتمِ

بل كرَّة بعد الفرَّة، وإقدامٌ بعد الإحجام، واقتحام ولو على الضِّرغام، وثبات حتى الممات، واستمرار حتى الانتصار، وبقاءٌ حتَّى على آخر أهل الحقِّ الفناء.

ومع كلِّ ذا وذا؛ فإنَّ مخايلَ النَّصر تلوح في الأفق، وإنَّ البِشْرَ بانت علاماتُه، وإن الصُّبح ظهرت أماراتُه، وإنَّ مع العسر يسرًا، إذا اشتدَّ الحبل انقطع، وإذا أظلم اللَّيل انقشع، وإذا ضاق الأمر اتَّسع، ولن يغلب عسرٌ يسرين، وإنَّ مع الصَّبر فرجًا، وإنَّ العاقبة للمتَّقين ولو بعد حين.

ولربَّ نازلةٍ يضيق لها الفتى *** ذرعًا وعند الله منها المَخرَجُ
ضاقت فلمَّا استحكمت حلقاتُها *** فُرِجَت وكان يخالها لا تفرجُ
***
إذا ضاق الزَّمان عليك فاصبرْ *** ولا تيأسْ من الفرج القريبِ

كم كربةٍ طرقت جُنَحَ الظَّلامِ وَما تنفَّس الصُّبحُ حتَّى فرَّجَ الله، ولكن لا بدَّ أن يعلمَ المسترشد الباحثُ عن صلاحِ ورفعةِ وعزَّةِ نفسه وأهله وأمته؛ أنَّه لا فلاح ولا نجاح إلا بالإعدادِ والجهاد والسِّلاح، ولا تحقيقَ للمراد إلا بالتَّصبُّر للجهادِ والجلاد، ولا أمنَ ولا سلامة إلا بالتَّصدِّي لعادية الأمم الكافرة ودفعها للاستقامة، وردِّ كيدها والكيدِ بها كما تكيد، فإمَّا أن تفنى هذه الأممُ أو نفنى أو يكون لنا ما نريد، وهكذا يجري ويستمرُّ ويبقى على مدار الأجيال واختلاف الأحوال في حربِ وجهادِ الكفر وأممِه أهلُ الإسلام، حتى تنزعَ عمَّا تمادت فيه هذه الأمم الكافرة، وتكونَ كسيرةً ذليلةً حقيرةً لأهل الإسلام، فلا خيار من الثَّبات على أمر جهاد الكفَّار، وقتالِ المرتدِّين والمنافقين والفجَّار، بكلِّ أنواع الجهاد ومراتبه حتَّى مِن هذه الدُّنيا نستريح، أو أمَّةَ الإسلامِ نريح، بغيَ وعدوانَ وتطاولَ وظلمَ الأممِ الكافرةِ عليها نزيح، مِن صليبيِّين ويهود وطواغيت ومرتدِّين ومنافقين ومجرمين.

إذا لم تكن إلا الأسنَّة مركبًا *** فما حيلةُ المضطرِّ إلَّا ركوبها

والدَّليل على أنَّ النَّجاة والعصمة هي بالسَّيفِ والجهادِ وحمل السِّلاحِ ما جاء في الحديث الصَّحيح الذي رواه أحمدُ وأبو داود عن سبيع بن خالد عن حذيفة قال: "كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يسألونه عن الخير وأسأله عن الشَّر، فقلتُ: يا رسول الله هل بعد هذا الخير شرٌّ كما كان قبله شرٌّ؟ قال: (نَعَمْ)، قلت: فما العصمةُ منه؟ قال: (السَّيْفُ)، قلت: ثمَّ ماذا؟ قال: (ثُمَّ تَكُونُ هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ)، قلت: ثمَّ ماذا؟ قال: (ثُمَّ تَكُونُ دُعَاةُ الضَّلَالَةِ، فَإِنْ رَأَيْتَ يَوْمَئِذٍ خَلِيفَةَ اللهِ فِي الْأَرْضِ فَالْزَمْهُ، وَإِنْ نَهَكَ جِسْمَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ)"، فلا مفرَّ من أخذ السَّيف وحمل السِّلاح وخوضِ الحروبِ والجهادِ في سبيل الله ونصرةِ الخلافة الإسلاميَّة.

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا *** وعلى الغانياتِ جرُّ الذُّيولِ

لذا فلا بدَّ لأمَّة الإسلام من الكدِّ والتَّعب والجدِّ والنَّصب، وبذلِ الجهدِ واستفراغ الوسع، وتقديمِ كلِّ حيلة وتحصيلِ كلِّ وسيلة؛ حتَّى تُدفَع عاديةُ الأمم أو نلقى الله وعُذْرُنَا إليه عَلَم، ولن يكونَ ذا إلا بجريان الدِّماء! لن يكون ذا إلا بجريان الدِّماء! وركامِ الأشلاء والضَّربةِ النَّجلاء! وجموع الشُّهداء وتحمُّل المصائبِ ومعايشة البلاء! ورفع اللِّواءِ والتَّوحيدِ والإخاءِ!

فإنَّه لا يرتقي دَرَجَ العُلَى *** مَن لا يجدُّ ويتعبُ

وقلَّ مَن جدَّ في أمرٍ يحاولهُ *** واستصحبَ الصَّبرَ إلَّا فاز بالظَّفرِ

وعليه؛ فمَن سعى رعى، ومَن جال نال، ومن جدَّ وَجَدَ، ومَن زرع حصد، ومن ثبت نبت، ومن صبر ظفر، ومن عزَّ بزَّ، ومن لم يكن له في بدايته احتراق؛ لم يكن له في نهايته إشراق، ومن جدَّ في شبابه ساد في شيخوخته.

ولم أجدِ الإنسانَ إلا ابنَ سعيهِ *** فمَن كان أسعى كان بالمجد أجدرَا

الدُّنيا تُؤخَذ غلابا، وسوق المجد مناهبة، والحياة صراع، والعلياءُ تُنَالُ بالعزائم، ومَن عنده همَّةٌ متوقِّدة ونفس متوثِّبة ونشاطٌ مغوار وصبرٌ دائم؛ فهو الظَّاهر المنصور، وإنَّ صاحبَ السِّيادة والرِّيادة يقوم بأعمال يعجز عنها الخيال، وتُظهِر عظماءَ الرِّجال، وتثير الدَّهشةَ والغرابةَ والتعجُّب في الأجيال، وأمَّا الكريم فإنَّه يأنف

الرَّزايـا ولا يتحمَّـل الـدَّنايا، إذا رِيمَ على الضَّـيم نبـا، والأبيُّ مـتى سِـيمَ الخسـفَ أبى، ووقتُ الرَّاحةِ لهُ عمل، ووقتُ العملِ له راحةٌ.

فحاولْ جَسِيمَاتِ الأمورِ ولا تقلْ *** إنَّ المحامدَ والعلى أرزاقُ
وارغبْ بنفسِك أن تكونَ مقصِّرًا *** عن غايةٍ فيها الطِّلابُ سِباقُ

ثمَّ المنيَّة ولا الدَّنيَّة، والموتُ خيرٌ مِن الذُّل، ولَأَن نذوقَ من عدوِّنا النَّارَ خيرٌ لنا مِن العار، وإمَّا أن نعيشَ على ظهر الأرض سعداءَ أعزَّاء، وإمَّا أن نكون شهداء.

وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ *** إذا ما عُدَّ مِن سَقَطِ المتاعِ

يهونُ علينا أن تُصَابَ جسومُنا *** وتَسْلَمَ أعراضٌ لنا وعقولُ

وليس أهل التَّوحيد والجهاد وأصحاب المكرُمات وأهل المروءات ممَّن ينامون على الضَّيم أو يرضون بالهوان، ثمَّ حتَّى متى نُغضِي الجفونَ على القذى، ونسحب الذُّيول على الأذى، ونقول: لعل وعسى؟!

فإنَّ الهوانَ حمارُ البيتِ يألفهُ *** والحرُّ يُنكِره والفيلُ والأسدُ
لا يقيم بدار الذُّلِّ يألفها *** إلا الذَّليلانِ: عيرُ الحيِّ والوتدُ
هذا على الخسفِ مربوطٌ برمَّتهِ *** وذا يُشَجُّ فما يرثي له أحدُ

ولا بـدَّ أن يعلم النَّـاس أنَّ سـنةَ التَّـدافعِ والتَّصـارعِ وأمرَ جهـادِ الكفَّـار وقتـالِهم هـو قـدرُ الله الـذي لا يُـرَدُّ، وسنَّته الـتي لا تتغيَّر ولا تتبـدَّل، وذلـك إلى قيـام السَّـاعة {فَلَنْ تَجِـدَ لِسُـنَّةِ اللهِ تَبْـدِيلًا وَلَنْ تَجِـدَ لِسُـنَّةِ اللهِ تَحْـوِيلًا}، فعن جـابر أنَّـه سـمع النـبيَّ ﷺ يقـول: (لَا تَـزَالُ طَائِفَـةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَـاتِلُونَ عَلَى الْحَـقِّ ظَـاهِرِينَ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ) [رواه مسلم]، وعن عـروةَ البـارقيِّ أنَّ النبي ﷺ قـال: (الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ: الأَجْرُ وَالـمَغْنَمُ) [متفق عليه].

فليستعدَّ لذا أهلُ الإسلام، ولينفضوا عنهم سلميةَ الأوهام، وليستيقظوا مِن ظنِّ محبَّة ومسالمةِ وخيرِ ورجاءِ الكفَّار وما لها مِن أحلام، وليعلموا أنَّهم إنْ بقوا نيامًا؛ سيعدو عليهم أهلُ الردَّة والكفر ولا ينفع عند ذلك ندمٌ ولا كلام.

إيهٍ بني قومي انهضوا واستيقظوا *** مِن نومكمْ كي تدرأوا الأخطارَا
وعن السَّواعد شمِّروا ولتشحذوا *** أذهانَكم وتمحِّصُوا الأفكارَا
وذروا الشِّقاقَ فإنَّه عين الرَّدى *** ولتتركوا الماضي الأليمَ يُوَارَى
أهلُ الصَّليبِ على الدِّيار توافدُوا *** عبروا إليها مضايقًا وبحارَا
أتوُا الخلافةَ بقضِّهم وقضيضِهم *** بعتادِهم واستكبروا استكبارَا
قد ساقهم نحو الدِّيارِ مطامعٌ *** ومآربٌ فتلمَّسوا الأعذارَا
فرعونُ هذا العصرِ أمريكا التي *** قد أصبحتْ في أرضنا جزَّارَا
بني الإسلام أتى العدا فلتنفرُوا *** ولتخرجوا لقتالهم ثوَّارَا
فهمُ المغولُ المحدَثون وربَّما *** فاقوا المغولَ توحُّشًا ودمارًا
يا أيُّها العُرْبُ اسمعوا ولْتَعْقِلُوا *** قولًا حكيمًا في الورى قد طارَا
إن تُسلِموا أهلَ الخلافةِ لتَسلَمُوا *** يُنشِبْ عداكمْ فيكمُ الأظفارَا

وسوف نشرعُ الآنَ ببيانٍ شافٍ كافٍ بإذن الله، نبيّن فيه كيف تُصَدُّ وتُرَدُّ وتُدفَع عاديةُ الأممِ الكافرةِ عن أمَّة الإسلام، وبما يأخذ ويستمسك أهل الإيمان، ويستعينون به على جهاد وحرب أهل العدوان والطُّغيان، والله الموفِّق والهادي إلى سواء السَّبيل، فاللَّهم لا سهلَ إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحزن إذا شئتَ سهلًا، فأعيرونا آذانكم، وهيِّئوا قلوبكم، واستجمعوا قواكم، وافتحوا أفئدتَكم، وأرخوا أذهانَكم، وبقوَّةٍ خذوا ما الله آتاكم، نوَّر الله بصيرتَكم، وألهمكم رشدكم، وجعلنا وإياكم ممَّن يستمعُ الحقَّ فيتَّبع أحسنه، اللهم آمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة الثانية



الحلقة الثانية: بالتَّوكُّل على الله واليقين؛ يُدفَع تداعي الكافرين عن أهل الإسلام والدِّين

الحمد لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعين الموحِّدين، ومبيد الطُّغاة المارقين، وناصر المستضعفين على مَن سلك سبيل المجرمين، وجعل العاقبة لهم ليكونوا هم الوارثين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له إلهُ الأوَّلين والآخرين، وأشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله مَن جاهد في الله حقَّ جهاده حتَّى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى أصحابه ناشري لواء الدِّين، وعلى مَن تبعهم واقتفى آثارهم في كلِّ وقت وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكم الله وأحياكم، وجعل الجنَّة مأوانا ومأواكم، وقوَّى تقواكم، وأعاننا على مَن عادانا وعاداكم، وذخرًا للخلافة أعدَّكم، ترفعون راياتها، وتذودون عن حياضها، وتحاربون عدوَّها، وتنصرون جنودَها، وترصُّون صفوفها، وتشيِّدون صروحها، وتضمِّدون جروحها، وعلى منهاج النبوَّة تحملونها.

ها أنا ذا أعرض بضاعتي، فإنْ وافقت قبولًا فالحمد لله، وإن وافقت ردًّا فمن نفسي والشَّيطان وأستغفر الرَّحمن، راجيًا مِن الله أن تنال هذه الكلمات القبولَ والإعجاب، وأن تكون لنا زادًا على الطَّريق، ومنارًا للسَّبيل، وحجَّة لنا لا علينا يوم اللِّقاء.

بالتَّوكل على الله واليقين؛ يُدفَع تداعي الكافرين، في ظلِّ انتشار المفاهيم الماديَّة، والحديثِ بالموازين الدُّنيوية، والتَّفكيرِ على الطَّريقة الغربيَّة، ونشوءِ أجيالٍ غُرِسَت فيها الهزيمةُ النفسيَّة، واعتادت أن تكون مجرَّدة من الإرادة والقرار والشَّخصيَّة، فضلًا عن انتزاع الهويَّة؛ ما عاد يستطيع أكثر الأمَّة أن يفكِّروا مجرَّد تفكير، أو يقعَ في خواطرِهم مجرَّد ظن أو تصوير؛ أن تكونَ الأمَّة قائدةً لا مَقُودَة، غالبةً لا مغلوبة، سيِّدةً لا مَسُودَة، منصورةً لا مهزومة، حرَّةً لا مستعبَدة، ظاهرةً لا منكسِرة! وما ذلك إلَّا لِمَا حدث مِن ذهولٍ وانبهار مِن التَّطوُّر المادِّي والتقدُّم التقني، وما حقَّقه الشَّرق

والغرب مِن النَّجاحات في عالم الصِّناعات والآلات، وما وصل إليه الصَّليبيون واليهودُ من أسلحة فتَّاكات، وارتقاءٍ ماديٍّ في كلِّ المجالات؛ حتَّى صارت أمَّتنا عالةً على غيرها، محتاجةً إلى تلك الأمم المحاربِة لها والمتداعيةِ عليها.

وكانت نتيجة هذا على عموم الأمَّة؛ أنْ ضَعُفَ اليقين، وساءت الظُّنون، وانقطع الرَّجاء، وغاب التَّوكل، وحدث التَّواكل، وظهر العجز والفشل والخور والكسل، واستسلم النَّاس للأمر الواقع، وتُرِكَت الدِّيار بَلَاقِعَ صَلَاقِعَ، واستمرأ الناس الذلَّ والهوان، وصار بنو علمان يسيطرون على الميدان، ورضي القوم بالخسف والنَّسف، وما عاد النَّاس يرون في نصرة عدوِّهم عليهم بأسًا، بل واعتادوا على أوضاع الصَّليبيين وقوانينهم، وصار جمعٌ من النَّاس أذنابًا لهم، حتَّى عمَّ اليأس الأقطار، وأكل القنوطُ القلوبَ كما تأكل الهشيمَ النَّارُ، وذا حال أكثر أهل الأمصار في هذه الأعصار، ونسأله -سبحانه- على هذه النُّفوس الانتصار.

إذا اشتملتْ على اليأسِ القلوبُ *** وضاق لما به الصَّدر الرَّحيبُ
وأوطنتِ المكارهُ واستقرَّت *** وأرستْ في أماكنِها الخطوبُ
ولم ترَ لانكشافِ الضُّر وجهًا *** ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوطٍ منك غَوثٌ *** يَمُنُّ به اللَّطيف المستجيبُ
وكل الحادثات إذا تناهت *** فموصولٌ بها فرجٌ قريبُ

فأبشروا وأمِّلوا خيرًا -عبادَ الله- ولم يقفوا عند هذا الحدِّ، بل بتنا نسمع مِن أكثرِ أمَّتنا التَّخذيل والتضليل، والبكاءَ والصُّراخَ والعويل، ولقوَّة عدوِّنا التَّهويل، ولرموزه التَّقدير والتَّبجيل، وأمَّا المجاهدون الصَّابرون في سبيل الله، العصبةُ الموحِّدة المؤمنة، والطَّائفة الظَّاهرة، والتي على أمر الله باقية؛ فما لهم عند أبناء أمَّتنا إلَّا الازدراء والتَّنقُّص والتَّقليل، وبعضهم يقول: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}، فلانتصارات أعداء الأمَّة التَّضخيم، ولانتصارات جند الخلافة التَّكتيم والتَّعتيم، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

لا تَحقِرِ المرءَ إنْ رأيتَ لهُ *** دمامةً أو رثاثةَ الحللِ
فالنَّحلُ شيءٌ على ضُؤولتِهِ *** يشتارُ منه الفتى جنى العسلِ

بـل وبعضُـهم صـار يـدعو للصُّـلح والتَّهدئـة، والتَّفـاوض والاتِّفـاق والمشـاركة، والتَّقـارب والتفهم السِّـلمي الـذَّليل مـع الغـزاة لأرضـنا المنتهكين لعرضـنا، ولبئسـتِ الدَّعوة والله!

إليكَ فإنِّي لستُ ممَّن إذا اتَّقى *** عِضاضَ الأفاعي نامَ فوقَ العقاربِ

قالوا ترفَّق في الأمورِ فإنَّه *** يُجدِي ومَرِيُّ الدُّرِّ بالإبساس
ولقد رفقتُ فما حظيتُ بطائرٍ *** ما ينفعُ الإبساسُ بالأتياس

وسبحان الله! بعضهم صار يحبُّ ظهور الكفر وأهله على الإسلام وأهله، ويتمنَّى زوال الإسلام ودولته، وانخفاض التَّوحيد ورايته، ويفرح ويشمت بأيِّ نكسة أو هزيمة أو بلاء يحلُّ بالمجاهدين!

فإنْ تسأليني كيف أنتَ فإنَّني *** صبورٌ على ريب الزَّمان صعيبُ
حريصٌ على ألَّا يُرى بي كآبةٌ *** فيشمت عادٍ أو يُساءَ حبيبُ

فـأخزاهمُ اللهُ وأبعـدهم، وأهلكهم مِن ملاعين، وليس لهـؤلاء في الإسـلام شيء؛ فهم بـذا مرتـدُّون، وهم على دين من أحبُّـوه ونصـروه، ووافقـوه وتـابعوه، وكثَّروا سـوادَه وأيَّدوه.

وَتجلُّدي للشَّامتين أُريهِمُ *** أنِّي لريب الدَّهر لا أتضعضعُ

فـهؤلاء هم المفـارقون للدِّين، الخونـة النَّـاكثون، التَّـاركون للحقِّ المبين، خلـف كلِّ طاغوتٍ كفورٍ سـائرين، {لا جَرَمَ أنَّهم في الآخرة هُمُ الأخسَرُونَ}.

أَخْلِقْ بمن رضي الخيانةَ شيمةً *** ألَّا يُرَى إلَّا صريعَ حوادثِ
ما زالتِ الأرزاءُ تُلحِقُ بؤسها *** أبدًا بغادرِ ذمَّةٍ أو ناكثِ

ولم تعِ الأمَّة بعد؛ أنَّ النَّصر والقوَّة والغلبة والظُّهور، لا تكون إلا بسلوك أمر الله في حـرب كلِّ كفـور، والأخذِ بمـا أمـر بـه؛ إذ أنَّ النَّصـر منـه، ولـو علمـوا ذلـك، وصـار عنـدهم عنـد الشَّـدائد من التَّوكل واليقين ما يكون في جهـاد عـدوِّهم ناصرًا ومعينًا؛ لما كانت كذا الأحوال، ولما حدث في صفوفنا التفرُّق والاختلاف والتَّنازع والاختلال.

فليس لنا غيرَ التَّوكُّل عِصمةٌ *** على ربِّنا إنَّ التَّوكُّل نافعُ

وعليه؛ فلا بدَّ لأجل استنهاض الهمم، لحرب كلِّ كافر مِن الأمم؛ أن نغرسَ في تربية قلوب أبناء الأمَّة من جديد التَّوكُّلَ على الله واليقينَ بموعود الله، حتَّى تقوى القلوبُ ويصلبَ العود، وها نحن ذا نرسم السَّبيل، ونقدِّم الدَّليل، ونرفع عن كل منهزمٍ حجَّة أو تعليلًا، والله الهادي إلى سواء السَّبيل.

توكَّلنا على الرَّحمن إنَّا *** وجدنا الخيرَ للمتوكِّلينا
ومن لَبِسَ التَّوكُّل لم تجدهُ *** يخاف جرائرَ المتجبِّرينَا

قال تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)} [سورة آل عمران]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)} [سورة محمد]، وقال: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)} [سورة آل عمران]، وقال تعالى: {إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)} [سورة آل عمران].

قال أبو جعفر الطَّبريُّ -رحمه الله- في تأويل الآية: "يعني -تعالى ذكره- بذلك: إنْ ينصرْكمُ اللهُ أيُّها المؤمنون بالله ورسوله على مَن ناوأكم وعاداكم مِن أعدائه والكافرين به؛ فلا غالبَ لكم مِن النَّاس، يقول: فلن يغلبكم مع نصره إيَّاكم أحدٌ ولو اجتمع عليكم مَن بين أقطارها، فلا تهابوا أعداءَ الله لقلَّةِ عددِكم وكثرةِ عددهم ما كنتم على أمره واستقمتم على طاعته وطاعة رسوله؛ فإنَّ الغلبة لكم والظَّفر، وإنْ يخذلْكم ربُّكم بخلافكم أمرَه وتركِكم طاعتَه وطاعةَ رسوله، فيكلكم إلى أنفسِكم؛ فمن ذا الَّذي ينصركم من بعده؟! فايئَسُوا مِن نصرة النَّاس؛ فإنَّكم لا تجدون ناصرًا مِن بعد خذلانِ اللهِ إيَّاكم إنْ خذلكم، ولكنْ على ربِّكم -أيها المؤمنون- فتوكَّلوا دون سائر خلقه، وبه فارضوا مِن جميع مَن دونه، ولقضائه فاستسلموا وجاهدوا فيه أعداءه؛ يكفِكم بعونه ويمددْكم بنصره"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

قال لنا المنهزمون المنتكسون الخورة العجزة الجهلة، مَن خاب عندهم الأمل، وذهب صالحُ العمل، قالوا: إنَّ العدوَّ يملك المال والسِّلاح وجيوش الرِّجال،

والحوَّاماتِ والطَّائرات، والمدرَّعات والدَّبابات، والقنابل الذَّريَّة والنوويَّة، والأسلحة الكيماويَّة، ويملكون ويملكون، وبشعوب العالم يتحكَّمون، يقتلون ويسجنون ويطردون ولا يُساءَلون، فأين أنتم تذهبون؟! وماذا أنتم تملكون؟! وماذا أنتم صانعون؟!

فقلنا لهم: نملك الإيمانَ بالله، والتَّوكُّلَ على الله، واليقينَ بموعود الله؛ {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)} [سورة التوبة]، نملكُ قولَه تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧)} [سورة الزمر].

قلنا لهم: نملك {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)} [سورة الطلاق].

وقلنا لهم: نملكُ قولَه تعالى: {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)} [سورة المائدة].

ونملك: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)} [سورة البقرة].

ونملك: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)} [سورة القصص].

ونملك: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)} [سورة آل عمران].

وصرخنا في وجوه القوم قائلين: نملك الحديثَ الصَّحيح الذي رواه أحمدُ والترمذيُّ عن عبد الله بن عباس أنَّه ركب خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال له رسول

الله ﷺ: (يَا غُلامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)، وعنه نحوه وزاد فيه: (وَاعْلَمْ: أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً).

فيا أمَّتي ما خاب مَن *** بزمام خالقِه اعتصم
ما كان ربُّك غافلًا *** وهو الحكيمُ المنتقم
لو شاء دمَّر مَن طغى *** لو شاء أهلك مَن ظلم
فرعون أهلكه ولم *** يعجزْه عادٌ أو إرم

وإنَّ الله أهلك على أيدي الصَّالحين وعبادِه المتَّقين مَن كان أعظمَ من الشَّرق والغرب قوَّة وأكثرَ أموالًا وأولادًا ورجالًا شدادًا وأبعدَ طولةً ومدادًا وأعظم كبرياءً وإعدادًا، فصاروا بإذنه حُطامًا ورمادًا، {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)} [سورة الأعراف].

وليكنْ في علمك -أيُّها الموحد- أنَّ هذه المعركة معركة العقيدة التي لا يثبت فيها إلا المستيقنُ بموعود الله، المتوكِّلُ على الله المتقوِّي به الملتجئ إليه، مَن اطمأنَّت نفسه إلى ربِّه، واشتاقت وتاقت إلى لقائه، وأَنِست بجنبه واستعانت به وافتقرت إليه، وواظبت على دعائه وداومت على خوفه ومحبَّته ورجائه، وكانت في سعيها تبغي رضاه ومثوبتَه، وصبرت وصمَّمت وعزمت، وما تراخت أو استكانت أو ضَعُفَت أو تقهقرت، وبالصَّبر واليقين تُنَال الإمامة في الدِّين؛ قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)} [سورة السجدة].

ففي التَّوكُّل على الله قوَّة وعزَّة وأمن وسكينة وعزيمة وطمأنينة، والتوكُّل على الله يعني تفويضَ الأمر إليه والاعتمادَ عليه والثِّقة به وعدم الرُّكونِ إلى الأسباب

الدُّنيويَّةِ، والغفلةِ عن خالقها ومدبِّرها الَّذي يمنح القوَّة والعون، والذي بيده الضُّر والنفع والعطاء والمنع.

وهذه صور وعِبَر، ندرك بها بحول الله الوطر، ونكون بعرضها ممَّن لصرح الحقّ أعلى وعمَر، وَلَهِيَ أشدُّ -والله- تأثيرًا في قلوب الصَّادقين من وخز الإبر، أبثُّها لمن حضر مِن تاريخِ مَن غبر، أكون بإيرادها ممَّن صان وجبر لكلِّ قلب مرتاب إلى النِّفاق عَبَر، وتحدَّثْ به لَمَن تحبُّ بالسمر على طلعة القمر؛ فهي أحلى في قلوب الصَّادقين من شمِّ الزَّهر، راجيًا منه أن ينفع بذا جمعًا من البشر، وينجِّيهم به من جهنَّم وسقر، وهو المرجوُّ بعد ذا أن يكون لنا ممَّن عفا وغفر، فاللَّهمَّ عفوًا عفوًا، واللَّهم لطفًا لطفًا.

قال تعالى: {وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)} [سورة هود].

فهذه صور وعبر في التَّوكل واليقين، صورة في توكُّل موسى ومَن معه في حرب فرعونَ الذي ربُّ العزَّة في اليمِّ أهلكه.

قال تعالى: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)} [سورة يونس].

فلمَّا أخلصوا توكُّلهم على الله أتاهم موعود الله بالمدد والنُّصرة والعون والتأييد، فكانت النَّتيجة كما حكاها ربُّ العزَّة في كتابه: {فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُون (٦١) قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِين (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِين (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم (٦٨)} [سورة الشعراء].

قال ابن كثير في تفسير الآيات: "ذكر غيرُ واحد من المفسِّرين أنَّ فرعونَ خرج في جحفلٍ عظيم وجمعٍ كبير، وهو عبارة عن مملكة الدِّيار المصريَّة في زمانه أُولي الحلِّ

والعقد والدَّولة مِن الأمراء والوزراء والكبراء والرُّؤساء والجنود، رأى كلٌّ من الفريقين صاحبه؛ فعند ذلك قال أصحاب موسى: {إِنَّا لَمُدْرَكُون}، وذلك أنَّه انتهى بهم السَّير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم فصار أمامَهم البحرُ، وفرعونُ قد أدركهم بجنوده؛ فلهذا قالوا: {إِنَّا لَمُدْرَكُون}، قال: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}، أي: لا يصل إليكم شيء ممَّا تحذرون؛ فإنَّ الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ها هنا بكم، ولا يخلف الميعاد، وقد ذكر غير واحد من المفسِّرين أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشعُ بن نون أو مؤمنُ آل فرعون يقول لموسى -عليه السلام-: يا نبيَّ الله، ها هنا أمرك الله أن تسير؟! فيقول: نعم.

واقترب فرعون وجنوده، ولم يبقَ إلا القليل، فأوحى الله إلى موسى أنِ اضربْ بعصاك البحر، فضربه موسى بعصاه فانفلق، فكان فيه اثنا عشر طريقًا، لكلِّ سبطٍ طريقٌ يتراءون، فلمَّا خرج أصحاب موسى وتتامَّ أصحاب فرعون؛ التقى البحر عليهم فأغرقهم، ثمَّ قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً} [سورة الشعراء: ٦٧] أي: في هذه القصَّة وما فيها من العجائب والنَّصر والتَّأييد لعباد الله المؤمنين لَدلالةٌ وحجَّة قاطعة وحكمة بالغة".

فها هو موسى -عليه السَّلام- البحرُ مِن أمامه، وفرعون وجيشه مِن خلفه، وقومه يائسون خائفون وجلون، قد ساءت منهم الظُّنون، فلم ييأس ولم يجزع أو يقنط، ولم يضعف أو يرتَبْ أو يتردَّد، ولم يَخِرْ عزمه ولم ينقطع يقينه أو ينطفئْ إيمانه؛ لذا لم يخب توكُّله على الله والتجاؤه إليه؛ فنصر الله موسى بالعصا، وأهلك فرعونَ الذي طغى.

عن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ وكان من أصحاب النبي ﷺ أخبر أنَّه غزا مع رسول الله ﷺ غزوةً قِبَلَ نجد، فلمَّا قفلَ رسول الله ﷺ قفل معهم، فأدركتهم القائلةُ يومًا في وادٍ كثيرِ العِضَا، فنزل النبي ﷺ وتفرَّق الناس في العضا يستظلُّون بالشَّجر، ونزل رسول الله ﷺ يستظلُّ تحت ظل شجرة، فعلَّق بها سيفه، وقال جابر: "فنمنا بها نومة، ثمَّ إنَّ النبي ﷺ يدعونا فأتينا، فإذا عنده أعرابيٌّ جالس، فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ هَذا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وهو فِي يَدِهِ صَلْتًا) فقال: من

يمنعك منِّي؟ فقلت: (اللَّهُ)، فقال: مَن يمنعك منِّي؟ فقلت: (اللَّهُ)، فشام سيفَه وجلس، فلم يعاقبه النبيُّ ﷺ وقد فعل ذلك"، متفق عليه.

وفي رواية أبي بكر الإسماعيليّ في صحيحه[١] قال: "مَن يمنعك منِّي؟ قال: (اللَّهُ)، فسقط السَّيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السَّيف فقال: (مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟) فقال: كنْ خيرَ آخذ، كنْ خير آخذ، فقال: (تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ) قال: لا، ولكنِّي أعاهدك ألَّا أقاتلك، وألَّا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلَّى سبيله ﷺ، فأتى أصحابَه فقال: جئتكم من عند خير النَّاس".

وفائدة هذا الحديث بيان شجاعة النَّبي ﷺ وحسن توكُّله على الله وصدق يقينه بالله.

قال تعالى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [سورة الطلاق: ٣] فهو حسبه: أي كافيه.

قال سعيد بن جبير: "التَّوكُّل جماع الإيمان"، وقال يوسف بن أسباط:"كان يقال: اعملْ عملَ رجل لا ينجِّيه إلا عمله، وتوكَّل توكُّلَ رجلٍ لا يصيبه إلَّا ما كُتِب له".

توكّل على الرحمن في كل حاجة *** أردتَّ فإنَّ اللهَ يقضي ويقدرُ
متى ما يُرِدْ ذو العرش أمرًا بعبده *** يصبْه وما للعبد ما يتخيرُ
وقد يهلك الإنسانُ مِن باب أمنِه *** وينجو لَعمرُ اللهِ من حيث يَحذَرُ

روى البخاريُّ عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيمُ ﷺ حين ألقي في النَّار، وقالها محمَّد ﷺ حين قالوا: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)} [سورة آل عمران]".

فانظر -رحمة الله عليك- كيف أنَّ الخليلَ إبراهيم عندما قال: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}؛ قال الله -عز وجل-: {يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)} [سورة الأنبياء].

[١] قال الحافظ العراقي: مُتَّفق عَلَيْهِ من حَدِيث جَابر بِنَحْوِهِ وَهُوَ فِي مُسْند أَحْمد أقرب إِلَى اللَّفْظ المُصَنّف.

توكَّل على الله العظيمِ جلالُه *** وسلِّم إليه الأمرَ تسلمْ وتغنمِ
ألم تكن الأسبابُ مخلوقةً لهُ *** وهل خالقٌ غير العليمِ المعظَّمِ

وفي الحديث المتَّفق عليه، عن أبي بكر الصِّديق -رضي الله عنه- قال: "نظرتُ إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله، لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: (ما ظَنُّكَ يا أَبا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثالِثُهُما؟!)"، ففي هذا الحديث تنبيه على أنَّ من توكَّل على الله كفاه، ونصره وآواه، وأعانه وكلأه وحفظه.

توجَّه إلى مولاك وارضَ بفصلِهِ *** توكَّل على الرَّحمن في الأمر كلِّهِ
ألا كلُّ مقدور يكون بعلمهِ *** فكن رجلًا للحقِّ مِن أهل فهمهِ
وسلِّم إليه الأمرَ تحظَ بفضلهِ *** وكن واثقًا بالله واصبرْ لحكمهِ

التَّوكُّل على الله وحسن الظَّن بالله يذهب الهمَّ والحزن، ويقوِّي الهمَّة ولا يضعفها، ويشجِّع على العمل، ولا يؤدِّي إلى الكسل؛ ففي المستدرك للحاكم -وفي إسناده مقال[١]-: عن ابن عباس قال: إنَّ رسول الله ﷺ قد قال: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ).

وإنَّ العبد حينما يتوكَّل على الله ويفوِّض الأمر إليه؛ يشعر بأنَّه يأوي إلى ركن شديد، فلا يخشى أيَّ طاغٍ حديد، إنَّ التَّوكُّل واليقين يورث طمأنينةَ النَّفسِ وارتياحَ القلب وسكونه، وكفاية الله للمتوكِّل في جميع شؤونه، ويورث القلب قوَّة وشجاعة وثباتًا وتحديًّا للأعداء، ويورث الصَّبر والتَّحمُّل والرِّضا بالقضاء، وكذا عدم اليأس والتَّشاؤم، روى ابن أبي الدُّنيا عن الحسن قال: "مِن علامات المسلم قوَّةٌ في دين، وحزمٌ في لين، وإيمانٌ في يقين".

وعند البخاريِّ عن ابن عبَّاس قال: "أوَّل ما اتَّخذ النِّساء المنطقَ مِن قبل أم إسماعيل، اتَّخذت منطقًا لتُعفي أثرَها على سارة، ثمَّ جاء بها إبراهيم وابنها إسماعيل وهي تُرضِع، حتَّى وضعها عند البيت وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندها جرابًا فيه تمر وسقاءً فيه ماء، ثمَّ قفا إبراهيم، فاتَّبعته أمُّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهبُ وتتركنا بهذا الوادي الَّذي ليس به أنيس ولا

[١] تعقب الذَّهَبِيّ الحاكم فِي مُخْتَصره فَقَالَ: هِشَام بن زِيَاد مَتْرُوك. قال العقيلي في الضعفاء: ليس لهذا الحديث طريق يثبت.

شيء! فقالتْ له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفتُ إليها، فقالتْ له: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيِّعنا"، وفي رواية ابن جُرَيجٍ قالت: "حسبي"، وفي رواية كثيرٍ قالت: "رضيتُ باللّهِ، فلا إله إلّا الله"، وبعد ذلك كان أنِ انطلق إبراهيم، وعطش إسماعيل بعد ذلك عطشًا شديدًا، وأقامت هاجر تتردَّد بين الصَّفا والمروة، إلى أن صعدت عليها سبع مرَّات، لعلَّها تجد شيئًا، ثمَّ أتته وهو يفحص برجليه فنبعتْ زمزم.

فانظروا -رحمكم الله- كيف أنَّ امرأة ضعيفة وحيدة، معها رضيعها بوادٍ غير ذي زرع، ولا ماء ولا ضرع، ولا أنيس ولا جليس، ولا طعام ولا شراب غير سقاء وجراب، ولا مصباحٍ ولا حارس، ولا حامٍ ولا فارس؛ تتوكَّل على الله، وتؤمن بموعوده، وتتيقَّن من نصرته ومعونته، فيُغيثُها ربُّها وينجِّيها، ويبارك في مساعيها، فيتفجَّر ماء زمزم لتشربَ منه أممٌ بعدها، ولتكونَ آيةً للنَّاس وعبرة، ومن يتوكَّل على الله فهو حسبه، وكافيه وشافيه ومُعطِيه ومنقذه ومُرضِيه.

لا تجزعنَّ متى اتَّكلتَ على الَّذي *** ما زال مبتدئًا يجودُ ويَفضُلُ
ولقد يريح أخو التَّوكُّل نفسَهُ *** إنَّ المريح لعمرك المتوكِّلُ

قال سيِّد قطب -رحمه الله- في ظلال القرآن: "وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانيَّة الله، وإخلاص العبادة له دون سواه، والَّذين يجدون في قلوبهم الاتِّكال على أحد أو على سبب؛ يجب أن يبحثوا ابتداءً في قلوبهم عن الإيمان بالله، وليس الاتِّكال على الله وحدَه بمانع من اتِّخاذ الأسباب، فالمؤمن يتَّخذ الأسباب مِن باب الإيمان بالله وطاعته فيما أمر به مِن اتِّخاذها، ولكنَّه لا يجعل الأسباب هي الَّتي تُنشِئ النَّتائج فيتَّكل عليها، إنَّ الَّذي ينشئ النَّتائج كما ينشئ الأسباب هو قدر الله، ولا علاقة بين السَّبب والنتيجة في شعور المؤمن، اتخاذ السَّبب عبادة بالطَّاعة، وتحقيق النَّتيجة قدر من الله مستقلٌّ عن السَّبب لا يقدر عليه إلَّا الله، وبذلك يتحرَّر شعور المؤمن من التَّعبد للأسباب والتعلُّق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته؛ لينال ثوابَ الله تعالى في استيفائها".

وتابع سيِّدٌ قائلًا: "ومتى تخلَّص القلبُ مِن ضغط الأسباب الظَّاهرة لم يعدْ هناك محلٌّ فيه للتَّوكُّل على غير الله ابتداءً، وقدرُ اللهِ هو الَّذي يُحدِث كلَّ ما يَحدُث، وهو

وحدَه الحقيقة المستيقَنة، وهذه هي النَّقلة الضَّخمة التي ينقلها الاعتقاد الإسلامي للقلب البشري وللعقل البشريِّ أيضًا، النَّقلة التي تخبَّطت الجاهليَّة الحديثة ثلاثة قرون، وما يمكن أن يتحرَّر الإنسان أصلًا إذا بقي عبدًا للأسباب الحتميَّة وما وراءها من عبوديَّته لإرادةِ النَّاس، فكلُّ حتميَّة غير إرادة الله وقدره هي قاعدة لعبوديَّة غيرِ الله وقدرِه، ومِن ثَمَّ هذا التَّوكيد على التَّوكُّل على الله وحدَه؛ لاعتباره شرطًا بوجود الإيمان أو عدمه، والتَّصوُّر الاعتقاديُّ كلٌّ متكاملٌ مع الصُّورة الواقعيَّة التي يريدها هذا الدِّين لحياة النَّاس"، انتهى.

فتوكَّلوا على الله عبادَ الله، وفوِّضوا أمركم إليه، وثقوا بوعد الله، وكونوا على يقين أنَّ الله لا يضيع حزبه المؤمنين، ولا يخيِّب عباده المجاهدين، ولن يظهر عليهم الكافرين، فيستأصلونهم أجمعين.

فقد قال: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)} [سورة الروم]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)} [سورة المجادلة]، وقال: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)} [سورة غافر]، وقوله تعالى: {فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤)} [سورة إبراهيم].

قال الطَّبري في تأويل الآية: "أي: هذا فعلي لمن خاف مقامَه بين يدي، وخاف وعيدي فاتَّقاني بطاعته، وتجنَّب سُخطِي؛ أنصره على مَن أراد به سوءًا وبغاه مكروها مِن أعدائي، أهلك عدوَّه وأخزيه، وأورثه أرضَه وديارَه".

قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُون (١٧٣)} [سورة الصافات].

قال الشَّوكاني -رحمه الله- في فتح القدير: "فهذا الوعد لهم بالنَّصر والغلبة لا ينافيه انهزام في بعض المواطن وغلبة الكفَّار عليهم؛ فإنَّ الغالب في كلِّ موطن هو انتصارهم على الأعداء وغلبتُهم لهم، فخرج الكلام مخرج الغالب، على أنَّ العاقبة

المحمودة لهم على كلِّ حال وفي كلِّ موطن، كما قال سبحانه: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)} [سورة القصص]".

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)} [سورة الروم].

وبعد كلِّ ذا؛ فلو سعى المرء وجدَّ واجتهد في أمره دون توكُّلٍ على الله والتجاءٍ إليه وطلبِ توفيقه ومعونته؛ فإنَّ الله يكله إلى نفسه ويتخلَّى عن معونته ونصرته، ومن تخلَّى الله عنه ووكله إلى نفسه خاب وخسر، وسقط وكُسِر، وضاع وقُهِر، وحزن وأُسِر.

إذا لم يكن عونٌ مِن اللهِ للفتى *** فأوَّل ما يجني عليه اجتهادُهُ
إذا كان غيرُ الله للمرء عدَّةً *** أتته الرَّزايا مِن وجوه الفوائدِ

قال تعالى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)} [سورة هود].

يمينًا قطعناه منذ الأزل *** بألَّا نهون وألَّا نُذَل
وألّا نطأطئ هاماتِنا *** لشيءٍ سوى اللهِ مهما حصل
وما حلَّ في دارنا عُنوَةً *** سفيه مِن النَّاس إلَّا سُحِل
فنحن الضَّراغم في غابها *** ونحن بنو الفاتحين الأُوَل
ولسنا نملُّ إذا سُعِّرت *** مقارعة الشُّوسِ حتَّى تَمَل
ولسنا نهابُ لدى الحربِ أن *** نموتَ فكم من عظيمٍ قُتِل
فما أيس القلبُ إلَّا سلى *** ولا دهك الحزمُ إلَّا سَهُل
وصيد المحارم حالٌ إذا *** كففتَ ثيابَك خوف البلل
وما طلب الخلد مِن صادقٍ *** وسار على الدَّرب إلَّا وصل
بنو الصَّيد نحن وهل يرتضي *** سليل الملوك حياةَ الخول
جراح الجسوم لها طبُّها *** وجرح الكرامة لا يندمل
إلهَ الخليقةِ أنت الذي *** يُؤمَّل في كلِّ خطبٍ جلل
قد انتفش الكفر مستكبرًا *** وأنت الكبير الأعزُّ الأجل
ومَن ليس يغلبه غالبٌ *** ومَن لا يَرُدُّ ظليمًا سأل
كفرنا بمجلس حيفٍ وإنْ *** تستَّر زورًا بزين الخُلل
أيوصف بالعدلِ في حكمهِ *** وعن كل خطَّة عَدْلٍ عَدَل

وفي كلّ ظلم له سهمه *** وعن كلِّ مظلمة قد غفل
عرفناه حربًا على ديننا *** وسلمًا لما دونه مِن ملل
فليس سوى اللهِ مِن كاشفٍ *** لضرٍّ بساحاتنا قد نزل
وما خاب من يشتكي ضرَّهُ *** إلى اللهِ حين تضيقُ السُّبل
فهيِّئ لنا رشدَنا ربَّنا *** فبالأمس كنَّا ولمَّا نزل
نكابد نارَينِ أذكاهما *** عدوٌّ طغى وقريبٌ خذل
رويدكَ يا أيُّها المعتدي *** فعينَك بالنَّصر لن تكتحل
أغرَّك هذا العتاد الَّذي *** جمعت وأقسمت ألَّا يُفل
وأنَّا قليلٌ وأعداؤنا *** كثيرٌ وإخواننا في شُغُل
فإمَّا نكوننَّ في قلَّة *** ففي القادسيَّة كنَّا أقل
إذا فَتَنَ التِّبر حر اللَّظى *** أُبِينَ الرَّديءُ وبان الزَّغل
توكَّلتَ أنت على آلةٍ *** ونحن على ربِّنا نتَّكل
وما كان ربُّ الورى مسلمًا *** فريقًا هدى لفريقٍ أضل

وما كان ربُّك مسلمًا فريقًا هدى لفريقٍ أضلَّ، والحمد لله ربِّ العالمين.

شحذ الهمم لدفع عادية الأمم

الحلقة الثالثة



الحلقة الثالثة: بتحريض المؤمنين على القتال؛ تدفع عادية أهل الكفر والصِّيال

الحمد لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعين الموحِّدين، ومبيد الطُّغاة المارقين، وناصر المستضعفين على من سلك سبيل المجرمين، وجعل العاقبة لهم ليكونوا همُ الوارثين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأوَّلين والآخرين، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله مَن جاهد في الله حقَّ جهاده حتى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ناشري لواء الدِّين، وعلى مَن تبعهم واقتفى آثارَهم في كل وقت وحين، ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين؛

حياكم الله وأحياكم، وجعل الجنَّة مأوانا ومأواكم، وقوَّى تقواكم، وأعاننا على مَن عادانا وعاداكم، وذخرًا للخلافة أعدَّكم، ترفعون راياتِها، وتذودون عن حياضها، وتحاربون عدوَّها، وتنصرون جنودَها، ترصُّون صفوفَها، وتشيِّدون صروحها، وتضمِّدون جروحها، وعلى منهاج النبوَّة تحملونها؛ ها أنا ذا أعرضُ بضاعتي فإنْ وافقت قبولًا فالحمد لله، وإنْ وافقت ردًّا فمن نفسي والشَّيطان، وأستغفرُ الرَّحمن، راجيًا من الله أن تنالَ هذه الكلمات القبول والإعجاب، وأن تكون لنا زادًا على الطِّريق ومنارًا للسَّبيل وحجَّة لنا لا علينا يوم اللِّقاء، بتحريض المؤمنين على القتال؛ تدفع عادية أهل الكفر والصِّيال.

في ظلِّ الحملات المستعرة على الأمَّة الإسلاميَّة لتخديرِها، وتقعيدها وتنقيصها، وتقعيسها وتدنيسها، بالدَّعواتِ المنتشراتِ على القنوات والصُّحف والإذاعات، نحو الاشتغال بالأمر الخسيس دون الرَّئيس، والطَّالح دون الصَّالح، والكاسد دون الرَّائج، والبائد دون القائد، والدَّاني دون العالي، والبالي دون الغالي؛ عملوا بعد ذلك جاهدين على تخذيل الأمَّة عن القيام بشريعتها وجهاد عدوِّها، وتضليلِها في حكم جهاد الطَّواغيت المتحكِّمين فيها، ولَيِّ أعناق الحقِّ لتطويعه للباطل، وإظهار الصَّالحين المجاهدين الموحِّدين سادةِ النَّاس وأصحاب الباس، وحدِّث عن البحر ولا حرج؛ فهم لا عيب فيهم غير أنَّ سيوفَهم بهنَّ فلولٌ مِن قراعِ الكتائبِ! يظهرون المجاهدين الكرام

الصَّالحين بمظهر الطَّالحين، والمخرّبين والضَّالين، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله ربِّ العالمين.

إذا رضيتْ عنّي كرامُ عشيرتي *** فلا زالَ غضبانًا عليَّ لئامُها

وعمل الطَّواغيتُ وأحبار السُّوء وكلُّ منافقٍ عليم اللِّسان من الدُّعاة إلى أبواب جهنَّم، ومَن لحقهم مِن المنافقين كتَّابًا وصحفيّين ومثقّفين ومفكِّرين -كذا زاعمين-، ومَن تربَّى على مذهبِ الطَّاغوت مِن بني علمان، ومَن لحقهم مِن الغلمان، ممَّن بالت عليهم الثَّعالب، ولازمتْهم شرُّ المعايب والمثالب؛ عملوا بما يملكون من المِذياع والصَّحيفة والقناة والمنبر والمنتدى على الذَّم والطَّعن والتَّشويه في المجاهدين، خاصَّة جندَ الخلافة الميامين، ورافق ذلك كلَّه الكذبُ والافتراء والبهتان والمراء، فلم يلقِ لهم الموحّد المجاهد بالًا، لأنَّه شرب مِن نبع الكتاب والسُّنة زلالًا، وعلا على كلِّ ما افتروه وقالَ:

أنا اللَّيثُ إبنُ اللَّيثِ في حومة الوغى *** فإنْ كنتَ ممَّن ينبحُ اللَّيثَ فانبحِ!

وقد اعتدنا وأَلِفْنَا مِن المنافقين والضَّالين المجرمين الطَّعنَ بعباد الله المجاهدين والتعدّي على أعراض الصَّالحين

تعوَّدتُ مسَّ الضُّر حتَّى ألفتُه *** وأسلمني طولُ البلاءِ إلى الصَّبْرِ
ووسَّع صدري للأذى كثرةُ الأذى *** وكان قديمًا قد يضيقُ به صدري

ثمَّ بعد ذلك قاموا بالتَّثبيط عن القيام بواجب الوقت مِن جهاد الكفرة والمرتدّين، وتحرير بلاد المسلمين، وتحكيم شريعةِ الله ربِّ العالمين، وإحياءِ وتجديدِ ما اندرس مِن شعائرِ وشرائعِ الدِّين، فأخذوا يشنُّون الحربَ الإعلاميَّة الكلاميَّة الهجوميَّة، مستصحبين معهم الطِّغامَ اللِّئام، ويرافقهم الأقزام وأحفاد بلعام، يرومون علوًّا في الأرض وفسادًا، فوقف كبيرُ المجرمين بلسان حاله قائلًا: {يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}، وبعد أن أنهى مقولتَه صفَّق له النَّاسُ مؤيّدين مهنّئين: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤)} [سورة الزخرف].

ولو كان سهمًا واحدًا لاتَّقيتُهُ *** ولكنَّه سهمٌ وثانٍ وثالثُ

وقد شرب الناسُ سمَّهم، وراج -وللأسف- سوقُهم، المنفَّق بالحلفِ الكاذب وحيلِ الثَّعالب، فثبَّطوا وخذَّلوا، وضلَّلوا وبدَّلوا، وكسَّلوا وتململوا، وصرخوا وولولوا.

نحن ساعدنا الأعادي *** بالتَّواني والرُّقاد
لو رأوا صفًّا قويًّا *** مستعدًّا للجهاد
لأنابوا واستجابوا *** ثمَّ ثابوا للرَّشاد
غير أنَّ الضَّعف يغري *** كلَّ عادٍ بالتَّماد

ومِن الخيرِ أقحلوا، والقعودَ عن الجهاد حلَّلوا، ثمَّ بأعدائهم توسَّلوا، وإلى قاتلهم الهدايا أرسلوا، وفي الدِّفاع عن الكفَّار استبسلوا، وكلَّ طاغوت مرتدٍّ كفور سوَّدوا وأمَّلوا، زاعمين بأنَّهم بذا قد اجتهدوا وتأوَّلوا، ومَن استرعى الذِّئبَ ظلم!

ولستُ كمن يرضى بما غيره الرِّضا *** ويمسحُ وجه الذِّئبِ والذئبُ آكلُه

***

وكم مِن عدوٍّ قد أعنتم عليكمُ *** بمالٍ وسلطانٍ إذا أسلمَ الحَبْل
كذي الكلبِ لمَّا أسلم الكلبُ نابهُ *** بإحدى الدَّواهي حين فارقه الهَزْل

وما لأمَّة الإسلام وللخمول والكسل! ولكنَّ أعداء الأمَّة أرادوا بدعوتها للخمول أن تبقى في الهوان!

إذا شئتم دعة وخفضًا *** فعيشوا في البريَّة خاملينا
ولا يعقدْ لكم أملٌ بعالٍ *** وبيتوا للمهينِ آملينا

ثم قعد الطَّواغيتُ وأذنابُهم وكلابُهم لكلِّ مَن يفكِّر القيام بالجهاد على الطَّريق، يرومون قطعَه، وعلى ما عزم منعَه، فإن فشلوا كان هدفهم قتلَه وجرحَه أو طردَه وحبسَه، {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)} [سورة الأنفال].

كلُّ ذلك حتَّى لا يفتحَ الباب، وعلى الجهاد يُقدِمِ الشَّباب، لذلك أكثروا في أهل الجهاد الطَّعنَ والسِّباب؛ لتكون ساحة المجاهدين خرابًا، وحتَّى يقولَ قائد اليهودِ وسيِّد الصليبيينَ عن حوضِ أمَّتنا إذا ورده: "وقد وردتُ وحوضُها يباب، كأنَّها ليس لها

أرباب!"، فافهموها يا أولي الأحلام والألباب، وأبلغوها الأهلَ والأصحاب، وحذِّروهم من العملاء والأذناب، ويا ليت قومي يعلمون!

ومن رعى غنمًا في أرض مَسْبَعَةٍ *** ونام عنها تولَّى رعيَها الأسدُ

وقد سلك الطَّواغيتُ قبلَ طريقِ العنفِ اللِّينَ، وقبلَ التَّرهيبِ التَّرغيبَ، بالمالِ والجاهِ والمُغريَات وكلِّ ما هو للنَّفس حبيب، لعلَّهم يزيغون قلوبَ المجاهدين، فإن لم يكن فلأجل الإيقاع بهم والكمنِ لهم وتخطُّفِهم بالحيل، والأيَّام دول.

يقولون أهلًا وسهلًا ومرحبًا *** ولو ظفروا بي ساعةً قتلوني!

ولكن أنَّى لليهودِ والصَّليبيِّين والرَّوافضِ والمرتدِّين والطَّواغيتِ والمنافقين والباطنيَّةِ والمجرمين، وإذا ذكرتُ الذِّئبَ فأعدَّ له العصا، فأنَّى لهؤلاء أن يتمَّ لهم مرادُهم! وأن تُحقَّقَ لهم غاياتُهم؛ فإنَّ الله لهم بالحرب والمرصاد، قال تعالى: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦)} [سورة النحل].

ولأنَّنا أخبرُ بحيل الطَّاغوت وأعرف، وقد تطاول على حربنا زمانًا وأسرف، وبهَجْونا سفسف، وعن إنصافنا أجحف.

فلا تبعثنَّ إلى ربيعةَ غيرُها *** إنَّ الحديدَ بغيره لا يفلحُ

فلا بدَّ من دفع الحافلة وقيادة القافلة، بالتَّحريض على حرب الأمم المعتدية السَّافلة، حتى تُسلِمَ أو تصيرَ زائلة، وسوف نداوي جُرُعَاتِ التَّكسير والتَّخدير والتَّنويم التي سُقِي بها أبناءُ أمَّتِنا بجرعاتٍ مضادَّةٍ من التَّحريض والتَّحضيض والتَّرغيب والحثِّ والتَّهييج والاستنهاض، فكما يتواصون بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله؛ فإنَّه يجب علينا أن نتواصى بالحقِّ والصَّبر، وذلك بالدَّعوة إلى اليقين والتَّوكل والهمَّة والعزَّة والعزيمة، والغيرة والصَّبر والثَّبات والشَّجاعة والإقدام، والصِّدق والإخلاص والإعداد والاستعداد، والشِّدَّةِ والإغلاظِ والإثخانِ وتحريضِ المؤمنين.

إذا جاء موسى وألقى العصا *** فقد بَطُل السِّحرُ والسَّاحرُ

فبتحريض المؤمنين على القتال؛ تُدفَع عادية أهل الكفر والصِّيال.

التَّحريض ما التَّحريض! وما أدراك ما التَّحريض! إنَّه مأخوذٌ مِن حرَّض يحرِّضُ تحريضًا فهو مُحَرِّض، والمفعول مُحَرَّض، وحرَّضه على الأمر: حضَّه وشدَّد الرَّغبةَ فيه، وحرَّض: أغرى وهيَّج، وحثَّ على فعل الشَّيْءِ ولزومِه، والتَّحريض ترغيبٌ في الفعل بما يبعث على المبادرةِ إليه مع الصَّبر عليه، وتأويل التَّحريض في اللُّغة: هو أن تحثَّ الإنسانَ حثًّا يعلم معه أنَّه حارضٌ إنْ تخلَّف عنه، والحارض: هو الَّذي قد قارب الهلاك.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} [سورة الأنفال].

قال السَّعديُّ -رحمه الله-: "يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: أي: حُثَّهم وأنهضْهم إليه بكلِّ ما يقوِّي عزائمَهم، وينشِّط هممَهم مِن التَّرغيبِ في الجهاد ومقارعةِ الأعداء، والتَّرهيبِ من ضدِّ ذلك، وهذا يشمل كلَّ أمر يَحصُل به نشاطُ المؤمنين وقوَّةُ قلوبِهم، مِن تقويتِهم والإخبارِ بضعفِ الأعداءِ وفشلِهم، وبما أُعِدَّ للمقاتلين مِن الثَّوابِ وما على المتخلِّفينَ مِن العقاب، فهذا وأمثالُه كلُّه يدخل في التَّحريض على القتال"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وقال تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (٨٤)} [سورة النساء]، أي: بتحريضك إيَّاهم على القتال تنبعثُ هممُهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله ومقاومتهم ومصابرتهم.

قال القرطبيُّ -رحمه الله-: "ولهذا ينبغي لكلِّ مؤمن أن يجاهد ولو وحده، ومن ذلك قول النبي ﷺ: (والله لَأُقَاتِلَنَّهُمْ حَتَّى تنفَرِدَ سَالِفَتِي)[١]، وقول أبي بكر وقتَ الرِّدَّة: لو خالفتْني يميني لجاهدتُهم بشمالي"، انتهى.

يقول سيِّدٌ في الظِّلال: "وتوحي الآيةُ بأنَّ الصَّفَّ كان بحاجة إلى جهود ضخمة مِن التَّربيةِ والتَّوجيه، ومِن الاستنهاضِ والتَّشجيع، لينهضَ بالمهمَّة الضَّخمة الملقاةِ على

---

[١] رواه البخاري.

عاتق الجماعة المسلمة، والارتفاع إلى مستوى هذه المهمَّة، سواءً في التصوُّرات الاعتقاديَّة أو في خوض المعركة مع المعسكرات المعادية"، انتهى.

لذا فإنَّنا لا بدَّ لنا مِن الامتثال لأمر المتعالي في التَّحريض على القتال؛ لأنَّ الجهاد واجب الجماعة والأمَّة كلها، فلا قيام للجهاد بلا جماعة وأمَّة مِن النَّاس تحمله وتدعو إليه، ولا بدَّ للقائمين بالجهاد أن يحرِّضوا المؤمنين وأبناءَ الأمَّة؛ لأنَّهم أهلُه والقائمون به، ولأنَّهم أكثرُ الناس معرفةً لقدره، ولذا وجب علينا تجاه أبناء أمَّتنا التي تكالبت عليها الأمم أن ندعوهم ونحرِّضهم ونحثَّهم، ونرغبهم ونرشدهم، وندلَّهم ونعلِّمهم، ونحثَّهم ونخوِّفهم، ونحذِّرهم وننذرهم مِن ترك الجهادِ والقعودِ عن الجلاد، وما يلحق العبد مِن نكال إذا ترك القتال؛ لأنَّه بالقعود والخمول والتَّباطؤ والكسلِ والجبنِ والخورِ والفشلِ يقع الوجل، ويعمُّ في الأطراف الخلل، وتكون الأمَّة -كما هو حالها الآن- في خطل.

ألف مليون أصبحوا كغثاء بشطِّ يم *** ومصلى نبيهم بيد اليهود يُقتسَم
لذا أقسمتُ بالذي برأ الكونَ مِن عدم *** ورمى تارك الجهاد بسَيلٍ مِن النِّقم
وكسى ثوب عزَّة كلَّ مَن بالخلافة اعتصم *** إنْ قنعنا بذلِّنا وركنَّا إلى النِّعم
فخطى الخصمِ ماضياتٌ مِن القدسِ للحرم *** عندها يندم الجميع ولا ينفع النَّدم

وإلى الله المشتكى!

وإنَّ الله -عز وجل- حرَّض في كتابه على الجهاد أيَّما تحريض، ورغَّب به أيَّما ترغيب، وحذَّر مِن تركه أيَّما تحذير، ووعد مَن قام به وتوعَّد مَن تركه، ورفع شأن المجاهد على غيره في الدُّنيا والآخرة.

فمن ذلك أنَّه قال: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ

الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)} [سورة النساء].

ووبَّخ سبحانه القاعدين عن الجهاد، وتوعَّد المتقاعسين بالعذاب الشَّديد المهين، فقال: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)} [سورة التوبة].

قال سيِّد في الظِّلال: "هؤلاء الَّذين أدركتْهم ثِقلَة الأرض، ثِقلَة الحرص على الرَّاحة والشُّح بالنَّفقة، وقعد بهم ضعف الهمَّةِ وهزال النَّخوة وخواء القلب مِن الإيمان، هؤلاء المخلَّفون فرحوا بالسَّلامة والرَّاحة، وتركوا المجاهدين يلاقون الحرَّ والجهد، وحسبوا أنَّ السَّلامة غايةٌ يحرص عليها الرِّجال، وقالوا: {لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ} وهي قولة المسترخي النَّاعم الذي لا يَصلُح لشيءٍ ممَّا يَصلُح له الرِّجال، إنَّ هؤلاء لَهُمْ نموذجٌ لضعفِ الهمَّة وطراوةِ الإرادة، وكثيرون هم الذين يُشفِقون مِن المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الرَّاحة الرَّخيصة على الكدح الكريم، ويفضِّلون السَّلامة الذَّليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون إعياءً خلف الصُّفوف الجادَّة الزَّاحفة العارفةِ بتكاليفِ الدَّعوات، ولكن هذه الصُّفوف تظلُّ في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك؛ لأنَّها تدرك بفطرتها أنَّ كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنَّه ألذُّ وأجمل مِن القعود والتخلُّف والرَّاحة البليدة التي لا تليق بالرِّجال؛ لذا فإنَّ الرَّاحة لا تليق بالرِّجال".

وعليه فقلْ يا أخا الإسلام:

أنا عائدٌ أقسمتُ أنِّي عائدُ *** والحقُّ يشهدُ لي ونعم الشَّاهدُ
ومعي الرَّشاش والكتابُ الخالدُ *** وتقودُني الخلافةُ نعم القائدُ

وقال سيّد في ظلالِ قوله تعالى: {لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)} [سورة التوبة]:

"وهذه هي القاعدة الَّتي لا تُخطِئ: فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء؛ لا ينتظرون أن يُؤذَن لهم في أداء فريضة الجهاد، ولا يتلكَّأون في تلبية داعي النُّفرةِ في سبيل الله بالأموال والأرواح، بل يسارعون إليها خفافًا وثِقالًا كما أمرهم الله تعالى؛ طاعةً لأمره ويقينًا بلقائه وثقةً بجزائه وابتغاءً لرضاه، وأنَّهم ليتطوَّعون تطوُّعًا، فلا يحتاجون إلى مَن يستحثُّهم فضلًا عن الإذن لهم، إنَّما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبُهم مِن اليقين، فهم يتلكَّأون ويتلمَّسون المعاذير، لعلَّ عائقًا مِن العوائقِ يحول بينهم وبين النُّهوضِ بتكاليفِ العقيدة الَّتي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويتردَّدون - إلى أن قال- إنَّ الدَّعوات في حاجة إلى طبائعَ صلبةٍ مستقيمةٍ ثابتةٍ مصممةٍ، تصمد في الكفاح الطَّويل الشَّاق، والصَّفُّ الذي يتخلَّلُه الضِّعاف المسترخون لا يصمد؛ لأنَّهم يخذلونهم في ساعة الشدَّة، فيشيعون فيه الخذلانَ والضَّعف والاضطراب، فالذين يضعفون ويتخلَّفون يجب نبذُهم بعيدًا عن الصفِّ، وقايةً له مِن التَّخلخل والهزيمة، إنَّ التَّسامح مع الذين يتخلَّفون عن الصَّف في ساعة الشدَّة ثمَّ يعودون إليه في ساعة الرَّخاء جنايةٌ على الصفِّ كلِّه، وعلى الدَّعوةِ التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير، فهي تقرِّر أصلًا مِن أصول التَّقدير في نظام الجماعة المكافِحة في سبيل العقيدة، وهو عدم التَّسامح في منح مظاهرِ التَّكريم لمن يؤثرون الرَّاحة المسترخية على الكفاح الشَّاق، وعدم المجاملة في تقدير منازل الأفراد في الصَّف، ومقياس هذا التَّقدير هو الصَّبر والثَّبات والقوَّة والإصرار والعزيمة التي لا تسترخي ولا تلين"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

لذا فإنَّني أكاد أقسم أنَّنا لو إلى حياض الجهاد نعود، وتركنا الخلافة القائمة لنا تقود؛ فلسوف نحطِّم بحول الله ما بين أقطارِنا وأمصارِنا مِن حدود، ونطرد من ديارنا اليهود، ونعيد أمجاد الجدود، ونرغم أنف كلِّ حقود حسود عدوٍّ لدود، وتقبِّل لنا الأممُ الكافرةُ الأيدي والخدود، مكان أن تصنع بنا صناعةَ أهلِ الأخدود.

إن قالتْ حيَّ على الجهاد تُجِبْها صيحاتُ الدِّماء *** لو كنت في أشلاء ممزَّقة بأمحاء الفضاء
لم آلُ جهدًا في كفاحِ مُناصِب الدِّين العداء *** سنشنُّها حربًا ضروسًا في ثباتٍ وإباء
لتهبَّ في الدُّنيا العريضة ريحُ شِرْعتِنا رُخَاء *** فالموت أحلى مِن حياة كحياةِ الجبناء

والله أكبر ما ألذَّ الموتَ في ظلِّ اللِّواء!

روى أحمدُ في مسنده وأبو داودَ في سننه بإسناد صحيح عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: (لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ، جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ، وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا صَنَعَ اللهُ لَنَا، لِئَلا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلا يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ)، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلاءِ الْآيَاتِ عَلَى رَسُولِهِ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)} [سورة آل عمران].

فهذا الخبر مِن أحسنِ ما رُوِي في الحثِّ والترغيب بالجهادِ والشَّهادة، وبيانِ فضل الشُّهداء وما هم فيه من علاء، وكرامة الله وما هم فيه في الجنَّة من سخاء.

ومِن أعظمِ ما جاء في التَّحذير مِن تركِ الجهاد والتَّرهيب منه وعقوبةِ صاحبِه منه قوله تعالى: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)} [سورة آل عمران].

قال ابن كثير: "يعني بذلك أصحابَ عبدِ الله بن أبيِّ بن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطَّريق، فاتَّبعهم مَن اتَّبعهم مِن المؤمنين يحرِّضونهم على الإيابِ والقتالِ والمساعدة".

قال الشَّوكاني في فتح القدير: "قاتلوا في سبيل الله إنْ كنتم ممَّن يؤمن بالله واليومِ الآخر، أو ادفعوا عن أنفسكم إنْ كنتم لا تؤمنون بالله واليومِ الآخر، فأبوا

جميعَ ذلك وقالوا: لو نعلم أنَّه سيكون قتالٌ لاتَّبعناكم وقاتلنا معكم، ولكنَّه لا قتالَ هنالك.

وقيل: المعنى؛ لو كنَّا نقدر على القتال ونُحسِنه لاتَّبعناكم، ولكنَّا لا نقدر على ذلك ولا نُحسِنه.

وقيل: معناه؛ لو نعلم ما يصح أن يسمَّى قتالًا لاتَّبعناكم، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال، ولكنَّه إلقاء النَّفس إلى التَّهلكة؛ لعدم القدرة منَّا ومنكم على دفع ما ورد مِن الجيش والبروزِ إليهم، والخروجِ مِن المدينة.

وفي تأويل قوله تعالى: {أَوِ ادْفَعُوا}؛ قيل: معنى الدَّفع هنا تكثير سواد المسلمين، وقيل: معناه رَابِطُوا.

وقوله: {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ}؛ أي: هم في هذا اليوم الذي انخذلوا فيه عن المؤمنين إلى الكفر أقربُ منهم إلى الإيمان عند مَن كان يظنُّ أنَّهم مسلمون؛ لأنَّهم قد بيَّنوا حالهم، وهتكوا أستارَهم، وكشفوا عن نفاقهم إذْ ذاك"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وهذه الآيات دليلٌ على أنَّ العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر، فإذا كان هذا الوعيد الشَّديد والتَّعظيم والتَّهديد فقط لمن ترك وقعةً واحدةً -يا عباد الله- مِن دون عذرٍ شرعيٍّ وسببٍ مرعيٍّ؛ حتى بلغ الأمر ووصل إلى أن يُرمَوا بالنِّفاق ويكونَ صاحبُه للكفرِ أقرب منه للإيمان، ويعزَّر ويوبَّخ وبالعار يلطَّخ؛ فقولوا لي بربِّكم: كيف بمن ترك الجهاد جملةً؟! بل كيف بمن ترك دفع الصَّائل؟! بل كيف بمن هو قاعد وخَاذِل، وعلى أعراض المجاهدين يُطاوِل؟! بل قولوا لي بربِّكم: كيف بمن صار مع الكافر الصَّائل؟! وعلى أعراضِ وأنفسِ أهل الإسلام يُحاوِل؟! وأمَّا هذا فلا شكَّ في نفاقه وكفره، نسأل الله العافية والسَّلامة.

ونكتفي مِن القلادة ما أحاط بالعُنُق؛ فإنَّ الله رغَّب في الجهاد والقتال، وحضَّ عليه وحرَّض بعشرات الآيات، وما ذلك إلا ليقرِّر في نفوس أمَّةِ القرآنِ شرفَ الجهاد

والذَّب عن الدِّين والقتالَ دون حوزة المسلمين، ولكن وللأسف فقد رغب المسلمون عن كل ذا إلا النَّزر اليسير؛ لذا صار الحال عسيرًا، وقلَّ النَّصير، وإلى الله المصير.

أنرتضي العيشَ والإسلامُ في قَفَصٍ *** تُنمَى له تهمُ الإرهابِ توهينًا
وكيف نُمضِي نهارَ العمرِ في لعبٍ *** والدِّينُ تغتاله سبعونَ سكِّينَا
وكم لنا مِن بلادٍ تشتكي وهنًا *** نصدُّ عنها كأنْ ليستْ تنادينَا
تلكم مآسٍ وآلامٌ مبرحة *** فمن لنا في مآسينا يُواسِينا
ما بالنا نُغمِض الأجفانَ في دعةٍ *** ونحن ذوو عزمٍ أبيّينَا
كنَّا إذا ما دعا داعي الجهادِ بنا *** رأيتَ أفواجَنا جمعًا ملبِّينَا
بالبيضِ لامعةً بالخيل صاهلةً *** ليلًا وهاجرةً لله ساعينَا
كانت تدين لنا الغبراءُ قاطبةً *** الرُّومُ والفرسُ بالأموالِ تجزينَا
كنَّا الأساطينَ نسقي العينَ صافيةً *** واليومَ نُسقَى بأكوابِ الأسى طينًا
ليس العجيبُ بأن نشري مذلَّتَنا *** وإنَّما العجبُ أنَّ الذلَّ يشرينا!
أنطلب العزَّ من علجٍ وطاغيةٍ *** ما العزُّ حقًّا سوى أن نحفظ الدِّينَا
تمسَّكوا بكتاب الله واعتصموا *** فهو المعزُّ وللأمجادِ يُعلِينَا
يا أمَّتي ربَّما تخبو منائرُنا *** لكنَّ نور الخلافةِ لا ينطفي فينَا

وأمَّا تحريض النَّبي -عليه الصلاة والسلام- بقوله وترغيبه بالجهاد وترهيبه من تركه؛ فكثيرٌ جدًّا لا أحصيه، ومنه قوله: (لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا؛ فإنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ)، متفق عليه.

وفي مسندِ أحمدَ بإسناد صحيح[١] عن عبادةَ بنِ الصَّامت قال: قال رسول الله ﷺ: (جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يُنَجِّي اللهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ).

وفي صحيح مسلم[٢] عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قالوا: يا رسول الله، أخبرنا بعملٍ يعدل الجهاد في سبيل الله، قال: (لَا تُطِيقُونَهُ) مرَّتين أو ثلاثًا، قالوا: أخبرنا

١ قال الأرنؤوط: حسن بمجموع طرقه، وهذا إسناد ضعيف، أبو بكر بن عبد الله ضعيف، والمقدام بن معدي كرب كذا جاء مسمّى في هذا الحديث باسم الصحابي، وهو خطأ، والصواب أنه مقدام الرُّهاوي فهو الذي يروي عن عبادة كما في "تاريخ البخاري" ٧/٤٢٩ و"الجرح والتعديل" ٨/٣٠٢، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً.

٢ هذا لفظ رواية الإمام أحمد ورواه مسلم بنحوه.

فلعلَّنا نطيقه، قال: (مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ إِلَى أَهْلِهِ).

وفيه عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال -حثًّا وترغيبًا-: (لَا يَجْتَمِعُ كَافِرٌ وَقَاتِلُهُ فِي النَّارِ أَبَدًا)[١].

وفيه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: (لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ)[٢].

وفي الجهاد لابن أبي عاصم بإسناده عن أبي فاطمة أنَّه قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل أستقيم عليه وأعمله، قال: (عَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ).

وأمَّا في التَّحذير والتَّخويف مِن ترك الجهاد، والتَّشديد والتَّرهيب مِن النُّكول عن القتال؛ فكثيرٌ؛ ومنه ما روى ابن ماجه في سننه بإسناد جيّد عن أبي أمامةَ عن النَّبي ﷺ قال: (مَنْ لَمْ يَغْزُ أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا، أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ، أَصَابَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، نسأل الله العافية والسَّلامة.

وفيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ لَقِيَ اللَّهَ وَلَيْسَ لَهُ أَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَقِيَ اللَّهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ)[٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ).

فلا إله إلا الله! ما أعظمَ هذا الكلام! وما أشدَّه في قلوب الصَّادقين مِن أهل الإسلام! فكيف بعد كل هذا يقعد الصَّادق الموحِّد، أو يستريح أخو المروءة، أو يغفل صاحب الصَّلاح؟! لا والله، ما يقعد عن الجهاد ويترك الجلاد مِن قادرٍ في حاضرٍ أو

---

[١] رواه مسلم.

[٢] رواه مسلم.

[٣] رواه ابن ماجه والترمذي والحاكم. قال الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف أبي رافع إسماعيل بن رافع.

بادٍ إلا وفيه شعبةُ نفاقٍ وارتياب، وقد وقفت قدمَاه في الفسقِ على المحراب، وخلع الحقَّ والصَّواب، كيف سيكون يوم السُّؤال الجواب؟!

ولقد علَّمتنا ساحاتُ الجهاد أنَّ كثيرًا مِن النَّاس ما يرغب عن الجهاد إلا خوفًا مِن المشقَّة والتَّعب والنَّصب وبذل العرق والدَّم؛ زهدًا في الأجر، وضيقًا في الصَّدر، وضعفًا في الصَّبر، وظنُّوا أنَّ الصَّبر على هذه المشاقِّ تُورِثُ المهالك، وما علموا أنَّها تفتح الممالك.

اصبر على مضض الإدلاجِ في السَّحَرِ *** وفي الرَّواح إلى الحاجاتِ والبِكَرِ
لا تضجرنَّ ولا تَدخُلْكَ مَعجَزةٌ *** فالنُّجحُ يُتلَف بين العجز والضَّجرِ
وقلَّ من جدَّ في أمرٍ يطالبهُ *** واستصحبَ الصَّبر إلا فاز بالظَّفَرِ

و يا عبادَ الله، يا معاشرَ المسلمين؛ لا بدَّ أن تدركوا جيِّدًا وتعلموا أنَّ الجهاد بابٌ مِن أبواب الجنَّة، فمَن تركه رغبةً عنه؛ ألبسه الله ثوب الذُّل، وشَمِلَه البلاء، ولزمه الصَّغار، وسِيمَ الخسف، ومُنِع النَّصف، ألا وإنِّي قد دعوتُ أمَّتي إلى قتالِ هؤلاء القومِ ليلًا ونهارًا وسرًّا وإعلانًا، وقلتُ لهم: اغزوهم قبل أن يغزوكم؛ فوالله، ما غُزِي قومٌ قطُّ في عقر دارهم إلا ذُلُّوا!

فتواكَلوا وتخاذَلوا، وثَقُلَ عليهم قولي، واتَّخذوه وراءهم ظهريًّا؛ حتى شُنَّت عليهم الغارات، وحامت في سمائهم الطَّائرات، ورمتهم المدفعيَّات، وهزَّتهم الرَّاجمات، فلم يتحرَّكْ مِن أهل النَّخوة والمروءة والإيمان إلا ثلَّة مِن الموحِّدين الشُّبان، ممَّن تشتكي ثغورُ المسلمين إلى الله مِن قلَّتهم وخذلانِ أمَّتهم، وما ضرَّهم -والله- ذلك! ما ضرَّ جندَ الخلافة أتباعَ الرُّسل وأحفادَ الصَّحابة أن يكونوا هم الرَّاحلةَ بين النَّاس؛ فالنَّاس كإبل مئة لا تكادُ تجدُ فيها راحلة، ولا ضرَّ الكرام أنَّهم كالغرَّة في الفرس بين اللِّئام.

وقد قال الله: {وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ} [سورة ص: ٢٤]، وقال: {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠)} [سورة هود]، وقال: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ (٨٣)} [سورة البقرة].

ما أكثرَ النَّاسِ لا بل مَا أقلَّهُمُ *** واللهُ يعلمُ أنِّي لم أقل فنَدًا
إنِّي لَأُغلِقُ عيني ثمَّ أفتحها *** على كثيرٍ ولكن ما أرى أحدًا

{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)} [سورة يوسف]، فلا مرحبًا بكثرة هذه الوجوه التي لا تُرى إلَّا في شرٍّ.

تعيّرنا أنَّا قليلٌ عديدُنا *** فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قليلُ
وما قلَّ مَن كانت بقاياه مثلنا *** شبابٌ تسامى للعُلا وكُهُولُ
وما ضرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا *** عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ
ونحن أناسٌ لا نرى القتلَ سُبَّةً *** إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ
يقصِّر حبُّ الموتِ آجالًا لنا *** وتكرهه آجالُهُم فتطولُ

فاللهَ اللهَ عباد الله؛ اتَّقوا الله، وانظروا في أمر الضُّعفاء، وأحوال الفقراء، وآلام السُّجناء، ومطاردة الصَّالحين والعلماء، وعموم البلاء، وتسلُّط الأعداء، وذلِّ الكرماء، وما في كلِّ صقع وبلدةٍ مِن بيتِ عزاء، وتتابع الصَّالحين على الموتِ والفناء.

فاغضَبوا لله ودينه؛ فإنَّ هذا الأمر إذا تفاقم؛ تعدَّى ضعفاءنا إلى أقويائنا، وبطل رأيُ كبرائنا في تدبيرِ صغرائنا؛ لذا فإنَّ لكم في القصاص حياة، والقتلُ أنفى للقتل.

لا يَسلَم الشَّرفُ الرَّفيعُ مِن الأذى *** حتَّى يُرَاقَ على جوانبه الدَّمُ

وإنَّ التَّدارك واجب، وهو الإسلام إن لم نذبَّ عنه غلب الكفرُ وعلا أهله، وهو الأمن والسُّكون إن لم يُحفَظا فهو الخوف والبلاء، وذهاب الحرث والنَّسل وفضيحة الولد والأهل، وهتك الأعراض وانتشار الأمراض، واختلال الأحوال وسلب الأموال، وإلى الله المشتكى على كلِّ حال!

يا بني الإسلامِ حُقَّ النَّفير لكم *** إلى الجهادِ فما في الحقّ مِن غلطِ
فالشِّرك من كلِّ الجنباتِ جاوركم *** مِن بعدِ ما سلَّم أهل الدِّين بالشَّططِ
فلا يغرَّنَّكم مِن لينِ جانبه *** ما عادَ قبلُ على الإسلامِ بالسَّخطِ
وأنتمُ القصدُ لا تبقُنَّ في دعةٍ *** إنَّ السُّكونَ إلى الأعدا مِن السَّقطِ
مَن جاور الشَّرَّ لا يعدمْ بوائقَه *** كيف الحياةُ مع الحيَّاتِ في سقطِ

عن ابنِ عمرَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (لَئِنْ تَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ، وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، لَيُلْزِمَنَّكُمُ اللهُ مَذَلَّةً فِي رِقَابِكُمْ، لَا تَنْفَكُّ عَنْكُمْ حَتَّى تَتُوبُوا إِلَى اللهِ وَتَرْجِعُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ) [رواه أحمد][١].

فإلى الله المشتكى في ما عمَّ أمتَنا مِن مذلَّةٍ بتركها الجهاد، والنُّكولِ عن الجلاد.

يا قومي أليس منكم رجلٌ رشيد، يسمع الخطاب، فيلتزم الصَّواب، ثم يدعو الأهلَ والعشيرةَ والأصحاب، ثمَّ يحرِّضهم ويحرِّضهم على دفع أممِ الكفر الذِّئاب، ويأمرهم أن يكسروا منهم كلَّ مخلب وناب، ويقدِّم في سبيلِ إقامةِ دين الله الرُّوحَ والأموالَ والأثواب؛ رجاء الثَّواب فيحشر في الجنَّة مع الأحباب، ويريح الأرضَ مِن أهل الكفرِ والعهرِ الكلاب، ويكون بين الورى عزيزًا سيِّدًا مهابًا؟! أترك لكم الجواب.

أروني أمَّةً بلغت مناها *** بغير العلمِ أو حدِّ اليمانِ

فمن شاءَ فليمسكْ ومن شاء فليدعْ *** ومَن شاء فليحملْ ومَن شاء فليضعْ

ولا تكونوا كالمنخل يُمسِك النُّخالة ويرسل الطَّحين، ولا تطرحوا هذا الدُّرَّ تحت أرجل الأنعام بل ممَّن هو أضلُّ، ثمَّ ما على الرَّسول إلا البلاغ، وكلٌّ يعمل على شاكلته.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)} [سورة الأنفال].

عن عروة بن الزُّبير قال: "أي: استجيبوا للحرب التي أعزَّكم الله تعالى بها بعد الذُّل، وقوَّاكم بها بعد الضَّعف، ومنعكم مِن عدوِّكم بعد القهر منهم لكم".

وأمَّا مَن استجاب لأمر الله وأمرِ رسوله ﷺ مِن أبناء الخلافة الرَّاشدة وجنود الدَّولة الإسلاميَّة -بارك الله فيهم-: سمعًا وطاعةً لله ورسوله، واستجابةً لله بالجهاد في سبيله، وعملًا بدينه، وشدَّةً على أعدائه؛ فبارك الله فيهم، وثبَّتهم وفتح عليهم،

---

[١] قال الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف أبي جَنَاب.

وألحق بهم كلَّ صالحٍ مِن المسلمين؛ فإنَّ جهادهم -والله- قد جدَّد لنا الماضي، وأحيا في نفوسنا الذِّكريات.

لكلِّ امرئ مِن دهره ما تعوَّدَا *** وعاداتُ سيفِ الدَّولةِ الطَّعنُ في العدَا

وهم -والله- أهل الجهاد والجلاد والثَّباتِ والرِّباط، يكثرون عند الفزع، ويقلُّون عند الطَّمع، ثبَّتهم الله وأعانهم وفتح عليهم، فالحقوا بهم معاشرَ المسلمين، واركضوا إليهم صادقين، وكونوا على فعالهم سائرين.

بنو الخلافة يوم اللِّقاء كأنَّهم *** أسودٌ لها في غيلِ خفَّانَ أشْبُلُ
همُ المانعونَ الجارَ حتَّى كأنَّما *** لجارهم بين السِّماكَين منزلُ
بَهَالِيلُ في الإسلامِ سادوا ولم يكن *** كأوَّلِهم في الجاهليَّةِ أوَّلُ
همُ القومُ إنْ قالوا أصابوا وإن دُعُوا *** أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيعُ الفاعلون فعالَهمْ *** وإنْ أحسنوا في النَّائباتِ وأجملوا

قال صاحب الظِّلال: "وليستِ الحياةُ لهوًا ولعبًا، وليستِ الحياةُ أكلًا كما تأكل الأنعام ومتاعًا، وليستِ الحياةُ سلامةً ذليلةً وراحةً بليدةً ورضا بالسِّلم الرَّخيصة، إنَّما الحياةُ هذه كفاحٌ في سبيل الحقِّ، وجهادٌ في سبيل الخير، وانتصارٌ لإعلاء كلمة الله أو استشهادٌ كذلك في سبيل الله، ثمَّ الجنَّة والرِّضوان، هذه هي الحياة التي يُدعَى إليها المؤمنون بالله، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}، وصدق اللهُ وصدق رسول الله"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وما كلُّ هذا التَّحريض والحثِّ والتَّحضيض إلا غيرة عليكِ أمَّتي، وحبٌّ لكِ وإشفاقٌ ممَّا نزل بكِ وألمَّ بكِ وآذاكِ، وشحذٌ ورفعٌ لهممِ أبنائكِ، وإعذارٌ إلى الله ومِن ثمَّ للمؤمنين، ومن حذَّر فما قصَّر، ومن أنذر فقد أعذر، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ.

أغاروا على أمَّتي أن تتيه *** بصوت التَّحالف في العيلمِ
وتقعد صمَّاءَ مهزومةً *** وتطربها لغةُ الأبكمِ
وتُشغِلها سفسفاتُ الأمور *** عن الفرضِ الواجبِ الأقدمِ
وتَدفِن آمالَها بالتُّراب *** وتمسي وتصبح في مأتمِ

تناشدُ أبناءَها عروة *** مِن الدِّين والحقِّ لم تُفصَمِ
وترجو لعلَّاتِها مرهمًا *** وليس غير الجهاد مِن مرهمِ
أخي لا تَلنْ فالأُلَى قدوةٌ *** لمثلي ومثلِك في المأزمِ
لهم قدرهم باعتبار الرِّجال *** وسمعتُهم في ذرى الأنجُمِ
تقدَّم فأنت الأبيُّ الشُّجاع *** ولا تهيَّب ولا تُحجِمِ
عليك بهدي الرَّسول الكريم *** ومنهاج الخلافةِ المحكمِ
تحرَّك فأنت العزيز الكريم *** ولو أثَّر القيدُ في المِعصَمِ
فلا تتنازلْ ولا تنحرفْ *** ولا تتشاءمْ ولا تسأمِ
ولا تك مِن معشرٍ جبان *** يخاف طائرةَ التَّحالفِ المُجرِمِ
ولا تك مِن معشرٍ منافقٍ *** يرتابُ عند تكالبِ الأممِ
ولا تك مِن معشرٍ تافهٍ *** يقيسُ السَّعادةَ بالدِّرهمِ
يعيش وليس له غايةٌ *** سوى مشربٍ وسوى مطعمِ

والحمد لله ربِّ العالمين.

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة الرابعة



الحلقة الرابعة

الحمد لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعين الموحِّدين، ومبيد الطُّغاة والمارقين، وناصر المستضعفين على من سلك سبيل المجرمين، وجعل العاقبة لهم ليكونوا هم الوارثين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأوَّلين والآخرين، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله مَن جاهد في الله حقَّ جهاده حتَّى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ناشري لواء الدِّين، وعلى مَن تبعهم واقتفى آثارَهم في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكم الله وأحياكم، وجعل الجنَّة مأوانا ومأواكم، وقوَّى تقواكم، وأحسن أعمالَكم، وأعاننا على مَن عادانا وعاداكم، وذخرًا للخلافة أعدَّكم، ترفعون راياتها، وتذودون عن حياضها، وتحاربون عدوَّها، وتنصرون جنودَها، ترصُّون صفوفَها، وتشيِّدون صروحَها، وتضمِّدون جروحَها، وعلى منهاج النُّبوَّة تحملونها.

ها أنا ذا أعرضُ بضاعتي، فإنْ وافقتْ قبولًا فالحمد لله، وإن وافقت ردًّا فمن نفسي والشَّيطان وأستغفر الرَّحمن، راجيًا مِن الله أن تنال هذه الكلمات القبولَ والإعجاب، وأن تكون لنا زادًا على الطَّريق، ومنارًا للسَّبيل، وحجَّة لنا لا علينا يوم اللِّقاء.

إنْ تجدْ عيبًا فسدَّ الخللَ *** جلَّ مَن لا عيبَ فيه وعلا

ما زلنا معكم -معاشرَ المسلمين- في الحديث الطَّيب الكريم، الذي فاح منه النَّسيم، بقولِ الله الحكيم، ونصحِ النَّبيِّ الحريص الرَّؤوف الرَّحيم، وسوف نستعرض معكم جملةً من الصُّور والمواقف والعبر في تحريض الرُّسلِ الأبرار، والصَّحابةِ الأخيار، حماة الدِّين والدَّار؛ لتكونَ مصابيحَ لنا في دياجير الظُّلمة التي نعيشها، ومنارات للحقِّ قلَّ مثالُها، ومواقفَ في الثَّبات والصَّلابة والتَّحريض قلَّ رجالُها، واندثر أبطالُها، وعظُم عند المجاهدين فعالُها.

إذا المرءُ لم يستأنفِ المجدَ نفسه *** فلا خيرَ فيما أورثتْه جدودُه

واللهَ أسأل أن يلهمَنا السَّداد، وأن يجعلَنا ممَّن بالحقِّ دعا ونادى، وأن يجعل هذه الكلمات ذخرًا لنا يوم الميعاد، وهو حسبنا نعم المعطي والهادي.

أروني أمَّةً بلغتْ مناها *** بغير العلمِ أو حدِّ اليمانِ

فلا سيادةَ لأمَّة القرآن وعزًّا لها بين الأنام إلَّا بالعمل به، وتحكيمِه والدَّعوةِ إليه، والجهادِ في سبيل حمايته ونشرِه والإيمان به، والصَّبر على الجهاد به، {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)} [سورة الفرقان].

قال السَّعدي: "أي: لا تُبقِ مِن مجهودك في نصرةِ الحقِّ وقمعِ الباطل إلَّا بذلتَه ولو رأيتَ منهم مِن التَّكذيب والجرأة ما رأيت؛ فابذل جهدَك واستفرغْ وسعَك، ولا تيأسْ مِن هدايتهم ولا تتركْ إبلاغَهم لأهوائهم"، انتهى.

فاركبْ -أيها المسلم- معنا في الحافلة، وأدركْ نفسَك قبل فواتِ القافلة، ودافعْ وقاتلِ الأممَ الكافرةَ الغافلة، وأدِّبهم بالحجَّة والقرآن، وإلَّا فبالرَّشاش الذي يُظهِر البرهان، ويعلي لنا المكان، ويحفظ بيضتنا على طول الزَّمان.

ابنِ صرحَ المجدِ عن أُسِّ الضَّحايا *** وأَشِدْ عرشَ العُلَا رغم البلايا
خضْ غمارَ الهولِ غوصًا إنَّما *** لؤلؤ التِّيجانِ في بحر المنايا
إنَّما الدُّنيا جهادٌ مَن ينمْ *** يومَه داسته أقدامُ الرَّزايا

فقل لي بربِّك: أين مِن ذا موقعُكَ الآن؟! وفي أيِّ مكان؟!

ولا تكُ ممَّن يُغلِق الهمُّ بابَهُ *** عليهِ بمِغلاقٍ مِن العجزِ مُثقَلِ
ولا تجعل الأرضَ العريضَ محلُّها *** عليك سبيلًا وعثةَ المتنقلِ
وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نفسَهُ *** ففي جند الخلافةِ نفسَك فاجعلِ

لماذا أنت في الخوالف، تذكر السَّوالف، وتجالس كلَّ ضالٍّ أو مفسدٍ مخالف؟! ولمَ لمْ تقمْ بالواجب المحتَّم، وتنضمَّ إلى صفِّ الجهادِ المنظَّم؟! فقل لي بربِّك: ماذا تنتظر؟! ما ينتظرُ أحدُكم إلا غنًى مُطغِيًا، أو فقرًا مُنسِيا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مُفنِدًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدَّجال؛ فالدَّجَّال شرُّ غائبٍ يُنتظَر، أو السَّاعة فالسَّاعةُ أدهى وأمرُّ.

أما والله لو علم الأنامُ *** لِمَا خُلِقُوا لَمَا هجعوا ونامُوا
لقد خُلِقُوا لأمرٍ لو رأتهُ *** عيونُ قلوبِهم تاهوا وهاموا
مماتٌ ثمَّ قبرٌ ثمَّ حشرٌ *** وتوبيخٌ وأهوالٌ عِظَامُ
ليومِ الحشرِ قد عملتْ رجالٌ *** فجاهدُوا مِن مخافتِهِ وقامُوا
ونحن إذا أُمِرنا أو نُهِينا *** كأهلِ الكهفِ أيقاظٌ نيامُ

ثم ها هو ذا أمير المؤمنين وخليفةُ المسلمين وقائد جحافل المجاهدين والغرّ الميامين؛ قد استنفرك -أيها المسلم- في كلِّ مكان، ودعاك للهجرة إلى الدَّولة الإسلاميَّة والجهاد في سبيل الله ولو في مكانك؛ فما عذرُك بعد ذا؟! وما أنتَ قائلٌ لربِّك غدًا ونبيُّك -عليه الصلاة والسلام- يقول: (وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا)[١]، فإذا تخلَّفتَ بعد هذا؛ ففي الله عِوضٌ من كلِّ فائت، وحسبنا الله ونعم الوكيل، {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)} [سورة محمد]، {وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)} [سورة الفتح].

فلئنْ تخلَّفتم فاشتغلتم بالزَّرع، واستبطأتم المطر؛ فإنَّني -والله- أستبطئ عنكم الحجر؛ لأنَّه تعالى قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)} [سورة التوبة].

قال السَّعديُّ -رحمه الله-: "ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي اليقين مِن المبادرةِ لأمر الله والمسارعة إلى رضاه وجهاد أعدائه والنُّصرة لدينكم؟! فما لكمْ تكاسلتم ومِلتُم إلى الأرض والدَّعةِ والسُّكون فيها؟! ما حالكم إلَّا حال مَن رضي بالدُّنيا، وسعى لها ولم يبالِ بالآخرة، فكأنَّه ما آمن بها! أفليستِ الدُّنيا مِن أوَّلها إلى آخرها لا نسبةَ لها في الآخرة؟! فما مقدارُ عمرِ الإنسانِ القصير جدًّا مِن الدُّنيا حتَّى يجعلَها الغايةَ التي لا غايةَ وراءها! فيجعل سعيَه وكدَّه وهمَّه وإرادتَه لا يتعدَّى حياتَه الدُّنيا القصيرة، المملوءة بالأكدار المشحونة بالأخطار! فبأيِّ رأيٍ رأيتم إيثارَها على الدَّار الآخرة الجامعةِ لكلِّ نعيم، الَّتي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين، وأنتم فيها

[١] رواه البخاري.

خالدون، فوالله ما آثر الدُّنيا على الآخرة مَن وقر في قلبه الإيمان، ولا مَن جزل رأيه ولا مَن عُدَّ مِن أولي الألباب.

إنَّ عدم النَّفير في حال الاستنفار مِن كبائر الذُّنوب الموجبةِ لأشدِّ العقاب؛ لما فيها من المضارِّ الشَّديدة؛ فإنَّ المتخلِّف قد عصى الله تعالى وارتكب نهيه، ولم يساعد على نصر دين الله ولا ذبَّ عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانَه المسلمين على عدوِّهم الذي يريد أن يستأصلَهم، ويمحقَ دينهم، وربَّما اقتدى به غيرُه مِن ضعفاء الإيمان، بل ربما فتَّ في أعضادِ مَن قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيقٌ بمن هذا حاله أن يتوعَّده الله بالوعيد الشَّديد، وإنَّه تعالى متكفِّلٌ بنصر دينه وإعلاء كلمته، سواءٌ أمتثلتمْ لأمر الله أو ألقيتموه وراء ظهورِكم ظهريًّا"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

إذا المرءُ لم يغلبْ هواه أقامهُ *** بمنزلةٍ فيها العزيزُ ذليلُ

فلا بدَّ أن تحاربَ نفسَك، وأن تحملَها على الجهاد حملًا، وتدفعَها إلى القتال دفعًا، وإلَّا فإنَّك سوف تبقى أسيرَ نفسك، مكبَّلًا بشهوتك، واقعًا في فخاخ شيطانِك.

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتهتْ *** ولم ينهَها تاقتْ إلى كلِّ باطلِ
وساقتْ إليه الإثمَ والعارَ للَّذي *** دعته إليه مِن حلاوةِ عاجلِ

ألا فلينصحْ أحدُكم نفسَه، وليخوِّفها اللهَ؛ فلسنا -والله- بخيرٍ مِن أميرِ المؤمنين عمر، وما أدراكم مَن عمر!

قال أنس: "سمعتُ عمرَ بنَ الخطَّاب -رضي الله عنه- يقول يومًا، وخرجتُ معه حتَّى دخل حائطًا، فسمعتُه يقول -وبيني وبينه جدارٌ وهو في جوف الحائط-: عمر بن الخطَّاب أميرُ المؤمنين، بخٍ بخ! واللهِ يا ابنَ الخطَّاب، لتتَّقينَّ الله أو ليعذِّبنَّك! واللهِ يا ابنَ الخطَّاب، لتتَّقينَّ الله أو ليعذِّبنَّك!" يحدِّث عمرُ نفسَه ويخاطبُها، فإلى الله نشكو حالَنا واغترارَنا بأنفسنا، وضعف الإيمانِ واليقينِ عندنا.

وإليكمْ هذه الصُّور، وما فيها من عظيمِ العبر، وأحسنِ الخبرِ ممَّن غبر، وهي أشدُّ تأثيرًا في قلوب الصَّادقين مِن وخز الإبر، فابعثوا وحدِّثوا بها مَن غاب وحضر ونام

وظهر وذُلَّ وانقهر، لتكون عونًا وزادًا لـه في السَّفر، حتَّى يحطَّ رحالَـه في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

روى ابنُ أبي عاصم في كتاب الجهاد بإسناده عن أسامةَ بنِ زيدٍ قال: قال رسول الله ﷺ ذات يومٍ لأصحابه: (أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، فِي مَقَامِ أَبَدٍ، فِي حَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ وَنَضْرَةٍ فِي دَارٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ)، فقالوا: "نحنُ المشمِّرون لها يا رسول الله"، قال: (قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ)، ثم ذكر الجهاد وحضَّ عليه.

فبادرْ وبادرْ بدون انتظار *** إذا كنتَ أهلًا لخوض البحار
فلا يَعقِرُ الكلب مَن يرحمه *** ولا يصرع النِّمر مَن يطعمه

روى الإمامُ أحمدُ وغيرُه بإسنادٍ صحيح عن أنسٍ أنَّ رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يومَ أُحُدٍ فقال: (مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ؟)، فأخذه قومٌ فجعلوا ينظرون إليه، فقال: (مَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟)، فأحجم القوم، فقال أبو دجانة سِمَاك: "أنا آخذه بحقِّه"، فأخذه ففلقَ هامَ المشركين يوم أُحُد.

وفي روايةٍ للبيهقيِّ في الدَّلائل قال: (مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ؟) فقام أبو دجانةَ سِماكُ بن خَرشةَ فقال: "أنا آخذه يا رسولَ الله بحقِّه، فما حقُّه؟" قال: (أَنْ لَا تَقْتُلَ بِهِ مُسْلِمًا، وَلَا تَفِرَّ بِهِ عَنْ كَافِرٍ)[١].

وفي روايةٍ قال: "وما حقُّه؟" قال: (أَنْ تَضْرِبَ بِهِ فِي الْعَدُوِّ حَتَّى يَنْحَنِيَ)[٢]، وفي روايةٍ قال: "فما حقُّه؟"، قال: (تُقَاتِلُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ، أَوْ تُقْتَلَ)[٣]، فأخذه بذلك الشَّرطِ. وكان إذا أراد القتالَ أعلم بعصابة، فجعل لا يرتفعُ له شيءٌ إلا هَتَكَه وأفراه.

---

[١] قال الحاكم صحيح الإسناد.

[٢] رواه ابن إسحاق في السيرة منقطعا.

[٣] وجدت هذه الرواية في سير أعلام النبلاء للذهبي ولم أجد عند غيره.

قال ابن هشام: "وحدَّثني غيرُ واحدٍ مِن أهلِ العلم أنَّ الزُّبيرَ بنَ العوام قال: وجدتُ في نفسي حين سألتُ رسولَ الله ﷺ السَّيف، فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلتُ: أنا ابنُ صفيَّةَ عمَّتِه ومِن قريش، وقد قمتُ إليه فسألته إيَّاه قبلَه، فأعطاه إيَّاه وتركني، والله لأنظرنَّ ما يصنع، فاتَّبعتُه فأخرج عصابةً له حمراء، فعصبَ بها رأسَه، فقالت الأنصار: أخرجَ أبو دجانة عصابةَ الموت! وهكذا كانت تقولُ إذا تعصَّب بها، فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي *** ونحن بالسَّفح لدى النَّخيلِ
أن لا أقومَ الدَّهرَ في الكَيُولِ *** أضربُ بسيفِ اللهِ والرَّسولِ".

والكَيُولُ يعني: مؤخِّرة الصُّفوف.

قال ابن هشام: "فجعل لا يلقى أحدًا إلَّا قتله، وكان لا يدعُ رجلًا مِن المشركين جريحًا إلَّا ذفَّف عليه"، وحاله:

حكِّم سيوفَك في رقابِ العذل *** وإذا نزلتَ بدار ذلٍّ فارحلِ
وإذا الجبانُ نهاكَ يوم كريهةٍ *** خوفًا عليك مِن ازدحامِ الجحفلِ
فاعصِ مقالتَه ولا تحفلْ بها *** واقدمْ إذا حُقَّ اللِّقا في الأوَّلِ
واختر لنفسِكَ منزلًا تعلو بهِ *** أو مُتْ كريمًا تحتَ ظلِّ القَسْطَلِ
فالموتُ لا يُنجيك مِن آفاتهِ *** حصنٌ ولو شيَّدتَه بالجندلِ
موتُ الفتى في عزَّةٍ خيرٌ له *** مِن أن يبيتَ أسيرَ طرفٍ أَكحَلِ
لا تَسقِني ماءَ الحياةِ بذلَّةٍ *** بل فاسقِني بالعزِّ كأسَ الحنظلِ

فيا عباد الله، ليس ثمَّة واللهِ إلَّا الجهاد، وما لكم منه بدٌّ، وليس لأبدانكم ثمنٌ إلَّا الجنَّة، ألا فلا تبيعوها إلَّا بها، وهو أمر الله ووصيَّة رسولِ الله، وديدن الصَّالحين وطريق الصَّحابة والتَّابعين، وعزُّ الدُّنيا والآخرة، فاللَّحاق اللَّحاق! والجدَّ الجدَّ! والهمَّةَ الهمَّة! والصِّدقَ الصِّدق! والتَّحريضَ التَّحريض! والإعدادَ الإعدادَ! والجهادَ الجهادَ! والبيعَ البيعَ!

يقول صاحبُ الظِّلال: "فقد استخلصَ اللهُ لنفسه قلوبَ المؤمنين وأموالَهم، فلم يعدْ لهم منها شيء، لم يعدْ لهم أي السَّبقِ منها بقيَّة لا ينفقونها في سبيله، لم يعد لهم

خيارٌ في أن يبذلوا أو يمسكوا، كلا إنَّها صفقةٌ مشتراة، لشاريها أن يتصرَّف بها كما يشاءُ وفق ما يَفرِض ووفق ما يحدِّد، وليس للبائعِ فيها مِن شيءٍ سوى أن يمضي في الطَّريق المرسوم، لا يلتفتُ ولا يتخيَّر ولا يناقش ولا يجادل ولا يقول إلَّا الطَّاعةَ والعملَ والاستسلام، والثَّمنُ هو الجنَّة، والطَّريقُ هو الجهادُ والقتلُ والقتالُ، والنِّهايةُ هي النَّصر أو الاستشهاد، {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [سورة التوبة: ١١١].

وإنَّها لبيعةٌ رهيبةٌ بلا شكٍّ، ولكنَّها في عنقِ كلِّ مؤمن قادرٍ عليها، لا تسقط عنه إلَّا بسقوط إيمانه، عونَكَ اللَّهم! فإنَّ العقدَ رهيب، وهؤلاء الذين يزعمون أنفسَهم مسلمين في مشارق الأرض ومغاربها قاعدون، لا يجاهدون لتقرير ألوهيَّة الله في الأرضِ وطردِ الطَّواغيت الغاصبةِ لحقوقِ الرُّبوبيَّة وخصائصِها في حياة العبادِ، ولا يَقتُلون ولا يُقتَلون، ولا يجاهدون جهادًا ما دون القتل والقتال، ولقد كانت هذه الكلماتُ تطرق قلوب مستمعيها الأوَّلين على عهد رسول الله ﷺ، فتتحوَّل مِن فورها في القلوبِ المؤمنة إلى واقعٍ من واقعِ حياتهم، ولم تكن مجرَّدَ معانٍ يضعونها في أذهانهم أو يحسُّونها مجرَّدةً في مشاعرهم، كانوا يتلقَّونها للعملِ المباشرِ بها لتحويلها إلى حركةٍ منظورة لا إلى صورةٍ متأمَّلة، هكذا أدركها عبدُ الله بنُ رواحةَ -رضي الله عنه- في بيعة العقبة الثَّانية، قال محمَّدُ بنُ كعبٍ وغيرُه: قال عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ -رضي الله عنه- لرسول الله ﷺ -يعني: ليلةَ العقبةِ-: اشترطْ لربِّك ولنفسِك ما شئتَ، فقال: (أَشْتَرِطُ لربِّي أن تَعْبُدُوه ولا تُشْرِكوا به شيئًا، وأَشْتَرِطُ لنَفْسي أن تَمْنَعوني مما تَمْنَعون منه أنفسَكم وأموالَكم)، قال: فما لنا نحنُ إذا فعلنَا ذلك؟ قال: (الجنَّة)، قالوا: ربح البيع، واللهِ لا نقيلُ ولا نستقيلُ"[١]، انتهى.

يقضي الكريم مدافعًا عن دينهِ *** ويموتُ عن أشبالِه الضِّرغامُ
يعلو الحِمَى بأشاوسٍ مِن أهلهِ *** وتُعزُّ في آسادها الآجامُ

سبحان الله! هكذا كان أمر الصَّحابة، إذا دُعُوا لبَّوا، وإذا حُرِّضوا قاموا، وإذا قالوا فعلوا، وإذا عزموا توكَّلوا، وما فتروا أو تلكَّؤوا؛ فبهم نُصِر الدِّين، وسار نوره في العالمين.

---

[١] رواه الطبري في تفسيره والواحدي في أسباب النزول.

ومِن عجائبِ الأخبار، وغرائبِ الآثار، وممَّا ندُر مثيلُه في كلِّ الأقطار، ولا عجيب أيُّها المسلمون؛

فالأمرُ مِن معدنه لا يُستغرَبُ *** والفرعُ للأصلِ حتمًا يُنسَبُ

روى الإمامُ مسلمٌ في صحيحه عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعريِّ -رضي الله عنه- قال: "سمعتُ أبي وهو بحضرة العدوِّ يقول: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ)، فقام رجلٌ رثُّ الهيئة فقال: يا أبا موسى، أنت سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، قال: فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأُ عليكم السَّلام، ثمَّ كسر جفنَ سيفِه وألقاه، ثمَّ مشى بسيفه إلى العدوِّ، فضرب به حتَّى قُتِل".

فلا إلـه إلا الله! ما أعظمَ استجابتَهم لله، وإقبالَهم على الله؛ إنَّهم كانوا متى ما حُرِّضوا تحرَّكوا، ومتى ما استُنهِضوا نهضوا، ومتى ما استُنفِروا نفروا؛ لذا فتح الله عليهم الأمصار، ورفع ذكرَهم في كلِّ الأعصار.

بيمينِ أبي بكرٍ طالت يدُ الهُدَى *** وقامت قناةُ الدِّينِ واشتدَّ كاهلُه
هو البحرُ من أيِّ النَّواحي أتيتَهُ *** فلُجَّته المعروفُ والجودُ ساحلُه
تعوَّدَ بسطَ الكفِّ حتَّى لو انَّهُ *** أراد انقباضًا لم تُطعْهُ أناملُه
ولو لم يكن في كفِّهِ غيرُ نفسِه *** لجاد بها فليتَّقِ اللهَ سائلُه

وعند النَّسائيِّ بإسنادٍ صحيح عن سلمةَ بنِ نُفَيلٍ قال: "كنتُ جالسًا عند رسولِ الله ﷺ فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، أذال النَّاسُ الخيلَ ووضعوا السِّلاح، وقالوا: لا جهاد؛ قد وضعتِ الحربُ أوزارَها، فأقبل رسولُ اللهِ ﷺ بوجهه وقال: (كَذَبُوا الْآنَ، الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، وَلَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، وَيُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَحَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)".

فهذا بيانٌ مِن الرَّسول الصَّادق المصدوق -ولا يُنبِئُك مثلُ خبير- أنَّه لن يقفَ القتال، بل الآنَ حان وقتُه، والمراد: بل الآنَ اشتدَّ القتال، والآنَ قد حمي الوطيس؛ فإنَّهم قبلُ كانوا في أرضِهم، واليومَ جاء وقتُ الخروجِ إلى الأراضي البعيدة.

فلا إله إلا الله يا عباد الله! هكذا كان جوابُ النَّبيِّ بعدَ الفتوحاتِ وتحقيقِ الانتصارات، فكيف يكونُ جوابه قبل ذا؟! ولذا أزالوا الكفر، وطردوا العهر، ونشروا الطُّهر، فسادوا الأنام، ونشروا الإسلام، وأخرجوا مِن رؤوس أهلِ الكفر والجاهليَّةِ الباطلَ والأوهام، وكأنَّ أحدَهم قائل:

حصاني كان دلَّالَ المنايا *** فخاضَ غمارَها وشرى وباعَ
وسيفي كان في الهيجَا طبيبًا *** يداوي رأسَ مَن يشكو الصُّداعَ

فكيف -بالله عليكم- يكون جوابُه -عليه الصلاة والسلام- لو سُئِل عن القتال في مثلِ هذه الأيَّام، في ظلِّ تداعي الكفر على أهل الإسلام؟! فعليك أيُّها الموحِّد بالقتال، ولا تستمعْ إلَّا لأحاديثِ الرِّجال الأبطال حسانِ الأفعال والأقوال، واليومُ الرِّهان، وغدًا السِّباق، والجنَّة الغاية، وإيَّاكم إيَّاكم والاستماع للفضائيَّاتِ والقاعدين فيها مِن فقهاءِ القعود؛ فإنَّ الشَّيطان قد باض فيها وفرَّخ، {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣)} [سورة القلم].

يدعو إلى السَّلام مع العدوِّ الصَّائل، وينشد الرَّاحة بالذُّلِّ، ويدعو إلى التَّعايشِ مع الكافرِ الباطش، ولكل نبيٍّ فرعون، فمن لم يرضَ بحكم موسى: فقد رضي بحكمِ فرعون.

فإن كان باقي إفكِ فرعونَ فيكمُ *** فباقي عصا موسى بكفِّ خصيبِ

فلا تسمعْ لهؤلاء ومَن لهم، ولا تبالِ بهم: فإنَّهم {إِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا}، و {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً}، و {كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ}، فانطلقْ على بركة الله.

وقفْ في الحياةِ مجاهدًا متصبِّرًا *** أو عشْ ذليلًا تحت أطباق الثَّرى
لَمَّا نظرتُ لقومنا وسباتِهم *** عصرَ الأسى روحي وشِبْتُ لما أرى
قلْ: لن أخونَ خلافتي في مطمعٍ *** أنا لن أكونَ بأمَّتي مستهترًا
أبغي العُلا أبغي الفخارَ لأمَّتي *** أعظُ الأنامَ معلِّمًا ومحذِّرًا
والمرءُ يعلو بالجهادِ فإن هوى *** عاش الحياةَ مطبِّلًا ومزمِّرًا

قالوا: السَّلام وجنَّدوا طاقاتِهم *** فغدا السَّلامُ بأهله متعثِّرًا
قلبوا المبادئَ طامسين ضياءَها *** كم دنَّست عِرضًا وجرَّت منكرًا
لكن ستلعنُ فعلَكم أجيالُكم *** يا ويحَ مَن باع المبادئَ واشترى
والرُّوح إن حنَّت لمقدمِ ربِّها *** تجد الشَّهادةَ مغنمًا بل أكبرا

روى مسلمٌ في صحيحه عن أنسٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: (إِنَّ لَنَا طَلِبَةً، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا، فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا)، فجعل رجالٌ يستأذنونه في ظهرٍ لهم في علو المدينة، قال: (لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا)، فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابُه حتَّى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (لَا يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُؤْذِنُهُ)، فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: (قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ)، قال: يقول عمير بنُ حمام الأنصاري: يا رسولَ الله، جنَّةٌ عرضُها السَّماواتُ والأرض؟ قال: (نَعَمْ)، فقال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: (مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟)، قال: لا والله يا رسولَ الله إلَّا رجاءَ أن أكونَ مِن أهلها، قال: (فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا)، قال: فأخرجَ تمراتٍ مِن قرنه، فجعل يأكل منهُنَّ، ثمَّ قال: لئن أنا حييتُ حتَّى آكلَ تمراتي هذه؛ إنَّها لحياةٌ طويلة، ثمَّ رمى بما كان معه مِن التَّمر، ثمَّ قاتلهم حتى قُتِل.

زاد ابنُ إسحاقَ: وهو يقول:

ركضًا إلى اللهِ بغيرِ زادِ *** إلَّا التُّقى وعمل المعادِ
والصَّبر في الله على الجهادِ *** وكلُّ زادٍ عُرضةُ النَّفادِ

فقول النَّبي -عليه الصلاة والسلام-: (قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ)؛ هو -والله- مِن أعظمِ التَّحريض والحثِّ والتَّرغيب على القتال وتهييج الرِّجال؛ لذا أثَّر ذلك في الصَّحابة فأبلوا بلاءَ الأبطال.

فسيروا كما ساروا لتجنوا ما جنوا *** لا يحصد الحبَّ سوى الزرَّاعِ
وتيقَّظوا فالسَّيل قد بلغ الزُّبى *** يا أيها النَّومى على الأمطاعِ
واسترجعوا ما فات مِن أمجادِكم *** ما دمتمُ في مهلةِ استرجاعِ
يا خاطبَ العلياءِ إنَّ صداقَها *** صعبُ المنالِ على قصيرِ الباعِ

والآن الآن جاء القتال!

قال صاحب الظِّلال: "إنَّ الحقَّ لا بدَّ أن ينطلقَ في طريقه، ولا بدَّ أن يقف له الباطلُ في الطَّريق، بل لا بدَّ أن يأخذ عليه الطَّريق، إنَّ دين الله لا بدَّ أن ينطلقَ لتحرير البشر مِن العبوديَّة للعباد، وردّهم إلى العبوديَّة لله وحدَه، ولا بدَّ أن يقف له الطَّاغوتُ في الطَّريق، بل لا بدَّ أن يقطعَ عليه الطَّريق، بل لا بدَّ لدين الله أن ينطلقَ في الأرض كلِّها لتحرير الإنسان كلِّه، ولا بدَّ للحقِّ أن يمضي في طريقه، ولا ينثني عنه ليدعَ للباطلِ طريقًا ما دام في الأرض كفر، وما دام في الأرض باطل، وما دامت في الأرض عبوديَّة لغير الله تُذِلُّ كرامةَ الإنسان؛ فالجهادُ في سبيل الله ماض، والبيعةُ في عنق كلِّ مؤمنٍ تطالبُه بالوفاء، وإلَّا فليسَ بالإيمان، {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [سورة التوبة: ١١١]"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وهاكم عبرةً عظيمةً أخرى في وقعةٍ عظيمة حرَّض وحثَّ وهيَّج وثبَّت فيها صحابيٌّ جريح ذو قلبٍ صحيح، إنَّه عبد الرَّحمن بن عبد الله أبو عقيل الأنصاري -رضي الله عنه وأرضاه-، وما أدراك مَن أبو عقيل! جعلنا الله وإيَّاكم على طريقه، وجمعنا وإيَّاكم به في جنَّته.

قال ابن الجوزي في المُنتظَم: "شهد بدرًا والمشاهدَ كلَّها مع رسولِ الله ﷺ وقُتِل يوم اليمامة، وكان مِن أمره أنَّه لمَّا كان يوم اليمامة، واصطفَّ النَّاس كان أوَّلَ مَن خرج أبو عقيل، رُمِي بسهمٍ فوقع بين منكبِه وفؤادِه في غير مقتل، فأخرجَ السَّهم ووهن له شقُّه الأيسر في أوَّل النَّهار، وجُرَّ إلى الرَّحل، فلمَّا حمي القتال وانهزم المسلمون، وجاوزوا رحالَهم وأبو عقيل واهنٌ مِن جرحِه؛ سمع معنَ بن عديٍّ يصيح: يا للأنصار! يا للأنصار! اللهَ اللهَ والكرَّة على عدوِّكم، قال عبد الله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومَه، فقلتُ: ما فيك قتال، قال: قد نوَّه المنادي باسمي يا ابن عمر، فقلتُ: إنَّما يقول الأنصار ولا يعني الجرحى، قال أبو عقيلٍ: أنا رجلٌ مِن الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوًا، قال ابن عمر: فتحزَّم أبو عقيل وأخذ سيفَه بيده اليمنى مجرَّدًا، ثمَّ جعل ينادي: يا للأنصار! يا للأنصار! كرَّةً كيوم حنين! كرَّةً كيوم حنين! فاجتمعوا -رحمهم الله- جميعًا يقدِّمون المسلمين دربةً دون عدوِّهم، حتَّى أقحموا عدوَّهم

الحديقة، فاختلطوا واختلفت السُّيوف بيننا وبينهم، قال ابن عمر: فنظرتُ إلى أبي عقيل وقد قُطِعتْ يدُه المجروحةُ مِن المنكب فوقعت بالأرض، وقُتِل عدوُّ الله مسيلمة، قال ابن عمر: فوقعتُ على أبي عقيلٍ وهو صريعٌ بآخرِ رمق، فقلت: أبا عقيلٍ، فقال: لبَّيكَ بلسانٍ ملتاف، لمن الدَّبرة؟ قال: قلتُ: أبشرْ قد قُتِل عدوُّ اللهِ، فرفع إصبعه إلى السَّماء، فحمد الله، ومات -رحمه الله- قال ابن عمر: فأخبرتُ عمرَ بن الخطَّاب بما قدَّمتُ خبرَه كلَّه، فقال: رحمه الله، ما زال يطلب الشَّهادة ويطلبها، وكان ما علمتُ مِن خيارِ أصحابِ نبيِّنا ﷺ وقديمِ إسلامهم".

يداه يدٌ تنهلُّ بالخيرِ والنَّدى *** وأخرى شديدٌ بالأعادي ضريرُها
وناراه نارٌ نارُ كلِّ مِدفَعٍ *** وأخرى يصيب المجرمين سعيرُها

وممَّن حرَّض على الجهاد وحثَّ عليه، ودعا النَّاس للقتال، وثبَّتهم وهو جريحٌ مصاب؛ كعب بن عُجرَة، قاتل يومئذ وانهزم النَّاس الهزيمة الآخِرة، وجاوزوا الرَّحلَ منهزمين، فجعل يصيح: يا لِلأنصار! يا لِأنصارِ اللهِ ورسولِه، حتَّى انتهى إلى مُحكَّم بن الطُّفيل، فضربه مُحكَّم فقطع شمالَه، فوالله ما عرَّج عليها كعب، والله ما عرَّج عليها كعب، وإنَّه ليضرب بيمينه وإنَّ شمالَه لتُهرَاق الدِّماء منها، حتَّى انتهى إلى الحديقة فدخل -رحمة الله عليهما-.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم *** إذا جمعتْنا -يا جريرُ- المجامعُ

لا إله إلا الله! والله لا يُهزَم قومٌ هكذا حالُهم وفعالُهم، وكذا كان تحريضهم وحثُّهم، ومَن في المسارعةِ للجهادِ مثلُهُمْ؟

ألا أيُّها المستخبري ما سألتَني *** بأيَّامنا في الحرب ألا لتعلمَ
فما يستطيع النَّاسُ عقدًا نشدُّه *** وننقضُه منهم وإنْ كان مُبرَمًا
وإنا لنشفي صورة التَّيس مثلَه *** ونضربُه حتَّى نبلَّ استَهُ دمًا
لنا العزَّة القعساءُ نختطمُ العدا *** ثمَّ نستعصي بها أن نُخطَمَ
فأبقت لنا آباؤنا من تراثنا *** دعائمَ مجدٍ كان في النَّاس مَعلمًا
بني مَن بنى مِنهُم بناءً فمكَّنوا *** مكانًا لنا منه رفيعًا وسُلَّمًا
وكنَّا نجومًا كلما انقضَّ كوكبٌ *** بدا زاهرٌ منهنَّ ليس بأقتمَ
بدا زاهرٌ منهنَّ تأوي نجومُه *** إليه إذا مستأسدُ الشَّرِّ أظلمَ

قال تعالى: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)} [سورة التوبة].

قال صاحبُ الظِّلال: "وإنَّها لإشارة تَلحَق أصحابَ هذه الدَّعوة في كلِّ جيل، فما كان لمؤمنٍ أن يرغبَ بنفسه عن مثلِ ما تعرَّضت له نفسُ رسولِ الله في سبيل هذه الدَّعوة، وهو يزعم أنَّه صاحب دعوة وأنَّه يتأسَّى فيها برسول الله ﷺ ألا والله إنَّ الله ليُجزِل لنا العطاء، وإنَّها لَلسَّماحةُ في الأجر والسَّخاء، وإنَّه لَمَّا يخجلُ أن يكونَ ذلك كله على أقلِّ ممَّا احتمله رسول الله ﷺ من الشِّدَّة واللأواء، في سبيل هذه الدَّعوة التي نحن فيها خلفاء، وعليها أمناء"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وفي فتح القدير بتصرُّفٍ يسيرٍ: "ما صحَّ وما استقام لأهل المدينة ومَن حولهم مِن الأعرابِ أن يتخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وإنَّما خصَّهم الله -سبحانه-؛ لأنَّهم قد استُنفِروا فلم يَنفِروا مع كون هؤلاءِ لقربهم وجوارهم أحقَّ بالنُّصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ، وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسِهم عن نفسِه، فيشحُّوا بها ويصونوها، ولا يشحُّوا بنفس رسول الله ويصونوها كما شحُّوا بأنفسهم وصانوها، بل واجبٌ عليهم أن يكابدوا معه المشاقَّ، ويجاهدوا بين يديه أهل الشِّقاق، ويبذلوا أنفسَهم دون نفسِه، وفي هذا الإخبارِ معنى الأمرِ لهم، مع ما يفيده إيرادُه على هذه الصِّيغة من التَّوبيخِ لهم والتَّقريعِ الشَّديدِ والتَّهييجِ لهم والإزراءِ عليهم؛ وما ذلك إلَّا لوجوبه عليهم -أي الجهاد- ولأنَّهم مُثَابُون على أنواع المتاعب وأصناف الشَّدائد، من العطش والتَّعب والمجاعة الشَّديدة التي يَظهَر عندها ضُمورُ البطن، ولا يدوسون مكانًا مِن أمكنةِ الكفَّار بأقدامهم أو بحوافر خيولهم أو بخفاف رواحلهم، فيحصل بسبب ذلك الغيظُ للكفَّار، ولا يصيبون من عدوِّهم قتلًا أو أسرًا أو هزيمةً أو غنيمةً؛ إلَّا كتب الله لهم حسنةً مقبولةً يجازيهم بها، وجملة: {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (

١١٥)} [سورة هود] في حكم التَّعليل لما سبق، مع كونه يشمل كلَّ محسن، ويَصدُق على المذكورين هنا صدقًا أوَّليًا، ولا يقع منهم الإنفاقُ في الحرب وإنْ كان شيئًا صغيرًا يسيرًا، ولا يقطعون واديًا وهو في الأصل: كلُّ منفرجٍ بين جبال وآكامٍ يكونُ منفذًا للسَّيل؛ إلَّا كُتِب لهم ذلك الَّذي عملوه من النَّفقةِ والسَّفرِ والجهادِ؛ ليجزيهم الله أحسنَ ما كانوا يعملون"، انتهى.

فيا أمَّتي وجب الكفاحُ *** فدعي التَّشدُّقَ والصِّياح
ودعي التَّقاعسَ ليس يُنصَرُ *** مَن تقاعسَ واستراح
ودعي الرِّياءَ فقد تكلَّمتِ *** المذابحُ والجِراح
كذب الدُّعاةُ إلى السَّلامِ *** فلا سلامَ ولا سماح
ما عاد يُجدِينا البكاءُ *** على الطُّلولِ ولا النُّواح
لغة الكلامِ تعطَّلتْ *** إلا التَّكلُّم بالرِّماح
إنَّا نتوقُ لألسنٍ *** بُكْمٍ على أَيْدٍ فِصَاح
يا قومِ إنَّ الأمرَ جدٌّ *** قد مضى زمنُ المِزاح
سمُّوا الحقائقَ باسمها *** فالقومُ أمرهُمُ صُرَاح
سقط القناعُ عن الوجوهِ *** وفعلهُمُ بالسِّرِّ باح
عاد الصَّليبيُّون ثانيةً *** وجالوا في البِطاح
عاثوا فسادًا في الدِّيارِ *** كأنَّها كلأٌ مباح
عادوا يريقون الدِّماءَ *** ولا حياءَ مِن افتضاح
والباطنيَّة مثَّلوا الدَّور *** المقرَّرَ في نجاح
دور الخيانةِ وهو معلومٌ *** الختامِ والافتتاح
كنَّا نسينا ما مضى *** لكنَّهم نكؤوا الجراح
لم يشفِ حقدَهُمُ دمٌ *** سفكوه في صلفٍ وقاح
وعدَوا على الأعراضِ لمْ *** يخشوا قصاصًا أو جناح
أرأيتَ كيف يُكادُ للإسلامِ *** في وضحِ الصَّباح؟!
أرأيتَ دارَ خلافتي *** وما تُعَاني مِن جراح؟!
أرأيتَ كيف بغى الرَّوافضُ *** وكيف أحسنَّا الصِّياح؟!
عادت جيوشهُمُ تهدِّدُ *** بالخرابِ والاجتياح
لولا صلابةُ جندِنَا *** غرٍّ بدينهِمُ شحاح
بذلوا الدِّماءَ وما على *** مَن يبذلُ الدَّمَ مِن جناح

لترى الفسادَ يصولُ جهرًا *** في الغدوِّ وفي الرَّواح
ولعاد المروقُ مجاهرًا *** ما عاد يخشى الافتضاح
أبو بكرٍ خليفتُنا *** يؤدِّبُهُمْ ويكبحُ مِن جماح
ويعيدُهم لحظيرةِ الإيمانِ *** قد خفضوا الجَنَاح
يا أمَّةَ الإسلامِ هبُّوا *** واعملوا فالوقتُ راح
الكفر جمَّع شملَه *** فلمَ النِّزاعُ والانتطاح؟!
فتجمَّعوا وتجهَّزوا *** بالمستطاعِ وبالمتاح
يا ألفَ مليونٍ وأين هُمُ *** إذا دعتِ الجِراح؟!
هاتوا مِن المليارِ مليونًا *** صحاحًا مِن صحاح
من كلِّ ألفٍ واحدٌ *** أغزو بهم في كلِّ ساح
ممَّن يهيم بجنَّة *** الفردوس للغيد المِلَاح
يرجو رضا مولاه *** لم يعبأْ بمَن عنه أشاح
مرٌّ على أعدائه *** ولقومِه ماءٌ قراح
إنْ ضاقتِ الدُّنيا بِهِ *** وسعتْهُ "سورةُ الانشراح"
لا بدَّ مِن صنعِ الرِّجالِ *** ومثلُه صنع السِّلاح
وصناعةُ الأبطالِ علمٌ *** في التُّراثِ له اتِّضاح
لا يُصنَع الأبطالُ إلَّا *** في مساجدِنا الفِسَاح
في روضة القرآنِ في *** ظلِّ الأحاديث الصِّحاح
في صحبة الأبرار ممَّن *** في رحابِ الله ساح
لا يستوي في منطقِ *** الإيمانِ سَكرانٌ وصاح
مَن همُّه الخلافةُ *** وآخر همُّه كأسٌ وراح
شعبٌ بغيرِ عقيدةٍ *** وَرَقٌ تذرِّيه الرِّياح
مَن خان "حي على الصَّلاة" *** يخون "حي على الكفاح"
يا أمَّتي صبرًا فلَيْلُكِ *** كاد يُسفِر عن صباح
لا بدَّ للطَّاغوتِ أن *** ينزاحَ عنَّا أو يُزاح
واللَّيلُ إن تشتدَّ ظلمتُهُ *** نقولُ: الفجرُ لاح

الفجرُ بإذن الله لاح، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة الخامسة



الحلقة الخامسة: في قيام المسلمين بالعزَّة؛ يُدفَع الكافرُ ويُصَاب بالهزَّة

الحمد لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعين الموحِّدين، ومبيد الطُّغاة المارقين، وناصر المستضعفين على مَن سلك سبيل المجرمين، وجعل العاقبة لهم ليكونوا هم الوارثين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له إله الأوَّلين والآخرين، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله مَن جاهد في الله حقَّ جهاده حتَّى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ناشري لواء الدِّين، وعلى مَن تبعهم واقتفى آثارَهم في كلِّ وقتٍ وحين، ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكم الله وأحياكم، وجعل الجنَّة مأوانا ومأواكم، وقوَّى تقواكم، وأحسن أعمالكم، وأعاننا على مَن عادانا وعاداكم، وذخرًا للخلافة أعدَّكم، ترفعون راياتِها، وتذودون عن حياضِها، تحاربون عدوَّها، وتنصرون جنودَها، ترصُّون صفوفَها، وتشيِّدون صروحَها، وتضمِّدون جروحَها، وعلى منهاج النبوَّة تحملونها.

ها أنا ذا أعرضُ بضاعتي، فإنْ وافقت قبولًا فالحمد لله، وإنْ وافقت ردًّا فمن نفسي والشَّيطان وأستغفر الرَّحمن، راجيًا من الله أن تنالَ هذه الكلمات القبولَ والإعجاب، وأن تكونَ لنا زادًا على الطَّريق، ومنارًا للسَّبيل، وحجَّة لنا لا علينا يوم اللِّقاء.

إن تجدْ عيبًا فسُدَّ الخللَ *** جلَّ مَن لا عيبَ فيه وعلا

أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين؛ إنَّ حديثَنا في هذا المقام حديثٌ ذو شجون، تبكي منه العيون، ويرثي له كلُّ مَن هو على أمَّته محزون، ويغضب منه كلُّ منافق خؤون؛ إنَّه حديثٌ يثير في نفوس الصَّادقين الهزَّة، وينسيهم رونقَ البزَّة؛ إنَّه الحديثُ عن العزَّة، ولقد كلِّفتُ بالحديثِ عن أمرٍ كبير، عظيمٍ جليلٍ خطير، فأعوذ بالله فيه مِن التَّقصير.

ماذا تؤمِّل مِن أخي ثقة *** حمَّلتَه ما ليس يُحسِنُهُ

إنْ بان عجزٌ منه فهو على *** عذرٍ يبين إذا يبرهنُهُ
قدَّمتُ فيما قلتُ معتذرًا *** هذا طرازٌ لستُ أحسنُهُ

فنسأل الله التَّوفيقَ والسَّداد والإعانة على الإبانة.

بامتلاء نفوس المسلمين بالعزَّة؛ يُدفَع الكافرُ ويصاب بالهزَّة.

في ظلِّ الواقع المرير الذي تحياه أمَّتُنا في هذه الأيَّام، وفي ظلِّ زمان الذُّل والتبعيَّة والاستعباد؛ ظهر وانتشر بين النَّاس دعاة الذُّل والهزيمة وأبناء الضَّراعة والصَّغار، وأصحاب الضَّعة والهوان والابتذال، وعلا صوتُ مَن يرضى بالخسف، ويستكينُ للامتهان، ويقرُّ على الضَّيم، ويُغضي على القذى، ويشرب على الشَّذا، واعتادت جموعٌ مِن الأمَّة الذِّلَّةَ والمهانةَ مِن عدوِّها، واستمعتْ لهؤلاءِ الأنذالِ الأرذالِ الذين يخدِّرونها لعدوِّها، ويروِّضونها على الاستعباد، ولا حول ولا قوَّة إلا بربِّ العباد.

وقد استجابت أمَّتُنا لهذه الدَّعوات، ورضيت بها تلك السَّقطات، وتخلَّت عن تلكم المكرُمات، وتركتِ الألوفَ الأعزَّة الأَبِيَّات، ودارتْ عليها الدَّائرات، فصارت لا تبالي بالصَّغار، ولا تستوحشُ الامتهان، ولا تؤلمها الغضاضة، ولا يمضُّها الهوان، ولا تعمل فيها المُحفِظات، ولا ينبض فيها للحميَّة عرق، ولا تأخذها أنفةٌ ولا عزَّةُ نفسٍ في ما ينالُها في دينها ودنياها، إلَّا النَّزر اليسير مِن أهل التَّوحيد والرُّجولة والجهاد، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

وصار الدُّعاة على أبواب جهنَّم ممَّن تربَّى على مذهب الطَّاغوت، واعتاد الخضوعَ لغير الله وإعطاءَ الذِّلَّة مِن نفسه طائعًا لليهود والصليبيِّين والمرتدِّين، وهو ممَّن ليس في العير ولا في النَّفير؛ صار يدعو عبرَ القناةِ والمنتدَى والمنبرِ والإذاعةِ إلى مذهب المسالمة للأعداء والرِّضا بالحال، والسُّكوتِ عن الأحوال، وبأعداءِ الأمَّة عدمَ الاشتغال، بل ويدعو إلى الدُّخول تحت راياتِهم، والعملِ في ظلِّ سلطانهم، والاستجابةِ لدعواتِهم، وأمَّا الإنكارُ والتَّغيير؛ فلا يكونُ حتمًا إلَّا بوسائلهم، وبما لا يُغضِب أسيادَه على الأمَّة، كلُّ ذلك في سبيل الدَّعة والرَّاحة والدِّينار، وفي سبيل الحياة والأمان والدُّولار، ووالله لعلَّ هؤلاءِ بهذه الدَّعوات الهدَّامات والنُّفوس الدَّنيَّات، يصحُّ فيهم ويكونون ممَّن قال رسول الله ﷺ فيهم، كما في صحيح الإمامِ مسلم: (سَيَكُونُ فِي

آخِرِ الزَّمَانِ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يُحَدِّثُونَكُمْ مَا لَمْ تَسْمَعُوا بِهِ أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ).

فوالله ما سمعنا أحدًا في التَّاريخ كان يدعو أمَّتَه وأهلَه إلى الصَّغار والذلِّ والهوان، بل إنَّ العقلاء والفضلاء مُجمِعون على قبح ذلك وذمِّه، فكيف بهؤلاء المنافقين الذين يُخادِعون الله والمؤمنين {وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}؛ يدعون الأمَّة للعبوديَّة للطَّاغوت والرُّكونِ إليه، تحت دعوات المهادنة والحلم والحكمة والملاينة والسِّلم، والدَّعوة والتَّأليف والمصلحة، وغير ذلك مِن عباراتٍ مُنمَّقاتٍ جوفاء، تصبُّ كلُّها في مصلحة الأعداء، {أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)} [سورة النساء].

فما لنا ننثني للكفر نطلبُهُ *** معزَّةً وهدى الإسلامِ يُغنينَا!
أنطلب العزَّ مِن علجٍ وطاغيةٍ *** ما العزُّ حقًّا سوى أن نحفظَ الدِّينَ
تمسَّكوا بكتابِ الله واعتصموا *** فهو المعزُّ وللأمجادِ يُعلِينَا

وللأسف فقد أصبح مَن هو أذلُّ مِن النَّقد وأذلُّ من وتد، وأذلُّ مِن بيضة البلد، عبد سيِّده اليهوديِّ الصَّليبيِّ يريد تطويع الأمَّة لهم بالسِّياط والسَّيف، بعد المناظرة والمحاورة والحيف؛ لذا ما تركوا من الصَّالحين سيدًا إلَّا أهانوه، ولا ذا عزَّة ودين إلَّا حاربوه، ولا ذا أنفة إلَّا كبَّلوه، ولا أنوفًا ذا غيرة إلَّا في السُّجون وضعوه، وتتابع الصَّالحون على الذَّهاب والرَّحيل، مِن كلِّ شريف الطَّبع عالي الهمَّة عزيز النَّفس، حميِّ الأنف أشم المعطس، شديد الشَّكيمة قويِّ المريرة، شديد الحميِّ أبيِّ الضَّيم، وضجت السَّاحة وملئت بكلِّ ذليلٍ عاجزٍ مهينٍ مستضعفٍ مستذلٍّ ضعيف، وانتشر هؤلاء في صفوف الأمَّة، وتتابع النَّاس على هؤلاء، فأخذوا طريقَهم، واقتفوا آثارَهم، فاستسلمت الأمَّة للامتهان، واستنامت للضَّعة واطمأنَّت للصَّغار، وأَلِفَتْ مضاجعَ الذلَّة، ورضيتْ بالذُّل صاحبًا وخِلًّا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وإنَّ العزيز -عز وجل- علَّمنا العزَّة، وأخبرنا بأنَّ العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين، ورسول الله ﷺ المعتزُّ بدينه أخذ العزَّة، وعلَّمنا إيَّاها، فأخذها الصَّحابة على ما فيهم

مِن رجولة ومروءة وخلقٍ وحميَّة، فسادوا بها بين الأنام، وارتفعت بها راية الإسلام، وبلغت الآفاق، وتحدَّث بها الرُّكبان، وحُقَّ على ابن الصَّقر أن يُشبِه الصَّقرَا!

وها هو نبيُّنا -عليه الصلاة والسلام- الذي لا يعنو لقهر، ولا يطمأنُّ إلى غضاضة، ولا يصبر على خسف، ولا يقيم على مذلَّة، ولا يلين جانبه لحادث، ولا يرى مِن نفسه الاستكانة، ولا يلبس ملابس الهوان، ولا يقف موقف القنوع، يقول كما عند الطَّبراني في الأوسط مِن حديث أبي ذرٍّ: (مَنْ أَعْطَى الذِّلَّةَ مِنْ نَفْسِهِ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ فَلَيْسَ مِنَّا)[١].

بل كان النبيُّ ﷺ يستعيذ بالله مِن غلبة الرِّجال، وأمَّا اليوم؛ فكثيرٌ مِن المنافقين، والدُّعاة المبدِّلين، والكتَّاب الممسوخين، والدَّجاجلة المكذِّبين، قلبوا الأمرَ رأسًا على عقب، وصاروا يطلبون ويحرصون ويأمرون ويرضون بغلبة الرِّجال؛ لذا اختلَّت الأحوال، وذُلَّ الأبطال، وهُتِكَت الأعراضُ بعد نهب المال، وصار أبناءُ أمَّتي عند أعدائهم خدمًا وحرسًا وموظَّفين وعمَّالًا، ونسيتْ أمَّتي سورةَ التَّوبة والأنفال، وسورةَ الفتحِ والقتال، فأين مَن يُصغِي لهذا المقال، ويكون عنده ذا بال؟!

فيا أمَّتي؛

ألم يأنِ أن نحتوي عزَّة الدِّين *** فنحيي لإسلامنا الحرِّ عرسًا
شربنا من الذُّل حتَّى ارتوينا *** كرعنا على الكرِّ كأسًا فكأسًا
كِنَانَتُنَا أُتخِمتْ بالسِّهام *** ولم نحتملْ طيلةَ الحربِ قوسًا
شتاتُ عِصَابتنا واختلافٌ *** وشرٌّ يدبُّ إلى اللَّيل أمسًا
فهلَّا نجدِّد عهد التَّآخي *** ونصبح للعزِّ أهلًا وكفؤًا

عن أنس بنِ مالك يقول: "كنتُ أخدم رسولَ الله ﷺ فكنتُ أسمعه يكثر أن يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ)[٢].

[١] قال الهيثمي في مجمع الزوائد: فيه يزيد بن ربيعة الرحبي، وهو متروك.
[٢] متفق عليه.

وغلبة الرِّجال؛ أي: شدَّة تسلُّطهم بغير الحقِّ تغلُّبًا وجدلًا، وتسلُّطهم واستيلاؤهم هرجًا ومرجًا، وقيل: قهر الرِّجال هو جور السُّلطان، ولقد اعتاد فئاتٌ من أمَّتي أن يكونوا بغالًا يركب عليهم اليهود والنَّصارى، ويكونوا له خدمًا وعبيدًا، ينفِّذون أوامرَه، ويلبُّون مطالبه، ويحقِّقون مآربه، فضُربت عليهم الذلَّة، وحملوا على الخسف، وقيدوا ببرَّة الهوان، ووُطِئوا وطءَ النِّعال، ومَن لي بالسَّانح بعد البارح!

كلابٌ للأجانب همْ ولكنْ *** على أبناءِ جلدتهم أسودُ

ومنذُ أن تركنا الجهاد، وأعطينا لكلِّ طاغوت القياد، وأسلمنا العباد، ورضينا لعدوِّنا علينا بالتَّمادي، وما عادت العزَّة والعليا لنا مرادًا؛ خربت البلاد، وتداعى علينا الخنافسُ والبعوضُ والذُّباب، وعدت الثَّعالبُ والضِّباعُ والذِّئاب، ونهشت فينا السِّباع والوحوش والكلاب!

فمالت دعائمُ عزِّنا، وتهاوت كواكبُ سعدِنا، وتقوَّض سرادقُ مجدِنا، وتمعَّكنا في ردغة الذُّل، وارتطمنا في حمأةِ الهوان.

إنَّ الواجبَ على المؤمن الموحِّد العزيز فضلًا عن المجاهد الكريم الأبيِّ الحميِّ؛ أن يكونَ عزيزَ الجانب منيع السَّاحة حصينَ النَّاحية، في حرزٍ حريز، وفي حرزٍ لا يُوصَل إليه، فلا يناله طالب، ولا يطمع فيه طامع، وأن يَربَأ بنفسه عن مواطن الذُّل، ويتجافى بها عن مطارحِ الهوان، وينزعَ بها عن مواقف الضَّراعة، ويصونَها عن معرَّة الامتهان، ثمَّ بعد ذلك يُكرِمُها.

وإنِّي لَمن قومٍ يهونُ عليهمُ *** ورودُ المنايا في سبيلِ المكارمِ
يطيرونَ مهما ازورَّ للدَّهر جانبٌ *** بأجنحة من ماضياتِ العزائمِ
وما كلُّ نفسٍ تحتمل الذُّلَّ إنَّني *** رأيتُ احتمالَ الذلِّ شأنَ البهائمِ

وهذا كلُّه مِن آثار الإيمانِ بالعزيز سبحانه وتوحيدِه والكفرِ بالطَّاغوتِ وتكبيتِه، إنَّ الإسلام لهو الذي يكسب العزَّة التي تجعل الإنسانَ يمشي نحو هدفه مرفوعَ القامة والهامة، لا ينحني رأسه لمخلوق، ولا يطأطئ رقبته لجبروت، أو طغيانٍ أو مالٍ أو جاه، فهو سيِّدٌ في هذا الكون ما دام عبدًا لله وحدَه لا شريك له، وإنَّنا نحن المسلمين أبناءَ التَّوحيد والجهاد، وحملةَ العقيدة وحماةَ الإسلام وجندَ الخلافة؛ أهلُ

الجهادِ والجلادِ في سبيل الله، لا نعرف ما يتحدَّث النَّاس عنه، ويدعون إليه من ذلَّة ومهانة، بل هؤلاء لا مكانَ لهم بيننا، ولا لحديثهم سماعٌ في آذاننا!

فلا صلحَ ما دامتْ منابرُ أرضِنا *** يقومُ عليها مِن عميل خطيبُ

ولا والله -وأعوذ بالله- أن نسلكَ تلك المسالك، أو نردَ تلك الموارد، بل لا ننتعل إلَّا جلود السِّباع العاديات، ولا نُطعَم إلَّا مِن أجواف الكواسر الرَّاعبات، ولا نصحب إلا الصُّقور في قممها العاليات.

لا يرضى الذُّلَّ أن ينزل به أبدًا *** إلَّا الجبانُ الوضيعُ النَّفسِ والشِّيَمِ
ولا يقرُّ على ضيمٍ سوى رجلٍ *** لم يدرِ مَا المجدُ في معنًى ولا كَلِمِ

فمع عدوِّنا لا كلامَ إلَّا بحدِّ الحسام، ولا جدالَ إلَّا بالقتال، ولا نقاشَ إلا بالرَّشَّاش، ولا حديثَ يملأ المسامع إلَّا وجوابُه دويُّ المدافع، ومَن يرسلِ العبارات نجبْه بقذائفِ الدَّبَّابات.

هكذا ينبغي أن تكونَ اللُّغةُ مع كلِّ وغدٍ لئيمٍ زنيم، كافرٍ فاجرٍ ظالمٍ معتدٍ أثيم، فمن يبلِّغُ عنِّي هذا الحديث لكلِّ خبيثٍ مِن الطَّواغيتِ واليهودِ والصَّليبيِّين والملاحدةِ والرَّوافضِ والمرتدِّين؟

مَن مُبلِّغ الأعلاجِ أنَّا أمَّةٌ *** جاءت بشيرًا للورى ونذيرًا
مَن مُبلِّغ الأعلاجِ أنَّ دعاتَنا *** طلعوا على ليلِ الأنامِ بُدُورًا
مَن مُبلِّغ الأعلاجِ أنَّ رجالَنا *** كانوا أسودًا في الوغى ونُمُورًا
ولقد أتى أحفادُهُمْ أشباهُهمْ *** سيلًا يُحِيلُ قوى الأعادي بورًا
مِنَّا صلاحٌ والرَّشيدُ وخالدٌ *** منَّا الكماةُ الحافظونَ ثغورًا
سلْ عن فرارِ هرقلَ مِن آسادِنا *** وزوالِ كسرى فارس سابورا
فدعْ عنك إغراءَ التَّخاذُلِ وانتصرْ *** لدمٍ يرومُ النَّصرَ والتَّحريرَ
هل أثمر السِّلمُ المزيَّفُ مرَّةً *** إلَّا خنوعًا مزريًا وتبورًا
لن يخمدَ الخلافةَ فيضُ زحوفِهِمْ *** فبلُجَّةِ الظُّلماتِ نَرقُبُ نورًا

إنَّ الإسلام لَدينٌ يغرس في نفوس حَمَلَتِه عقيدةَ الاستعلاء، تبعثُ في روح المسلم إحساسَ العزَّة مِن غير كبر، وروحَ الثِّقة مِن غير اغترار، وشعورَ الاطمئنان في غير تواكل.

قال صاحب الظِّلال: "وهم في جدِّهم وعملهم وقصدهم إلى مَا يُشغِل نفوسَهم مِن اهتماماتٍ كبيرةٍ لا يلتفتون إلى حماقةِ الحمقى وسفْهِ السُّفهاء، ولا يشغلون بالَهم ووقتَهم وجهدَهم بالاشتباك مع السُّفهاء والحمقى في جدال أو عراك، ويترفَّعون عن المُهَاتَرَةِ مع المهاتِرينَ الطَّائشين، {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}، لا عن ضعفٍ ولكن عن ترفُّع، ولا عن عجز ولكن عن استعلاء، وعن صيانةٍ للوقتِ والجهد أن يُنفَقَا بما لا يليق بالرَّجل الكريم"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

بل لـمَّا أخذ أبو دجانةَ السَّيفَ مِن يدِ رسول الله ﷺ أخرج عصابتَه تلك فعصب بها رأسَه، وجعل يتبختَرُ بين الصَّفَّين، أي: يمشي مِشيَةَ المتكبِّر، فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانةَ يتبختر: (إِنَّ هَذِهِ لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ)[١]؛ وذلك لأنَّ فيها دليلًا على عدم الاكتراثِ بالعدوِّ، ولدلالتها على احتقار العدوِّ وعدم مبالاته بهم، فينكسر لهذا قلبُ العدوِّ، ويدخله مزيدُ رعبٍ، فلا إله إلَّا الله!

يا عباد الله، إذا كان المسلمُ يُمتدَح في المشية التي فيها الفخرُ والخيلاءُ والتَّعالي على العدوِّ؛ فكيف بما هو أعظمُ مِن ذلك مِن إظهارِ القوَّة لهم؟! بل كيف بالثَّبات على الدِّين وتعظيمِه والذَّبِّ عنه باللِّسان والسِّنان؟! بل كيف بالجهادِ والجلادِ لأعداء الله وإذلالِهم، وقتلِهم والشِّدَّة والغلظةِ عليهم والإثخانِ والتَّشريدِ بمن خلفهم؟! لا شكَّ أنَّ ذلك أدعى لرضا الله وأعظمُ منزلةً ومكانة، وهذه هي ذروة العزَّة وسنام العليا وقمَّة المجد.

ولقد صحَّ أنَّ الضَّعف ذلٌّ لأهلِهِ *** وأنَّ على الأرضِ القويُّ مسيطرُ
وأنَّ اقتحامَ الهولِ أقربُ مسلكٍ *** إلى المجدِ إلَّا أنَّه متوعِّرُ

---

[١] رواه الواقدي في المغازي وابن إسحاق في السيرة والطبراني في الكبير. قال الهيثمي عن إسناد الطبراني في مجمع الزوائد: وفيه من لم أعرفه.

روى أحمد في مسنده بإسنادٍ صحيح[١] عن عبدِ الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ)، فحسم النبيُّ ﷺ أمرَ العزَّة، فجعلها لمن اتَّبع أمرَه مِن النَّاس، والذِّلَّة والمهانة والخسَّة والضَّعة والحقارةَ والصَّغارَ على مَن خالف أمرَ النبيِّ والعليِّ القهَّار.

وكان مَا وعد، وتمَّ ما أخبر، ووقع ما به جزم، ففي مسندِ الإمامِ أحمدَ بإسنادٍ صحيح عن تميمٍ الدَّاريِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ).

وكان تميمٌ الدَّاري يقول: "لقد عرفتُ ذلك في أهل بيتي، لقد أصابَ مَن أسلم منهم الخيرُ والشَّرفُ والعزُّ، ولقد أصاب مَن كان منهم كافرًا الذُّلُّ والصَّغار والجزية".

فنحنُ المالكونَ الكفَّارَ قسرًا *** نسوقهم المذلَّة والنَّكالَ
عظيمهُمُ وسيِّدهمْ قديمًا *** جعلنا المخزياتِ له ظِلالًا

في سيرةِ ابنِ هشامٍ قال ابن إسحاق: "فحدَّثني مَن لا أتَّهم عن ابن عبَّاس قال: صفُّوا له عند دار النَّدوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلمَّا دخل رسولُ الله ﷺ المسجدَ؛ اضطبع بردائه، وأخرج عضدَه اليمنى ثمَّ قال: (رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَرَاهُمُ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً)، ثمَّ استلم الرُّكنَ وخرج يُهروِلُ ويُهروِلُ أصحابُهُ معه".

وعن ابن عبَّاس: "لـمَّا قدم النبيُّ ﷺ لعامهم الذي استأمن؛ قال: (ارْمُلُوا)؛ ليرى المشركون قوَّتَهم"[٢]، وفي رواية: (أَرُوهُمْ مَا يَكْرَهُونَ)[٣]"، وحاله:

فغيمَ تسوم مثلي أن يُضامَ *** ويجعل في يديك النفس قسرًا
نصحتكَ فالتمسْ يا ليثُ غيري *** طعامًا إنَّ لحمي كان مرًّا

---

١ قال الأرنؤوط: إسناده ضعيف.
٢ رواه البخاري.
٣ رواه ابن خزيمة في صحيحه.

هذا نبيُّكم الكريم يأمر بإظهار القوَّة والجلد والعزَّة والمنعة أمام الكافرين؛ إرغامًا لهم وكسرًا لنفوسهم واستعلاءً عليهم؛ وذلك لأنَّه عزيزُ النَّفس حميُّ الأنف، أشمُّ الأنف أشمُّ المَعطِس، شديد الشَّكيمة شديد الحمي أبيُّ الضَّيم، وحتَّى يريهم أنَّه لا يناله طالب، ولا يطمع فيه طامع، وحتَّى يريهم أنَّه الأعزُّ الأعلى، وهكذا ينبغي أن يكون الحال؛ فأين الرِّجال؟

ولا والله، لا يُعزُّ من أذلَّه الله، ولا يُكرَم مَن أهانه الله، ولا يُرفَع مَن وضعه الله، ولا يُقدَّم من أخَّره الله، والعزيز العظيم يربِّي المؤمنين على أعلى درجات العزَّة والرِّفعة والإباء؛ فقال لهم: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)} [سورة محمد].

قال صاحب الظِّلال: "أنتم الأعلونَ؛ فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلم، أنتم الأعلونَ اعتقادًا وتصوُّرًا للحياة، وأنتم الأعلونَ ارتباطًا وصلةً بالعليِّ الأعلى، وأنتم الأعلونَ منهجًا وهدفًا وغاية، وأنتم الأعلون شعورًا وخُلُقًا وسلوكًا، ثمَّ أنتم الأعلونَ قوَّة ومكانة ونصرة، فمعكم القوَّة الكبرى، والله معكم فلستم وحدَكم؛ إنَّكم في صحبة العليِّ الجبَّار القادر القهَّار، وهو لكم نصيرٌ حاضرٌ معكم يدافع عنكم، فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم، وكلُّ ما تبذلون وكلُّ ما تفعلون وكلُّ ما يصيبكم مِن تضحياتٍ محسوبٌ لكم لا يَضِيعُ منه شيء عليكم"، انتهى.

الموتُ أيسرُ مِن إعطاءِ منقصةٍ *** إن لم تمتْ عبطةً فالغايةُ الهرمُ

روى البيهقيُّ بسندٍ حسنٍ عن حشرج بن عبد الله عن أبيه عن جدِّه عن عائذ بن عمرو: أنَّه جاء يوم الفتح مع أبي سفيانَ بنِ حربٍ ورسولُ الله ﷺ حوله أصحابُه، فقالوا: هذا أبو سفيان وعائذ بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ: (هَذَا عَائِذُ بْنُ عَمْرٍو وَأَبُو سُفْيَانَ، الْإِسْلَامُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى)، فحتَّى في ذكر الأسماء على اللِّسان نهى النبيُّ ﷺ أن يقدَّم اسمُ الكافر على المسلم في الذِّكر الطبيعيِّ الجاري على الألسن، وأمر بتقديم ذكر المسلم على الكافر حين الاجتماع؛ لأنَّ الإسلام أعلى من أن يقدَّم عليه شيء، هذا هو العزُّ.

والعزُّ في الأصل: هو القوَّة والشدَّة والغلبة والرِّفعة والامتناع، وهو حالة مانعة للإنسان مِن أن يهان وأن يذلَّ، والعزَّة أيها الأحبَّة: هي الترفُّع بالنَّفس عمَّا يلحقها مِن غضاضة، وهي منزلة شريفة تكون نتيجةَ معرفةِ الإنسانِ بقدَر نفسه، وإكرامها عن الضَّراعة للأعراض الدُّنيويَّة، قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة المنافقون: ٨]، وفي الحديث: (لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ)[١].

العزَّة ما العزَّة؟ العزَّة خصلة شريفة وخلَّة حميدة وخلُق رفيع، وأدبٌ سامٍ تعشقُها قلوبُ الكرام، وتهفو إلى اكتسابها النُّفوس الكبار؛ إنَّ الإسلامَ دين العزَّة والكرامة، دين السُّموِّ والارتفاع، دينُ الجدِّ والاجتهاد، وليس دين ذلَّة ومسكنة، ولا دين كسلٍ وخمول ودعة، وإذا اتَّصف المرء بعزَّة النفس؛ وُفِّرَت كرامتُه، وارتفع رأسُه، وسلم مِن ألمِ الهوان، وتحرَّر من رقِّ الأهواء وذلِّ الطَّمع، ولم يسر إلَّا على ما يمليه عليه إيمانُه والحق الذي يحمله؛ ولذا تجد أنَّ أشدَّ الناس عزمًا ومضاءً هو أنزههم نفسًا وأبعدهم عن الطَّمع وجهًا.

ثمَّ إنَّ عزَّة النفس تضفي على صاحبها وقارًا وجلالًا وجمالًا ومكانةً في القلوب، وذلك ممَّا تنشرح له صدورُ العظماء، وتسَرُّ له نفوسُ الكرماء، وإنَّما يعابُ الرَّجل إذا تخلَّى عن هذه المكانة والغايةِ المنشودة، وإذا أردتَ طلب العزَّة؛ فاطلبها في الطَّاعة.

ستُّ عيونٍ مَن تأتَّتْ له *** كانت له شافية كافية
العلم والعفو والعليا *** والعزَّة والعفَّة والعافية

ولقد علَّم النبيُّ ﷺ أصحابَه العزَّة، فأمرهم تركَ سؤالِ الخلائق، والتَّوجهَ لسؤال الخالق، لقد أوصى -عليه الصلاة والسلام- نفرًا مِن أصحابه ألَّا يسألوا الناسَ شيئًا؛ ففي صحيح الإمام مسلم: عن عوف بن مالك الأشجعيّ -رضي الله عنه- أنَّه لمَّا بايع النبيَّ ﷺ مع طائفة مِن أصحابِه؛ قالوا: فعلامَ نبايعك؟ قال: (أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا -وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً- وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا)، قال عوف: "فلقد رأيتُ بعضَ أولئك النَّفر يسقط سوطُ أحدِهم، فما يسأل أحدًا يناوله إيَّاه".

[١] رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب. وضعف إسناده الأرنؤوط.

وقال أيضًا -كما عند أحمد-: (إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ)[١].

إذا عرضت لي في زماني حاجةٌ *** وقد أشكلت فيها عليَّ المقاصدُ
وقفتُ بباب الله وقفةَ ضارعٍ *** وقلتُ إلهي إنّي لك قاصدُ
ولستَ تراني واقفًا عند بابِ مَن *** يقولُ فتاه سيّدي اليومَ راقدُ

فلا نعتزُّ بمنصبٍ أو مالٍ أو سلاحٍ أو رياسةٍ أو ملك، بل نعتزُّ بالله ودينِه الذي هدانا له، والعزَّة ليست في حسن البزَّة، قال الحسن: "إنَّهم وإنْ هملجتْ بهم البراذين، وزفرتْ بهم البغال؛ إنَّ ذلَّ المعاصي لا يفارق رقابَهم، يأبى اللهُ إلَّا أن يذلَّ مَن عصاه".

روى الحاكم بإسنادٍ صحيحٍ: عن طارق بن شهاب قال: "خرج عمر بن الخطَّاب إلى الشَّام ومعنا أبو عبيدة بن الجرَّاح، فأتوا على مخاضة، وعمرُ على ناقة له، فنزل عنها، وخلع خفَّيه، فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمامِ ناقته، فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: يا أميرَ المؤمنين، أنت تفعل هذا؟! تخلع خفَّيك، وتضعهما على عاتقك، وتأخذُ بزمام ناقتك، وتخوضُ بها المخاضة! ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك! فقال عمر: أوَّه، لم يقلْ ذا غيرك أبا عبيدة، جعلته نكالًا لأمَّة محمد ﷺ؛ إنَّا كنَّا أذلَّ قوم فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلبِ العزَّة بغير ما أعزَّنا الله به أذلَّنا الله".

هذا هو عزُّنا؛ إنَّه الدِّين والإسلام، وأنَّى لأعداء الأمَّة أن يذلُّوها ما استمسكتْ بكتاب ربِّها وجهادِ عدوِّها، ولكل عدوٍّ للإسلامِ أقولُ له:

إن كنتَ ترجو أن تحوّل عزَّنا *** بكفَّيك فانقلْ ذا المناكب يَذْبُلَ
وإنّي لأرجو إن أردتَ انتقالَه *** بكفَّيك أن يأتي عليك ويَثْقُلَ

قال تعالى حاكيًا عن قولِ فرعونَ لسحرته بعد أن آمنوا بموسى: {فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)} [سورة الشعراء].

---

[١] قال الأرنؤوط: حديث صحيح.

قال صاحب الظِّلال: "إنَّها الحماقة التي يرتكبها كلُّ طاغية حينما يُحسُّ بالخطر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة، فلا تحرُّج من قلب أو ضمير، وإنَّها لكلمةُ فرعونَ الطَّاغية المتجبِّر الذي يملك تنفيذَ ما يقول، فما تكونُ كلمةُ الفئةِ المؤمنةِ التي رأتِ النُّور؟! إنَّها كلمةُ القلبِ الذي وجد الله، فلم يعدْ يحفلُ ما يفقد بعد هذا الوجدان، القلبُ الذي اتَّصل بالله فذاق طعم العزَّة، فلم يعدْ يحفل بالطُّغيان، القلبُ الذي يرجو الآخرةَ فلا يهمُّه مِن أمر هذه الدُّنيا قليلٌ ولا كثيرٌ، {قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)} [سورة الشعراء].

لا ضيرَ في تقطيعِ الأيدي والأرجل مِن خلاف، لا ضيرَ في التَّصليب والعذاب، لا ضيرَ في الموتِ والاستشهاد، لا ضير أنَّنا إلى ربِّنا منقلبون، وليكنْ في هذه الأرض ما يكون، فالمَطمَع الذي نتعلَّق به ونرجوه أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا؛ جزاءَ أن كنَّا أوَّلَ المؤمنين، وأن كنَّا نحن السَّابقين؛ إنَّه حين كان بنو إسرائيل يؤدُّون ضريبةَ الذُّلِّ لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، لم تتدخَّل يدُ القدرة لإدارة المعركة، فهم لم يكونوا يؤدُّون هذه الضَّريبة إلَّا ذلًّا واستكانة وخوفا، فأمَّا حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى؛ استعدُّوا لاحتمال التَّعذيب وهم يرفعون الرُّؤوس، ويجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرُّج ودون اتِّقاء التَّعذيب"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

هذه هي العزَّة التي يحملها مَن آمن بالله، ومَن دعا إليه ومَن جاهد في سبيله، هذا درسٌ لكلِّ مجاهد يواجه الطَّواغيتَ المستكبرين أن يستعلي عليهم بإيمانه، ويرتفع عنهم بدينه، ويعتزَّ عليهم بعبوديَّته لله؛ لأنَّه يرتفع ويسمو ويعلو عليهم بالحقِّ الذي يحمله، والهدى الذي يُرشِده.

عن عليٍّ -رضي الله عنه- قال: "مَن نقله الله مِن ذلِّ المعاصي إلى عزِّ التَّقوى؛ أغناه الله بلا مال، وأعزَّه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس"، وهكذا يُعزُّ أهلُ الطَّاعة والإحسان، ويُذلُّ أهلُ المعصية والحرمان.

النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- عندما كان كفَّار قريش يسخرون منه ويستهزئون، ويتعرَّضون له ويؤذون، ويهمزون ويلمزون وينتقصون؛ أجابهم إجابةَ القويِّ بالله، المتوكِّلِ على الله، المعتزِّ بدينه، الواثقِ مِن طريقه، المستيقنِ المستعلي المطمئنِّ بربِّه عز وجل.

روى أحمدُ وابن حبَّان في صحيحه بإسناد حسنٍ صحيحٍ: عن عروةَ بن الزُّبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "قلت له: ما أكثرَ ما رأيت قريشًا أصابتْ مِن رسول الله ﷺ في ما كانتْ تُظهِر مِن عداوته؟! قال: حضرتُهم وقد اجتمع أشرافُهم يومًا في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثلما صبرنا عليه مِن هذا الرَّجل قطُّ؛ سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسبَّ آلهتنا! لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم -أو كما قالوا-، قال: فبينما هم كذلك إذْ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتَّى استلم الرُّكن، ثمَّ مرَّ بهم طائفًا بالبيت، فلمَّا مرَّ بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفتُ ذلك في وجهه، ثمَّ مضى، فلمَّا مرَّ بهم الثَّانية غمزوه بمثلها، فعرفتُ ذلك في وجهه، ثمَّ مضى، ثمَّ مرَّ بهم الثَّالثة فغمزوه بمثلها، فقال: (تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؟ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ)، فأخذتِ القومَ كلمتُه، حتَّى ما منهم إلَّا كأنَّما على رأسه طيرٌ واقع، حتَّى أنَّ أشدَّهم فيه وصاة قبل ذلك لَيرفأه بأحسنِ ما يجدُ مِن القول، حتَّى إنَّه ليقول: يا أبا القاسم، انصرفْ راشدًا؛ فوالله ما كنتَ جهولًا.

قال: فانصرفَ رسول الله ﷺ حتَّى إذا كان الغدُ اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضُهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه؛ حتَّى إذا بدأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم كذلك إذْ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبةَ رجلٍ واحد، وأحاطوا به يقولون له: أنتَ الذي تقولُ كذا وكذا -لما كان يبلغهم عنه مِن عيبِ آلهتهم ودينهم-؟ قال: فيقول رسول الله ﷺ: (نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ)، قال: فلقد رأيتُ رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: وقام أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه- يقول وهو يبكي: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟! ثمَّ انصرفوا عنه، فإنَّ ذلكَ لأشدُّ ما رأيتُ قريشًا بلغتْ منه قطُّ".

فوقف النبيُّ ﷺ موقفَ العزَّة والاستعلاء، وتوعَّد هؤلاء الجُهلَاء، بالذَّبحِ وعظيمِ الجزاء، فخنسوا وانكسرتْ نفوسُهم بموقفِ الإباء، {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)} [سورة الشورى].

ولمَّا سألوه عن عيب آلهتهم ودينهم؛ أجابهم معتزًّا مستعليًا مفتخرًا، ثابتًا مصمّمًا مستكبرًا: (نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ).

قال صاحب الظِّلال: "أي: فيهم على الكافرين شماسٌ وإباءٌ واستعلاء، لهذه الخصائص هنا موضع، إنَّها ليست العزَّة للذَّات، ولا الاستعلاءُ للنَّفس، وإنَّما هي العزَّة للعقيدة والاستعلاءُ للرَّاية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين، إنَّها الثِّقة بأنَّ ما معهم هو الخير، وأنَّ دَورَهم هو أن يطوِّعوا الآخرين للخير الَّذي معهم، لا أن يطوِّعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوِّعوا أنفسَهم للآخرين ومَا عند الآخرين، ثمَّ هي الثِّقة بغلبة دين الله على دين الهوى، وبغلبة قوَّة الله على تلك القوى، وبغلبة حزب الله على الأحزاب الجاهليَّة؛ فهم الأعلونَ حتَّى وهم منهزمون في بعض المعارك، وفي أثناء الطَّريق الطَّويل"، انتهى كلامه -رحمه الله مِن عزيز-.

نحن إمَّا الحياة والعزُّ والإسْلامُ *** أو ضربةٌ تقدُّ المصيرَ
يرضع الطِّفلُ عزَّة الحقِّ والأظْفارُ *** في كفِّه تُبيدُ النُّسورَ
نحن قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام *** لو أنَّنا عقلنا الأمورَ
إنَّه الدِّينُ يا بني الدِّينِ يشكو *** رقَّةً منكمُ ويشكو فتورًا
حينَ ألصقتمُ إلى الأرض واثَّاقلتمُ *** تجمعون فيها الدُّنورَ
ذهبت ريحُه وضاع صداهُ *** وخبا ضوءُهُ فخبتمْ دهورًا

وأمَّا صاحبُ رسول الله ﷺ الصِّدِّيق المعتزُّ بالله، صاحب العزَّة والعزيمة اللَّتينِ حفظ اللهُ بهما الإسلام، بعد موت رسول الله -عليه الصلاة والسلام-؛ فقد وقف موقفَ الثَّبات والعزَّة والقوَّة بعد موت النبيِّ، وقد بدأت القلوبُ تضطرب، والأنفسُ تهن، وتحرَّكت رؤوسُ النِّفاق، وكان ما كان ممَّا ظن النَّاس أنَّ موته -عليه السلام- سيكون ذلًّا للإسلامِ وأهلِه، ولكن وقف الصِّدِّيق صاحبُ العزَّة والإباء، وخطب في النَّاس، كما عند البيهقيِّ عن عروةَ بن الزُّبير قال: قال: "اتَّقوا الله يا أيُّها النَّاس، واعتصموا بدينكم، وتوكَّلوا على ربِّكم؛ فإنَّ دينَ الله قائم، وإنَّ كلمة الله تامَّة، وإنَّ

الله ناصرُ مَن نصره، ومعزُّ دينِه، وإنَّ كتاب الله عز وجل بين أظهرنا، وهو النُّور والشِّفاء، وبه هدى الله محمَّدا ﷺ، وفيه حلال الله وحرامه، والله لا نبالي مَن أجلب علينا مِن خلق الله، وإنَّ سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، ولنجاهدنَّ مَن خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ، فلا يبقينَّ أحدٌ إلَّا على نفسه"، ثمَّ انصرف ومعه المهاجرون إلى رسول الله ﷺ.

فلا إله إلَّا الله! إنَّه حديث العزَّة والله.

بلفظةٍ منك تشفي داءَ مُعضِلةٍ *** أعيا على فصحاءِ النَّاس شافيها
عممتَ بالخير أرضَ الله قاطبةً *** فظلَّ حاضرُها يُثنِي وباديها
تلقى أبا بكرٍ على ما فيه مِن شرفٍ *** مسترسلَ المجدِ لا كبرًا ولا تيهًا
سهل القيادِ لراجيه وآملهِ *** وفي الأعادي عزيز النَّفس أبيها

في السُّنن الكبرى للبيهقيّ: عن طارق بن شهابٍ قال: جاءَ وفدُ بزاغَةَ أسدٍ وغطفانَ إلى أبي بكر -رضي الله عنه- يسألونه الصُّلح، فخيَّرهم أبو بكر -رضي الله عنه- بين الحربِ المُجلِية أو السِّلم المُخزِية، قال: فقالوا: هذه الحربُ المجليةُ قد عرفنا، فما السِّلمُ المخزية؟

قال أبو بكر -رضي الله عنه-: "تؤدُّون الحلقةَ والكراع، وتُترَكون أقوامًا تتَّبعون أذناب الإبل حتَّى يري الله خليفةَ نبيِّه والمسلمين أمرًا يعذرونكم به، وتَدُونَ قتلانا، ولا نَدِي قتلاكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنَّة، وقتلاكم في النَّار، وتَردُّون ما أصبتم منَّا، ونغنم ما أصبنا منكم".

فمنتهى الجواب:

لقد أكمل الله الهدى بمحمَّدٍ *** فمن يرتددْ فالسَّيفُ قاضي القضيَّةِ

ولقد علموا بأنَّ الحرب ليست *** لأصحاب المجامر والخلوقِ
ضربناكم على الإسلام حتَّى *** أقمناكم على وضَحِ الطَّريقِ

عن طارق بن شهاب قال: لمَّا صالح أبو بكر أهلَ الردَّة، قال: صالحهم على حربٍ مجليةٍ أو سلمٍ مخزية، قال: قالوا: قد عرفنا الحربَ المجلية، فما السِّلم المخزية؟

قال: "أن تشهدوا أنَّ قتلانا في الجنَّة، وأنَّ قتلاكم في النَّار"، ففعلوا، وحاله مع أهل الردَّة:

لنا العزَّة القعساءُ والعددُ الذي *** عليه إذا عُدَّ الحصى يتحلَّفُ
تراهم قعودًا حوله وعيونُهُم *** مكسَّرة أبصارها ما تصرَّفُوا
وبيتانِ: بيتُ الله نحن ولاتُهُ *** وبيتٌ بأعلى إيلياءَ مشرَّفُ
ترى النَّاس مَا سِرْنَا يسيرون خلفنا *** وإنْ نحنُ أومأنا إلى النَّاس وقَّفوا
ألوفُ ألوفٍ مِن رجالٍ ومِن قنا *** وخيل كريعانِ الجرادِ وحشرفُ
عطفتُ عليك الحربَ إنِّي إذا وَنَى *** أخو الحربِ كرَّارٌ على القرنِ مِعطَفُ
وما قام منا قائمٌ في ندِيّنا *** فينطق إلَّا بالتي هي أعرفُ
وإنَّا لمن قوم بهم يتَّقى الرَّدى *** ورأب الثأى والجانبُ المتخوّفُ
ولا عزَّ إلَّا عزُّنا قاهرٌ لهُ *** ويسألنا النصفَ الذَّليلَ فنُنصِفُ
وجدنا أعزَّ الناس أكثرهم تقًى *** وأكرمهم من بالمكارم يُعرَفُ
وجهلٌ بحلمٍ قد دفعنا جنونَه *** وما كاد لولا عزُّنا يتزحلفُ

{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)} [سورة المنافقون]، أطنب صاحب الظِّلال في ثنايا حديثه عن هذه الآية، فقال: "ويضمُّ الله سبحانه رسولَه والمؤمنين، ويضفي عليهم مِن عزَّته، وهو تكريم هائل لا يكرِّمه إلَّا الله، وأيُّ تكريمٍ بعد أن يوقف الله سبحانه رسولَه والمؤمنين معه إلى جواره، ويقول: ها هنا اللِّواء، هذا لواء الأعزَّاء، هذا هو الصِّنف العزيز، وصدق الله، فجعل العزَّةَ صنوَ الإيمانِ في قلب المؤمن، العزَّةَ المستمدَّة من عزَّته تعالى، العزَّةَ التي لا تهون ولا تهن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تزايل قلبَ المؤمن في أحرج اللَّحظات إلَّا أن يتضعضعَ فيه الإيمان، فإذا استقرَّ الإيمان ورسخ؛ فالعزَّة معه مستقرَّة راسخة، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون، وكيف يعلمون وهم لا يتذوَّقون هذه العزَّة ولا يتَّصلون بمصدرها الأصيل؟!"، انتهى.

إنَّ تاريخ المسلمين -معاشر المسلمين- ليزخر بمواقف العزَّة، وقفها خلفاء وسلاطين المسلمين، وجمعٌ من الأفذاذ الصَّالحين ممَّن قد أنف ونكف وحمي وانتخى، وأخذته لذلك الأمرِ حميَّة وأنفة وعزة ونخوة، ومنه:

أنَّه لمَّا نقض الرُّوم الصُّلحَ مع المسلمين، كما حكى الطَّبري وابن كثير وغيرهما، في سنة ثمان وسبعين بعد المئة للهجرة، وعزلوا ملكتَهم، وملكوا عليهم نقفور؛ كتب نقفورُ إلى الرَّشيدِ يطلبه بردِّ ما دفعته إليه الملكةُ السَّابقة مِن أموال، فكان ممَّا كتب له:

"مِن نقفورَ ملك الرُّوم إلى هارونَ ملك العرب، أمَّا بعد: فإنَّ الملكة التي كانت قبلي حملت إليك مِن أموالها ما كنتَ حقيقًا بحمل أمثاله إليها؛ وذلك مِن ضعف النِّساء وحمقِهنَّ، فإذا قرأتَ كتابي هذا؛ فارددْ إليَّ ما حملتْه إليك مِن أموال، وافتدِ نفسَك به، وإلَّا فالسَّيفُ بيننا وبينك".

فلمَّا قرأ هارون الرَّشيد كتابَه؛ أخذه الغضب الشَّديد، حتَّى لم يتمكَّن أحدٌ أن ينظر إليه، ولا يستطيع مخاطبته، وأشفق عليه جلساؤه خوفًا منه، ثمَّ استدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

"بسم الله الرَّحمن الرحيم، مِن هارونَ أمير المؤمنين إلى نقفورَ كلبِ الرُّوم، قد قرأتُ كتابَك يا ابن الكافرة، والجوابُ ما تراه دون ما تسمعه، والسَّلام".

وسار حتَّى أناخ بباب هرقلة، ففتح وغنم واصطفى، وأفاد واصطلم وخرَّب وأحرق، فطلب نقفور الموادعة على خراجٍ يؤدِّيه كلَّ سنة، فأجابه إلى ذلك، وحاله مع عدوِّه:

نسيرُ إلى الأعداء والطَّير فوقنا *** لها القوتُ من أعدائنا ولنا النَّصرُ

ثمَّ لمَّا رجع من غزوته وصار بالرقة؛ نقض الكافرُ العهدَ وخان الميثاق، وجاء الخبرُ بارتداده عمَّا أُخِذ عليه، فما تهيَّأ لأحدٍ إخباره بذلك إشفاقًا عليه وعلى أنفسهم مِن الكرَّة في مثل تلك الأيَّام شديدةِ البرد والمطر، فاحتيل له بشاعرٍ فقال:

نقض الَّذي أعطيتَهُ نقفورُ *** فعليه دائرة البوار تدورُ
أبشرْ أميرَ المؤمنينَ فإنَّه *** فتحٌ أتاك به الإلهُ كبيرُ
فتحٌ يزيد على الفتوح يَؤُمُّنا *** بالنَّصر فيه لواؤك المنصورُ
فلقد تباشرتِ الرَّعيَّة أن أتى *** بالنَّقضِ عنه وافدٌ وبشيرُ
ورجتْ يمينَكَ أن تعجِّلَ غزوةً *** تشفي النُّفوسَ مكانها مذكورُ

فلا إلـه إلَّا الله! هكـذا كنَّـا، وهـذه عزَّتنـا، وكـذا كان أسـلافنا وأجـدادنا، ولكن لمَّا تخلَّينـا عن عـزَّة النفس، والاسـتعلاء بالإيمـان على أهـل الطُّغيـان، وارتضـت نفوسُـنا الـذُّلَّ والإذعـان؛ تغيَّرتِ الأمـور، وهتكت السُّـتور، ووقـع المحـذور، وتعـدَّى علينـا كلُّ ساقط كفور، وانتشر الشُّرور، وتمنَّى جمعٌ من الصَّالحين أن لو كانوا في القبور.

فإلى متى يا أمَّتي وحديثُنا *** ألمٌ وأنكادٌ وهمٌّ أبكمُ
سيف الأعادي سلَّ فوق رقابِنا *** وسيوفنا يا أمتي تتثلَّمُ
يا أمَّتي هذي الدُّموع هواتنٌ *** فمتى وربِّكِ يستفيقُ النُّوَّمُ
بالأمس العراقُ الحزينةُ تشتكي *** ظلمًا يباركه الدَّعيُّ المجرمُ
واليومَ شامُنا ينبضُ جرحُها ألمًا *** ونحنُ على الأرائكِ ننعمُ
شتَّان مَن يبكي ويخضب عنبرًا *** والآخرُ الباكي يخضبه الدَّمُ
كانت معالمنا معالم عزَّة *** لكنَّها اندرست وضاع المَعلَمُ
هذي مآتمُنا وقصَّة أمَّةٍ *** ضلَّت وليلٌ عابسٌ متجهِّمُ

قـال رجـلٌ للحسـن: إنِّي أريـدُ السِّـنْدَ فأوصِـني، قـال: "أعـزَّ أمـرَ الله حيث مـا كنـتَ يعزك الله"، قال: فلقد كنتُ بالسِّندِ وما بها أحدٌ أعزَّ منِّي.

وقد قيل للحسنِ بن عليٍّ -رضي الله عنهما-: إنَّ فيك عظمة، قال: "لا، بل فيَّ عـزَّة، قال الله: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}".

ويبقى أن تعلمَ أيهـا الموحِّـد؛ أنَّـك إذا أردت أن تطلب العـزَّة؛ فينبغي أن تطلبهـا في طاعة الله والجهادِ في سبيل الله، فلا عـزَّة تقـوم دون سيفٍ ينصر وكتـابٍ يهـدي، وأمَّا مَن يطلب عزًّا بباطل؛ فإنَّ الله سيورثه ذلًّا بحق، فالسَّيفَ السَّيف يا أمَّتي، والسِّلاحَ السِّلاحَ والجهادَ الجهاد؛ فبهذا عزَّتكم ورِفعتُكم وعلوُّ شأنِكم، ودفعُ المعتدين عنكم.

وقوفُك تحتَ ظلالِ السُّيوف *** أقرَّ الخلافةَ في دارِها
وفي راحتيك الرَّدى والنَّدى *** وكلتاهما طوعُ منكارِها
وأقضية الله محتومةٌ *** وأنت منفِّذ أقدارِها

ومِن مواقـفِ العـزَّة والإبـاء والأنفـة والاسـتعلاء، حتَّى في أشـدِّ أوقـات ضـعف المسـلمين والظُّهـور وغلبـة الصـليبيِّين؛ موقـفٌ سجَّله التَّـاريخ، وقفـةُ أحـدِ سـلاطينِ

المسلمين في الأندلس، في زمن الذُّل والاستضعاف والفرقة؛ ولأنَّه كان من أهل العزَّة والإباء ذكره الذَّهبيُّ في "سِيَرِ أعلامِ النُّبلاء"، إنَّه المظفَّر بن الأفطس، سلطانُ الثَّغر الشَّمالي مِن الأندلس، ودار ملكه بَطَلْيُوس.

قال عنه الذَّهبي في السِّير: كان رأسًا في العلمِ والأدب والشَّجاعة والرَّأي، فكان مناغرًا للرُّوم شجًى في حلوقهم، لا ينفِّس لهم مخنقًا، ولا يُوجِد لهم إلى الظُّهور عليه مرتقى، غنم بلادًا من الرُّوم وهي مجاورته، فكتب إلى المعتمد بالله يفخر وينكِّت عليه بمسالمته للرُّوم، فقيل: إنَّه حصَّل من هذه الغزوة ألفَ جاريةٍ حسناءَ من بناتِ الأصفر، وكان ممَّا قال له:

من يصدْ صيدًا فليصدْ كما صيدي *** صيدي الغزالة مِن مرابضِ الأسدِ

أيُّها الملك، إنَّ الرُّوم إذا لم تُغزَ غزت، ولو تعاقدنا تعاقُد الأولياءِ المخلصين؛ فللْنا حدَّهم، وأذللْنا جدَّهم.

فكتب ملكُ الرُّوم -لعنه الله- رسالةً يُرعِد ويُبرِق، فكان ممَّا أجاب: "وصل إلى الملكِ المظفَّر مِن عظيم الرُّوم كتابٌ مدَّعٍ في المقادير، يرعد ويبرق، ويجمع تارة ويفرِّق، ويهدِّد بالجنود الوافرة، ولم يدرِ أنَّ لله جنودًا أعزَّ بهم الإسلام، وأظهر بهم دين نبيِّنا -عليه الصلاة والسلام-، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، فأمَّا تعييرك للمسلمين فيما وهن مِن أحوالهم؛ فبالذُّنوب المركوبة والفِرَق المنكوبة، ولو اتفقتْ كلمتُنا علمتَ أيَّ مصابٍ أذقناك كما كانت آباؤك مع آبائنا، وبالأمس كانت قطيعةُ المنصورِ على سلفِك أهدى ابنتَه إليه مع الذَّخائر التي كانت تفد عليه في كلِّ عام، ونحن وإن قلَّت أعدادنا، وعُدِمَ من المخلوقين استمدادُنا؛ فما بيننا وبينك بحرٌ تخوضه، ولا صعبٌ تروضه إلَّا سيوفٌ يشهد بحدِّها رقابُ قومك، وجلادٌ تبصره في يومك، وبالله وملائكته نتقوَّى عليك، ليس لنا سواه مطلب، ولا إلى غيره مهرب، و{هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ}، شهادة أو نصر عزيز"، انتهى جوابه -رحمه الله من عزيز-.

فأبشري أمَّتي وأمِّلي خيرًا، وانتظري عزًّا على أيدي جندِ الخلافة ونصرًا، وذلًّا لعدوِّكِ وهزيمة وكسرًا؛ فقد أخذوا على أنفسهم أن يعيدوا الأمجاد السَّالفات،

ويبنوا للخلافة الصُّروح الشَّامخات، ويجدِّدوا الأيَّام الماضيات، ويحملوا النفوس العزيزة الأبيَّات، ويكونوا في جهاد عدوّكِ جبالًا راسيات، فنسأل الله لنا ولكم الثَّبات.

جنودُ خلافتِنا المنصورةِ قادمةٌ *** جموعهُمُ تكسِّر الأقفالَ والرّتجَا
سيقبلون خيولُ النَّصرِ تحملهمْ *** وينفضون تراب الذُّل والرَّهجَا
أتوكِ من كلّ فجٍّ مظلمٍ لُجَجًا *** تسيرُ تتبعُ في أدراجها لُجَجا
من كلّ ناحيةٍ يأتون رايتُهمْ *** خفَّاقة لا ترى في صفِّهمْ عوجا
سفينةُ الخلافةِ يا تاريخُ قادمةٌ *** لا ترهَبُ الموجَ والطُّوفانَ والثَّبجَا
تسيرُ رغمَ هياج الموجِ في ثقةٍ *** كأنَّها الصُّبح والموجُ العنيفُ دُجى
تقولُ يا صَحْبَنَا لا تيأسوا أبدًا *** إنْ عربدَ البَغْيُ واللَّيلُ البهيمُ سَجَى
فالفلك قادمةٌ يحدو مسيرتَها *** جميعُ مَن لطريق العزَّة انتهجَا
واللَّيل مهما عتى واسودَّ جانبُه *** فلن يقرَّ أمام الصُّبح إنْ ولجا
هم يمتطون سروجَ الخيلِ صاهلةً *** ويحملون لذي الدلجةِ السُّرجا
أبناؤها كلُّ شهمٍ من شبيبتنا *** لا يَرهَبُ البغْيَ مهما مادَ واعتلجَا
يفرُّ إبليسُ منهم حين مَقْدَمِهمْ *** فالنَّصرُ في دمهم بالعزِّ قد مُزِجَا
تخرُّ قاعدةُ الإشراكِ إنْ طلعوا *** وإنْ سروا دُكَّ صرحُ الكفرِ وانفلجَا
أتوكِ من كلّ فجٍّ ينشدون لنا *** الله أكبر! جاء الحقُّ وانبلجَا
ويهجرون ديار الذُّلِّ قاطبةً *** والنُّور إنْ عرجوا أيَّان همْ عرجَا
سودٌ معاركهم بيضٌ مخايلهم *** نورٌ مطالعهم كالبدرِ إنْ وهجَا
في صفِّهم كلُّ ذي علمٍ وذي أدبٍ *** هم ثلَّة لا ترى في صفِّهم همجا
في وحدةٍ مثل بنيان مرصَّصةٍ *** أحجاره لا ترى مِن بينهمْ فرجا
الخيرُ في دمهم والنَّصرُ دَيدَنُهم *** والقلبُ يا أمَّتي في حبِّكِ اختلجَا
هم يرحلون إذا ما العزَّةُ ارتحلتْ *** ويدلجون وراء الحقِّ إنْ دلجَا

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة السادسة



الحلقة السادسة: في قيام المسلمين بالعزَّة؛ يُدفَع الكافرُ ويُصَاب بالهزَّة ٢

الحمد لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعين الموحِّدين، ومبيد الطُّغاة المارقين، وناصر المستضعفين على مَن سلك سبيل المجرمين، وجعل العاقبة لهم ليكونوا هم الوارثين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأوَّلين والآخرين، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله مَن جاهد في الله حقَّ جهاده حتَّى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ناشري لواء الدِّين، وعلى مَن تبعهم واقتفى آثارَهم في كلِّ وقت وحين، ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكم الله وأحياكم، وجعل الجنَّة مأوانا ومأواكم، وقوَّى تقواكم، وأحسن أعمالكم، وأعاننا على مَن عادانا وعاداكم، وذخرًا للخلافة أعدَّكم، ترفعون راياتِها، وتذودون عن حياضها، تحاربون عدوَّها، وتنصرون جنودَها، ترصُّون صفوفَها، وتشيِّدون صروحَها، وتضمِّدون جروحَها، وعلى منهاج النبوَّة تحملونها.

ها أنا ذا أعرضُ بضاعتي، فإنْ وافقت قبولًا فالحمد لله، وإن وافقت ردًّا فمن نفسي والشَّيطان وأستغفر الرَّحمن، راجيًا من الله أن تنال هذه الكلمات القبولَ والإعجاب، وأن تكون لنا زادًا على الطَّريق، ومنارًا للسَّبيل، وحجَّة لنا لا علينا يوم اللِّقاء.

إن تجدْ عيبًا فسُدَّ الخللَ *** جلَّ مَن لا عيبَ فيه وعلا

أمَّا بعدُ معاشر المسلمين؛ فما زلنا معكم في الحديث العظيم الَّذي يهواه ويحبُّه كلُّ صاحبِ مروءةٍ كريم، يحبُّ السُّمو والنُّمو والعلوُّ والارتقاء، ويهوى أن يعيشَ على الذُّرى ويخالطَ نجوم السَّماء؛ لأنَّه من أهل العزَّة والاستعلاء، على الجاهليَّة والمظاهرِ الجوفاء، وإنَّ أهلَ الولاءِ والبراءِ والحقِّ والإباء ليسوا ممَّن يرضون أن يعيشوا في الحُفَرِ، بل يتطلَّعون إلى أن يصعدوا إلى القمر، ولا يقبل أحدهم بالامتهان، وما إليه كان.

عزيزٌ على نفسِ الغيورِ اتِّضاعُها *** وعارٌ عليها أن تميلَ لذلَّةِ
زمامُ المراقي في التَّسامي إلى العلا *** وخوض المنايا لاقتناء المعزَّةِ

فالسَّعيَ السَّعي، والحركة الحركة، والطَّلبَ الطَّلب، والله الموفِّق والهادي، ولا ضيرَ بعد ذلك إن لم تدركِ المراد.

فعليَّ طلبُ العزِّ من مستقرِّه *** ولا ذنبَ لي إن حاربتْني المطالبُ

ولا بدَّ أن يعلم طالبُ العزَّة في الدُّنيا والآخرة؛ أنَّ العزَّة لا تنال بغير المشاقّ والتَّعب والنَّصب والبذل والتَّضحيات، وأنَّ العزَّة في الدُّنيا لا تُدرَك إلَّا ببذل الدِّماء وسلِّ السُّيوف، وملاقاةِ الزُّحوف، والتَّعرضِ للحتوف، ورصِّ الصُّفوف، ولزومِ المعروف.

لا يُدرِكُ المجدَ إلَّا سيِّدٌ فطنٌ *** لما يُشَقُّ على السَّاداتِ فعَّالُ
لا وارثٌ جهلتْ يمناه ما وَهَبَتْ *** ولا كسوبٌ بغير السَّيفِ سأَّالُ

لذا لا بدَّ من الصَّبر والثَّبات والتَّحمُّل لعظيمِ المشاقِّ وتتابع البلاء وكثرة الأعداء، ثمَّ الحريقُ لا يُطفَأ بالرِّيق، والنَّجاح سلالمُ مرتفعةٌ ملتويةٌ لا يمكن لأحدنا صعودها ويدُه خلف رأسِه، بل لا بدَّ مِن جهدٍ ومثابرة، وبذلٍ وتضحيةٍ؛ ولذا قيل: "لا ثمرةَ بلا زراعة، ولا ولدَ بلا زوجة، ولا تمكينَ بلا فاعليَّة وتفانٍ ومصابرة"، هذه سنَّة الحياة، وسنن الله تعالى في الأرض، ومَن رام دون بذلِ المقدورِ الوصولَ لم يبلغِ المأمول.

لعمركَ إنَّ المجدَ والفخرَ والعلا *** ونيلَ الأماني وارتفاعَ المراتبِ
لِمن يلتقي أبطالها وسراتها *** بقلبٍ صبورٍ عند وقع المَضَاربِ

ولأنَّه لا عزَّة إلا بالسَّيف الذي يطرد الحيف، ويُبِينُ الزَّيف، ويؤدِّب أهلَ الهوى والكيف؛ فقد قال بعض البلغاءِ مادحًا السَّيف لأنَّه أكرمُ مواهبِ الله لخلقه: "هو آلة النَّجدة وأداة المعرفة والمنعة، وعتاد الرِّفعة وسلاح القوَّة، وظهيرُ الحزم وعضُدُ الوحيد، وأُنْسُ الفريد وزينة الفارس، وسند الرَّجل وشفاءُ الموتورِ ودرك الواتر، وجمالُ الأسيرِ وقوامُ المأمور وحامي الذِّمار، وحارس الحريمِ ومانعُ الجار، ورسولٌ إلى المطالبِ ناهض، وخادمٌ في المآربِ نافذ، وعونٌ على الملمّ بليغ، وظهيرٌ على العدوِّ

قدير، وشهابٌ للعُتَاةِ مُبِير"؛ لذا فمن أرد العزَّة فليحمل السِّلاح، ويأخذ بشريعة الجهاد، وليرفع رايةَ ربِّ العباد.

وخير العلا في مذهبي دفعُ ظالمٍ *** وإنصافُ مظلومٍ وإنهاضُ جاثمِ
وذودٌ عن الدِّين والحمى في كلِّ موقفٍ *** تخاف به الدِّيارُ حملَ المغارمِ

وإنَّ الهزيمةَ الَّتي نزلت بنا، والضَّيمَ الَّذي لحقنا، والهوانَ الَّذي عمَّ ديارَنا بين أصقاعِ أمَّتنا، والمذلَّةَ الَّتي ملأت أرجاءنا، والخسفَ الَّذي حلَّ برجالنا؛ صار لا يشعرُ به جموعٌ مِن أمَّتنا.

ومَن يهنْ يسهلِ الهوانُ عليه *** ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ

فلا يُزاحُ ولا يُرفَع ولا يتغيَّر ولا يتبدَّلُ هذا الذلُّ والهوان والامتهان؛ إلَّا بجهادِ وقتالِ كلِّ مَن تعدَّى علينا مِن الأمم الكافرة السَّافلة الظَّالمة، ولا يكون إلَّا بحربِ الطَّواغيتِ المتحكِّمين بالمسلمين، ولا يُرفَع الظُّلم المُمْتَنِعُ بشوكة إلَّا بقتال وجهاد وشوكة، تكسر شوكةَ الظَّالم، وتؤدِّب المتطاول، وتردع المعتدي وتدفع الصَّائل، وتُلجِم كلَّ مَن على ديننا يُحاوِل.

فلا تبعثنَّ إلى ربيعةَ غيرها *** إنَّ الحديدَ بغيره لا يُفلحُ

فلا بدَّ مِن الجهاد في سبيل الله -عبادَ الله-، لا بدَّ مِن الجهاد الَّذي يزيح ظلم الظَّلمة رُغمًا عن أنوفهم، كسرًا لإرادتهم، وإبادةً لجموعهم، وفلًّا لحديدهم، إرغامًا لكبيرهم وكبحًا لجماحهم في عدوانهم، ودفعًا لصيالهم وبغيهم، ومحوًا لكفرهم وظلمهم.

ومَن تكنِ العلياءُ همَّة نفسِهِ *** فكلُّ الَّذي يلقاه فيها محبَّبُ

***

سأغسلُ عنِّي العارَ بالسَّيفِ جالبا *** عليَّ قضاء الله ما كان جالبا
وأذهلُ عن داري وأجعلُ هدمَها *** لعرضي مِن باقي المذمَّة حاجبا

فإن كانتْ عزَّة الأمَّة ورفعتُها وعلاها لا يُدرَك إلَّا بالجهاد والجلاد، والقتال والاستبسال في حربِ ودفعِ عاديةِ الأممِ الكافرة؛ فلا خيار، ولا بدَّ من ركوب هذا المركب بالاضطرار.

ومَن رام إدراك المعالي سعى لها *** ولو أنَّ ما يسعى عليه الجماجمُ
إذا لم يجدَّ المرءُ فيما يرومُهُ *** فقد فضلتْهُ في الوجودِ البهائمُ
***
وإذا لم تكنْ إلَّا الأسنَّةُ مركبًا *** فلا يسعُ المضطرَّ إلَّا ركوبُها

ولا خيرَ -والله- في حياة الذُّلِ والهوان، والاستعبادِ والتبعيَّةِ والامتهان، وتسلُّط الأوغاد وتحكُّم الأراذل وتأمُّر السُّفهاء الجهلاء، وتمادي الطُّغاة الظَّلمة الكفرة، وتعدِّي العتاة المستكبرين الفجرة.

إذا لم تنلْ عزَّ الحياةِ بصارمٍ *** ولا قلمٍ فالموتُ أبقى وأسترُ
وإنَّ الحياة العزَّ لا يهتدي لها *** أخو وجلٍ يخشى الهلاكَ ويحذرُ

فتوكَّل على الله أيُّها الموحِّد، واستعنْ بالله ولا تعجزْ ولا تَجبُنْ.

إذا ما علا المرءُ رام العلا *** ويقنعُ بالدُّون مَن كان دونًا

فنحن أمَّة السِّيادة، ملكنا الأرضَ وحكمناها بشرعِ الله قرونًا، ودانت لنا أعظمُ ممالكِ الأرض، وأخرجنا العبادَ مِن عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعة الدُّنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن اعتادَ معالي الأمور؛ لم تطبْ نفسُه بأسافلها.

لئن خُلِقَ الأنامُ لحثِّ كأسٍ *** ومزمارٍ وطنبورٍ وعودِ
فلم يُخلَق بنو الخلافةِ إلَّا *** لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجودِ

ونحنُ أبناءُ الإسلامِ وأهلُ الحقِّ والعدلِ والرُّشدِ وأصحاب الشَّوكة أتباعُ محمَّد ﷺ؛ ليس لنا إلَّا الاشتغالُ بمعالي الأمور وعظائمِها، دون سفاسفِها وحقيرِها؛ ففي الحديث الصَّحيح: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا)[١].

---

[١] رواه الطبراني، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: فيه خالد بن إلياس، ضعفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي، وبقية رجاله ثقات.

ونحن أناسٌ لا توسُّطَ بيننا *** لنا الصَّدرُ دون العالمينَ أو القبرُ
أعزُّ بني الدُّنيا وأعلى ذوي العلا *** وأكرمُ مَن فوق التُّرابِ ولا فخرُ
تهونُ علينا في المعالي نفوسنا *** ومَن خطب الحسناءَ لم يُغْلِهَا المَهْرُ

فيا أمَّة التَّوحيد، يا أهلَ الولاءِ والبراء، يا خيرَ خلفٍ لخيرِ سلف، يا مَن افترسوا الفرسَ وكسروا كسرى: عليكم مدار العزائم، وإليكم محار العظائم، وإذا ذُكِرَت المفاخر بين الأوائل والأواخر؛ فلكم الرُّتبةُ الأولى واليدُ الطُّولى، وإذا حلَّ بساحتكم النَّزيل؛ فقد ورد ماءَ النِّيل، وإذا استجارَ بكم المُرهَق مِن العدوِّ الأزرق؛ فقد تمرَّد ماردٌ وعزَّ الأبلق، فيا أمَّتي يا أمَّتي، يا أمَّة العزِّ والشَّرفِ وعلوِّ الخطر، والتَّقدُّمِ والرِّياسةِ والجاهِ والهيبةِ والاحتشامِ والشُّهرة!

هبِّي معي قُومِي معي وانتفضي *** واجتنبي حكمتَكِ السَّقيمة
هيا ادفعيني فوقَ أرتالِ العدا *** حتَّى أبيدَ الزُّمرةَ اللَّئيمة
لم تدمِ الأمجادُ إلَّا بدمٍ *** يغسلُ أدرانَ الخنَا الوخيمة
بالعزمِ والإيمانِ ألقى المعتدي *** مندفعًا مزدريًا جحيمه
أفنى وأفني جمعَهم لكنَّني *** أحيا وأُحيي أمَّة مظلومة
كي تعلم الأجيالُ بعدي أنَّنا *** عشنا ومتنا ميتةً كريمة

ولن يسودَ بين النَّاس ويتولَّى أمرَهم وهدايتَهم وإرشادَهم؛ إلَّا هؤلاء أهلُ العزَّة والإباء، وفي مثلهم قال ابن الخطَّاب -رضي الله عنه-: "لا يقوِّمُ أمرَ النَّاس إلَّا حصيفُ العقدة بعيد العزَّة، لا يطَّلع النَّاسُ منه على عورة، ولا يحنق في الحقِّ على جرَّة، ولا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ"، فاطلبِ العزَّة واسعَ إليها، وابذلْ قصارى جهدِكَ لتنالها وتكونَ مِن أهلها.

أيُّها المسلم العزيز: إذا أردتها فلا تطلبها من ذا وذا وهنا وهناك وبكذا وهكذا، وإنَّما مِن العزيزِ العظيمِ، {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [سورة فاطر: ١٠].

قال صاحب الظِّلال المعتز بالعظيم المتعالي: "وهذه الحقيقةُ كفيلةٌ حين تستقرُّ في القلوب أن تبدِّلَ المعاييرَ كلَّها، وتبدِّلَ الوسائلَ والخططَ أيضًا، إنَّ العزَّة كلَّها لله، وليس شيءٌ منها عند أحدٍ سواه، فمن كان يريد العزَّة فليطلبْها مِن مصدرها الَّذي ليس لها مصدرٌ غيره، لِيطلبْها عند الله؛ فهو واجدُها هناك وليس بواجدِها عند أحدٍ

ولا في أيِّ كنف ولا بأيِّ سبب، فلله العزَّة جميعًا، ليأخذْ مِن الأصلِ الَّذي يملك وحدَه كلَّ العـزَّة، ولا يـذهبْ يطلبُ قمامـةَ النَّـاسِ وفضـلاتِهم وهم مثلُـه طلابٌ محـاويج ضعاف، إنَّهـا حقيقـةٌ أساسيَّة مِن حقـائقِ العقيـدة الإسـلاميَّة، وهي حقيقـةٌ كفيلـةٌ بتعديلِ القيم والموازين وتعديلِ الحكْم والتَّقـدير، وتعـديلِ النَّهج والسُّـلوك، وتعـديلِ الوسـائلِ والأسـباب، ويكفي أن تسـتقرَّ هـذه الحقيقـةُ وحـدَها في أيِّ قلب لتقـفَ بـه أمـامَ الـدُّنيا كلِّها عزيـزًا كريمًـا، ثابتًـا في وقفتـه غير مزعـزَعٍ، عارفًـا طريقَـه إلى العـزَّة، طريقَـه الَّـذي ليس لـه هنالـك سـواه، لن يحـني رأسَـه لمخلـوقٍ متجبِّر، ولا لعاصـفةٍ طاغيـةٍ ولا لحدثٍ جلل، ولا لوضعٍ ولا لحكمٍ ولا لدولـةٍ ولا لمصلحةٍ ولا لقـوَّة مِن قـوى الأرضِ جميعًا، والعزَّة لله جميعًا، وليس لأحدٍ منها شيءٌ إلَّا برضاه.

إنَّ العـزَّة الصَّحيحة حين تستقرُّ في القلب قبل أن يكون لها مظهرٌ في دنيا النَّاس حقيقـةٌ تسـتقرُّ في القلبِ، فيسـتعلي بهـا على كلِّ أسـباب الذِّلَّـة والانحنـاء لغير الله، حقيقةٌ يستعلي بها على نفسه أوَّلَ ما يستعلي، يستعلي بها على شهواتِه المُذِلَّة ورغائبِه القـاهرة، ومخاوفه ومطامعه مِن النَّـاس وغيرِ النَّـاس، ومتى اسـتعلى المرءُ على هـذه؛ فلن يملـكَ أحـدٌ وسـيلةً لإذلالـه وإخضـاعه، فإنَّمـا تُـذِلُّ النـاسَ شـهواتُهم ورغبـاتُهم ومخـاوفُهم ومطامعُهم، ومن اسـتعلى عليها فقد اسـتعلى على كلِّ وضع وعلى كل شيءٍ وعلى كل إنسـان، هذه هي العزَّة الحقيقيَّة ذاتُ القوَّة والاستعلاء والسُّلطان.

إنَّ العـزَّة ليسـت عنـادًا جامحًـا يسـتكبرُ على الحـقِّ ويتشـامخ بالباطـل، وليسـت طغيانًـا فـاجرًا في عتـوٍّ وتجبُّر وإصـرار، وليسـت انـدفاعًا باغيًـا يخضـع للنَّزوة ويُـذَلُّ للشَّـهوة، وليسـت قـوَّةً عميـاءَ تبطش بلا حـقٍّ ولا عـدلٍ ولا صـلاح، كلَّا، إنَّمـا العـزَّة اسـتعلاءٌ على شـهوة النَّفس، واسـتعلاءٌ على القيـدِ والـذُّلِّ، واسـتعلاءٌ على الخضـوعِ الخانعِ لغير الله"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وينبغي أن يكون موقفُ المسلمِ العزيزِ ومقالُه:

نحن أناسٌ لا نذَلُّ لجانف *** علينا ولا نرضى حكومةَ حائفِ
ملكنا المعالي بالعوالي فجارُنا *** عزيزٌ ومَن نكفلْ به غيرُ خائفِ
ورثنا عن الآباء عند اخترامهم *** صفائح تغني عن رسومِ الصَّحائفِ
تأمرنا أسيافُنا ورماحُنا *** إذا لم يأمرنا لواءُ الخلائفِ

بنينا بأطراف الأسنَّة كعبةً *** فطاب بها قسرًا ملوكُ الطَّوائفِ
فمن شاءَ فليَخْشُنْ ومن شاء فلْيَلِنْ *** فما نقدُنا إنْ قارضونا بزائفِ
وسوف نجازي باللَّطائفِ أهلَها *** ونسقي ذعافَ السُّمِّ أهلَ الكنائفِ

وقد يتساءل البعض: كيف تدعون إلى العزَّة وتحرّضون عليها، ونحن اليوم في حال مرير، نذوق به النّار والزّمهرير، وما منّا إلّا مَن هو فقيرٌ أو كسيرٌ أو أسير، وإلى الله المصير؟ قلتُ: أجيبكم بكتاب الله: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)} [سورة آل عمران].

قال صاحبُ الظِّلال: "لا تهنوا ولا تحزنوا لما أصابكم ولما فاتكم، وأنتم الأعلون؛ عقيدتُكم أعلى؛ فأنتم تسجدون لله وحدَه وهم يسجدون لشيءٍ مِن خلقه أو لبعضٍ من خلقه، ومنهجُكم أعلى؛ فأنتم تسيرون على منهج الله وهم يسيرون على منهجٍ مِن صنعِ خلقِ الله، ودورُكم أعلى؛ فأنتم الأوصياءُ على هذه البشريَّة كلِّها، الهداةُ لهذه البشريَّة كلِّها، وهم شاردون عن المنهج ضالُّون عن الطَّريق، ومكانُكم في الأرض أعلى؛ فلكم وراثة الأرض التي وعدكم الله بها، وهم إلى الفناءِ والنِّسيان صائرون، فإنْ كنتم مؤمنين حقًّا فأنتم الأعلون، وإنْ كنتم مؤمنين حقًّا فلا تهنوا ولا تحزنوا، فإنَّما هي سنَّة الله أن تُصَابُوا وتصيبوا، على أن تكونَ لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتَّمحيص"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وإذا سموتَ إلى المعالي فاخترقْ *** عزمًا كما عزم الرِّجالُ البُذَّلُ
إن كنتَ ترضى بالدَّنيَّة منزلًا *** فالأرضُ حيثُ حللتَها لكَ منزلُ

ولأنَّ العزَّة والحديث عنها والدَّعوة إليها، قد أقفرت في هذا الزَّمان أوديتُها، وتقوَّضت أنديتُها، وخرستْ شقشقةُ خطيبِها ومنطيقِها، وجفَّت أقلامُ كتَّابها، بعد أن جرضت بريقُها، وقد طُويَت وللأسفِ مهاريقُها، فهي اليومَ مِن مودعاتِ الخزائن، وصارتْ من جملة الدَّفائن؛ فتعالوا بنا معكم نجدِّدْ هذا الحديث، ونحيِ مَا اندرسَ منها، ونرفعْ مواقفَ العزَّة ونبيِّها، ونأخذْ صورًا وعبرًا منها، علَّ الله أن ينفعَنا بها، فتكونَ دافعًا وحاضًّا في السَّير على طريقِ أصحاب العزَّة وأهل المنعة والهيبة، وتكون زادًا للقلوب في حرب الأممِ المعتديةِ على أمَّتنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

هذا موقفٌ من مواقفِ عزَّة نبيِّه ﷺ معتزًّا فيها بدينه، مستعليًا على الباطلِ وأهلِه، مترفِّعًا عن زينة الدُّنيا وشهواتها ورغباتها، واقفًا موقفَ الحزم والعزم والجدِّ والصَّرامة والتَّرفُّع والقوَّة أمام أعداء الدَّعوة:

فعن جابرِ بنِ عبد الله قال: اجتمعتْ قريشٌ يومًا فقالوا: انظروا أعلمَكم بالسِّحرِ والكهانةِ والشِّعر، فليأتِ هذا الرَّجل الذي فرَّق جماعتَنا، وشتَّت أمرَنا وعاب دينَنا، فليكلِّمْه ولينظرْ ماذا يردُّ عليه، فقالوا: ما نعلمُ أحدًا غيرَ عتبةَ بنِ ربيعة، فقالوا: أنتَ يا أبا الوليد.

فأتاه عتبةُ فقال: يا محمَّد، أنت خيرٌ أم عبد الله؟ فسكت رسولُ الله ﷺ ثمَّ قال: أنت خيرٌ أم عبد المطَّلب؟ فسكت رسولُ الله ﷺ فقال: إنْ كنتَ تزعم أنَّ هؤلاء خيرٌ منك فقد عبدوا الآلهةَ التي عِبتَها، وإنْ كنتَ تزعمُ أنَّك خيرٌ منهم؛ فتكلَّمْ حتَّى نسمعَ قولَك، إنَّا -والله- ما رأينا سخطةً قطُّ أشأمَ على قومه منك؛ فرَّقتَ جماعتَنا، وشتَّتَّ أمرَنا، وعِبتَ دينَنا، وفضحتَنا في العرب، حتَّى لقد طار فيهم أنَّ في قريشٍ ساحرًا، وأنَّ في قريشٍ كاهنًا، والله ما ننتظرُ إلَّا مثلَ صيحةِ الحبلى أن يقومَ بعضُنا لبعضٍ بالسُّيوفِ حتَّى نتفانى!

أيُّها الرَّجل، إنْ كان إنَّما بكَ الباءةُ فاخترْ أيَّ نساءِ قريشٍ ونزوِّجكَ عشرًا، وإنْ كان إنَّما بكَ الحاجةُ جمعْنا لكَ حتَّى تكونَ أغنى قريشٍ رجلًا واحدًا.

فقال رسولُ الله ﷺ: (أَفرَغْتَ؟)، قال: نعم، فقرأ رسولُ الله ﷺ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {حم * تَنْزِيلُ} -حَتَّى بَلَغَ:- {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ})، فقال عتبة: حسبُكَ حسبُكَ! ما عندكَ غير هذا؟ قال: (لَا)، فرجع إلى قريشٍ، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركتُ شيئًا أرى أنَّكم تكلِّمونه به إلَّا وقد كلَّمتُه به، فقالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم، قال: لا والَّذي نصبها بيِّنةً ما فهمت شيئًا ممَّا قال غيرَ أنَّه أنذركم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ، قالوا: ويلك! يكلِّمكَ رجلٌ بالعربيَّة لا تدري ما قال؟! قال: لا والله ما فهمت شيئًا ممَّا قال غيرَ ذكرِ الصَّاعقة [رواه البيهقيُّ والحاكمُ، وقال: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد، ولم يخرِّجاه، ووافقه الذَّهبيُّ].

وحاله:

لا تخضعنَّ رغبًا ولا رهبًا *** فما المرجوُّ والمخشيُّ إلَّا اللهُ
ما قد قضاه الله ما لكَ مِن يدٍ *** بدفاعه وسواه لا تخشاهُ

وأمَّا الصِّدِّيقُ صاحبُ رسولِ الله ﷺ وخليفتُه ووزيرُه الأوَّل؛ كان مِن أمره أنْ وقف موقفَ عزٍّ وإباء، وقوَّةٍ واستعلاء، على رجلٍ مِن الكفَّار والأعداء، ينتقصُ مِن الصَّحابة ويدَّعي أنَّهم جبناء؛ فعندما جاء عروةُ بنُ مسعود إلى النبيِّ ﷺ يوم الحديبية، وقال: أي محمد، أرأيتَ إنِ استأصلتَ أمرَ قومِك! هل سمعتَ بأحدٍ مِن العرب اجتاح أهلَه قبلك، وإن تكنِ الأخرى فإنِّي -والله- لأرى وجوهًا، وإنِّي لأرى أوشابًا مِن النَّاس خليقًا أن يفرُّوا ويدعوك، فقال له أبو بكر الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه-: "امصصْ ببظرِ اللَّات، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟!".

فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والَّذي نفسي بيده، لولا يدٌ كانت لك عندي لم أَجزِكَ بها؛ لأجبتُك، قال: وجعل يكلِّم النبيَّ ﷺ فكلَّما تكلَّم أخذَ بلحيتِه، والمغيرةُ بن شعبةَ قائمٌ على رأسِ النبيِّ ﷺ ومعه السَّيفُ وعليه المِغفَرُ، فكلَّما أهوى عروةُ بيده إلى لحيةِ النبيِّ ﷺ ضرب يدَه بنعل السَّيف، وقال له: "أخِّرْ يدَك عن لحيةِ رسول الله ﷺ".

ويقف الصَّحابة الأعزَّة موقفًا قلَّ نظيرُه بل انعدم مثيلُه في التَّاريخ، يرفضون الصُّلح ويأبون السِّلم على أن يعطوا مَن تداعى على حربهم شيئًا مِن ثمار المدينة، فلا إله إلَّا الله! ما أعظمَ هؤلاء الرِّجال! وما أجلَّ هذه الأفعال!

قال ابنُ هشامٍ في السِّيرة النَّبويَّة: فلما اشتدَّ على النَّاس البلاء -يقصد يومَ الخندقِ والأحزاب- بعث رسولُ الله ﷺ إلى عيينةَ بنِ حصنٍ وإلى الحارثِ بنِ عوفٍ، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلثي ثمارِ المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهم الصُّلح حتَّى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشَّهادةُ ولا عزيمة الصُّلح إلَّا المراوضة في ذلك، فلمَّا أراد رسولُ الله ﷺ أن يفعل؛ بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه، فقالا له: "يا رسولَ الله، أمرٌ تحبُّه فتصنعه، أم شيءٌ أمرك الله به لا بدَّ لنا مِن العملِ به، أم شيءٌ تصنعه

لنا؟"، قال: (بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللَّهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّنِي رَأَيْتُ الْعَرَبَ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ[١] مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَّا).

فقال له سعد بن معاذ: "يا رسولَ الله، قد كنَّا نحنُ وهؤلاء القوم على الشِّرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبدُ الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلَّا قِرًى أو بَيعًا، أفحينَ أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزَّنا بك نعطيهم أموالَنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلَّا السَّيفَ حتَّى يحكمَ اللهُ بيننا وبينهم"، قال رسول الله ﷺ: (فَأَنْتَ وَذَاكَ)، فتناول سعد بن معاذ الصَّحيفةَ فمحا ما فيها مِن الكتاب، ثمَّ قال: "ليجهدوا علينا".

وفي مغازي الواقديِّ قال: "يا رسول الله، إنْ كانوا لَيأكلون العِلهِزَ في الجاهليَّة مِن الجهد، ما طمعوا بهذا منَّا قطُّ أن يأخذوا ثمرةً إلَّا بِشِراء أو قِرًى، أفحين أتانا الله تعالى بكَ، وأكرمنا بك وهدانا بك نعطي الدَّنيَّة؟! لا نعطيهم أبدًا إلَّا السَّيف"، فقال رسولُ الله ﷺ: (شُقَّ الْكِتَابَ)، فتفل فيه سعدٌ ثمَّ شقَّه، وقال: "بيننا السَّيف"، فقام عيينةُ وهو يقول: أما والله للَّتي تركتمْ خيرٌ لكم مِن الخطَّة الَّتي أخذتم، وما لكم بالقوم طاقة، فقال عبادةُ بنُ بشر: "يا عيينةُ، أبالسَّيفِ تخوِّفنا؟! ستعلم أينا أجزع، وإلَّا فوالله لقد كنتَ أنت وقومك تأكلون العلهز والرِّمة مِن الجهد، فتأتون ها هنا ما تطمعون بهذا منَّا إلَّا قِرًى أو شراء، فنحن لا نعبد شيئًا، فلمَّا هدانا الله وأيَّدنا بمحمَّد رسول الله ﷺ؛ سألتمونا هذه الخطَّة؟! أما والله لولا مكانُ رسول الله ﷺ ما وصلتم إلى قومكم"، فقال النبيُّ ﷺ: (ارْجِعُوا، بَيْنَنَا السّيْفُ!) رافعًا صوتَه، وحالهم:

سلِ الوقائعَ عمَّا كان مِن أجلٍ *** في صفحتَيْهِ وعمَّا كان مِن عملِ
تديره كفُّ غلَّابين عمرهمُ *** في ضربةِ السَّيفِ أو في طعنة الأسلِ
لا يسكتون على ضيمٍ يُرادُ بهم *** ولا يقرُّ لهم قلبٌ على ذحلِ
يجيبُ كلُّ فتى منهم مُسَائِلَهُ *** بالسَّيف لا بعباراتٍ ولا جُمَلِ
مِن كلِّ حرٍّ عزيزِ النَّفسِ ممتنعٍ *** كالشَّمسِ ممنوعةً إلَّا على المُقَلِ
قل للضَّعيف بلا سيفٍ يؤيِّدهُ *** أما سمعتَ حديثَ الذِّئبِ والحملِ؟!

[١] يُقالُ: هم يَتَكَالَبُونَ على كذا: أي يَتَوَاثَبُونَ عليه. انظر لسان العرب.

ما قيمةُ الحقِّ إن لم يحمِ جانبَهُ *** صوتُ الأسنَّة لا صوتٌ مِن الجدلِ؟!

وإنَّ مِن أعظمِ مواقفِ عزَّة المسلمين موقفًا وقفه المغيرةُ بن شعبةَ وربعيٌّ بن عامر يوم القادسيَّة أمامَ أكفرِ أهلِ الأرضِ المجوس، بلْ أمامَ سيِّدهم وعظيمِهم رستم، فكان مِن أمرهم كما ذكر ابنُ كثيرٍ في البداية والنِّهاية فقال: "قال سيفٌ عن شيوخه: ولمَّا تواجه الجيشان؛ بعث رستم إلى سعدٍ أن يبعثَ إليه برجلٍ عاقلٍ عالمٍ بما أسأله عنه، وأنِ ابعثْ إلينا رجلًا نكلِّمه ويكلِّمنا، فدعا سعدٌ جماعةً ليرسلَهم إليهم، فقال له ربعيٌّ بن عامر: متى نأتِهم جميعًا يروا أنَّا قد احتفلنا بهم، فلا تزدْهم على رجل، فأرسله وحدَه فسار إليهم، ولمَّا بعث إليه المغيرةَ بن شعبة -رضي الله عنه- وقدم عليه؛ جعل رستم يقول له: إنَّكم جيرانُنا وكنَّا نحسن إليكم، ونكفُّ الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم، لا نمنع تجارتَكم من الدُّخول إلى بلادنا.

فقال له المغيرة: إنَّ ليس طلبنا الدُّنيا، وإنَّما همُّنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولًا قال له: "إنِّي قد سلطتُ هذه الطَّائفةَ على مَن لم يدن بديني، فأنا منتقمٌ بهم منهم، وأجعلُ لهم الغلبةَ ما داموا مقرِّين به، وهو دين الحقِّ لا يرغبُ عنه أحدٌ إلا ذلَّ، ولا يعتصمُ به أحدٌ إلَّا عزَّ". فقال له رستم: فما هو؟ فقال: أمَّا عموده الَّذي لا يصلح شيءٌ منه إلَّا به؛ فشهادة أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء مِن عند الله، فقال: ما أحسنَ هذا! وأيُّ شيءٍ أيضًا؟ قال: وإخراجُ العبادِ مِن عبادة العباد إلى عبادة الله، قال: وحسنٌ أيضًا، وأيُّ شيءٍ أيضًا؟ قال: والنَّاسُ بنو آدمَ وحواء؛ فهم إخوةٌ لأبٍ وأمٍّ، قال: وحسنٌ أيضًا، ثمَّ قال رستم: أرأيتَ إنْ دخلنا في دينِكم؛ أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله، ثمَّ لا نقرب بلادكم إلَّا في تجارةٍ أو حاجة، قال: وحسنٌ أيضًا.

قال: ولمَّا خرج المغيرةُ مِن عنده؛ ذاكر رستم رؤساءَ قومِه في الإسلام، فأبوا أن يدخلوا فيه -قبحهم الله وأخزاهم- وقد فعل، قالوا: ثمَّ بعث إليه سعدٌ رسولًا آخر بطلبه، وهو ربعيٌّ بن عامر، فدخل عليه وقد زيَّنوا مجلسَه بالنَّمارق المذهَّبة والزرابيِّ والحرير، وأظهر اليواقيتَ واللآلئ الثَّمينة والزِّينة العظيمة، وعليه تاجُه وغير ذلك مِن الأمتعة الثَّمينة، وقد جلس على سريرٍ مِن الذَّهب، ودخل ربعيٌّ بثيابٍ صفيقةٍ وسيفٍ وترسٍ وفرسٍ قصيرة، ولم يزلْ راكبها حتَّى داس بها على طرف البساط، ثمَّ نزل

وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحُه ودرعُه وبيضتُه على رأسه، فقالوا له: ضعْ سلاحَك، فقال: إنِّي لم آتكم وإنَّما جئتكم حينما دعوتموني، فإنْ تركتموني هكذا وإلَّا رجعتُ، فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكَّأ على رمحه فوق النَّمارق حتَّى خرَّق عامَّتها.

فقالوا له: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا لنُخرجَ مَن شاء مِن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومِن ضيق الدُّنيا إلى سعتها، ومِن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومَن أبى قاتلناه أبدًا حتَّى نفضي إلى موعود الله، قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنَّةُ لمن مات على قتالِ مَن أبى، والظَّفرُ لمن بقي، فقال رستم: قد سمعتُ مقالتَكم، فهل لكم أن تؤخِّروا هذا الأمرَ حتَّى ننظرَ فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحبُّ إليكم، يومًا أو يومين؟، قال: لا، بل حتَّى نكاتبَ أهلَ رأينا ورؤساء قومنا، فقال: ما سنَّ لنا رسولُ الله ﷺ أن نؤخِّر الأعداء عند اللِّقاء أكثرَ مِن ثلاث، فانظرْ في أمرك وأمرهم، واخترْ واحدةً مِن ثلاث بعد الأجل، فقال: أسيدُهم أنت؟ فقال: لا، ولكنَّ المسلمين كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قطُّ أعزَّ وأرجحَ مِن كلام هذا الرَّجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميلَ إلى شيءٍ مِن هذا، وتدعَ دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟! فقال: ويلكم! لا تنظروا إلى الثِّياب، وانظروا إلى الرَّأي والكلامِ والسِّيرة، إنَّ العربَ يستخفُّون بالثِّياب والمأكل، ويصونون الأحساب، ثم بعثوا يطلبون في اليوم الثَّاني رجلًا، فبُعِث إليهم حذيفةُ بن محصن، فتكلَّم نحو ما قال ربعيٌّ، وفي اليوم الثَّالث المغيرة بن شعبة، فتكلَّم بكلامٍ حسنٍ طويل.

قال فيه رستم للمغيرة: إنَّما مثلكم في دخولكم أرضَنا كمثل الذُّباب رأى العسل، فقال: مَن يوصلني إليه وله درهمان؟ فلمَّا سقط عليه غرق فيه، فجعل يطلب الخلاص فلا يجده، وجعل يقول: مَن يخلِّصني وله أربعة دراهم؟ ومثلكم كمثل ثعلبٍ ضعيفٍ دخل جحرًا في كرم، فلمَّا رآه صاحب الكرم ضعيفًا رحمه فتركه، فلمَّا سَمِن أفسد شيئًا كثيرًا، فجاء بجيشه واستعان عليه بغلمانه، فذهب ليُخرجِ فلم يستطع لسمنه فضربه حتَّى قتله، فهكذا تخرجون من ديارنا، ثمَّ استشاط غضبًا وأقسم

بالشَّمس لأقتلنَّكم غدًا، فقال المغيرة: ستعلم، ثم قال رستم للمغيرة: قد أمرتُ لكم بكسوةٍ ولأميركم بألف دينارٍ وكسوةٍ ومركوبٍ، وتنصرفون عنَّا.

فقال المغيرة -واسمعوا ماذا قال عبادَ الله- قال: أبعد أن أوهنَّا ملككم، وضعَّفنا عزَّكم، ولنا مدَّة نحو بلادكم، ونأخذ الجزيةَ منكم عن يدٍ وأنتم صاغرون، وستصيرون لنا عبيدًا على رغمكم؟! فلمَّا قال ذلك؛ استشاط غضبًا، قال: قال أبو وائل: جاء سعدٌ حتَّى نزل القادسيَّة ومعه النَّاس، قال: لا أدري لعلَّنا لا نزيدُ على سبعةِ آلاف أو ثمانية آلاف بين ذلك، والمشركون ثلاثون ألفًا أو نحوَ ذلك، فقالوا: لا يد لكم ولا قوَّة ولا سلاح، ما جاء بكم؟، ارجعوا، فقال: قلنا: ما نحن براجعين، فكانوا يضحكون من نبْلِنا، ويقولون: "دوك دوك"، يشبِّهونَ بالمغازل.

فلمَّا أبينا عليهم أن نرجع؛ قالوا: ابعثوا إلينا رجلًا مِن عقلائكم يبيِّن لنا ما جاء بكم، فأقبل المغيرةُ حتَّى جلس مع رستمَ على سريره، فتواثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه، وقال: قد كانت تبلغُنا عنكم الأحلام، ولا أرى قومًا أسفهَ منكم، إنَّا معشرَ العربِ لا يستعبدُ بعضُنا بعضًا، فظننتُ أنَّكم تُساوُون قومَكم كما نتساوى، فكان أحسن مِن الذي صنعتم أن تخبروني أنَّ بعضَكم أرباب بعض، فإنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد، وإنِّي لم آتكم ولكن دعوتموني، اليومَ علمتُ أنَّكم مغلوبون، وأنَّ ملكًا لا يقومُ على هذه السِّيرة ولا على هذه العقول.

فقالت السَّفلة: صدق -والله- العربيُّ، وقالت الدَّهاقين: والله لقد رمى بكلامٍ لا تزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أوَّلينا حين كانوا يصغِّرون أمر هذه الأمَّة، فقال رستم: صدق، ما جاء بكم؟

إنَّا كنَّا قومًا في شرٍّ وضلالة، فبعث الله إلينا نبيًّا فهدانا الله به، ورزقنا على يديه، فكان فيما رزقنا حبَّة تنبُت في هذا البلد، فلمَّا أكلناها وأطعمنا أهلينا؛ قالوا: لا صبرَ لنا عنها، أنزلونا في هذه الأرض حتَّى نأكلَ مِن هذه الحبَّة، فقال رستم: إذن نقتلكم، قال: إنْ قتلتمونا دخلنا الجنَّة، وإنْ قتلناكم دخلتمُ النَّارَ أو أدَّيتم الجزية، قال: فلمَّا قال: "أو أدَّيتمُ الجزية"، نخروا وصاحوا، وقالوا: لا صلحَ بيننا وبينكم، فقال المغيرة:

تَعبُرون إلينا أو نَعبُر إليكم، فقال رستم: بل نَعبُر إليكم، فاستأخر المسلمون حتَّى عبروا، فحملوا عليهم فهزموهم.

وذكر سيفٌ أنَّ سعدًا كان به عرق النِّسا يومئذ، وأنَّه خطب النَّاس وتلا قولَه تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)} [سورة الأنبياء]".

ثمَّ ذكر الحديثَ في طردِهم إيَّاهم وقتلِهم لهم، وقعودِهم لهم كلَّ مرصد، وحصرِهم لبعضهم في بعض الأماكن، حتَّى أكلوا الكلاب والسَّنانير، وما ردَّ شاردُهم حتَّى وصل إلى نهاوند، ولجأ أكثرُهم إلى المدائن، ولحقهم المسلمون إلى أبوابها.

وكان مِن حديث النُّعمان مع كسرى يزدجرد أنْ قال له: فاخترْ إنْ شئتَ الجزيةَ وأنت صاغرٌ، وإنْ شئتَ فالسَّيفُ أو تُسلِم فتنجي نفسَك، فقال يزدجرد: استقبلتَني بمثل هذا؟! فقال: ما استقبلتُ إلَّا مَن كلَّمني، ولو كلَّمني غيرُك لم أستقبله إلَّا به، فقال: لولا أنَّ الرُّسلَ لا تُقتَل لقتلتُكم، لا شيءَ لكم عندي، وقال: ائتوني بوقرٍ مِن تراب، فاحملوه على أشرفِ هؤلاء، ثمَّ سوقوه حتَّى يخرج مِن أبيات المدائن، ارجعوا إلى صاحبِكم، فأعلموه أنِّي مرسلٌ إليه رستم حتَّى يدفنه وجندَه في خندق القادسيَّة، وينكِّلَ به وبكم مِن بعد، ثمَّ أوردُه بلادَكم حتَّى أُشغِلكم في أنفسكم بأشدَّ ممَّا نالكم مِن سابور، ثمَّ مضى حاملُ التُّراب من الصَّحابة حتَّى جعل التُّرابَ في حجر، ثمَّ رجع فدخل على سعد فأخبره الخبر، فقال: أبشروا فقد أعطانا الله أقاليدَ ملكهم، وتفاءلوا بذلك أخذَ بلادِهم، ثمَّ لم يزلْ أمر الصَّحابة يزداد في كلِّ يوم علوًّا وشرفًا ورفعة، وينحطُّ أمر الفرسِ سفلًا وذلًّا ووهنًا.

فلا إله إلَّا الله! ما أعظمَ هذه المواقف، وما أجلَّها مِن صورِ عزَّة! ينفطر القلبُ ألمًا عندما ينظر إليها وينظر لحال المسلمين اليوم، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

فيا أيها المسلم الموحِّد، يا صاحبَ العزَّة، قمْ وانتفضْ، وتحرَّكْ ولا تنقبضْ، ثمَّ استحضرْ هذا التَّاريخ، وانصبْ لعدوِّك الفخاخَ وارجمْهُ بالصَّواريخ.

حكِّم سيوفَك في رقابِ العذل *** وإذا نزلتَ بدار ذلٍّ فارحلِ
وإذا الجبانُ نهاك يوم كريهةٍ *** خوفًا عليكَ مِن ازدحامِ الجحفلِ

فاعصِ مقالتَه ولا تحفلْ بها *** واقدِمْ إذا حُقَّ اللِّقا في الأوَّلِ
واخترْ لنفسِك منزلًا تعلو به *** أو متْ كريمًا تحت ظلِّ القسطلِ
فالموتُ لا يُنجيكَ مِن آفاتِهِ *** حصنٌ ولو شيَّدتَه بالجندلِ
موتُ الفتى في عزَّة خيرٌ لهُ *** مِن أن يبيتَ أسيرَ طرفٍ أكحلِ
لا تسقِني ماءَ الحياةِ بذلَّةٍ *** بل فاسقني بالعزِّ كأسَ الحنظلِ

إنَّ هذا الموقفَ العظيمَ مع سادة الفرس؛ يدعو المسلمَ إلى أن يكونَ عزيزًا في دعوته، قويًّا في طرحه، صريحًا في أمره، واضحًا في هدفه، مستعليًا في عَرضِه ومقاله، {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖفَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [سورة الكهف: ٢٩].

قال صاحبُ الظِّلال: "بهذه العزَّة وبهذه الصَّراحة وبهذه الصَّرامة؛ فالحقُّ لا ينثني ولا ينحني، وإنَّ ما يسيرُ في طريقه قيمًا لا عوجَ فيه، قويًّا لا ضعفَ فيه، صريحًا لا مداراةَ فيه، فمَن شاءَ فليؤمنْ ومَن شاءَ فليكفرْ، ومَن لم يعجبْه الحقُّ فليذهبْ، ومَن لم يجعلْ هواهُ تبعًا لما جاء مِن عند الله؛ فلا مجاملةَ على حسابِ العقيدة، ومن لم يحنِ هامتَه أمامَ جلالِ الله؛ فلا حاجةَ بالعقيدة إليه؛ إنَّ العقيدةَ ليستْ ملكًا لأحد حتى يُجامَلَ عليها، إنَّما هي ملكٌ لله، والله غنيٌّ عن العالمين، والعقيدةُ لا تعتزُّ ولا تنتصرُ بمن لا يريدونها لذاتها خالصة، ولا يأخذونها كما هي بلا تحوير"، انتهى.

أمَّا الحياةُ فليس يرضى ذلَّها *** إلَّا وضيعٌ في الورى وحقيرُ
وعجبتُ ممَّن يستكينُ وعندهُ *** عزم يفلُّ شبا الظَّبيِّ مطرورُ

ومِن المواقفِ العظيمة والأعمالِ الجليلة والصُّور الخطيرة والوقفات الكبيرة مَا قام به قتيبة بن مسلم، أحد أساطين الفتح الإسلاميِّ العظيم، فكان مِن أمره كما ذكر غيرُ واحدٍ، ومنهم الطَّبريُّ في تاريخ الرُّسل والملوك، قال: "توغَّل قتيبة في خراسان حتَّى قرب من الصِّين، قال: فكتب إليه ملك الصِّين أنِ ابعثْ إلينا رجلًا مِن أشرافِ مَن معكم يخبرنا عنكم، ونسائله عن دينكم، فانتخب قتيبة مِن عسكره اثني عشر رجلًا، وقال بعضهم: عشرة رجالٍ مِن أفناء القبائل، لهم جمالٌ وأجسامٌ وألسُنٌ وشعورٌ وبأس، بعدما سأل عنهم فوجدهم مِن صالح مَن هم منه، قال: وكان هبيرةُ بنُ المُشَمْرَج، فقال: يا هبيرة، كيف أنت صانع؟، قال: أصلح الله الأمير، قد كُفِيتُ الأدب، وقل ما شئتَ أقلْه وآخذ به، قال: سيروا على بركة الله وبالله التَّوفيق، لا تضعوا

العمائمَ عنكم حتَّى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أنِّي قد حلفتُ ألَّا أنصرفَ حتَّى أطأ بلادَكم وأختمَ ملوكَكم، وأجبي خراجَكم.

قال: فساروا وعليهم هبيرة بن المشمرج، فلمَّا قدموا أرسل إليهم ملكُ الصِّين يدعوهم، فلمَّا أمسى أرسل إليهم الملكُ أنِ ابعثوا إليَّ زعيمَكم وأفضلَكم رجلًا، فبعثوا إليه هبيرة فكلَّمه، فقال له: انصرفوا إلى صاحبِكم -يعني قتيبة- وقولوا له ينصرفْ راجعًا عن بلادي؛ فإنِّي قد عرفتُ حرصَه وقلَّة أصحابِه، وإلَّا بعثتُ إليكم مَن يهلككم عن آخركم، فقال له هبيرة: تقولُ لقتيبةَ هذا؟! فكيف يكونُ قليل الأصحاب مَن أوَّل خيله في بلادِك وآخرُها في منابت الزَّيتون؟! وكيف يكونُ حريصًا من خلَّف الدُّنيا قادرًا عليها وغزاك في بلادك؟!

وأمَّا تخويفُك إيَّانا بالقتل؛ فإنَّا نعلم أنَّ لنا أجلًا إذا حضر، فأكرمها عندنا القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه، فقال الملك: فما الذي يرضي صاحبكم؟ فقال: إنَّ القائدَ قد حلف -يعني قتيبة- ألَّا ينصرف حتى يطأ أرضَكم، ويختم ملوكَكم، ويجبي الجزيةَ من بلادكم، فقال: أنا أبرُّ بيمينه وأخرجه منها، أرسلُ إليه بترابٍ من أرضي، وأربعَ غلمانٍ من أبناء الملوك، وأرسلُ إليه ذهبًا كثيرًا وحريرًا وثيابًا صينيَّة لا تقوَّم ولا يُدرَى قدرُها، ثمَّ جرت لهم معه مقاولاتٌ كثيرة، ثمَّ اتَّفق الحال على أن بعث صحافًا من ذهبٍ متَّسعة، فيها ترابٌ من أرضِه ليطأه قتيبة، وبعث بجماعةٍ من أولاده وأولاد الملوك ليختم رقابَهم، وبعث بمالٍ جزيلٍ ليبرَّ بيمين قتيبة، وقيل: إنَّه بعث أربعمئة مِن أولاده وأولاد الملوك، فلمَّا انتهى إلى قتيبةَ ما أرسله ملكُ الصِّين؛ قَبِل ذلك منه، فقبل قتيبةُ الجزيةَ وختم الغلمةَ وردَّهم ووطئ التُّراب، فقال سوادة بن عبد الله السَّلوليُّ:

لا عيبَ في الوفد الذين بعثتَهمْ *** للصِّين أن سلكوا طريقَ المنهجِ
كسروا الجفونَ على القذى خوفَ الرَّدى *** حاشا الكريم هبيرة بن المشمرجِ
لم يرضَ غير الختمِ في أعناقهمْ *** ورهائنٌ دُفِعَت بحملٍ سمرجِ
أدَّى رسالتك التي استرعيتَهُ *** وأتاك مِن حنثِ اليمينِ بمخرجِ

فيا أمَّتي، لمَّا استعلى هؤلاء عن الرَّغبات، وتركوا الشَّهوات، وفوَّتوا المطالبَ الدَّنيَّات؛ سادوا وشادوا وعزُّوا، وعلا أمرُهم وارتفع، وذلك لأنَّه

عزيزُ النَّفسِ مَن لزم القناعة *** ولم يكشفْ لمخلوقٍ قِناعَه
فانفضْ يديك مِن طمعٍ وحرصٍ *** وقلْ لفاقتك سمعًا وطاعة

ومِن تلك المواقفِ العظيمةِ؛ أن كتب طاغيةُ الرُّوم إلى الخليفة المعتصم العبَّاسيّ، يتهدَّده ويتوعَّده، فأمر بجوابه، فلمَّا عُرِض عليه رماه، وقال للكاتب: اكتبْ "أمَّا بعدُ؛ فقد قرأتُ كتابَك، وسمعتُ خطابَك، والجوابُ ما ترى لا ما تسمع، {وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ}"، وكأنَّ مقالَه:

مَن اقتضى بسوى الهنديّ حاجته *** أجاب كل سؤالٍ عنها البِلَم

وقال أبو بكرٍ الخطيبُ وغيره: غزا المعتصمُ بلادَ الرُّومِ سنة ثلاثٍ وعشرين، فأنكى في العدوِّ نكايةً عظيمةً، ونصب على عموريَّة المنجنيق، وقتل ثلاثين ألفًا وسبى مثلَهم، ثمَّ أحرقَ عموريَّة.

وما المجدُ إلَّا وثبةٌ تملأ الورى *** أحاديث تُتلَى في الأنامِ وتُذكَرُ
مَن لم ينل فيها حياةً عزيزةً *** فإنَّ طريق الموت للعزِّ أخصرُ

ومنه أنَّ رسالةً كتبها "أذفومش" الأسبانيُّ ملكُ الرُّوم في حينه للمنصور، يستدعيه فيه للقتال، وبعدما قرأ المنصورُ هذا الكتاب؛ دعا بولده ووليِّ عهده محمَّد الناصر، فدفعه إليه وأمره أن يجيبَ عنه، فقرأه هذا الأخير ثمَّ مزَّقه وقلبه، فكتب على ظهر قطعةٍ منه: "قال اللهُ العظيمُ: {ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)} [سورة النمل]، الجوابُ ما ترى لا ما تسمع، وأنشد بيت المتنبِّي متمثِّلًا:

ولا كُتُبٌ إلَّا المشرفيَّة والقنا *** ولا رسلٌ إلَّا الخميسُ العرمرمُ"

وحاله:

وكنتُ إذا قومٌ غزوني غزوتُهمْ *** فهل أنا في ذا يا يالهمدانَ ظالمُ
متى تجمعِ القلبَ الذَّكيَّ وصارمًا *** وأنفًا حميًّا تجتنبْكَ المظالمُ
فلا صلحَ حتَّى تُقدَعَ الخيلُ بالقنا *** وتُضرَب بالبيضِ الخفافِ الجماجمُ
ولا أمنَ حتَّى تغشم الحربُ جهرةً *** الرُّوم يومًا والحروبُ غواشمُ
كذبتم ويمين الله لا تأخذونها *** مراغمةً ما دام للسَّيفِ قائمُ

وفي موقفِ إسلامِ أميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطَّاب -رضي الله عنه- ما هو مِن أعظمِ مواقف العزَّة والاستعلاء، والقوَّة والإباء، مِن النبيِّ العزيز وعمِّه حمزةَ بنِ عبد المطَّلب، وهو من هو؟! والله إنَّه لأعزُّ مِن جبهة الأسد، وله عزَّة غلباء، وهو في عزٍّ باذخ، وقد تقمَّص النبيُّ ﷺ لباسَ العزِّ، وأقام تحت ظلال العزِّ، وأدرك عزَّةً لا تُقهَر وعزَّةً لا تُضَام، وبلغ عزًّا لا يقرع الدَّهرُ مَروَتَه، ولا ينقضُ مِرَّتَه.

قال ابن هشامٍ في السِّيرة: "قال خبَّابٌ: يا عمر، والله إنِّي لأرجو أن يكونَ الله قد خصَّك بدعوة نبيِّه؛ فإنِّي سمعتُه وهو يقول: (اللَّهمّ أَيِّدِ الْإِسْلَامَ بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ)، فاللهَ اللهَ يا عمر، فقال له عند ذلك عمر: فدلَّني يا خبَّابُ على محمَّد حتَّى آتيه فأُسلِم، فقال له خبَّاب: هو في بيتٍ عند الصَّفا، معه فيه نفرٌ مِن أصحابه.

فأخذ عمرُ سيفَه فتوشَّحه، ثمَّ عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابِه، فضرب عليهم الباب، فلمَّا سمعوا صوتَه قام رجلٌ مِن أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر مِن خَلَلِ الباب، فرآه متوشِّحًا بالسَّيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزعٌ، فقال: يا رسول الله، هذا عمرُ بنُ الخطَّاب متوشِّحا السَّيف، فقال حمزةُ بنُ عبد المطَّلب: فأذنْ له؛ فإنْ جاء يريدُ خيرًا بذلناه، وإنْ جاء يريدُ شرًّا بسيفه قتلناه، وفي لفظ: أنَّه ﷺ قال: (إنْ جاء بخيرٍ قبلناه، وإنْ جاء بشرٍّ قتلناه، وإنْ يردْ غيرَ ذلك يكنْ قتلُه علينا هيِّنًا)، فقال رسول الله ﷺ: (ائْذَنْ لَهُ)، فأذن له الرَّجلُ ونهض إليه رسولُ الله ﷺ حتَّى لقيه في الحجرة، فأخذ حجزتَه أو بمجمعِ ردائه، ثمَّ جذبه به جذبةً شديدةً، وقال: (مَا جَاءَ بِكَ يَا ابن الخطّاب؟ فوالله مَا أَرَى أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّى يُنْزِلَ اللَّهُ بِكَ قَارِعَةً)، وفي لفظ[١]: أخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، وقال: (مَا أَنْتَ مُنْتَهِيًا يَا عُمَرُ حَتَّى يُنْزِلَ اللَّهُ بِكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ مَا أَنْزَلَ بِالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ؟)، فقال عمر: يا رسولَ الله، جئتُك لأؤمن بالله ورسولِه وبما جاء مِن عند الله، قال: فكبَّر رسولُ الله ﷺ تكبيرةً عرف أهلُ البيتِ مِن أصحاب رسولِ الله أنَّ عمرَ قد أسلم، فلا إله إلَّا الله! ما أعظمَ هذه المواقف!

[١] ابن سعد في الطبقات وابن إسحاق في السيرة. قال ابن إسحاق: "كان إسلام عمر فيما بلغني..."، والبلاغ بحكم المنقطع فالسند ضعيف.

يا عباد الله، هيَّا معنا، اركبوا معنا، واحملوا لواءنا، وانصروا دولتَنا، وسيروا في طريقِ مَن ذكرنا.

فقد أشعلنا مِن دمانا جمرًا وبركانا *** أجَّجناها على التَّحالف نيرانا
صخَّابة يُفعِم الإشراقُ صرختَها *** تلوحُ قربًا على أرضِهم شظايانا
فلا شرقٌ ولا غربٌ نطأطئها *** بل ترفضُ الدَّولة الشَّمَّاءُ إذعانا
إنَّ الخلافةَ صاغتها عزائمُنا *** فجرًا منيرًا تحريرًا وإيمانا
يؤجِّج النَّارَ في أعماقِ إخوتنا *** ويَزهَقُ الباطلُ المدحورُ مذْ كانَ
هدي الرَّسول رسولُ اللهِ لقَّننا *** أنَّ الهزيمةَ ليستْ مِن سجايانا
فبورك الدَّم روَّى قربَ معتركٍ *** أرواحُنا في لظاه مِن عطايانا
جندُ الخلافةِ يمضي ركبَنا قُدُمًا *** فلا يخلِّف طاغوتًا وأوثانا
نحرِّر الأرضَ مِن أغلالِ تجزئةٍ *** تمزِّقُ الدَّار أقطارًا وأوطانا
نحرِّر الفكرَ مِن أغلالِ مهزلةٍ *** ورِدَّةٍ ما لها إلَّا سرايانا
نحكِّم الشَّرع منهاجًا لأمَّتنا *** ونحملُ المشعلَ الوقَّادَ فرقانا
خلافتُنا قلعةٌ بالقلبِ نحرسها *** وبالدِّماء لها أغلى ضحايانا
تأبى عقيدتُنا تأبى شريعتُنا *** أن يصبحَ النَّاسُ أذيالًا وقطعانا

والحمدُ لله ربِّ العالمين.

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة السابعة



الحلقة السابعة: في قيامِ المسلمينَ بالعزَّة، يُدفَعُ الكافرُ ويصابُ بالهزَّة ٣: (إصابةُ القلوبِ بالهزَّة ببيانِ معاني العزَّة)

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعينِ الموحِّدين، ومبيدِ الطُّغاةِ المارقين، وناصرِ المستضعفينَ على مَن سلك سبيلَ المجرمين، وجعل العاقبةَ لهُمْ ليكونوا هُمُ الوارثين، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحدَهُ لا شريكَ له إله الأوَّلينَ والآخرين، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ مَن جاهدَ في اللهِ حقَّ جهاده حتَّى أتاهُ اليقينُ، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه وعلى آله وأصحابِهِ ناشري لواءِ الدِّين، وعلى مَن تَبِعَهُمْ واقتفى آثارَهم في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكُمُ اللهُ وأحياكُمْ، وجعل الجنَّةَ مأوانا ومأواكم، وقوَّى تقواكُمْ، وأحسنَ أعمالَكُمْ، وأعاننا على مَن عادانا وعاداكُمْ، وذخرًا للخلافةِ أعدَّكُمْ، ترفعونَ راياتِهَا، وتذودونَ عن حياضِها، تحاربونَ عدوَّها وتنصرونَ جنودَها، ترصُّونَ صفوفَها، وتشيِّدونَ صروحَها، وتضمِّدونَ جروحَها، وعلى منهاجِ النبوَّةِ تحملونَها.

ما زلتُ معكُمْ -معاشرَ المسلمين- أعرضُ بضاعتي، فإنْ وافقتْ قبولًا فالحمدُ لله، وإنْ وافقتْ ردًّا فمن نفسي والشَّيطان، وأستغفرُ الرَّحمنَ، راجيًا مِن اللهِ أن تنالَ هذهِ الكلماتُ القبولَ والإعجاب، وأن تكونَ لنا زادًا على الطَّريق، ومنارًا للسَّبيل، وحجَّةً لنا لا علينا يومَ اللِّقاء، اللهمَّ آمين

إنْ تجدْ عيبًا فسُدَّ الخللا *** جلَّ مَن لا عيبَ فيه وعلا

معاشرَ المسلمين، أيُّها الإخوةُ والأخواتُ والآباءُ والبنون: إنَّ مِن أعظمِ مَا ابتُلِيتْ به أمَّتُنا أنْ تصدَّر دعاةُ الذُّلِ وفقهاءُ الهوانِ، والمفتي بالامتهان، في السَّاحةِ والميدان، أولئكَ الأراذلُ الأنذال، السَّفلةُ البغال، يدعونَ إلى الملاينةِ والمسالمةِ للعدوِّ تحتَ ذريعةِ الحكمةِ والحلم، والتَّعايشِ والسِّلم، والتُّؤَدَةِ والأناةِ والتَّعقُّلِ والنَّظرِ في العواقب، وجلبِ المصالحِ ودرءِ المفاسد، ولم يحفظوا مِن القرآنِ إلَّا قولَهُ -تعالى-: {آتِنَا غَدَاءَنَا} [سورة الكهف: ٦٢]، ومِن سيرةِ النَّبيِّ العدنانِ: (أُمْحُ كلمةَ: محمَّدٌ رسولُ

الله، واكتُبْ: محمَّدُ بنُ عبدِ الله)[١] كما في صلحِ الحديبية، قاتلهُمُ اللهُ؛ يؤمنونَ ببعضِ الكتابِ ويَكفُرُونَ ببعض، ويأخذونَ مَا يحبُّونَ ويَدَعُونَ مَا يكرهونَ! {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ} [سورة البقرة: ٢١٦]، {وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ} [سورة النساء: ٧٧]؛ حتَّى وصلَ بهم الحالُ إلى استمراءِ الهوانِ واعتيادِ الذُّلِّ والضَّعة!

قد تعيشُ النُّفوسُ في الضَّيمِ حتَّى *** لترى مِن الضَّيمِ أنَّها لا تُضَامُ!

بلْ وقد راقَ ذلك لهُمْ حتَّى صار يُعجِبُهُمْ ويتزيَّنونَ به ويفتخرونَ! وتبًّا لهُمْ -واللهِ- مِن قومٍ منحرفين مخذولين، وبئستِ الدَّعوةُ الَّتي إليها يدعون!

ولا يُعجِبَنَّ مضيمًا حسنُ بزَّتِهِ *** وهل تروقُ دفينًا جودةُ الكفنِ؟!

ثمَّ صاروا يزعمونَ أنَّ للصَّليبيينَ واليهودِ والرَّوافضِ والملاحدةِ وأصنافِ المرتدَّة حقَّ العيشِ في ديارنا، وأكلِ خيراتِنا بلْ وقيادةِ أمَّتِنا تحتَ دعوى التَّعايشِ والمواطنة، ونهبِ أموالنا تحتَ دعوى صندوقِ النَّقدِ ودعمِ الأقليَّات، وقتلِ رجالنا تحتَ دعوى التَّخريبِ والإرهاب، وتكتيمِ علمائنا تحتَ دعوى التَّشدُّدِ والتَّطرُّف! وغير ذلك ممَّا يطولُ شرحُه، ويصعبُ فضحُهُ، فبعدًا لهُمْ بعدًا! وسحقًا لهم سحقًا!

الحلمُ عزٌّ إنْ فرى سيفُ الهُدَى *** كلَّ يدٍ غدَّارةٍ أثيمة
والحلمُ ذلٌّ حينَ يغشانا العدا *** في خطَّةٍ نكراءَ مستديمة
الدَّارُ داري والعدوُّ يدَّعي *** أنِّي دخيلٌ سارقٌ قديمة!
الدَّارُ داري، دارُ أجدادي الأُلَى *** في الشَّرقِ أجلوا فرسَهُ ورومَه
الدَّارُ داري والعدوُّ سامني *** خسفًا بها، واحترفَ الجريمة!
في كفِّهِ كلُّ أسبابِ الفنا *** وليسَ في كفِّي سوى رضيمَة
سيلُ البلاءِ دافقٌ مِن حولنا *** في كلِّ حيٍّ نافثٌ سمومَه
قالوا: لم القتالُ في ساحِ الوغى *** والتَّضحياتُ في الوغى جسيمة؟!
دعوا الأعادي يدخلوا أوطانَنا *** مهما بغوا فما لهُمْ ديمومة
وليَظْلِمُوا وليَقْتُلُوا وليَنْهَبُوا *** بالحلمِ نمحو بيننا السَّخيمة
يكفيكَ أنَّا قدْ خدعناهُمْ فهم *** لم يفطنوا للخطَّةِ الحكيمة

---

[١] رواه أحمد والنسائي بنحوه. قال الأرنؤوط: إسناده حسن.

قد لعقوا مرارةَ النَّصرِ لكي *** نذوقَ نحنُ لذَّةَ الهزيمة!
مَن أدمنَ الخذلانَ أضحى عندَهُ *** ألذَّ مِن أطايبِ الوليمة
قد جعلوا الجهادَ إرهابًا لكي *** نذلَّ ذلَّ الأَمَةِ اليتيمة
أبو رغالٍ بائعٌ بلادَهُ *** والعلقميُّ بائعٌ حريمَه
هيا اغضَبُوا وانتفِضُوا فما لنا *** إلَّا الفدا والبذلُ والعزيمة
لا ترقبوا نصرَ ابنِ عمٍّ أو أخٍ *** أو فزعةً مِن خلَّةٍ حميمة
حتَّى ولو كانوا كأعدادِ الحصى *** فالتَّجرباتُ كلُّها أليمة
سيوفُهُمْ حبلى بأحلامِ العلا *** لكنَّها عندَ الوغى عقيمة!
مِن بينِ خصمٍ ونصيرٍ غادرٍ *** ضاعَ الحمى في خطَّةٍ مرسومة

ثمَّ لماذا -عبادَ الله- نخضعُ لعدوِّنا وهو لا يملكُ نفعَنا وضرَّنا؟! وإنَّما ذلكُمْ بيدِ ربِّنا.

علامَ أخضعُ في الدُّنيا لمن رفعتْ *** وما بأيديهِمْ رزقي ولا أجلي؟!
ما قرَّ اللهُ لا أستطيعُ أدفعُهُ *** ومَا لهُمْ في سوى المقدورِ مِن عملِ

لا والله؛ فنحنُ الكرامُ أبناءُ الإسلام، وأهلُ الأنفةِ ولسنا بالسَّخفة، بل الأباةُ الوَقَفَة.

لا يمنعُ الضَّيمَ إلَّا ماجدٌ بطلٌ *** إنَّ الكريمَ كريمٌ حيثما كانَ

ولن يصحبَنا ويركبَ معنا ويلازمَنا إلَّا أهلُ المروءاتِ، وشانُّو الغاراتِ، وأصحابُ الحميَّاتِ والأقدامِ الثَّابتات، والأيدي القويَّاتِ والقلوبِ العزيزاتِ الأبيَّاتِ.

إنَّ الذَّليلَ ولو أصفَى مودَّتَهُ *** ففي النُّفوسِ انقباضٌ عن مودَّتِهِ
كلُّ الفضائلِ بعدَ العزِّ ضائعةٌ *** أمانةُ الكلبِ لم تَشْفَعْ بذلَّتِهِ

ولا واللهِ وأعوذُ بالله؛ فلسنا نحنُ مَن يَخضَعُ لطاغوتٍ أو يَركَعُ لظالمٍ أو يذلُّ لمستكبرٍ أو ينحني لمجرم، بل نحنُ مَن يَهدِمُ عروشَهم، ويَبْقِرُ بطونَهم، ويغنمُ أموالَهم، ويقتلُ رجالَهم، ويسبي مِن الكفَّارِ الأصليِّينَ نساءهم، ونحنُ -بحول الله- مَن يخلعُ أوتادَهم، ويميل خيامَهم، ويَقْلِبُ أحوالَهم، ويرثُ أرضَهم -بحول الله- وديارَهم، نعم نحنُ نحن! جندُ الخلافةِ وأحفادُ الصَّحابة، رجالُ الدَّولةِ وأصحابُ الصَّولة، نحنُ المسلمون، نحنُ المجاهدونَ الموحِّدون، فليسألوا عنَّا كلَّ طاغوت، وليستخبروا مِن

كلِّ صليبيٍّ أو رافضيٍّ ملحدٍ ذي جبروت، كيف كنَّا ومَا لِنَّا وهل ضَعُفْنَا أو هُنَّا؟! فنحنُ نحنُ!

نحنُ مَن إذا كفرتْ حكَّامُنا وولاتُنا *** خصمنَاهُمْ بالمرهفاتِ الصَّوارمِ
سيوفٌ كأنَّ الموتَ حالفَ حدَّها *** مشطَّبةٌ تُغري شؤونَ الجماجمِ
إذا ما انتضيناها ليوم كريهةٍ *** ضربنا بها مَا استمسكتْ بالقوائمِ

هكذا ينبغي أن يكونَ الجوابُ، ويَعْلَمَ كلُّ مرتاب، يزعمُ أنَّه مِن أهلِ العلمِ وحملةِ الكتاب، خابَ خابَ!

فالرُّكنُ حقٌّ لا يقومُ لهدِّهِ *** أحدٌ ولو جُمِعَتْ له الثَّقلانِ

وأفٍّ لمن ينقضُ مَا يقولُ، ويتلوَّنُ كما تتلوَّنُ الغول! ولقد أَحْسَسْنَا ممَّنْ هذا حالُهُ الخبالَ والوبال، وضيعةَ مَا أودع ذلك الغربال، وأمَّا أنتَ أيُّها المسلم: فإيَّاك إيَّاك! والحذرَ الحذرَ مِن كلِّ منافقٍ عليمِ اللِّسان، وممَّن يشتري بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلًا، أخلد إلى الأرضِ واتَّبعَ هواه، وحَكَمَ بغيرِ مَا أنزلَ الله، فبعدًا لك يا شيخَ النَّارِ وزاملةَ العار!

فلا يخدعنَّك لموعُ السَّراب *** ولا تأتِ أمرًا إذا ما اشتبَهْ
فكمْ حالمٍ سرَّهُ حلمُهُ *** وأدركَهُ الرَّوعُ لمَّا انتبَهْ

إنَّ هؤلاءِ الأدعياءَ -والله- يرومونَ تطويعَ الأمَّةِ للطَّواغيتِ حتَّى تُسْتَعْبَدَ وتُذَلَّ وتُهَانَ، وحتَّى تبقى تحتَ مظلَّة الضَّيمِ والخسفِ والقهر، وهذا ممَّا يأباه علينا دينُنا، وتُنكِرُهُ شريعتُنا، وتطردُهُ مروءتُنا، وتمتنعُ منه شِيَمُنَا، ولقد ولجتُ داري مِن كلامِهِمْ متجرِّعًا الغُصَصَ. كما يلجُ العصفورُ القفصَ! فلا

الموتُ خيرٌ للفتى مِن عيشِهِ عيشَ البهيمة
تقتادُهُ برَّةُ الصغارِ إلى العظيمةِ والهضيمة
ويرى السِّباعَ تنشوها أيدي الضِّباعِ المستضيمة!

فالمنايا ولا الدَّنايا! وخيرٌ مِن ركوبِ الخنا ركوبُ الجنازة! وواللهِ إنَّه عندَ نقدِهِ ممَّن يُفرَحُ بفقده، وإنَّه بعدَ فرِّهِ ممَّن يُطرَبُ لمَفَرِّه، والواحدُ مِن هؤلاءِ الَّذينَ لم يعيشوا مَا حفظوه وتعلَّموه، ولم يبذلوا حياتَهم في سبيلِ إقامةِ مَا علموه؛ إذا استمعتَ لكلامِ

الواحـدِ منهُمْ قلتَ: "بخٍ بخٍ لروايتِـك"! وإذا نظـرتَ لحالِـهِ قلتَ: "أفٍّ وتُـفٍّ لغوايتِك"! فشاهتِ الوُجُوه، وقَبُحَ اللُّكَعُ ومَن يرجوه! يحاربونَ الأمَّةَ بالسِّلاحِ الَّذي تُستَنْهَضُ به، ويعبِّـدُونَهَا لعـدوِّها الَّـذي فـرضَ ربُّهم عليهِمْ جهـادَه وقتالَـه وإذلالَـه، يـدعونَ الأمَّـة ويحرِّضُونها على اتِّباعِ أمرِ الطَّاغوتِ وأمرِ كلِّ جبارٍ عنيد.

قال تعالى: {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩)} [سورة هود].

قال صاحبُ الظِّلال: "فهي المعصيةُ لأمرِ الرُّسلِ والاتِّباعُ لأمرِ الجبَّارين، والإسلامُ هو طاعةُ أمرِ الرُّسل؛ لأنَّ اللهَ أمر به ومعصيةِ أمرِ الجبَّارين، وهذا هو مفرقُ الطَّريقِ بين الجاهليَّةِ والإسلامِ وبينَ الكفرِ والإيمان، في كلِّ رسالةٍ وعلى يدِ كلِّ رسول، وهكذا يتبيَّنُ أنَّ دعوةَ التَّوحيدِ تُصِرُّ أوَّلَ مَا تصرُّ على التَّحرُّرِ مِن الدَّينونةِ لغيرِ الله، والتَّمرُّدِ على سلطانِ الأربابِ الطُّغاة، وتَعُدُّ إلغاءَ الشَّخصيَّةِ والتَّنازلَ عن الحريَّةِ واتِّباعَ الجبَّارينَ المتكبِّرين جريمةً وشركًا وكفرًا، يستحقُّ عليها الخانعونَ الهلاكَ في الدُّنيا والعذابَ في الآخرة.

لقد خلقَ اللهُ النَّاسَ ليكونوا أحرارًا لا يدينونَ بالعبوديَّة لأحدٍ من خلقه، ولا ينزلونَ عنْ حريَّتِهِمْ هذهِ لطاغيةٍ ولا رئيسٍ ولا زعيم؛ فهذا مناطُ التَّكريم، فإذا لم يصونوهُ فلا كرامةَ لهُمْ عندَ اللهِ ولا نجاة، ومَا يمكنُ لجماعةٍ مِن البشرِ أن تدَّعي الكرامةَ وتدَّعي الإنسانيَّة وهي تدينُ لغيرِ الله مِن عبادِه، والَّذينَ يقبلونَ الدَّينونةَ لربوبيَّةِ العبيدِ وحاكميَّتِهِمْ ليسوا بمعذورينَ أن يكونوا على أمرِهِمْ مغلوبين؛ فهم كثرةٌ والمتجبِّرونَ قلَّة، ولو أرادوا التَّحرُّرَ لضحَّوا في سبيله بعضَ ما يضحُّونه مُرْغَمِينَ للأربابِ المتسلِّطينَ مِن ضرائبِ الذُّلِّ في النَّفسِ والعرضِ والمال.

لقد هلكتْ عادٌ؛ لأنَّهُمُ اتَّبعوا أمرَ كلِّ جبَّارٍ عنيد، هلكوا مشيَّعينَ باللَّعنةِ في الدُّنيا وفي الآخرة، {وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ} [سورة هود: ٥٩]"، انتهى كلامُهُ -رحمه الله-.

ولكن -ولله الحمد- مَا عادتِ الأمورُ تسيرُ كما يرومُ هؤلاءِ السَّقطة، حتَّى صار صبيٌّ مِن صبيانِ المسلمينَ يقفُ في وجوهِهِمْ، ويقولُ للواحدِ منهُمْ: "يا دعيَّ الأدعياء، و

يا شقيَّ الأشقياءِ؛ واللهِ لقد ساءني فيكَ مَا سمعتُ مِن فِيك، فاعلمْ أنَّ مذهبكَ قد ركدتْ في هذا العصرِ ريحُه، وخبتْ مصابيحُه، وأنَّ مذهبك قد بَارَ، وولَّت أنصارُه الأدبار، وأنَّ مقالك باطلٌ بلا ريب، ولا رجمِ غيب؛ فلقد جئتُمْ شيئًا إدًّا، وجُرْتُمْ عنِ القصدِ جدًّا".

يا صارفًا عنّي المودّةَ * والزَّمانُ له صروف
ومُعَنِّفِي في فضحِ مَن * جاورتُ تعنيفَ العَسوف
لا تُلحِني فيما أتيتُ *** فإنَّني بهِمُ عَروف
ولقد نزلتُ بهِمْ فلمْ *** أرَهُمْ هُمُ شمَّ الأنوف
وبلوتُهُمْ فوجدتُّهُمْ *** لمَّا سبكتُهُمُ زيوف
لا بالصَّفيِّ ولا الوفيِّ *** ولا الحفيِّ ولا العطوف
فوثبتُ فيهِمْ وثبةَ الذِّئبِ *** الضَّريِّ على الخروف
وتركتُهُمْ صَرعَى كأنَّهُمُ *** سُقُوا كأسَ الحتوف

نعمْ يا أمَّتي، واللهِ إنِّي لَأَبْكِي على هذا الحال، ومَا بكائي على هؤلاءِ الأوحالِ أشباهِ الرِّجال، مِن المنتسبينَ للعلمِ الخاضعينَ للأنذال، ولكنْ نبكي على انقراضِ العلمِ ودروسِهِ، وأفولِ أقمارِه وشموسِهِ، فنسألُ اللهَ لنا ولكُمُ العافيةَ والثَّبات؛ ففي الحديثِ الصَّحيحِ الَّذي رواهُ أحمدُ في مسندِهِ عن أنسٍ -رضي الله عنه- قال: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يكثرُ أن يقول: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)، فقلتُ: يا رسولَ الله، آمنَّا بكَ وبما جئتَ به، فهلْ تخافُ علينا؟ قال: (نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ[١])، فلا عجبَ أمَّتي، لا عجبَ مِن ضلالِ هؤلاءِ دعاةِ الذُّلِّ وفقهاءِ الخنوعِ مشايخِ الهوان.

يا أمَّتي، إنَّ العَالِمَ الصَّالحَ مَن عرفَ الجادَّةَ فوصل، ودعا إلى مَا دعا إليه الرُّسل، مِن التَّوحيدِ والسُّنَّةِ والجهاد، وتحكيمِ الشَّرعِ وطاعةِ ربِّ العباد، واجتنابِ أهلِ الكفرِ والزَّيغِ والفساد، وإنَّ الصَّادقَ يجعلُ اللهُ لدعوتِهِ التَّأييدَ والتَّمكينَ، والكاذبَ يُظهِرُ اللهُ عوارَه ولو بعدَ حين، وأمَّا صاحبُ العلمِ والقلمِ والدَّعوة، الَّذي ظنَّ أنَّ السَّلامةَ في السُّكوتِ ولزومِ البيوتِ وطلبِ القوتِ؛ فهذا ممَّن كتمَ مَا أنزلَ الله، ولم

[١] (كَيْفَ يَشَاءُ) في رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وليس في رواية أنس رضي الله عنه.

يعملْ بمقتضى مَا علم، وإنَّ مِن طلبةِ العلمِ مَن كانَ في علمِهِ لوثةٌ مِن البِدَع، فكيفَ يدعو النَّاسَ إلى مَا أنزلَهُ اللهُ وشَرَع، ومنهُمْ مَن اشتغلَ بالمناصبِ عنْ أداءِ الواجب، فهمُّه ثمنٌ بخسٌ دراهمُ معدودةٌ مِن الحطام، يأخذُها ثمنًا لفتاوى يتَّخذُ بها جاهًا عند الطُّغام.

فلتسمعَنَّ بكلِّ أرضٍ داعيًا *** يدعو إلى الكذَّابِ أو لسجاحِ
ولتشهدَنَّ بكلِّ أرضٍ فتنةً *** فيها يُبَاعُ الدِّينُ بيعَ سماحِ
يُفتَى على ذهبِ المعزِّ وسيفِهِ *** وهوى النُّفوسِ وحقدِها المِلْحَاحِ

يا طلبةَ العلم، العلمُ ليستْ متونًا تُحفَظُ، ولا خُطَبًا تُلفَظُ، ولكنْ خشيةٌ وخشوعٌ، وتواضعٌ وخضوع، واتِّباعٌ في الأصولِ والفروع، يا طلبةَ العلم، العلمُ ليسَ شهاداتٍ تعلَّق، ولا مناصبَ تتسلَّق، ولكنَّه تنبيهٌ للغافلِ وتعليمٌ للجاهل، وإقامةٌ للمائلِ وحثٌّ على دفعِ الصَّائل، ونصرةٌ لِمَنْ لعدوِّ اللهِ يُقَاتِل، فهاكَ كأسَ النُّصحِ فاشرَبْ، وجُدْ بفضلةِ الكأسِ على مَن عَطِش.

يقولُ صاحبُ الظِّلال: "إنَّ طبيعةَ هذا الدِّينِ واضحةٌ لا تحتملُ التَّلبيس، صلبةٌ لا تقبلُ التَّمييع، والَّذينَ يُلحِدُونَ في هذا الدِّينِ يجدونَ مشقَّةً في تحويلِهِ عنْ طبيعتِهِ هذهِ الواضحةِ الصَّلبة، وهم مِن أجلِ ذلك يوجِّهونَ إليه جهودًا لا تكلُّ، وحملاتٍ لا تنقطع، ويستخدمونَ في تحريفِهِ عنْ وِجْهَتِهِ وفي تمييعِ طبيعتِهِ كلَّ الوسائلِ وكلَّ الأجهزةِ وكلَّ التَّجارب، وهم يَسحَقُونَ سحقًا وَحْشِيًّا كلَّ طلائعِ الحقِّ والحيويَّة الصَّلبة الصَّامدة في كلِّ مكانٍ على وجه الأرض، عنْ طريقِ الأوضاعِ الَّتي يُقِيمُونَها ويكفلونَها في كلِّ بقاعِ الأرض، وهُمْ يسلِّطونَ المحترفينَ من علماءِ هذا الدِّينِ عليه، يحرِّفونَ الكَلِمَ عنْ مواضعِه، ويحلُّونَ ما حرَّم الله، ويميِّعونَ مَا شَرَعَه، ويباركونَ الفجورَ والفاحشةَ، ويرفعونَ عليها راياتِ الدِّينِ وعناوينَه" انتهى.

ثمَّ -يا معشرَ المسلمين- وايمُ الله، لَلحَقُّ أحقُّ أن يُتَّبَع، ولَلصِّدقُ حقيقٌ بأن يُستمَع، فأرعِني سمعَك، وأخلِ للتَّفهُّمِ عنِّي ذرعَك، أنا أنبِّئكُم بتأويله، وأميِّزُ صحيحَ القولِ من عليلِه، وعليَّ افتضاحُ العاطلِ وإيضاحُ الحقِّ من الباطل؛ ليهلك مَن هلك عن بيِّنة، ويحيا مَن حيَّ عن بينة، وليعلم ناصرُ الطَّاغوتِ داعيةُ الهوانِ شيخُ العار

الَّذي مَا غيَّر وبدَّل وحرَّف وخرَّف، وكَذَبَ وافترى وسالم وداهن إلَّا طلبًا للسَّلامةِ والرَّاحة، والأمنِ والاسترخاء، والمتاعِ والجاه، والسُّكونِ والدَّعةِ والرُّكونِ للدُّنيا الخؤون؛ فليعلمْ أنَّ ريحَهُ لَاقَتْ إعصارًا، وأنَّ جَدْوَلَهُ صادفَ تيَّارًا، وسأبيِّنُ لكَ كيف تقتطف، ومِن أينَ تُؤكَلُ الكتف!

فلا تَغْضَبَنَّ ولا تَصْخَبَن *** ولا تعتبَنَّ فعذري وَضَح
وعاصِ النَّصيحَ الَّذي لا يُبِيح *** وصالِ المليحَ إذا مَا سَمَح
وجُلْ في المَحَالِ ولوْ بالمُحَال *** ودَعْ مَا يُقَالُ وخُذْ مَا صَلَح
وفَارِقْ أبَاكَ إذا مَا أباك *** ومدَّ الشِّباكَ وصِدْ مَن سَنَح
وصافِ الخليلَ ونافِ الذَّليل *** وأَوْلِ العزيزَ ووالِ المِنَح
ولُذْ بالمتابِ أمامَ الذَّهاب *** فمن دقَّ بابَ عزيزٍ فتح

قالَ صاحبُ الظِّلالِ الدَّاعيةُ المربِّي السَّيِّد سيِّد -عليه رحمة الله- واسمعُوها وعوها يا أيُّها الدُّعاةُ ويا طلبةَ العلم: "إنَّ للذُّلِّ ضريبةً كما أنَّ للكرامةِ ضريبة، إنَّ ضريبةَ الذلِّ لَأفدَحُ في كثيرٍ مِن الأحايين، وإنَّ بعضَ النُّفوسِ الضَّعيفةِ لَيُخَيَّلُ إليها أنَّ للكرامةِ ضريبةً باهظةً لا تطاقُ، فتختارُ الذُّلَّ والمهانةَ هربًا مِن هذهِ التَّكاليفِ الثِّقال، فتعيشُ عيشةً تافهةً رخيصةً مفزَعَةً قلقة، تخافُ من ظلِّها، وتَفرَقُ مِن صداها، {يَحْسَبُونَ كلَّ صيحةٍ عَلَيْهِمْ}، {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}، هؤلاءِ الأذلَّاءُ يؤدُّونَ ضريبةً أفدحَ مِن تكاليفِ الكرامةِ؛ إنَّهُمْ يؤدُّون ضريبةَ الذُّلِّ كاملةً كما يؤدُّونَهَا مِن نفوسِهِمْ، ويؤدُّونَهَا مِن أقدارِهِمْ، ويؤدُّونَهَا مِن سُمْعَتِهِمْ، ويؤدُّونَهَا مِن اطمئنانِهِمْ، وكثيرًا مَا يؤدُّونَهَا مِن دمائِهِمْ وأموالِهِمْ، وهُمْ لا يشعرون"، انتهى كلامه.

ولأنَّ العزَّ لا يُدرَكُ إلَّا بالسَّيفِ والقلم؛ فقد ذكرنا جملةً مِن مواقفِ مَن نالَ العزَّةَ بالسَّيف، فتعالوا تعالوا لنأخذَ مواقفَ مِن عزَّةِ أهلِ القَلَم، مِنَ الدُّعاةِ والعلماءِ والفقهاءِ أهلِ الشَّمَم.

والعزُّ يُوجَدُ في شيئينِ موطنُهُ *** إمَّا شباتُ حسامٍ أو شبا قلمِ
وأعرفُ النَّاسِ بالدُّنيا أخو فطنٍ *** لا ينظرُ اليسرَ إلَّا منظر العدمِ

وهذهِ مواقفُ مِن مواقفِ العلماءِ الأعزَّاء، أهلِ الدِّيانةِ الكُرَمَاء، وأصحابِ الصَّلاحِ الفُضَلَاء، الذين صانوا العلمَ عنِ البيعِ والشِّراء، وكانوا مع الحقِّ يدورونَ

حيثُ دار، وانتصبوا للدِّفاعِ عنِ الحقّ ونصرتِهِ بقوَّةٍ وعزَّةٍ وحميَّة، دونَ أن يعبؤوا بالسُّلطانِ وأصحابِ الجاهليَّة والهوان؛ أُرسِلُهَا إلى مَن وصفتُ، وعنهُمْ تحدَّثتُ ومَا كذبتُ، مِن مشيخةِ الخوفِ والذُّلِّ والاستسلام، ممَّن:

كانوا أسودًا ملوكُ الأرضِ تَرهَبُهُمْ *** والآنَ أصبحَ فأرُ الدَّارِ يخشاهُ!

وأبعثُ بهذهِ المواقفِ إلى دعاةِ الذُّلِّ وفقهاءِ الهوان، وعلماءِ الطَّاغوتِ الَّذينَ حالُ الواحدِ منهُمْ:

يُرَمْرِمُ مِن فتاتِ الكفرِ قوتًا *** ويشربُ مِن كؤوسِهِمُ الثُّمالة
يقبِّلُ راحةَ الطَّاغوتِ حينًا *** ويلثمُ دونَ مَا خجلٍ نعالَه

{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)} [سورة الحاقة]، وهذهِ الآيةُ كافية، ونبدأ بموقفِ المجاهدِ بلسانِهِ أبي بكرٍ النَّابلسيِّ للمرتدِّينَ الفاطميِّينَ في مصرَ، الرَّوافضِ الباطنيَّةِ المجرمينَ، قالَ ابنُ كثيرٍ في البدايةِ والنِّهاية: إنَّ المُعِزَّ الفاطميَّ بانيَ القاهرةِ في مصرَ بنى بها القاهرةَ المعزيَّة، ونزل الملكُ المكانَ المسمَّى بالقصرَين، ثمَّ أقيمتِ الخطبةُ للمعزِّ في سنة ٣٦٢، وقدِمَ المعزُّ كما ذكرنا في جحافلَ عظيمةٍ ومعه الأمراءُ مِن المغاربةِ والأكابرِ والقوَّاد، وحينَ نزلَ بالإسكندريَّة تلقَّاهُ وجوهُ النَّاس إليها، فخطبهُمْ بها خطبةً بليغةً افتخرَ فيها بنَسَبِهِ وملكِه، وادَّعى أنَّه يعدلُ وينصفُ المظلومَ مِن ظالمِه، وأنَّ اللهَ قد رحم الأمَّةَ بهِمْ، واستنقذهُمْ مِن أيدي الظَّلَمةِ إلى عدلِهِمْ وإنصافِهِمْ، وهو مع ذلك يدَّعي ظاهرَ الرَّفضِ ويُبطِنُ -كما قالَ القاضي الباقلانيُّ عليه رحمةُ الله- الكفرَ المحضَ، وكذلك أهلُ طاعتِه ومَن نصرهُ ووالاهُ واتَّبعَ مذهبَهُ -قبحهم الله وإيَّاه-.

وقد أُحْضِرَ إلى بينِ يديهِ الزَّاهدُ العابدُ التَّقيُّ أبو بكرٍ النَّابلسيُّ، فأُوقِفَ بين يديهِ، فقال له المعزُّ: بَلَغَنِي أنَّك قلتَ: لو أنَّ معي عشرةَ أسهمٍ؛ لرميتُ الرُّومَ بسهم، ورميتُ المعزِّيِّينَ بتسعة -يقصدُ الفاطميِّينَ-، فقال: "ما قلتُ هذا"، فظنَّ أنَّه قد رجع، وقال: كيفَ قلتَ؟ قال: "قلتُ: لو كانَ معي عشرةُ أسهمٍ؛ لرميتُ الرُّومَ سهمًا، ورميتُ بني عبيدٍ -يعني الفاطميِّينَ- تسعة"، قال: ولم؟ قال: "لأنَّكُمْ غيَّرتُمْ دينَ الأمَّة، وقتلتُمُ الصَّالحين، وادَّعيتُمْ نورَ الإلهيَّة".

فأَمَرَ بإشهارِهِ في أوَّلِ يوم، ثمَّ ضُرِبَ بالسِّياطِ في اليومِ الثَّاني ضربًا شديدًا مبرحًا، ثمَّ أَمَرَ بسلخِه في اليومِ الثَّالث، فجِيءَ بيهوديٍّ، فجعلَ يسلخُهُ وهو يقرأ القرآنَ، قال اليهوديُّ: فأخذتْني رقَّةٌ عليه، فلمَّا بلغتُ تلقاءَ قلبِهِ؛ طعنتُهُ بالسِّكِّينِ فمات -رحمه الله تعالى-، فقيلَ لهُ: "الشَّهيدُ"، وإليه يُنسَبُ بنو الشَّهيدِ مِن أهلِ نابلس إلى يومِنا هذا، فرحمةُ اللهِ عليهِ مِن مجاهدٍ بلسانِهِ عزيزٍ حميٍّ للدِّين، نصيرٍ غيورٍ على الملَّة، صاحبِ عزَّةٍ في دعوتِه، وقوَّةٍ في موقفِه، واستعلاءٍ على أعداءِ اللهِ الباطنيَّة الرَّوافض.

ومِنَ المواقفِ الجليلةِ موقفُ سلطانِ العلماءِ وبايعِ الأمراءِ العزِّ بنِ عبدِ السَّلام -عليه رحمة الله-، ذكر السُّيوطيُّ في تاريخِ مصرَ والقاهرةِ قال: وَلِيَ الشَّيخُ عزُّ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّلامِ قضاءَ مصر، وكانَ قَدِمَ في هذهِ السَّنةِ -وهي سنةُ ٦٣٩ للهجرة- مِن دمشقَ بسببِ أنَّ سلطانَها الصَّالحَ إسماعيلَ استعانَ بالفرنج، وأعطاهُمْ مدينةَ "صِيدَا" وقلعةَ "شقيف"، فأنكرَ عليه الشَّيخُ عزُّ الدِّينِ وتركَ الدُّعاءَ له في الخطبة، وساعدَهُ في ذلك الشَّيخُ جمالُ الدِّينِ أبو عمرو بنُ الحاجبِ المالكيُّ، فغضب السُّلطانُ منهما، فخرجا إلى الدِّيارِ المصريَّة، فأرسل السُّلطانُ إلى الشَّيخِ عزِّ الدِّينِ وهو في الطَّريقِ قاصدًا يتلطَّفُ به في العودةِ إلى دمشق، فاجتمعَ به ولَايَنَهُ وقال له: مَا نريدُ منكَ شيئًا إلَّا أن تنكسرَ للسُّلطانِ وتقبِّلَ يدَهُ لا غيرُ، فقال له الشَّيخ: "يا مسكينُ، يا مسكينُ، مَا أرضاهُ أن يقبِّلَ يدي فضلًا عنْ أنْ أقبِّلَ يدَه، يا قوم، أنتُمْ في وادٍ وأنا في واد، الحمدُ للهِ الَّذي عافانا ممَّا ابتلاكُمْ".

فلمَّا وصلَ إلى مصرَ؛ تلقَّاهُ سلطانُها الصَّالحُ نجمُ الدِّينِ أيوبُ، وأكرمَهُ وولَّاهُ قضاءَ مصر، ولمَّا تولَّى الشَّيخُ عزُّ الدِّينِ القضاءَ؛ تصدَّى لبيعِ أمراءِ الدَّولةِ مِن الأتراك، وذكر أنَّه لم يثبُتْ عندَه أنَّهم أحرارٌ، وأنَّ حكمَ الرِّق مستصحَبٌ عليهِمْ لبيتِ مالِ المسلمين، فبلغهُمْ ذلك، فعَظُمَ الخَطْبُ عندهُمْ واجترم الأمر، والشَّيخُ مصمِّم لا يصحِّحُ لهم بيعًا ولا شراءً ولا نكاحًا، وتعطَّلتْ مصالحُهم لذلك، وكانَ مِن جملتِهِمْ نائبُ السَّلطنة، فاستشاطَ غضبًا.

واجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: "نعقدُ لكُمْ مجلسًا، وننادي عليكُمْ لبيتِ مالِ المسلمين"، فرفعوا الأمرَ إلى السُّلطان، فبعثَ إليه فلم يرجع، فأرسل إليه نائبَ السَّلطنةِ بالملاطفة فلم يُفِدْ فيه، فانزعج النَّائبُ وقال: كيفَ ينادي علينا هذا

الشَّيخُ، ويبيعُنا ونحنُ ملوكُ الأرض؟! واللهِ لأضربنَّهُ بسيفي هذا، فركب بنفسِهِ في جماعتِهِ وجاءَ إلى بيتِ الشَّيخِ والسَّيفُ مسلولٌ في يده، فطرقَ البابَ فخرجَ ولدُ الشَّيخِ فرأى مِن نائبِ السُّلطانِ ما رأى، وشرح له الحال، فما اكترثَ لذلك، وقال: "يا ولدي، أبوكَ أقلُّ مِن أن يُقتَلَ في سبيلِ الله" ثمَّ خرج، فحينَ وقعَ بصرُهُ على النَّائبِ يَبِسَتْ يدُ النَّائبِ وسقطَ السَّيفُ منها، وارتعدتْ مفاصلُهُ فبكى! وسألَ الشَّيخَ أن يدعوَ لهُ وقال: يا سيِّدي، إيش تعملُ؟ قال: "أنادي عليكُمْ وأبيعُكُمْ"، قال: ففيمَ تَصرِفُ ثمنَنا؟ قال: "في مصالحِ المسلمين"، قال: مَن يقبضُهُ؟ قال: "أنا"، فتمَّ ما أراد، ونادى على الأمراءِ واحدًا واحدًا، وغالى في ثمنِهِمْ، ولم يبعْهُمْ إلَّا بالثَّمنِ الوافي، وقبضَهُ وصرفَهُ في وجوهِ الخير، فرحمةُ اللهِ عليه.

سمتْ بهاماتِها عزًّا ومكرمةً *** عنِ الدُّنيا وعمَّا عابَ أو شانَ
فأعجبتْني بما تبديهِ مِن شَمَمٍ *** إنِّي أحبُّ عزيزَ النَّفسِ ما كانَ

وهذا موقفُ محمَّدِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي ذئبٍ -رحمه الله- مع المهديّ، قالَ أبو العيناءِ: لمَّا حجَّ المهديُّ دخلَ مسجدَ رسولِ الله ﷺ، فلم يبقَ أحدٌ إلَّا قامَ إلَّا ابنُ أبي ذئبٍ، فقالَ لهُ المسيبُ بن زُهَيْرٍ: قُمْ؛ هذا أميرُ المؤمنين، قال: "إنَّما يقومُ النَّاسُ لربِّ العالمينَ"، فقال المهديُّ: دعْهُ؛ فواللهِ لقد قامتْ كلُّ شعرةٍ في رأسي!

وهذا موقفُ ابنِ تيميةَ -رحمه الله- مع أعدائه عندما ضيَّقوا عليه، قالَ ابنُ القيِّمِ في الوابلِ الصَّيب: وقالَ لي ابنُ تيميةَ مرَّةً: "ما يصنعُ أعدائي بي؟! أنا جنَّتي وبستاني في صدري، أنَّى رحتُ فهي معي لا تفارقُني؛ إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي مِن بلدي سياحة"، وكانَ يقولُ في محبسِهِ في القلعة: "لو بذلتُ ملءَ هذهِ القاعةِ ذهبًا؛ مَا عدلَ عندي شكرَ هذهِ النِّعمة -أو قال-: مَا جزيتُهُمْ على مَا تسبَّبوا لي فيه مِن الخير"، ونحوَ هذا.

وكانَ يقولُ في سجودِهِ وهو محبوسٌ: "اللهمَّ أعنِّي على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِكَ" مَا شاءَ اللهُ، وقالَ لي مرَّةً: "المحبوسُ مَن حُبِسَ قلبُه عن ربِّهِ تعالى، والمأسورُ مَن أسرَهُ هواه"، ولمَّا دخلَ ابنُ تيميةَ القلعةَ، وصارَ داخلَ سورِها؛ نظرَ إليهِ وقال:

{فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)} [سورة الحديد].

يقولُ ابنُ القيِّم: "وعلمَ اللهُ مَا رأيتُ أحدًا أطيبَ عيشًا منه قطُّ، مع مَا كانَ فيه مِن ضيقِ العيشِ وخلافِ الرَّفاهيةِ والنَّعيمِ بلْ ضدِّها، مع مَا كانَ فيه مِن الحبسِ والتَّهديدِ والإرهاق، وهو مع ذلك مِن أطيبِ النَّاسِ عيشًا، وأشرحِهِمْ صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرِّهم نفسًا، تلوحُ نضرةُ النَّعيمِ في وجهِهِ"، فرحمةُ اللهِ عليه.

يقولُ ابنُ القيِّم: "وكانَ إذا اشتدَّ بنا الخوفُ، وساءتْ منَّا الظُّنون، وضاقتْ بنا الأرضُ؛ أتيناهُ فما هو إلَّا أن نراهُ ونسمعَ كلامَهُ، فيذهب ذلك كلُّه، وينقلبُ انشراحًا وقوَّةً ويقينًا وطمأنينةً".

وكانَ بعضُ العارفينَ يقول: "لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه؛ لجالدونا عليهِ بالسُّيوف"، وقال آخرُ: "مساكينُ أهلُ الدُّنيا، خرجوا منها ومَا ذاقوا أطيبَ مَا فيها"، قيل: ومَا أطيبُ مَا فيها؟ قال: "محبَّةُ اللهِ ومعرفتُهُ وذكرُهُ"، أو نحوَ هذا.

وقد أكثرنا في حديثِنا النَّقلَ عنْ صاحبِ الظِّلالِ السيِّد سيِّد قطب -رحمه الله-، وما ذلك إلَّا لأنَّهُ منارةٌ في العزَّة، وجبلٌ في الاستعلاءِ على الباطلِ وأهلِه، والازدراءِ للطَّاغوتِ وحزبِهِ، ومَن سارَ في ركبِه، ولأنَّه -رحمه الله- قدَّم روحَهُ وحياتَهُ دونَ دينِه، وصدَّق أقوالَه بأفعالِه، فبمثله فليقتدِ الدُّعاةُ وعلى طريقِه فليَسِرِ الهداة، فخُذْ:

هذهِ مواقفُ الشَّهيدِ فيما نحسبُهُ سيِّد قطب -رحمه الله- مع الطَّواغيت، عندما طلبَ منه الطُّغاةُ أن يكتبَ استرحامًا فيعفوا عنه بل ويضعوهُ في أعلى المناصب، قال: "إنَّ إصبعَ السَّبابةِ الَّذي يشهدُ لله بالوحدانيَّةِ في الصَّلاة؛ يأبى أن ينحنيَ فيخطَّ كلمةً يسترضي بها طاغيةً"، رغمَ أنَّ وزارةَ المعارفِ تُعرَضُ عليه وهو في السِّجن! ويقول: "لماذا أسترحمُ؟ إنْ كنتُ محكومًا بحقٍّ فأنا أرتضي حكمَ الحقّ، وإنْ كنتُ محكومًا بباطلٍ فأنا أكبرُ مِن أنْ أسترحمَ الباطل!"، بينما حبلُ المِشْنَقَةِ يلوحُ أمامَ ناظريهِ!

وفي نفسِ الشَّهرِ الَّذي اعتُقِلَ فيه؛ أرسلتْ إليهِ المباحثُ واحدًا من جنودِهِمْ، فتسوَّرَ عليه الدَّارَ ودخلَ ليفتِّش، فأمسكَهُ وأنَّبَهُ وأدَّبَه وقالَ له: "إنَّ للبيوتِ

حرماتٍ، ألا تعرفُ أدبَ الدُّخول؟!" ثمَّ كتب كتابًا وأرسلَه إلى مديرِ المباحثِ وقال: "أرسلْ إليَّ بشرًا ولا ترسلْ إليَّ كلابًا".

ووقفَ كالجبلِ الرَّاسي الشَّامخِ أمامَ محكمةِ الطَّاغوتِ الحاكمةِ بشريعةِ الكفرِ والظُّلم، وقالَ بسخرية: "انظروا يا قضاةُ؛ نحنُ نريدُ أن نسأل: أيُّنا أحقُّ بالمحاكمةِ والسِّجن، نحنُ أم أنتُمْ؟! إنَّ لدينا وثائقَ تُثبِتُ أنَّكم عملاءُ للمخابراتِ الأمريكيَّة"، وبدأ يسردُ الوقائعَ والوثائقَ ممَّا اضطرَّ كبيرَ القضاةِ أن يرفعَ الجلسةَ ويُغلِقَ المحاكمة! وكانَ رجلًا معتزًّا باللهِ في السِّجن، مستعليًا شامخًا مرتفعًا ساميًا؛ حتَّى كانَ الطَّاغوتُ مديرُ السِّجنِ يقول: إنَّ المديرَ الفعليَّ للسِّجنِ هو سيد قطب!

وقلَّما كانَ شجاعًا في اللِّقاء *** إلَّا عزيز النَّفسِ والجودِ كذا

وقال بعزَّةٍ لمَّا سألَه أحدُهُمْ، قال: "إنَّنا بإسنادِنا ولو بالآراءِ لوضعٍ جاهليٍّ؛ فإنَّنا نحكمُ بالإعدامِ على كلِّ كتاباتِنا ضدَّ الطَّواغيت، وتصبحُ كلماتُنا حبرًا على أوراق".

وحاربْ إذا حاربتَ بالرَّأيِ والقنا *** وكنْ رجلًا عزيزًا وعبدًا لواحدِ
ولا تخشَ مخلوقًا فربُّك حافظٌ *** فما انقادتِ الأمجادُ إلَّا لماجدِ

وقد وقفَ الشَّيخُ عبدُ الحميدِ الجزائريُّ -رحمه الله- مع المندوبِ الفرنسيِّ موقفًا عظيمًا كما ورد في تاريخِ الجزائر، إذِ استدعى المندوبُ الفرنسيُّ في الجزائرِ في أيَّامِ احتلالِها الشَّيخَ عبدَ الحميدِ الجزائريَّ، وقال له: إمَّا أنْ تُقلِعَ عنْ تلقينِ تلاميذِك هذهِ الأفكارَ وإلَّا أرسلتُ جنودًا لإغلاقِ المسجدِ الَّذي تنفثُ فيه هذهِ السُّمومَ ضدَّنا، وإخمادِ أصواتِكَ المُنْكَرَة. فأجابَ الشَّيخُ عبدُ الحميد: "أيُّها الحاكم، إنَّك لن تستطيعَ ذلك"، واستشاط الحاكمُ غضبًا: كيفَ لا أستطيعُ؟! قالَ الشَّيخُ: "إذا كنتُ في عرسٍ هنَّئتُ وعلَّمتُ المحتفلين، وإن كنتُ في مأتمٍ وعظتُ المعزِّين، وإن جلستُ في قطارٍ علَّمتُ المسافِرين، وإن دخلتُ السِّجنَ أرشدتُّ المسجونين، وإن قتلتموني ألهبتُمْ مشاعرَ المسلمين، وخيرٌ لك -أيُّها الحاكم- أن لا تتعرَّضَ للأمَّةِ في دينِها ولغتِها"، فرحمةُ اللهِ عليه وعلى سائرِ العلماءِ العاملين.

وهذا موقفُ أحدِ علماءِ الأزهرِ مع السُّلطانِ عبدِ العزيز، لمَّا قَدِمَ السُّلطانُ عبدُ العزيزِ مصرَ؛ زار الجامعَ الأزهر، وصَحِبَهُ الخديويُّ إسماعيلُ، فلاحظَ الخديويُّ على

شيخٍ بالجامعِ كأنَّه غيرُ مهتمٍّ، وهو مسندٌ ظهرَهُ ومادٌّ رجلَه، فأسرعَ بالسُّلطانِ عنه، ثمَّ كلَّف أحدَ رجالِهِ وقد أراهُ الشَّيخُ أن يذهبَ له بصُرَّةٍ مِن ذهبٍ يريدُ أن يعرفَ حالَه، فلمَّا جاءَ الرَّسولُ ليعطيه؛ قبضَ الشَّيخُ عنه يدَهُ وقال له: "قلْ لِمَن أرسلَكَ: إنَّ الَّذي يمدُّ رجلَه لا يمدُّ يدَه".

فيا طالبَ العلم، ويا حاملَ الدَّعوة، ويا ناشرَ التَّوحيدِ والسُّنة، ويا معلِّمَ النَّاسِ الخير: هذا أكبرُ ما أخافُهُ عليك؛ أن تجلسَ في أحضانِ الطَّواغيت، وترتميَ في حمأةِ الهوان، وتعيشَ عيشةَ الذُّلِّ والخسف، ولهذا نصحتُك وذكَّرتُك، فخذْها منِّي، وانقلها عنِّي.

وشرُّ ما خفتُه حياةٌ *** أدَّتْ إلى ذلَّةٍ وعارِ

ودونَك هذهِ الأمثلة فاقتدِ بها، وهذهِ المنارات فاستضِئْ بفعالِها ومقالِها، وإنْ أبيتَ فعلى نفسِك جَنَيْت، وإنِ اقتديتَ فواهًا لك! وإنْ تخلَّيتَ فآهٍ منك! واللهُ خليفتي عليك.

ولقد أمركُمُ اللهُ -يا طلبةَ العلمِ ومعلِّمِي النَّاسِ الخيرَ- أمرًا عظيمًا فقال: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)} [سورة البقرة]، فامضِ لأمرِ ربِّك، ولا تَحْفَلْ وخذِ الدِّينَ بقوَّةٍ وعزَّةٍ وصلابةٍ وثباتٍ وثقةٍ ويقين، وكنْ لِمَا أخذتَ أمينًا.

فدعِ التَّسويفَ وامضِ إلى المعالي *** بعزمٍ مِن ذُبَابِ السَّيفِ أمضى
وخذْ في الجدِّ وارفضْ مَن أباهُ *** مِن الأهلينَ والإخوانِ رفضًا
وأصغِ لِمَا أشرتُ به فإنِّي *** صحبتُكَ منهُ كأسَ النُّصحِ محضًا

ويا معاشرَ المسلمين، توحَّدوا وتجمَّعوا، وتكاتَفُوا وتناصَرُوا، وتحالَفُوا وتعاضَدوا؛ فإنَّ الجماعةَ قوَّةٌ وعزَّة، والفرقة ضعفٌ وذلٌّ، وإنَّ مِن أعظمِ أسبابِ ذلِّكُمْ: تفرُّقَكُمْ وشتاتَكُمْ، وتنازعَكُمْ واختلافَكُمْ.

مَن كانَ ذا عضدٍ يُدْرِكْ ظلامتَهُ *** إنَّ الذَّليلَ الَّذي ليستْ له عَضُدُ
تنبو يداهُ إذا مَا قلَّ ناصرُهُ *** ويمنعُ الضَّيمَ إنْ أثرى له عَدَدُ

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)} [سورة الأنفال].

قالَ ابنُ كثير: "فأمر تعالى بالثَّباتِ عندَ قتالِ الأعداءِ وبالصَّبرِ على مبارزتِهِمْ، فلا يفرُّوا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا اللهَ تعالى في تلك الحالِ ولا ينسَوْهُ، بل يستعينوا به ويتوكَّلوا عليه ويسألوه النَّصرَ على أعدائِهِمْ، وأن يطيعوا اللهَ ورسولَهُ في حالِهِمْ ذلك، فما أمرهُمُ اللهُ تعالى به ائتمروا، وما نهاهُمْ عنهُ انزجروا، ولا يتنازَعُوا فيما بينَهُمْ أيضًا فيختلِفُوا فيكونُوا سببًا لتخاذلِهِمْ وفشلِهِمْ.

{وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} أي: قوَّتُكُمْ وحدَّتُكُمْ ومَا كنتُمْ فيه مِن الإقبال، وكانَ للصَّحابةِ -رضي الله عنهم- في بابِ الشَّجاعةِ والائتمارِ بأمرِ اللهِ وامتثالِ مَا أرشدهُمْ إليهِ مَا لم يكنْ لأحدٍ منَ الأممِ والقرونِ قبلَهُمْ، ولا يكونُ لأحدٍ ممَّن بعدَهُمْ؛ فإنَّهم ببركةِ الرَّسولِ ﷺ وطاعتِهِ فيما أمرهُمْ؛ فتحوا القلوبَ والأقاليمَ شرقًا وغربًا في المدَّةِ اليسيرةِ مع قلَّةِ عددِهِمْ بالنِّسبةِ إلى جيوشِ سائرِ الأقاليم؛ مِنَ الرُّومِ والفرسِ والتُّركِ والصَّقَالِبَةِ والبَرْبَرِ والحبوشِ وأصنافِ السُّودانِ والقبطِ وطوائفَ بني آدم، قهروا الجميعَ حتَّى علتْ كلمةُ الله، وظهر دينُهُ على سائرِ الأديان، وامتدَّتِ الممالكُ الإسلاميَّةُ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها في أقلَّ مِن ثلاثينَ سنةً، فرضي اللهُ عنهُمْ وأرضاهُمْ أجمعين، وحشرنا في زمرتِهِمْ؛ إنَّه كريمٌ وهَّابٌ"، انتهى كلامُه.

يا أمَّةَ الإسلامِ هُبُّوا مِن مراقدِكُمْ *** ولا تكونوا عنِ الأحداثِ في شُغُلِ
ضمُّوا الصُّفوفَ بقلبٍ غيرِ منقسمٍ *** على الزَّمانِ وحبلٍ غيرِ منفصلِ
ولا يكنْ ودُّكُمْ يومًا على خبثٍ *** ولا يكنْ حبُّكم يومًا على دَخَلِ
قد وحَّدتْ بينكُمْ دنيًا موزَّعَةٌ *** مِن الجراحاتِ والآلامِ والعللِ
يا قومِ إنَّ سبيلَ الخلد واحدةٌ *** ففيمَ الخلافُ على الغاياتِ والسُّبُلِ؟!

ثمَّ هذهِ هي معالمُ عزِّنا، وكواكبُ سعدِنا، ومناراتُ مجدِنا، وسِيَرُ أسلافِنا، فحَافِظُوا على دَرْسِ طروسِهَا، وجاهِدُوا في سبيلِ إحيائِهَا بعدَ دُرُوسِهَا؛ فإنَّها الدُّرَّةُ اليتيمةُ والحرَّةُ الكريمة، واللَّهجةُ الَّتي لم ينطقِ اللِّسانُ بمثلِها، والمطيَّةُ الَّتي لا تُذَلُّ

إلَّا لأهلِها، وعليَّ أن أنتصبَ لإفادتِكُمْ مَا أبقى الدَّهرُ لي رمقًا، ولا أخافُ نجسًا ولا رهقًا.

وأمَّا مَن يطعنُ ويلعنُ ويسبُّ ويشتمُ وينتقصُ ويذمُّ ويأكلُ مِن لحمِ جندِ الخلافةِ ويأخذُ مِن أعراضِهم؛ فليسَ عندنا جوابٌ إلَّا أنْ نقولَ له: عرفتَنا فهَجَوْتَنَا، ولو عرفناكَ لهجوناك وأجبناك، والسَّلامُ.

بهذا التَّرفُّع والاستعلاء؛ نُجيبُ مَن فعل مِن السُّفهاءِ والجُهَلَاء، فامضوا على بركةِ الله، ولَا يضرُّ السَّحابَ نُبَاحُ الكلاب!

ويا أبناءَ دولتِنا، وجنودَ خلافتِنا، ورعيَّةَ أميرِنا، وأنصارَ دعوتِنا، ومؤيّدي رايتِنا، وأتباعَ منهجِنا، ويا قادةَ سفينتِنا؛ وواللهِ إنَّنا مَا عهدناكُمْ إلَّا ضُرَابَ السُّيوفِ وشُرَابَ الحتوفِ وقراةَ الضُّيوفِ وحُبَاةَ الألوفِ وحماةَ السُّجوف، وآثارُكُمْ في الحذاقةِ والكرمِ وحفظِ الجوارِ والذِّمم أشهرُ مِن نارٍ على عَلَم!

ومتى تجمعِ القلبَ الذَّكيَّ وصارمًا *** وأنفًا حميًّا تجتنبْكَ المظالمُ

إذا خوَّفوكُمْ مِن الأعادي، ومَا عندَهُمْ مِن تمادٍ، بالأسنَّة والألسنِ والأيادي؛ فأجيبوهُمْ بأجوبةِ العزَّةِ والاستعلاء، والتَّرفُّع والإباء، والشُّموخِ والكبرياءِ، بدونِ فخرٍ أو رياء.

إذا خوَّفوكُمْ مِن جموعِ عدوِّكُمْ، وقالوا لكم: إنَّ عدوَّكُمْ كثيرٌ؛ فقولوا لهُمْ: إنَّ القصَّابَ لا يهولُهُ كثرةُ الغنم! وإذا خوَّفوكُمْ مِن الطَّائرات؛ فقولوا لهم: إنَّ اللهَ فوقَها، وإذا خوَّفوكُمْ مِنَ الأحزابِ والتَّحالفات؛ فقولوا لهم: {إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [سورة التوبة: ٤٠]، وإذا خوَّفوكُمْ مِن الذَّرِّيَّةِ والنَّوويَّةِ والكيماويَّة؛ فقولوا لهم: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)} [سورة الزمر].

وإذا خوَّفوكُمْ مِن الأسرِ والكسرِ والبترِ؛ فقولوا لهم: (إِنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وإِنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ)[١]، وإذا خوَّفوكُمْ مِن العسرِ والصَّعبِ

[١] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه. قال الأرنؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

والكرب؛ فقولوا لهم: (إنَّ النَّصرَ مَعَ الصَّبْرِ، وإنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً)[١]، وإذا خوَّفوكُمْ مِن الظَّلَمةِ المجرمينَ؛ فقولوا لهم: (إنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ)[٢]، وإذا خوَّفوكُمْ مِن غيرِ الله؛ فقولوا لهم: {إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)} [سورة آل عمران].

وإذا خوَّفوكُمْ مِن أممِ الكفرِ وما تَجمَعُ لكُمْ؛ فقولوا لهم: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)} [سورة آل عمران]، وإذا قالوا لكم: إنَّكُمْ ستُهزَمُونَ؛ فقولوا لهم: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)} [سورة القمر]، وإذا قالوا لكم: إنَّكم مستضعَفُونَ؛ فقولوا لهم: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)} [سورة القصص].

وإذا قالوا لكم: إنَّ النِّهايةَ لنا؛ فقولوا لهم: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)} [سورة الأعراف]، {وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)} [سورة الرعد]، وإذا قالوا لكم: إنَّكم ستَنْكَسِرُون؛ فقولوا لهم: {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} [سورة الصافات]، وإنْ قالوا لكم: تعالَوا للتَّقارُبِ والتَّفاهمِ والتَّفاوُض؛ فقولوا لهم: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)} [سورة القلم]، وإذا قالوا لكم: إنَّكم ستُقتَلُون؛ فقولوا لهم: (لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُوَ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُوَ، فَأُقْتَلَ)[٣]، وإنْ قالوا لكم: ستُغلَبونَ؛ فقولوا لهم: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)} [سورة يوسف].

وإنْ قالوا لكُمْ: نحنُ لا نسمعُ قولَكُمْ، ولا نرى رأيَكُمْ؛ فقولوا لهم: {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)} [سورة الروم]، وإذا قالوا لكم: أنتُمْ قلَّة؛ فقولوا لهم: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)} [سورة يوسف]، وإذا قالوا لكم: إنَّ الناسَ لكُمْ مبغِضُونَ وكارهونَ؛ فقولوا لهم: {لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ

---

١ رواه أحمد، قال الأرنؤوط: حديث صحيح.
٢ متفق عليه.
٣ رواه مسلم، وروى البخاري بعضه.

أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨)} [سورة الزخرف]، وإذا قالوا لكُمْ: إنَّ النَّاسَ عمَّا تدعونهُمْ إليهِ مِن الجهادِ لَراغبون؛ فقولوا لهم: {فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣)} [سورة الزخرف].

وإذا قالوا لكم: نحنُ نجمعُ المالَ لحربِكُمْ، فهلْ أنتُمْ مستعدُّون؟! فقولوا لهم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)} [سورة الأنفال]، وإذا قالوا لكم: لماذا أنتُمْ مع جموعٍ مِن أمَّتكُمْ مُختلِفُون؟! فقولوا لهم: {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)} [سورة الأنفال].

وإنْ قالوا لكم: أنتُمْ ضللتُمُ السَّبيلَ وفاتكُمُ الدَّليل؛ فقولوا لهم: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)} [سورة العنكبوت]، وإنْ قالوا لكم: إنَّ جموعًا غفيرةً مِن أمَّتكُمْ تخالفُكم وتضلِّلُكم؛ فقولوا لهم: (لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ قَائِمِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ خِلَافُ مَنْ خَالَفَهُمْ، كُلَّمَا ذَهَبَ حِزْبٌ نَشَأَ آخَرُونَ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)[١]، وإنْ قالوا لكم: إنَّكم تسعونَ لأمرٍ لن تدركوهُ وتحلمونَ بشيءٍ لن تحقِّقوه؛ فقولوا لهم: (وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)[٢].

وإنْ قالوا لكم: أنتُمْ سفهاءُ أحلامٍ وحدثاءُ أسنان؛ فقولوا لهم: "إنَّما المرءُ بأصغرَيه: قلبِهِ ولسانِه، وإنَّما المرءُ بما قدَّمَه، والمرءُ بآدابِهِ وأفعالِه، والمرءُ بجدِّهِ، والسَّيفُ بحدِّهِ، والجوادُ بشدِّهِ"، وإنْ قالوا لكم: إنَّ أبناءَ أمَّتكُمْ يأتونَ إلينا مُسرعِين، ويدخلونَ في ديننا مجدِّين؛ فقولوا لهم: {وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)} [سورة آل عمران]، وإنْ قالوا لكم: نحنُ جميعًا على طريقِ العلمانيَّةِ والقوانينِ الوضعيَّة ورأيِ الأغلبيَّةِ سائرونَ ومستمرُّون، وعلى عدائكُمْ قائمون؛ فقولوا لهم: {إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي

---

[١] رواه نعيم بن حماد في الفتن، ورواه بنحوه مسلم.

[٢] رواه مسلم.

جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)} [سورة هود].

وإنْ قالوا لكم: إنَّ حالَنا يسيرٌ، وحالَكم عسيرٌ، وما نرى منكُمْ إلَّا كلَّ ضعيفٍ أو فقيرٍ أو أسير؛ فقولوا لهم: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦)} [سورة المؤمنون]، {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨)} [سورة آل عمران]، وإنْ قالوا لكم: أنتُمْ تصابون وتُقصَفونَ، ومنكُمْ أعداؤكم ينالون؛ فقولوا لهم: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)}.

وإنْ قالوا لكم: أنتُم تعادونَ المسلمين؛ لأنَّكُمُ الآنَ لبعضِ جماعاتِهِمْ تقاتلون، وبهذا هُمْ على الإعلامِ يصرِّحون؛ فقولوا لهم: {وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦)}، {وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)} [سورة يوسف]، وإنْ قالوا لكم: أنتُمْ ظلمتُمُ الجماعاتِ وتعدَّيتُمْ على المجاهدين؛ فقولوا لهم: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)} [سورة النساء].

وإنْ قالوا لكم: إنَّ أكثرَ العلماءِ والدُّعاةِ والفقهاءِ لكم مخالفونَ، ولفعالِكُمْ ذامُّون، ولجهادِكُمْ مبطِلون؛ فقولوا لهم: (إِنَّ أَكْثَرَ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا)[1]، وإنْ قالوا لكم: إنَّ جمعًا مِن النَّاسِ بكُمْ يستهزئونَ ويسخرونَ؛ فقولوا لهم: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)} [سورة الروم]، وإنْ قالوا لكم: لقد غيَّرتُمْ كثيرًا مِن الأوضاعِ والأحوال، وأتيتُمْ بأمرٍ جديدٍ كان عنَّا بعيدًا؛ فقولوا لهم: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)} [سورة هود]، (إنَّ اللّه -عز وجل- لَيبعَثُ لهذهِ الأمَّةِ مَن يجدِّدُ لها دينَها)[2].

---

[1] رواه أحمد. قال الأرنؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

[2] رواه أبو داود. قال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

وإنْ قالوا لكم: إنَّ النَّاسَ بكُمْ يطعنونَ، ومِن رجالكُمْ ينتقصون؛ فقولوا لهم: {وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)} [سورة يونس]، وإنْ قالوا لكم: أنتُمْ لا تستمعونَ نصيحتَنا، ولا تأخذونَ بقولِنا وأنتُمْ في شرٍّ وعلى ضلال؛ فقولوا لهم: {قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)} [سورة الأنعام].

وإنْ قالوا لكم: نحنُ مِن خلافتِكُمْ مستهزئون، وأنتُمْ ستنتهون، وفي النَّار تعذَّبونَ لِمَا تأتونَ؛ فقولوا لهم: {إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)} [سورة هود]، وإنْ توعَّدوكُمْ بالقتلِ والصَّلبِ والعذاب؛ فقولوا لهم: لا ضيرَ: {قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠)} [سورة الشعراء]، وإنْ أخذوا يهدِّدونَ ويزبدون، ويرعدونَ ويتوعَّدون؛ فقولوا لهم: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)} [سورة الذاريات].

العينُ تبكي على إخوانِهَا ألمًا *** والقلبُ في هذهِ الدُّنيا ينزُّ دما
الكونُ مكتئبٌ والأنفاسُ منتكسٌ *** وكانَ في سالفِ الأيَّامِ مبتسما
ما غيَّر الكونَ لا خسفٌ ولا غرقٌ *** إلَّا كفرٌ فشا في الكونِ فاضطرَمَ
يا عينُ جودي بدمعٍ صادقٍ ودمٍ *** وابكي المآثرَ والأمجادَ والقِيَمَ
وَارْثِي ديارًا مِن الإسلامِ خاليةً *** كانتْ تشعُّ الهدى والعزَّ والكرمَ
وساحةُ الحقِّ تشكو الظُّلمَ في أسفٍ *** ألا ترى مِن عدوِّ اللهِ منتقِما
كأنَّا ما ركبنا الخيلَ مُسْرَجَةً *** وجيشُنا في سبيلِ اللهِ مَا انتظمَ
كانَ الهدى والتُّقى والنَّصرُ مؤتلقًا *** فأصبح البؤس والآهات والنَّدَمَ
أجدادُنا طوَّعوا الدُّنيا لخالقِهَا *** وعلَّموها معاني خلقِهَا قِدَما
تألَّقوا في رؤى الأخلاقِ كوكبةً *** إنْ شدَّ البأسُ كانوا الشُّهبَ والرُّجَمَ
ما بالُ دعاتِنا هانتْ مصيبتُنا *** إنَّ المصيبةَ أن لا يرفعوا عَلَما
يُدَحْرِجُونَ على آلامِنَا كُرَةً *** ويَعْزِفُونَ على أشلائنا نَغَما
لقد قُتِلتُ فما أبكيتُ ذا كبدٍ *** وقد صرختُ فما أسمعتُ معتصِما
أدعوك -يا ربِّ- دعوى مَن يموتُ أسى *** ومَن رآك تزيلُ الضُّرَّ فاعتصمَ

أدعوكَ دعوةَ مَن تنهلُّ عبرتُه *** مَن كانَ في عزَّةٍ فانذلَّ وانظلمَ
أن تكشفَ الكربَ -يا ربي- وتنصرَنا *** وأنْ تسخِّرَ للثَّاراتِ منتقِما
ما لي سوى اللهِ والدُّنيا تناوِشُني *** والأرضُ تقذفُ مِن بركانِهَا حِمَما
ما لي سوى اللهِ والأمواجُ تَصرَعُني *** وقَارِبِي في لجاجِ الهمِّ قد هُزِمَ
ظننتُ أنِّي بكثيرِ القومِ مُغْتَبِطٌ *** فصرتُ مِن بعضِ قومي أبتغي العدمَ!
قد يصمدُ السَّدُّ يثني كلَّ هائجةٍ *** لكنْ إذا شيكَ في أركانِهِ انهدمَ
لو كنتُ أمضي بسيفِ الجهادِ معتصمًا *** لكانَ ذكري على الأيَّامِ محترَما

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [سورة الصافات].

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة الثامنة



الحلقة الثامنة: باستشعارِ الغيرةِ والحميَّة؛ تُدفَعُ مِن الأممِ العداوةُ والأذيَّة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعينِ الموحِّدين، ومبيدِ الطُّغاةِ المارقين، وناصرِ المستضعَفينَ على مَن سلك سبيلَ المجرمين، الَّذي جعلَ العاقبةَ لهُمْ ليكونوا هُمُ الوارثين، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له إله الأوَّلينَ والآخرين، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُه مَن جاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ حتَّى أتاهُ اليقين، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ناشري لواءِ الدِّين، وعلى مَن تبعهُمْ واقتفى آثارَهم في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكُمُ اللهُ وأحياكُمْ، وجعلَ الجنَّةَ مأوانا ومأواكم، وقوَّى تقواكُمْ، وأحسنَ أعمالَكُمْ، وأعاننا على مَن عادانا وعاداكم، وذخرًا للخلافةِ أعدَّكم، ترفعونَ راياتِها، وتذودونَ عنْ حياضِها، تحاربونَ عدوَّها، وتنصرونَ جنودَها، ترصُّونَ صفوفَها، وتشيِّدونَ صروحَها، وتضمِّدونَ جروحَها، وعلى منهاجِ النُّبوَّةِ تحملونَها.

ما زلنا معكم -معاشر المسلمين- نبيِّنُ ونوضِّح، نقوِّمُ ونصحِّح، نَشرَحُ ونصرِّح، عنِ النُّفوسِ بالحقِّ نُروِّح، فإنْ وافقتْ كُلَيْمَتِي قبولًا فالحمدُ لله، وإنْ وافقتْ ردًّا فمِن نفسي والشَّيطانِ، وأستغفرُ الرَّحمن، راجيًا مِن اللهِ أنْ تنالَ هذهِ الكلماتُ القبولَ والإعجاب، وأنْ ينتفعَ منها صاحبُها والأهلُ والأصحاب، وكلُّ مَن يخافُ يومَ الحساب، وأنْ تكونَ لنا زادًا على الطَّريق، ومنارًا للسَّبيل، وحجَّةً لنا لا علينا يومَ اللِّقاء.

إنْ تجدْ عيبًا فسُدَّ الخللا *** جلَّ مَن لا عيبَ فيه وعلا

معاشرَ المسلمين، ما زلنا نعملُ على شحذِ الهمم، لاستنهاضِ المسلمينَ لردِّ عاديةِ الأمم، وما زلنا في التَّربية الجهاديَّة عاملينَ على صقلِ النَّفسِ وحثِّها واستنهاضِها وبنائها وتوجيهِها وتطبيعِها على الجهادِ والقتال، والجلادِ والاستبسال، ودعوتِها للإعدادِ والاستعداد، وردِّ الصَّائلينَ وقتالِ المحاربين، وجهادِ المعتدينَ وغزوِ الكافرين،

واستعادةِ مَا سُلِبَ مِن بلادِ المسلمين، ثمَّ إعزازِ الملَّة وإظهارِ الدِّين، ورفعِ شعارِ المسلمين، {حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}.

وإنَّ مِن أعظمِ مَا يكونُ محفِّزًا ومنشِّطًا ومحرِّكًا ودافعًا ورافعًا وناصرًا؛ هو استفزازَ الحميَّةِ في قلوبِ أهلِ المروءات، وتحريكَ الغيرةِ عند ذوي المكْرُمَات؛ فإنَّ الغيرةَ والحميَّة تدفعُ أهلَ المروءةِ والإيمان، وتنشِّطُهم لردِّ أيِّ عدوان، وتحملُهم على الصَّبرِ والرِّباطِ والجلادِ والتَّحمُّل؛ حميَّة وغيرةً وغضبةً على مَا انتُهِكَ مِن حماه، ومَا شورك فيه مِن خواصِّ مَا هو له، وما تُعُرِّضَ للانتقاصِ منهُ ممَّا هو عزيزٌ عليه مصونٌ.

فتعالَوا معاشرَ المسلمين؛ تعالَوا نجدِّدِ الأحاديثَ الجُمان، ونُحْيِ المعاني الحِسَان، ونتذاكرْ جميلَ المعاني الَّتي صارت مِن أحاديثَ كان مَا كانَ في قديمِ الزَّمان، واللهُ المستعانُ وعليهِ التُّكلان.

وإنَّ حديثَنا هذا مَا هو إلَّا لنستيقظَ مِن طولِ الرُّقاد، وننتبهَ مِنَ الغفلة، ولنصحوَ مِن السكرة، ولتستردَّ القلوبُ عافيتَها؛ فما عاد يُحتمَلُ منك طولُ الرُّقادِ أيُّها الغيور، ولا يُقبَلُ منك السُّكوتُ أيُّها الحميُّ، ولا ينبغي أنْ تعيشَ كالَّذي تمرُّ عليهِ المصائبُ والنَّكباتُ والكوارثُ والملمَّاتُ والرَّزايا العظيماتُ كالَّذي يمرُّ عليه السَّحاب، أو يسيرُ مِن فوقِهِ الغمامُ وهو ساهٍ لاهٍ، متغافلٌ مِضْيَاعٌ للأمور، لا يقفُ عندَها، ولا يتفكَّرُ فيها، ولا يعملُ بما يوجبُهُ عليهِ الشَّرعُ في مثلِها، وإنَّها -واللهِ- لحوادثُ عظيمة، وأمورٌ جسيمة، ومَا الحالُ فيها إلَّا كما قالَ القائل:

والصَّدرُ ملتهبٌ والقلبُ مضطربٌ *** والدَّمعُ منسكبٌ والصَّبرُ مفقودُ

ولأنَّهُ صارتْ فئامٌ مِن المسلمينَ لا تغارُ على حرماتِ الله، ولا تغضبُ على مَا يُنتقَصُ مِن شعائرِ الدِّين، ولا تكترثُ لِمَا يُدمَّرُ مِن دعائمِ الملَّة، وما يَتكسَّرُ مِن أصولِ التَّوحيد؛ فلا تتحرَّكُ على مَا يصيبُ المسلمينَ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها مِن خسفٍ ونسف، وذلٍّ وهوان، وتعدٍّ وصيال، وقتلٍ للأبطال، وأسرٍ للرِّجال، ولا تغارُ على هتكِ العفيفِ الشَّريفِ مِن الأعراض، ونشرٍ في الأرضِ مِن الفساد، وتسلُّطٍ للكافرينَ على الموحِّدين، وتغييرٍ لمعالمِ وأصولِ الدِّين، وحربٍ لله ورسولِهِ والمسلمين، وغيرِ ذلكَ مِن

مصائبَ وكوارثَ وبلايا، ونوازلَ ومحنٍ ورزايا، عمَّتِ الأقطار، وشملَتِ الأمصار، وخرَّبتِ الدِّيار، وسادَ فيها على المسلمينَ جمعٌ مِن الفجرةِ الأشرار، والأوغادِ الكفَّار، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ، وإلى اللهِ نشكو حالَنا، وهو المرجوُّ في الخلاصِ مِن مآسينا.

فقلْ لي بربِّك أيُّها الموحِّدُ: أينَ أنتَ مِن كلِّ ذا؟! وأينَ أنتَ مِن تداعي الأممِ؟! قلْ لي بربِّك: أينقصُ الدِّينُ مِن أطرافِهِ وأنتَ تنامُ قريرَ العينِ هانئَ النَّفسِ مرتاحَ الضَّميرِ؟! أترضى بالدَّنيَّةِ في دينِك وبكَ رمقٌ مِن عيش، أو بينَ جوانحِك عرقٌ ينبضُ بالحياة؟! فلئنْ كنتَ كذا فلبئسَ الحالُ حالُك، ولبئستِ الحياةُ حياتُك، فما هكذا يُعرَفُ الرِّجال، ومَا هذا بديدنِ الأبطال، ولا كذا كانتْ سيرةُ الأشرافِ الكرامِ أهلِ الحميَّةِ والغيرةِ على الحقِّ، والغضبِ للهِ والانتصارِ لأهله، ولكنْ قد ماتتْ في جملةٍ واسعةٍ مِن الأمَّةِ الفضائلُ، وانتشرتِ الرَّذائلُ، ودُفِنَتِ المكْرُمَات، وماتتِ الأخلاقُ الأبيَّات، وضاعتِ السَّجايا المُسْتَحْسَنَاتُ، مع فقدِ أهلِ الغيرةِ والنَّخوةِ والحميَّات!

مررتُ على المروءةِ وهْيَ تبكي *** فقلتُ علامَ تنتحبُ الفتاةُ؟
فقالتْ كيفَ لا أبكي وأهلي *** جميعًا دونَ خلقِ الله ماتوا؟!

كيفَ يجري كلُّ هذا الكفرِ والفسقِ والظُّلمِ والفجورِ والاعتداءِ والتَّسلُّطِ على المسلمينَ في كلِّ أنحاءِ الأرض، مع مَا يصحبُهُ مِن الأسرِ والسَّلبِ والفتكِ والضَّربِ والتَّعدِّي والأخذِ والخطفِ والقهرِ للمسلمينَ مِن أممِ الكفرِ قاطبةً أجمعينَ، مِن نصارى ويهودَ وباطنيَّةٍ مجرمينَ ومرتدِّينَ ومشركينَ ومحاربينَ، عربًا وعجمًا، شرقًا وغربًا، صباحًا ومساءً، ذهابًا وإيابًا، في كلِّ مكانٍ وزمان، وحيثما حللتَ أو نزلتَ، أو توجَّهتَ أو ظعنتَ؟! رأتْ عينُك أفدحَ ممَّا جاءَ به الخبر، ووجدتَّ أعظمَ ممَّا وقعَ في الأذن، وتُصُوِّرَ في العقل!

إنِّي تذكَّرتُ والذِّكرى مؤرِّقَةٌ *** مجدًا تليدًا بأيدينا أَضَعْنَاهُ
أنَّى اتَّجهتَ إلى الإسلامِ في بلدٍ *** تجدْهُ كالطَّيرِ مقصوصًا جناحاهُ!
كم صرَّفتْنا يدٌ كنَّا نصرِّفُهَا *** وباتَ يملكُنا شعبٌ ملكنَاهُ
باللهِ سلْ خلفَ بحرِ الرُّومِ عنْ عربٍ *** بالأمسِ كانوا هنا واليومَ قد تَاهُوا

أوَّاهُ أوَّاهُ على مَا حلَّ بنادينا، ومَا نزل بوادينا! وكيفَ صرنا كالأيتامِ على موائدِ اللِّئام! وكنَّا مِن قبلُ الأعلامَ، وكيفَ صارَ جملةٌ مِن المسلمينَ عند عدوِّهم خدمًا وأقزامًا، وحلَّ بساحِنا مِن الذُّلِّ والهوانِ مَا يطولُ ذكرُه، ويشقُّ على النَّفسِ شرحُه، ممَّا لا يخفى عليكُمْ؛ فالشَّمسُ لا تغطَّى بغربال، وها هي نارُ الكفرِ نصطلي منها صباحَ مساء، حتَّى خَبِرَهَا الصِّغارُ والكبار، وعَايَنَهَا النِّساءُ والأطفال، وصاروا لا يستقبلونَ فاجعةً إلَّا بأخرى، ولا يتلقَّونَ كارثةً إلَّا وتتبعُها ثانيةٌ وثالثةٌ وعاشرة! وهكذا على الدَّوام، حتَّى استعذبنا العذابَ، واعتدنا المصاب، وأَلِفْنَا قتلَ الأحباب، وخيانةَ الأصحاب، وقرصَ البعوضِ والذُّباب، والذَّمَّ والطَّعنَ والسِّباب، وتعدِّي كلِّ وغدٍ خسيسٍ مرتدٍّ كافرٍ زنديقٍ مرتاب، في أهلِ التَّوحيدِ والصَّواب، مِن حملةِ الشَّريعةِ والكتاب؛ فهلْ مِن جوابٍ على كلِّ هذا التَّعدِّي والوِثَاب؟! بلى واللهِ، فلا يسكتُ على كلِّ هذا إلَّا مَن رقَّ دينُه وغابَ يقينُه، وماتتِ الغيرةُ والحميَّةُ فيه، وفُقِدَتِ النَّخوةُ والشَّهامةُ منه، ورحلتْ عنه المروءةُ والرُّجولة، وصار مِن السَّفلةِ الأنذال!

أولادَ يَعْرُبَ أينَ غيرتُكُمْ وهمَّةُ *** جدِّكُمْ والصِّدقُ في العزماتِ؟!
أينَ الحميَّةُ والمروءةُ أينَ مَنْ *** كَشَفُوا ظلامَ الظُّلمِ بالصَّدماتِ؟!
سكنَ الخرابُ ديارَكُمْ وبلادَكُمْ *** والخزيُ طافَ بِكُمْ بستِّ جهاتِ!
ونساؤكُمْ هدمَ العدوُّ عفافَها *** وشبابُكُمْ أسرى وقتلاكُمْ ملؤوا السَّاحاتِ!
وشيوخُكُمْ أَرْسَوا سفينةَ وَهْمِهِمْ *** في أَبْحُرِ التَّضليلِ والغَفَوَاتِ!
ومدارسٌ كانتْ مصادرَ حكمةٍ *** ومساجدٌ بُنِيَتْ لفعلِ صلاةِ
بُدِّلَتْ بِحَانَاتٍ ودُورِ فواحشٍ *** ومَقَامِرٍ ومَسَارِحِ القَيْنَاتِ!
وأرى المدرِّسَ كالمدلِّسِ ينثني *** متسرِّعًا للخوضِ في الشُّبهاتِ!
جهلٌ على جهلٍ تَرَكَّبَ فانزوى *** دينُ النَّبيِّ وباتَ في غَمَرَاتِ
أينَ الحميَّةُ والشَّهامةُ والفدا *** يا أمَّةً خضعتْ لفتكِ طغاةِ؟!
أيضيعُ شرعُ اللهِ بينَ ظهورِكُمْ *** وأنتُمْ أمَّةُ التَّوحيدِ والغزواتِ؟!

يا معاشرَ المسلمين، أينَ تغيُّرُ القلوب؟! أينَ فورانُ الدِّماء؟! أينَ الحميَّةُ للدِّين؟! أينَ الشيمة والإباء؟! أينَ الغضبُ والغيرةُ والنَّجدة؟! إنَّنا نخاطبُ فيكُمْ حميَّةَ المسلمِ لأخيه، إنَّنا ندعوكُمْ مِن قعرِ أوديةٍ مِن الدِّماءِ سالتْ، ونناديكُمْ باسمِ أشلاءٍ مِن

الأبدانِ تطايرتْ، ونصيحُ فيكُمْ مِن جماجمِ إخوانِكُمُ الَّتي كسرتْهَا حِمَمُ الطَّائرات، ووَطِئَتْهَا الدَّبَّابات! إنَّهُمْ ينادونكُمْ بدموعِ اليتامى الَّتي بلَّتِ الثَّرى، ولم تجدْ يدًا حاميةً تتلقَّفُ دمعةً أو تَمْسَحُ رأسَ يتيم، قولوا لي بربِّكُمْ: هلْ مِن الحميَّةِ أو الغيرةِ أو هلْ مِن النَّخوةِ والإباءِ أو هلْ مِن النُّصرةِ والنَّجدةِ؛ أنْ نشاهدَ صُوَرَ ومشاهدَ الدَّمارِ والخراب، والقتلِ والعذابِ والهوانِ الَّذي ابتُلِي به المسلمونَ في كلِّ مكان، ونبقى أحياءً أمواتًا، صمًّا بكمًا عميًا لا نعقلُ ولا نتحرَّك، لا ننتفضُ ولا نغضبُ، لا نثأرُ ولا نَغَار، لا ننتصرُ وندفعُ عنِ الأخِ والجار؟! فلَئِنْ لم نفعل؛ فواللهِ ثمَّ والله، ليشملنَّنَا العار، ويعلقنَّ بنا الشَّنار، ويسخطُ علينا الجبَّار، ونكونُ مِن أصحابِ النَّار، إذا لم نَلُذْ بالتَّوبةِ والاستغفار، فمَنْ لإخوانِكُمْ بعدَ اللهِ إلَّا أنتُمْ يا معاشرَ المسلمين؟!

مَن للثَّكالى إذا نَاحَتْ نوائحُهَا *** مَن لِلْجِرَاحِ إذا استشرتْ بوادِينَا؟!
مَن لليتامى إذا سالتْ دموعُهُمُ *** على الخدودِ وقالوا مَن يواسينا؟!
مَن للضَّحايا إذا ضجَّتْ مردِّدَةً *** صدى المنيَّةِ قلَّ اليومَ باكينا؟!
مَن للسُّيوفِ وقد لانتْ أسنَّتُهَا *** أيُغمَدُ السَّيفُ قهرًا في نوادينا؟!
أينَ السُّيوفُ على الأعداءِ مشرعةٌ *** بوارق في خِضَمِّ النَّقعِ تهدينَا؟!
الله أكبرُ يا غاراتِ معتصمٍ *** عُودِي ففي القلبِ شوقٌ كاد يُفنِينَا

يا معاشرَ المسلمين، لعلَّها صيحةٌ تبلغُ آذانَ الغيورين، أَتَتْرُكُونَ المسلمينَ الَّذينَ يصيحونَ ويصرخون، والَّذينَ يئنُّونَ ويتأوَّهونَ قائلينَ لكم:

أنموتُ في كفِّ اللِّئامِ وأنتُمُ *** حولي ولَمْ يَهْزُزْكُمُ استنجادي؟!
ونبيتُ لا ندري أنصبحُ بعدَهَا *** أمْ أنَّ عينَ الموتِ بالمِرصَادِ؟!
يا نائمينَ على الحريرِ ومَا دَرَوْا *** أنَّا ننامُ على فراشِ قتادِ!

إنَّ الاهتمامَ بأمرِ المسلمينَ واجبٌ شرعيٌّ؛ فقد روى الطَّبرانيُّ في المعجمِ عنْ حذيفةَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: (مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ لَمْ يُصْبِحْ وَيُمْسِ نَاصِحًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ ولإمَامِهِ ولِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ)[١].

[١] ضعفه الحافظ العراقي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: فيه عبد الله بن جعفر الرازي، ضعفه محمد بن حميد، ووثقه أبو حاتم وأبو زرعة، وابن حبان.

وإنَّ التَّعاونَ على البرِّ والتَّقوى أمرٌ ربَّانيٌّ، ومثلُ المؤمنِ كمثلِ الجسدِ إذا أَلِمَ بعضُهُ تداعى سائرُه، وإنَّ (مَثَلَ المؤمنينَ في توادِّهِمْ وتراحمِهِمْ كمثلِ الجسدِ، إذا اشتكى منهُ عُضْوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحمَّى)[١]، وَ(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[٢]، وَ(المُسْلِمُ أخُو المُسْلِمِ لا يظلمُهُ ولَا يخذلُهُ ولَا يسلمُهُ ولا يخونُهُ، مَن فرَّجَ عنْ مسلمٍ كربةً في الدُّنيا؛ فرَّجَ اللهُ عنه كربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامة، ومَن سترَ عورةَ مسلمٍ سترَ اللهُ عورتَهُ يومَ القيامة، ومَن يسَّرَ على مسلمٍ يسَّرَ اللهُ عليه يومَ القيامة، واللهُ في حاجةِ العبدِ مَا كانَ العبدُ في حاجةِ أخيه)[٣]، وَ(مَا مِن امرئٍ يَخذِلُ امرأً مسلمًا في موطنٍ تُنتَهَكُ فيه حرمتُه، ويُنتَقَصُ فيه مِن عرضِه؛ إلَّا خذلَهُ اللهُ في موطنٍ يحبُّ فيه نصرتَه، ومَا مِن امرئٍ يَنصُرُ امرأً مسلمًا في موطنٍ يُنتَقَصُ فيه مِن عرضِه، ويُنتَهَكُ فيه مِن حرمتِه؛ إلَّا نصرَهُ اللهُ في موطنٍ يحبُّ فيه نصرتَه)[٤]، وَ(مَا مِن مسلمٍ يردُّ عنْ عرضِ أخيه إلَّا كانَ حقًّا على اللهِ أن يردَّ عنه نارَ جهنَّمَ يومَ القيامة)[٥]، وَ(الْمُؤْمِنُ مِرآةُ الْمُؤْمِنِ، والمُؤمنُ أخو المُؤمِن، حَيثُ لَقِيَه يَكُفُّ عليه ضيعتَهُ ويحوطُهُ مِن ورائهِ)[٦]، و(الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)، وشبَّكَ بينَ أصابعِهِ[٧].

نعمْ عبادَ الله، هكذا ينبغي أن يكونَ المؤمن، ثمَّ أينَ نذهبُ مِن أمرِ النَّبيِّ ﷺ: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا)، قالوا: يا رسولَ الله، هذا ينصرُهُ مظلومًا، فكيفَ ينصرُهُ ظالمًا؟ قالَ: (تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ)[٨].

نعمْ معاشرَ المسلمين، هذا هو أمرُ نبيِّكُمْ، ووصيَّةُ رسولِكُمْ، ودعوةُ خليلِ ربِّكُمْ، فتبًّا لمَنْ أضاعَ أمرَهُ وخالفَ حكمَهُ وجانبَ دعوتَه! تبًّا لَهُ وسحقًا! وبعدًا لَهُ بعدًا! وإنَّ

---

١ متفق عليه.

٢ متفق عليه.

٣ رواه البخاري ومسلم والترمذي بنحوه.

٤ رواه أحمد و وأبو داود الطبراني، ضعف إسناده الأرنؤوط.

٥ رواه الطبراني في مكارم الأخلاق والبغوي في شرح السنة وأحمد. قال الأرنؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف.

٦ رواه أبو داود والبيهقي في السنن والبخاري في الأدب المفرد. وحسن إسناده الحافظ العراقي وابن حجر.

٧ رواه البخاري.

٨ متفق عليه.

العربَ تقول: "أَعِنْ أخاكَ ولو بالصَّوت"، أي: إذا لم تَقْدِرْ على معونتِهِ بيدك؛ فاستصرخْ لَهُ حتَّى يُغَاثَ.

هلْ أنتَ منقذٌ شلوي مِن يَدَي زمنٍ *** أضحى يقدُّ أديمي قَدَّ مُنْتَهِسِ
دعوتُكَ الدَّعوةَ الأولى وبي رمقٌ *** وهذهِ دعوتي والكفرُ مفترسي!

عبادَ الله، إنَّ المسلمَ معرَّضٌ لعداوةِ الكفَّارِ وحربِهِمْ وكيدِهِمْ وأذاهُمْ ولا شكَّ، ولأنَّهُ عرضةٌ للأخطارِ والمهلكات؛ منحهُ اللهُ قوَّةً يَدفَعُ بها العداوة، ويَرفَعُ بها الخطر، وينجو بها -بإذن الله- مِن الهلاك، وهي قوَّةُ الغيرةِ والغضبِ والحميَّة.

واللهُ -جل وعلا- لا يخلق لنا طبعًا إلَّا لحكمة، ولا يُركِّبُ فينا قوَّةَ الحميَّةِ والغيرةِ والغضبِ إلَّا لسبب، فالأذى إذا جاءنا لا يُدفَعُ إلَّا بالغضبِ والغيرة، والشَّرُّ إذا نالنا لا يُرفَعُ إلَّا بالحميَّةِ والغيرة، وحمايةُ الأعراضِ والشَّرفِ والكرامةِ لا يكونُ إلَّا بقوَّةِ الغيرةِ وبالغضبِ للحقِّ، فمن فَقَدَ قوَّةَ الغضبِ بالكليَّة أو ضعفتْ فيه الحميَّة، أو تحلَّلتْ منه الغيرة؛ فهو ناقصٌ محلولُ العزم، مفقودُ الحزم، معدومُ الرُّجولة، ذاهبُ المروءة، كريهُ الشِّيمة، قبيحُ السَّجيَّة.

وقدِ امتدحَ اللهُ غضبَ المؤمنينَ على الكفَّارِ وحميَّتَهُمُ الدِّينيَّةَ؛ لِمَا لَهُ مِن أثرٍ في إعلاءِ كلمةِ الله، فقال تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح: ٢٩]، وقال: {وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [سورة التوبة: ١٢٣]، وقال: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة المائدة: ٥٤]، وأمرنا بالغضبِ إذا انتُهِكَتْ حرمةُ الدِّينِ والغيرةِ على حدودِ الله، فقال في الزُّناة: {وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [سورة النور: ٢].

فمَن فقدَ قوَّةَ الغيرةِ والحميَّةِ والغضبِ للحقّ؛ يصبحُ جبانًا ضعيفًا، ذليلًا حقيرًا، مهانًا مظلومًا، بعيدًا صغيرًا، معدومَ الرُّجولةِ ذاهبَ المروءة، خاليَ الكرامةِ تالِفَ الشَّهامة، فريسةً للذِّئابِ وطعمةً للكلاب، ونهبًا للُّصوصِ وغنيمةً باردةً للضِّباع، لا يأنفُ مِن العارِ ولا يهمُّه، ولا يتألَّمُ لأذى السُّفهاءِ ولا يغمُّه، يتطاولُ الفَسَقَةُ على حَرَمِهِ فلا يغارُ لعرض، ولا يغضبُ لشرف، فيكونُ تَيْسًا في صورةِ إنسان، وجمادًا لا

إحساسَ له ولا شعور؛ لذا كانَ باستشعارِ الغيرةِ والحميَّة؛ تُدفَعُ مِن الأممِ المُحَارِبَةِ العداوةُ والأذية.

وهذا هو حديثُنا، حديثُنا لتجديدِ الغيرةِ في النُّفوس، وإشعالِ الحميَّةِ الشَّرعيَّة في الصُّدور، واستنهاضِ الغضبِ الَّذي خبا أوارُه، وضَعُفَ شرارُه على أعداءِ المِلَّة مِن أهلِ الكفرِ والردَّة، فحديثُنا اليومَ لتحريكِ مكامنِ القلوب، وتهييجِ أصحابِ الرُّجولةِ والمروءةِ والغيرة؛ ليقوموا لدفعِ الصَّائلِ وإزاحة الباطل، وتغييرِ العاطلِ ويُوقِظُوا كلَّ خامل، ويَقْطَعُوا حجَّةَ كلِّ جبانٍ مماطل، فكنْ:

فتًى يتَّقي أن يَخدِشَ الذَّمُ عرضَهُ *** ولا يتَّقي حدَّ السُّيوفِ البواترِ

فيا أيُّها الموحد، أما أيقظتْكَ صيحةُ النَّملةِ في أهلِها: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ}؟! أما أحرجتْكَ غيرةُ الهُدْهُدِ على جنابِ التَّوحيدِ وهو ينادي: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ}؟! أما أَحيَتْ قلبَكَ لهفةُ الميِّتِ على قومِهِ بقوله: {يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ}؟! كيفَ تنامُ ملءَ عينَيكَ وعواءُ الذِّئابِ مِن حولِكَ وبينَ رِجْلَيْك؟! لقد علا صوتُ الباطل، وظهرتْ خفايا الرَّزايا، وقامَ قائمُ البدعةِ لينعقَ بما كانَ يتوارى مِن بينِ الزَّوايا، وأطلَّ الشِّركُ برأسِهِ البغيض، وأطْبَقَتِ الفتنُ على القلوب، وأنتَ تغطُّ في سباتٍ عميق؟!

فمتى تُفِيقُ؟! متى تُفِيقُ؟ أراك ركنتَ للرَّاحةِ والدَّعة، واشتغلتَ بالعرضِ الفاني، وانغمستَ في فضولِ المساكنِ والملابسِ والمراكبِ والمطاعمِ والمشارب، فقل لي: متى تَشْبَعُ؟! متى تَغْضَبُ؟! متى تقومُ فيك الحميَّةُ؟ متى تُشعِلُ صدرَك الغيرةُ على حرماتِ اللهِ ومحارمِ المسلمين؟! فحافظْ مِن اليومِ أعقابَ الأحاديثِ في غدِ.

إذا استلبَ الخوفُ الرِّجالَ قلوبَهُمْ *** حبسْنَا على الموتِ النُّفوسَ الغواليا
حذارَ الأحاديثِ الَّتي غبُّ يومِها *** عقدنا بأعناقِ الرِّجالِ المخازيا

فيا عبادَ الله، إنَّ الإنسانَ قد يُقدِمُ على القتل؛ لئلَّا يُقَالَ: "جبانٌ"، ويحملُ الأثقالَ ليُقَالَ: "ما قصَّر"، ويخافُ العار، ويصبرُ على كلِّ آفةٍ مِن الفقر، وهو يسترُ ذلك حتَّى لا يُرَى بعينٍ ناقصة، ومَن له نفسٌ لا يقفُ في مقامِ تهمةٍ لئلا يُظَنَّ به، وإنَّ مِن الغيرةِ مَا تجدُها عند البُعَدَاء، فحتَّى أنَّ الجاهلَ إذا قيلَ له: "يا جاهلُ" غَضِبَ،

واللُّصوصُ المتهيّئونَ للحرامِ إذا قالَ أحدُهُمْ للآخر: "لا تتكلَّمْ؛ فإنَّ أختَك تفعلُ وتصنعُ"؛ أخذتْهُ الحميَّةُ فقتَلَ القائلَ، فينبغي لأهلِ الإسلامِ والخُلُقِ أن يكونَ حالُهُمْ:

قومٌ تراهُمْ غيارى دونَ مجدِهِمُ *** حتَّى كأنَّ المعالي عندَهُمْ حُرَمُ

فأمَّا مَن لا يبالي أن يَرَى أممَ الكفرِ تَنْهَشُ مِن عرضِهِ ودينِه، ولا يهمُّهُ أنْ شُهّرَ بينَ النَّاسِ بذلك، و لا يؤلِمُهُ ذكرُ النَّاسِ له بالسُّوء، ولا يكونُ له عرضٌ يَحذَرُ عليه؛ فذاك في عدادِ البهائم، وهو بهيمةٌ في مِسْلَاخِ إنسانٍ!

أنحنُ أولي الحميَّةِ والتَّعالي *** نقاسي ظلمَ مَن في الغيِّ سارَ؟!

ولأنَّه في هذهِ العصورِ المتأخِّرةِ جرى على الأمَّةِ مَا جرى، وصارَ عليها مَا لم يكنْ قبلُ في الأعصار؛ فقدْ جرى مِن تنويمِهَا بالأفلامِ والملاهي والألعابِ وغيرِ ذلك مِن ألوانِ التَّرف، وكذا تخديرها بالغناءِ والرَّقصِ والمسلسلاتِ والسّياحةِ والزّينةِ واللَّذاتِ وغيرِ ذلك مِن أنواعِ الملهياتِ مَا أنساهُمْ همومَ أمتِهِمْ ومصائبَ قومِهِمْ وسوءَ أحوالِهِمْ ونهبَ أموالِهِمْ، ومَا يُهتَكُ مِن أعراضِهِم صباحَ مساء، فخُدِرَتِ الأمَّةُ بكلِّ هذا وغيرِه؛ فلا بدَّ لدفعِ عاديةِ الأممِ مِن إيقاظِ الحميَّةِ والغيرةِ والرُّجولةِ والغضبِ للهِ ورسولِهِ ودينِهِ ولمحارمِ المسلمين، ولأنَّ الغيرةَ مِن الإيمان؛ وجبَ أن يكونَ الجوابُ لأهلِ الحِرَاب:

فإنْ كنتَ تبغي للظَّلامةِ مركبًا *** ذلولًا فإنّي ليسَ عندي بعيرُها

الغيرةُ مَا الغيرة؟ قالَ ابنُ القيّمِ في الجوابِ الكافي: "إنَّ أصلَ الدّينِ الغيرة، ومَن لا غيرةَ لهُ لا دينَ له؛ فالغيرةُ تحمي القلبَ، فتحمي له الجوارح، فتَدفَعُ السُّوءَ والفواحش، وعدمُ الغيرةِ تميتُ القلب، فتميت له الجوارح، فلا يبقى عندها دفعٌ البتة، ومَثَلُ الغيرةِ في القلبِ مثلُ القوَّةِ الَّتي تدفعُ المرضَ وتقاومُه، فإذا ذهبتِ القوَّةُ وَجَدَ الدَّاءُ المحلَّ قابلًا، ولم يجدْ دافعًا، فتمكَّنَ فكان الهلاك، ومثَلُها مَثَلُ صياصي الجاموس الَّتي تدفعُ بها عنْ نفسِهِ وولدِه، فإذا تكسَّرتْ طمعَ فيها عدوُّه"، انتهى.

والغيرةُ هي: كراهةُ اشتراكِ الغيرِ فيما هو مِن حقِّه؛ قالَ الرَّاغبُ الأصفهانيُّ: "الغيرةُ ثورانُ الغضبِ حمايةً على أكرمِ الحُرَم، وأكثرُ مَا تُرَاعَى في النِّساء، وجعلَ اللهُ

سبحانه هذهِ القوَّةَ في الإنسانِ سببًا لصيانةِ الماءِ وحفظًا للإنسان، وقد يُستعمَلُ ذلك في صيانةِ كلِّ مَا يلزم الإنسانَ صيانتُهُ".

قالَ ابنُ القيّمِ في روضةِ المحبِّين: "بابُ غيرةِ المحبِّينَ على أحبابِهِمْ:

لمَّا كانَ هذا البابُ متَّصلًا بإفرادِ المحبوبِ بالمحبَّة ومِن موجباتِه؛ فإنَّ الغيرةَ بحسبِ قوَّةِ المحبَّة، وأصلُ الغيرةِ الحميَّةُ والأَنَفَة، والغيرةُ نوعان: غيرةٌ للمحبوبِ، وغيرةٌ عليه.

فأمَّا الغيرةُ له؛ فهي الحميَّةُ له والغضبُ له إذا استُهِينَ بحقِّه وانتُقِصَت حرمتُه، ونالَهُ مكروهٌ مِن عدوِّه، فيغضبُ له المحبُّ ويحمى، وتأخذُهُ الغيرةُ له بالمبادرةِ إلى التَّغييرِ ومحاربةِ مَن آذاه، فهذهِ غيرةُ المحبِّينَ حقًّا، وهي مِن غيرةِ الرُّسلِ وأتباعِهِمْ للهِ ممَّنْ أشرك به واستحلَّ محارمَهُ وعصى أمرَه، وهذهِ الغيرةُ هي الَّتي تحملُ على بذلِ نفسِ المحبِّ حتَّى يزولَ ما يكرهُه؛ فهو يغارُ لمحبوبِهِ أن تكونَ فيه صفةٌ يكرهُها محبوبُه ويمقتُهُ عليها.

والدِّينُ كلُّه في هذهِ الغيرة، بل هي الدِّينُ، ومَا جاهدَ مؤمنٌ نفسَهُ وعدوَّهُ، ولا أَمَرَ بمعروفٍ ولا نهى عنْ منكرٍ إلَّا بهذهِ الغيرة، ومتى خلتْ مِنَ القلبِ خلا مِن الدِّين، فالمؤمنُ يغارُ لربِّه مِنْ نفسِهِ ومِنْ غيرِهِ إذ لم يكنْ لَهُ كما يحبُّ، والغيرةُ تصفي القلب، وتُخرِجُ خبثَهُ كما يُخرِجُ الكيرُ خبثَ الحديد".

فالغيرةُ دليلٌ على قوَّةِ الإيمانِ باللهِ، وخصلةٌ يحبُّها الله، وهي مظهرٌ من مظاهرِ الغضبِ للهِ إذا رأى حرماتِ اللهِ تُنتهَك، فتدفعُ السُّوءَ والفواحش، وهي مِن الأسبابِ الدَّافعةِ لإنكارِ المنكر، والغيرةُ سببٌ لصونِ الأعراضِ وتطهيرِ المجتمعِ مِنَ الرَّذائل، ومحوِ العاطلِ وإزالةِ الباطل، ودفعِ الصَّائل؛ قالَ ابنُ القيِّم: "ومِن عقوباتِ الذُّنوبِ أنَّها تُطفِئ مِن القلبِ نارَ الغيرةِ الَّتي هي لحياتِهِ وصلاحِهِ كالحرارةِ الغزيرةِ لحياةِ جميعِ البدن؛ فالغيرةُ حرارتُهُ ونارُهُ الَّتي تُخرجُ مَا فيه مِن الخبثِ والصِّفاتِ المذمومة".

نعمْ أيُّها الموحِّد، إنَّها نارُ وحرارةُ التَّوحيدِ والإيمان، والَّتي تَفُورُ في قلبِ المسلمِ، ودمُ الغيرةِ والحميَّة للهِ ودينِهِ وحرماتِ المسلمين، تَغْلِي في صدرِهِ، فإنِ اعتُدِي على

شـرعِ اللهِ، أو تُعُـدِّيَ على حرمـاتِ المسـلمينَ وأعراضِـهِمْ وأنفسِـهِمْ وأرضِـهِمْ؛ قـامَ وانتفضَ وغضبَ وتحرَّكَ وثار، ونفضَ عنه الغبار، وأبى الضَّيمَ والاحتقار، وأضرمَ في عـدوِّهِ النَّـار، ودفـعَ عنْ حرماتِـهِ كالموجِ الهـدَّار، وكانَ لرسـولِ اللهِ مِن الأنصـار، وللمسلمينَ نعمَ الأخُ والجار، ولأمَّتِهِ خيرَ ولدٍ بارٍّ، وليسَ لَهُ عنْ غيرِ ذا مِن خيار، فلا يضعُ الغيورُ سيفَه؛ حتَّى يستردَّ حقَّه، ولا يرتاحُ؛ حتَّى حكمُ الكفرِ عنْ أمَّتِهِ يُزَاح، ولا ينـامُ؛ حتَّى يكونَ ضـعيفُ المسـلمينَ في سـلام، ولا يرقـدُ؛ حتَّى دمُ الكفـرِ يـبرُد، ولا يستكينُ؛ حتَّى يُبِرَّ في عدوِّهِ اليمين.

يا رُبَّ جبَّارٍ ضربْنَا رأسَهُ *** إنَّا لَنَضْرِبُ رأسَ مَن يتجبَّرُ
ونكرُّ في يومِ الوغى ورماحُنا *** حُمْرُ الأسنَّةِ حينَ يغشى المنكرُ

هـذا هـو حـالُ أهلِ التَّوحيـدِ والجهادِ والإسلام؛ قـوَّةٌ وعـزَّة، غـيرةٌ وحميَّة، غضبٌ وثأر، رجولـةٌ وإباء، تحدٍّ واستعلاء، صبرٌ وجلد، ثباتٌ ويقين، ومحبَّةٌ جيَّاشـةٌ للهِ ربِّ العالمين.

أبلغْ بني عمرو إذا ما لقيتَهُمْ *** بآياتِ كرَّاتي إذا الخيلُ تُقدَعُ
ولما دخلتُ السِّجنَ أيقنتُ أنَّهُ *** هو البينُ لا بين النَّوى ثم يُجمَعُ
فما السِّجنُ أبكاني ولا القيدُ شفَّني *** ولا أنَّني مِن خشيةِ القتلِ أجزَعُ
بلى، إنَّ قومًا أخافُ عليهِمُ *** إذا متُّ أن يُعطُوا الَّذي كنتُ أمنعُ
فلا تَضْرَعُوا للقومِ مِن خشيةِ الرَّدى *** لكلِّ فتًى يومًا حِمَامٌ ومَصرَعُ

عبـادَ الله، إنَّ للغـيرةِ أنواعًـا؛ فمنهـا: الغـيرةُ على توحيـدِ الله، والغـيرةُ على حرمـاتِ الله، والغيرةُ على محـارمِ المسلمين، والغيرةُ على محارمِكَ ومَا عـزَّ عليك، وهكذا، وإنَّ الغيرةَ من الغرائزِ البشـريَّةِ الَّتي أودعَهَا اللهُ في الإنسـان، وهي مشـتقَّةٌ مِن تغيُّرِ القلبِ وهيجـانِ الغضـبِ بسببِ المشـاركةِ فيمـا بِـهِ الاختصـاصُ، وهي الحميَّـةُ وكـرْهُ شـراكةِ الغيرِ في الحـقِّ الخـالص، إنَّ الغـيرةَ على شـريعةِ اللهِ ودينِـهِ وعبـادِهِ واجبـةٌ يتقـرَّبُ بها العبدُ إلى الله، وقد ضيَّعَها اليومَ كثيرٌ مِن المسلمين، فترى دينَ اللهِ يُنتَهَكُ في المجالس، وآياتِهِ يُكفَرُ بها ويُستَهْزَأُ بها ولا تجدُ في المجلسِ مَن يغارُ لله، فيردُّ ويدفعُ عنْ شريعته، ويغضبُ للهِ عز وجل، فيقومُ بالواجبِ في إنكارِ المنكر.

قال صاحبُ الظِّلال: "أولى مراتبِ النِّفاقِ أنْ يجلسَ المؤمنُ مجلسًا يسمعُ فيه آياتِ الله يُكفَرُ بها ويُستَهْزَأُ بها، فيسكتُ ويتغاضى، ويسمِّي ذلك تسامحًا، أو يسمِّيهِ دهاءً، أو يسمِّيهِ سعةَ صدرٍ وأفق، وإيمانًا بحريَّة الرَّأي، وعجبًا عجبًا! وهي الهزيمةُ الدَّاخليَّةُ تدبُّ في أوصاله، وهو يموِّهُ على نفسِهِ في أوَّل الطَّريق؛ حياءً منهُ أن تأخذَهُ نفسُهُ متلبِّسًا بالضَّعفِ والهوان، إنَّ الحميَّةَ لله ولدينِ الله ولآياتِ الله هي آيةُ الإيمان، وما تَفتُرُ هذهِ الحميَّةُ إلَّا وينهارُ بعدها كلُّ سدٍّ، ويُزَاحُ بعدها كلُّ حاجز، وإنَّ الحميَّةَ لتُكبَتُ في أوَّلِ الأمرِ عمدًا، ثمَّ تهمدُ ثم تخمدُ ثم تموتُ"، انتهى كلامُهُ -رحمه الله-.

معاشرَ المسلمين، إنَّ نبيَّكُم -عليه الصلاة والسلام- كانَ أعظمَ النَّاسِ غيرةً لله، فكان يغضبُ إذا انتُهِكَتْ حرماتُ الله، وعنْ عبدِ اللهِ عنِ النبيِّ ﷺ قال: (مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ)[١]، وعنْ أبي هريرةَ -رضي الله عنه- عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قال: (إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)[٢]، وجاءَ في الحديثِ: (إنّ الغَيْرَةَ مِنَ الإِيْمانَ). وعنِ المغيرةِ قالَ سعدُ بنُ عبادةَ: "لو رأيتُ رجلًا مع امرأتي؛ لضربتُهُ بالسَّيفِ غيرَ مُصفَح"، فقال النَّبيُّ ﷺ: (أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي)[٣]، وروي عنْ عليٍّ أنَّه قالَ في خطبتِه: "بلغني أنَّ نساءكُمْ يزاحمْنَ العلوجَ في السُّوق، أما تغارونَ؟! أما تغارون؟! ألا إنَّهُ لا خيرَ في مَن لا يغارُ"، وعنْ زيدِ بنِ أسلمَ مرفوعًا قال: (إِنَّ الْغَيْرَةَ مِنَ الإِيمَانِ، وَإِنَّ الْمَذَاءَ مِنَ النِّفَاقِ)[٤].

وقال محمَّدُ بنُ عليٍ بنِ الحسن: "مَا مِنِ امرئ لا يغارُ إلَّا منكوس القلبِ"، وقد قالَ بعضُ الحكماءِ: "أخذتُ مِن كلِّ شيءٍ أحسنَ مَا فيه، حتَّى مِنَ الكلبِ ذبَّهُ عنْ حريمِهِ"، فتبًّا لمن كانَ الكلبُ أغيرَ منهُ على حريمِه، ولا أبقى اللهُ له باقية، وجعله في الهاوية!

أيختارُ الكريمُ أخو المعالي *** مقامَ الذُّلِّ يعقبُهُ ازدراءُ؟!
إذا سمح الفتى بالعرضِ يومًا *** فذَلِكَ والبهيمةُ قلْ: سواءُ!

---

[١] رواه البخاري.
[٢] رواه البخاري.
[٣] رواه البخاري.
[٤] رواه عبد الرزاق والبيهقي. قال السيوطي: مرسل.

وبئسَ العيشُ عيشُ فتًى ذميمٍ *** عليه مِن الخنا الدَّاجي رِدَاءُ
وأشرفُ مَا اقتناهُ الحرُّ ذكرٌ *** تَقَاصَرَ دونَ ريَّاهُ الكِبَاءُ
عفافٌ غيرةٌ صدقٌ وفاءٌ *** رعايةُ مَنْصِبٍ حَزْمٌ إباءُ
وإقدامٌ وَجُودٌ، صدقُ وعدٍ *** وعهدٌ ليس يَخْفُرُهُ البلاءُ
ومَن عَشِقَ الثَّنا هَجَرَ الدَّنايا *** ولم يُلْمِمْ بساحتِهِ البذاءُ
تطلَّعَ للعُلَا والمجدِ دأبًا *** وفي سبقِ الكرامِ لَهُ اعتناءُ
سِرَاعُ الغوثِ إنْ يُدْعَوا لعزٍّ *** وإنْ يُدْعَوا لمنقصةٍ بِطاءُ

نعمْ عبادَ الله؛ إنَّ أهلَ الإسلامِ أهلُ غيرةٍ وحميَّةٍ ورجولةٍ ومروءة، مَنِ استصرخَهُمْ نُصِر، مَنِ استغاثَ بِهِمْ أُغيث، ومتى ما دُعُوا لبَّوا، ومتى ما استُنْفِرُوا نفروا، لا يخذلونَ مسلمًا ولا يسلمونه، وأمَّا مَنِ اعتدى على محارمِهِمْ؛ فقد دارتْ عليه الدَّوائر، فمن تعرَّض لحرماتِنا قطعنا رأسَه، ومَنِ انتقصَ أو عابَ دينَنا بَقَرْنَا بطنَه، ومَنْ حاربَنا قَصَمْنَا ظهرَه، ومَن شمَّر لحربِنَا كسرنا سَاعِدَه، وإذا حاولوا على أطرافِ ديارِنا هدمنا عواصمَهُمْ، وطَعَنَّا على جُثَثِهِمْ، وأُورِثْنَا -بحول الله- أرضَهُمْ وديارَهُمْ وأموالَهُمْ، ومَن عدا علينا جعلناهُ عبرةً للمعتبرين، وروايةً للقصَّاصين، ومَن أراد دينَنا وأعراضَنا بسُوء؛ فله الويلُ والثُّبورُ وعظائمُ الأمور، وكانتْ وقائعُنا معه علامةً على كرِّ الدُّهور، ومَن سلَّ علينا سيفَ البغيِ قُتِلَ به؛ قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)} [سورة الشورى]، قال ابنُ كثير: "أي: فيهِمْ قوَّةُ الانتصارِ ممَّن ظلمهُمْ واعتدى عليهِمْ، ليسوا بعاجزينَ ولا أذلَّة بل يقدرونَ على الانتقامِ ممَّن بغى عليهِمْ".

قالَ القرطبيُّ في قوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)} [سورة الحج]، قال: "هو عامٌّ في بغيِ كلِّ باغٍ مِن كافرٍ أو غيره، أي: إذا نالَهُمْ ظلمٌ مِن ظالمٍ لم يستسلموا لظُلْمِه، وهذهِ إشارةٌ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكر وإقامةِ الحدود"، انتهى كلامه.

قالَ ابنُ العربيِّ: "ذكرَ اللهُ الانتصارَ في البغيِ في معرضِ المدح، وذكر العفوَ عنِ الجرمِ في موضعٍ آخرَ في معرضِ المدح، فاحتملَ أن يكونَ أحدُهما رافعًا للآخر، واحتملَ أن يكونَ ذلك راجعًا إلى حالتين؛ أحدهما: أن يكونَ الباغي مُعْلِنًا بالفجور،

وَقِحًا في الجمهور، مؤذيًا للصَّغيرِ والكبير، فيكونُ الانتقامُ منه أفضل، وفي مثله قال إبراهيمُ النَّخعيُّ: إنَّهُمْ كانوا يكرهونَ أن يُذِلُّوا أنفسَهم، فيتجرَّأَ عليهِمُ الفسَّاق".

أبتْ لي عفَّتي وأبى بلائي *** وأخذي الحمدَ بالثَّمنِ الرَّبيحِ
وإقدامي على المكروهِ نفسي *** وضربي هامةَ البطلِ المشيحِ
وقولي كلَّما جَشَأتْ وجَاشَتْ *** مكانكِ تُحمَدي أو تستريحي
وأدفعُ عنْ مكارمَ صالحاتٍ *** وأحمي بعدُ عنْ عرضٍ صحيحِ

عنْ سعيدِ بنِ زيدٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: (مَن قُتِلَ دونَ دينِهِ فهو شهيدٌ، ومَن قُتِلَ دونَ دمِهِ فهو شهيدٌ، ومَن قُتِلَ دونَ مالِهِ فهو شهيدٌ، ومَن قُتِلَ دونَ أهلِهِ فهو شهيدٌ) [رواهُ التِّرمذيُّ وأبو داودَ والنَّسائيُّ بإسنادٍ صحيح].

فيا أهلَ الغيرةِ والحميَّةِ والمروءة، يا أهلَ الغضبِ لله ودينِه، يا أهلَ الإسلام؛ إنَّ الإسلامَ غَرَسَ في صدورِ أبنائه حميَّةً لدينِهِمْ لا نظيرَ لها، وكانَ العربُ المسلمونَ أشدَّ النَّاسِ غيرةً على دينِهِمْ وأعراضِهِمْ وحقوقِهِمْ، فلا يُهَانُونَ ولا يُذَلُّونَ، بلْ يطلبونَ الموتَ لقاءَ رفعِ الضَّيمِ واستردادِ الحقوق.

وإنَّا لَذَوَّادُونَ عنْ حُرُمَاتِنَا *** إذا كانَ يومُ أكلفِ الوجهِ أَغْبَرُ
وذمَّتُنَا محفوظةٌ برماحِنا *** إذا ما أضاعَ الذِّمَّةَ المُتَخَفِّرُ
وأيمانُنا مبسوطةٌ بسيوفِنَا *** مُطَبَّقَةٌ يومَ الوغى حينَ تُشْهَرُ
وأعراضُنا مستورةٌ بحياتِنَا *** وما خيرُ عِرْضٍ لا يُصَانُ ويُسْتَرُ

معاشرَ المسلمين، دينُ اللهِ يُحارَب، وشريعةُ اللهِ نُحِّيَتْ واستُبْدِلَت، ومُلِئتْ بالصَّالحينَ السُّجون، وقامتِ التَّحالفاتُ على المجاهدين، وتحزَّبتِ الأحزابُ على المسلمين، وقامتِ الحروبُ الغاشمةُ على الخلافةِ وعلى المؤمنين، وانتُهِكَتْ أعراضُ المستضعَفِينَ على الملأ وأمامَ النَّاظِرِينَ! غير مُسْتَحْيِينَ ولا هيَّابين، وسُلِبَتِ الأموالُ ونُهِبَتِ الخيرات ونحنُ ساهونَ لاهون! أفلا بعدَ كلِّ ذا مِن يقظة؟! ألا مِن حميَّةٍ وغيرة؟! ألا مِن غضبٍ وطلبٍ للثَّارِ، لحسمِ الشَّرِّ المُثَار، في كلِّ النَّواحي والأقطار؟! فمَن يؤدِّبُ المرتدِّينَ، ويردعُ الباطنيَّةَ والرَّوافضَ والملحدين؟! مَن يدفعُ الصَّليبيِّينَ، ويكسرُ شوكةَ الطَّواغيتِ المفسدين، ويعيدُ الخلافةَ إلى أرجاءِ العالمين، ويكونُ بالحقِّ

قـويَّ اليمين، ثَبْتَ الجنـانِ جسـورًا متينًـا، ويجعـلُ أهـلَ الكفـرِ حصـيدًا خامـدين؟! ومقالُه: إمَّا حياةٌ في سبيلِ الحقِ، وإمَّا موتٌ ليَعْلُوَ الحقُّ، وهذا هو طريقُ الحقِ.

سأحملُ نفسي على كلِّ آلةٍ *** فإمَّا عليها وإمَّا لها

***

مثُلَ الموتُ بينَ عَيْنَيْهِ والذُّلُّ *** وكلًّا رآهُ خطبًا عظيمًا

ثمَّ سارتْ به الحميَّةُ قدمًا *** فأماتَ العِدَا وماتَ كريمًا

فـالغيرةَ الغيرةَ عبـادَ الله، والحميَّةَ الحميَّة، والغضـبَ الغضـبَ لله ورسـولِهِ ودينِـه، فلا خيرَ -والله- فيمَنْ لا يغارُ ويغضبُ.

إنَّـه ينبغي أن يكونَ أعظمَ النَّـاسِ غـيرةً وحميَّـة، وأشـدَّهُمْ غضـبًا لله ورسـوله: هُمْ أعلمُ النَّاسِ به، وأكثرُهم تعظيمًا له وخشيةً منه، وهُمُ العلماءُ والدُّعاةُ وطلبةُ العلم، حَمَلَةُ الكتـابِ وورثـةُ الأنبيـاء؛ لأنَّهم حمـاةُ الـدِّين الَّـذين ينفـونَ عنـه تحريـفَ الغـالينَ وانتحـالَ المبطلينَ وتأويلَ الجـاهلين، ولكنَّنـا نشكو إلى الله مَا حلَّ في زماننا، وكَثُرَ فيـه مِن كلِّ منـافقٍ عليمِ اللِّسـان، ومِن مشـترٍ بآيـاتِ الله ثمنًـا قليلًا، ومِن علمـاءِ سُـوءٍ وسـلطان، مـاتتْ حميَّتُهم، وذهبتْ نخـوتُهم، وسـقطتْ همَّتُهم، وذابتْ غـيرتُهم، وأَلِفُـوا الـذُّلَّ ورتعـوا فيـه، وصـاروا أداةً للتَّخـذيلِ والتَّضـليلِ والتَّمويـهِ والتَّعطيـلِ للجهـاد، لم تتحـرَّكْ نفوسُـهم لمآسي المسلمين، ولم تتمعَّرْ وجـوهُهم لما يُصَارُ على الـدِّينِ مِن تغيـيرٍ وتبـديل، وتحريـفٍ وردٍّ وإبطـالٍ وتشـويهٍ ومنـعٍ وتعطيـل، وعلى أهلِـهِ مِن قتـلٍ وأسـرٍ ومطـاردةٍ وعـذابٍ وتنكيـل، وتهديـدٍ ووعيـد؛ لـذا إذا أردتَّ أن تعلمَ سببَ مـوتِ الغـيرةِ والحميَّة في عمومِ الأمَّة: فانظرْ إلى علماءِ الأمَّة ودعاتِها وكتَّابِها، يأتِك الجوابُ.

إذا الأصولُ وَهَتْ فلا *** تعجبْ إذا وَهَتِ الفروع

إذا كانَ ربُّ البيتِ بالدُّفِّ ضاربًا *** فشيمةُ مَن في الدَّارِ كلِّهِمُ الرَّقصُ

ورحم اللهُ ابنَ القيِّمِ عنـدما قـال: "ومَن لَـهُ خـبرةٌ بمـا بعثَ اللهُ بـه رسـولَهُ ﷺ وبمـا كانَ عليه هو وأصحابُه: رأى أنَّ أكثرَ مَنْ يُشَارُ إليهِمْ بالـدِّينِ هُمْ أقلُّ النَّـاسِ دينًـا، واللهُ المستعان، وأيُّ دينٍ وأيُّ خيرٍ فيمن يرى محارمَ اللهِ تُنتَهَكُ وحدودَهُ تُضَاعُ ودينَهُ يُترَكُ

وسنَّةَ رسولِهِ ﷺ يُرغَبُ عنها؛ وهو باردُ القلبِ ساكتُ اللِّسانِ شيطانٌ أخرس، كما أنَّ المتكلِّمَ بالباطلِ شيطانٌ ناطق؟! وهل بليَّةُ الدِّينِ إلَّا مِن هؤلاءِ الَّذينَ إذا سَلِمَتْ لهم مآكلُهم ورياساتُهم؛ فلا مبالاةَ بما جرى على الدِّينِ وأهلِه، وخيارُهُمُ المتحزِّنُ المتلمِّظ! ولو نُوزِعَ في بعضِ ما فيه غضاضةٌ عليه في جاهِهِ أو مَالِه؛ بذلَ وتبذَّل، وجدَّ واجتهد، واستعملَ مراتبَ الإنكارِ الثَّلاثة بحسب وسعِه، وهؤلاءِ مع سقوطِهم مِن عينِ الله ومقتِ اللهِ لهُمْ؛ قد بُلُوا بأعظمِ بليَّةٍ تكونُ وهُمْ لا يشعرون، وهو موتُ القلب؛ فإنَّ القلبَ كلَّما كانتْ حياتُهُ أتمَّ كانَ غضبُهُ لله ورسولِهِ أقوى، وانتصارُهُ للدِّينِ أكمل"، انتهى كلامُهُ -رحمه الله-.

وقد ذكر الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ أثرًا أنَّ اللهَ سبحانه أوحى إلى ملكٍ مِن الملائكة: "أنِ اخسفْ بقريةِ كذا وكذا، فقال: يا ربِّ، كيفَ وفيهِمْ فلانٌ العابد؟! فقال: بِهِ فابدأْ؛ فإنَّه لم يتمعَّرْ وجهَهُ فيَّ يومًا قطُّ".

أناسٌ لم أجدْ فيهِمْ رؤوفًا *** ولا شهمًا رحيمًا أو غيارى
أراهُمْ أظهروا الإخلاصَ غشًّا *** ويقترفونَ آثامًا كبارا

وتكلَّم ابنُ القيِّم -رحمه الله- في روضةِ المحبِّينَ عنِ الغيرةِ بكلامٍ عظيم؛ فقال: "ومنها غيرتُهُ لمحبوبِهِ وعلى محبوبِه، فالغيرةُ له أن يكرهَ ما يكرهُه، ويغارُ إذا عُصِيَ محبوبُه، وانتُهِكَ حقُّه، وضُيِّعَ أمرُه، فهذهِ غيرةُ المحبِّ حقًّا، والدِّينُ كلُّه تحتَ هذهِ الغيرة؛ فأقوى النَّاسِ دينًا أعظمُهُمْ غيرة، وقد قال النبيُّ ﷺ في الحديثِ الصَّحيح: (أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي)[١].

فمُحِبُّ اللهِ ورسولِهِ يغارُ لله ورسوله على قدر محبَّتِه وإجلالِه، وإذا خلا قلبُهُ من الغيرةِ لله ورسوله؛ فهو مِن المحبَّة أخلى وإنْ زعم أنَّه من المحبِّين؛ فكَذَبَ مَنِ ادَّعى محبَّةَ محبوبٍ مِن النَّاسِ وهو يرى غيرَهُ يَنتَهِكُ حرمةَ محبوبِهِ ويسعى في أذاهُ ومساخِطِه، ويستهينُ في حقِّهِ ويستخفُّ بأمرِهِ وهو لا يغارُ لذلك، بل قلبُهُ باردٌ، نسألُ اللهَ العافيةَ والسَّلامة.

---

١ رواه البخاري.

فكيفَ يصحُّ لعبدٍ أن يَدَّعِيَ محبَّةَ اللهِ وهو لا يغارُ لمحارمِهِ إذا انتُهِكَت، ولا لحقوقِهِ إذا ضُيِّعَتْ؟! وأقلُّ الأقسامِ أن يغارَ له مِن نفسِهِ وهواهُ وشيطانِه، فيغارُ لمحبوبِهِ مِن تفريطِهِ في حقِّهِ وارتكابِهِ لمعصيتِه، وإذا ترحَّلتْ هذهِ الغيرةُ مِن القلب: ترحَّلتْ منه المحبَّةُ بلْ ترحَّل منه الدِّينُ وإنْ بقيت فيه آثارُه، وهذهِ الغيرةُ هي أصلُ الجهادِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكر، وهي الحاملةُ على ذلك، فإنْ خلتْ مِنَ القلب؛ لم يجاهدْ ولم يأمرْ بالمعروفِ ولم ينهَ عنِ المنكر؛ فإنَّه إنَّما يأتي بذلك غيرةً منه لربِّه؛ ولذلك جعلَ اللهُ -سبحانه وتعالى- علامةَ محبَّتِهِ ومحبوبيَّتِهِ الجهادَ؛ فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)} [سورة المائدة]"، انتهى كلامُه.

نعمْ، إنَّ الواجبَ على العلماءِ الصُّلحاءِ أن يعملوا على استنهاضِ الأمَّةِ لحربِ عدوِّها ودفعِ بغيِ وتعدِّي الأممِ الكافرةِ عليها، ثمَّ حراستِها وتحكيمِ شِرْعَتِهَا ورفعِ رايتِهَا وإعلاءِ كلمةِ اللهِ في سلطانِهَا، حتَّى يكونَ الدِّينُ كلُّه لله، ولكنْ لمَّا ماتتْ مِن قلوبِ جملةٍ منهُمُ الغيرةُ والحميَّةُ: صرنا إلى حالٍ شديد، واللهُ المستعان، ولمَّا حضر النَّاسُ إلى علمائِهِمْ يرجونَ التَّحريضَ والتَّهييجَ والتَّرغيبَ بالجهاد: فُجِعُوا بالتَّخذيلِ والتَّضليلِ والتَّقعيدِ والتَّعطيل، فلا غيرةً ولا إيمانًا ولا حميَّةً ولا إسلامًا ولا صدقًا ولا نصحًا، ولا عجبَ بعد ذلك بما حلَّ في النَّاس!

فإذا مَا الجرحُ رُمَّ على فسادٍ *** تبيَّن فيه تفريطُ الطَّبيبِ

فصِرْنَا كالمستغيثِ مِن الرَّمضاءِ بالنَّارِ!

كنت مِنْ كربتي أفرُّ إليهم *** فهم كربتي فأين الفرارُ؟!

***

اتَّخذتُكُمْ درعًا وترسًا لتَدْفَعُوا *** نبالَ العِدَا عنِّي فكنتُمْ نِصالَهَا!

***

ربَّ مَن ترجو به رفعَ الأذى *** سوف يأتيك الأذى مِنْ قِبَلِه!

فأيُّ علماءٍ هؤلاء؟! لم يقودوا الصُّفوف، ويرفعوا الرَّاية عند الزُّحوف، ولا كانوا على الحقِّ وقوفًا، وكانوا أمامَ الذِّئبِ كالخروف! فلا بالعلمِ وَقَفُوا، ولا بالرُّجولةِ عُرِفُوا.

سَبَكْنَاهُ ونحسبُهُ لجينًا *** فأبدى الكيرُ عنْ خَبَثِ الحديدِ

ثمَّ بعدَ كلِّ هذا؛ تخلَّوا عنِ المروءةِ والشَّهامةِ والغيرةِ والحميَّةِ والغضبِ لله والنَّخوةِ والرُّجولة.

فليتهُمُ إذْ لم يذودُوا حميَّةً *** عنِ الدِّينِ ضنُّوا غيرةً بالمحارمِ
وإنْ زَهِدُوا في الأجرِ إذْ حَمِيَ الوغى *** فهلَّا أتوهُ رغبةً في المغانمِ!

فرماهُمُ اللهُ ببليَّةٍ لا أختَ لها؛ فقد صار مَثَلُ أحدِهِمْ مَثَلَ الكلب؛ لأنَّهُ أخلد إلى الأرضِ واتَّبع هواه، وما هو إلا دنيءٌ استفادَ علمًا، فازداد به شرًّا!

هززتُك للعُلَا فكَبَوْتَ عنها *** كَبْوَ البغلِ طالَ به التَّعنِّي

ثمَّ إنَّ بعضَ المتعالمينَ بلغ به الشَّرُّ -رماهُ اللهُ بثالثةِ الأثافي- أنْ تحلَّل مِن أخلاقِ وشيمِ الكرام، فلا خُلُقَ ولا إسلام، فما عاد يؤمَنُ خبالُه، أو يُرجَى نوالُه، ذِكْرُ حديثِهِ غثٌّ، وكلامُهُ رثٌّ، قريبٌ في الجدبِ عدوٌّ في الخصب، قليلُ الخيرِ جمُّ الضَّير.

وما دعوتُ عليه قطُّ ألعنُهُ *** إلَّا وآخرُ يتلوني بآمينِ

فبئسَ الخَلَفُ لخيرِ سلف، ونعمَ الموروثُ وبئسَ الوارث!

وَرِثْنَا المَجدَ عَنْ آباءِ صِدقٍ *** أَسَأْنَا في دِيارِهِمُ الصَّنيعَ
إذا الحَقُّ الرَّفيعُ تعاورتْهُ *** دعاةُ السُّوءِ أَوشَكَ أنْ يضيعَ

أيُّها العلماء، أعيذُكُمْ باللهِ مِن القنوعِ والخضوعِ والخنوع، لا يستطيعُ أحدكُمْ أن يَعِيَ العلومَ السُّنِّيَّة، حتَّى يمحوَ مِن نفسِهِ الأمورَ الدَّنيَّة، ويكسوَ نفسَهُ مِن المكارمِ والفضائل، وعلى محاسنِ الشِّيمِ وجميلِ الطِّباع، والطَّبعُ بالتَّطبُّع.

لا تنظرنَّ إلى الثِّيابِ فإنَّني *** خَلِقُ الثِّيابِ مِن المروءةِ كَاسِ

وإنَّ المكارمَ موصولةٌ بالمكاره، ومَن سَمَا لمَكْرُمَةٍ؛ فليتحمَّلْ مكروهَهَا، وما لَزِمَ أحدٌ الدَّعةَ إلَّا ذُلَّ، وحبُّ الهُوَينَى يُكْسِبُ الذُّل، وحبُّ الكفايةِ مفتاحُ العجز، وقد قيل: "إنَّ الرَّاحةَ حيثُ تَعِبَ الكرامُ أودع لكنَّها أوضع، والقُعُودُ حيثُ قام الكرامُ أسهل لكنَّه أسفل!".

إذا ما اقتنى العلمَ ذو شِرَّةٍ *** تضاعفَ ما ذَمَّ مِن مَخْبَرِه
وصادف من علمه قوَّةً *** يصولُ بها الشَّرُّ في جوهرِه
وصار عدوًّا لإخوانِهِ *** وسيفًا حسامًا على معشرِه

وبعضُهُمْ يبرِّرُ الحميَّةَ وذهابَ الغيرةِ وبرودَ القلبِ بالحكمةِ والحنكة، والتَّؤدةِ والسِّياسةِ والكياسة، والصَّبرِ والدَّعوةِ والرِّفقِ والحلمِ وغيرِ ذلك؛ فرارًا مِن الحقّ وتلبيسًا على الخلق، فتبًّا لهُ مِن ظالمٍ وَلِيَ المظالم، والجوابُ على هؤلاءِ بقولنا:

ألا ربَّما كانَ التَّصبُّرُ ذلَّةً *** وأدَّى إلى الأمرِ الَّذي هو أسمجُ
***
إذا كانَ حلمُ المرءِ عونَ عدوِّهِ *** عليهِ فإنَّ العسفَ أغنى وأنفعُ
***
لا يَحسُنُ الحلمُ إلَّا في مواطنِهِ *** ولا يليقُ الوَفَا إلَّا لمن شكرَ

فيا أيُّها العلماء، استيقظوا وتنبَّهوا وأفيقوا واعلمو أنَّ الخطبَ جلل، وأنَّ الأمرَ عظيم، وأنَّ دوركم خطير، فإيَّاكم -إنْ رقَّ دينُكُمْ- أن تموتَ حميَّتُكم، وتخمدَ غيرتُكم، وتذهبَ غيرتُكم.

يا راعيَ السِّربِ يحميه ويحرسُهُ *** إنَّ الذِّئابَ قدِ استولتْ على الغَنَمِ!

وإيَّاكُمْ إيَّاكُمْ والتَّقلُّبَ والتَّلوُّن؛ فإنَّ دينَ الله واحدٌ.

يا مَن تلوَّنَ في الطِّباعِ أما ترى *** ورقَ الغصونِ إذا تلوَّنَ يسقطُ؟!

ولن يشينَ مقالتي هذهِ أنَّك بعدُ -والعياذ بالله- لم تسلِّمْ لما فيها مِن حق، ولم ترضَ لما فيها مِن صدق، ولم ترتضِ ما فيها مِن نصيحةٍ صحيحةٍ فصيحة؛ فإنَّه:

ومَن يَكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ *** يجدْ مرًّا به الماءَ الزُّلالَ

ولكنْ -ولله الحمد- فقد آنَ للحقِّ أن يتَّضح، وللباطلِ أن يفتضح، والحقُّ حقيقٌ أن يُنهَجَ سبيلُه ويَتَّضِحَ دليلُه، وقد قال المنتصرُ يومًا: "والله ما عزَّ ذو باطلٍ ولو طلع على القمر، ولا ذُلَّ ذو حقٍّ ولو اتَّفق العالمُ عليه".

والحقُّ أبلج والباطلُ لجلج، والحقُّ مَن تعدَّاهُ ظلم، ومَن قصَّر عنه ندم؛ لذا فالصَّوابُ الذي لا ينبغي خلافُهُ لمن نظر إلى أحوالِ المسلمين، ويدَّعي أنَّه مِن الإخوانِ والأعوانِ ذوي الغيرةِ والمروءةِ والحميَّة: أن يُثبِتَ ذلك بالبرهان، بالأفعالِ لا بالأقوال، وبأعمالِ الرِّجالِ ومواقفِ الأبطال.

صديقٌ ليسَ ينفعُ يومَ بأسٍ *** قريبٌ مِن عدوٍّ في القياسِ

***

وإنَّ أخي الَّذي إنْ أدعهُ لملمَّةٍ *** يُجِبْني وإنْ أغضَبْ إلى السَّيفِ يغضَبِ

{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [سورة الأنبياء: ١٨].

فيا عبادَ الله، إنْ لم تُدرِكُوا إخوانَكم؛ فأدركوا أنفسَكم؛ فإنَّ الصَّليبيينَ والمرتدِّينَ والملاحدةَ والباطنيَّةَ والرَّوافضَ المجرمين، إنْ تمكَّنوا مِن جندِ الخلافةِ -لا قدَّر اللهُ ربُّ العالمين-؛ فما هُمْ لكم بتاركين، ولا أنتُمْ منهم بسالمين: {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)} [سورة الكهف]، وها نحنُ نجرُّكُمْ إلى المحراب، وبعضُكُمْ يجرُّنا إلى الخراب، فيا ليتَ قومي يعلمون! يا ليتَ قومي يسمعون! يا ليتَ قومي يَعُون، مِن مجرِّبٍ مرَّت عليه العبرُ، وتعدَّدتْ على مَرآهُ الصُّور، حتَّى:

لبستُ مِن الحوادثِ كلَّ ثوبٍ *** سوى ثوبِ المذلَّةِ والهوانِ

يا معشرَ الدُّعاةِ والعلماء، ويا طلبةَ العلمِ والمصلحون، أَفضَلُ الجهادِ كلمةُ حقٍّ عندَ إمامٍ جائر، قال صاحبُ الظِّلال: "وتتواردُ النُّصوصُ القرآنيَّةُ والنَّبويَّةُ تترى في هذا المعنى وهذهِ الحميَّة ضدَّ الفسادِ في المجتمع، بحيثُ لا يقولُ أحدٌ وهو يرى الفسادَ يسري ويشيع: وماذا أصنعُ والتَّعرُّضُ للفسادِ يُلحِقُ بي الأذى؟! هذهِ الغيرةُ على حرماتِ الله، والشُّعورُ بالتَّكليفِ المباشرِ بصيانتِها والدَّفعِ عنها؛ للنَّجاةِ مِن الله، وهذا كلُّه في حاجةٍ إلى الإيمانِ الصَّحيحِ بالله، ومعرفةِ تكاليفِ هذا الإيمان، وإلى

الإدراكِ الصَّحيحِ لمنهجِ الله، ومعرفةِ أنَّه يشملُ كلَّ جوانبِ الحياة، وإلى الجدِّ في أخذِ العقيدةِ بقوَّة، والجهدِ لإقامةِ المنهجِ الَّذي ينبثقُ منها في حياةِ المجتمعِ كلِّه؛ فالمجتمعُ المسلمُ الَّذي يستمدُّ شريعتَهُ مِن شريعةِ الله، ويقيمُ حياتَهُ كلَّها على منهجِهِ هو المجتمعُ الَّذي يسمحُ للمسلمِ أن يزاولَ حقيقةَ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكر، بحيثُ لا يصبحُ هذا عملًا فرديًّا ضائعًا في الخِضَم، أو يجعلُهُ غيرَ ممكنٍ أصلًا في كثيرٍ مِن الأحيان"، انتهى كلامُه.

فَقِفْ موقفَ الغيرةِ والحميَّةِ والنَّخوةِ والمروءة، واصدعْ بها بينَ الخليقةِ قائلًا:

صَنَمُ المخاوفِ والهوى حطَّمْتُهُ *** ورَتِيبُ عيشي عفتُهُ وسئمتُهُ
والحقدُ في صدري المغيظِ كتمتُهُ *** حتَّى ينفِّسَ عنهُ ما صمَّمتُهُ

ويا معشرَ المسلمين، ونخصُّ منهُمُ الدُّعاةَ وأهلَ العلمِ الصَّادقين: الحميَّةَ الحميَّة، والغيرةَ الغيرة، والغضبَ الغضبَ والجدَّ الجدَّ، واستعيذوا باللهِ مِن موتِ القلبِ وانتكاسةِ الفطرةِ وانخرامِ المروءةِ وتبلُّدِ الحسِّ، وكذا استعيذوا باللهِ مِن العجزِ والكسلِ والجبنِ والبخلِ والخورِ والضَّعف، وكونوا سببًا لإيقاظِ الأمَّةِ ودبِّ حياةِ الغيرةِ والحميَّةِ للدِّينِ بين أبنائها، وكذا سببًا للتَّحريضِ والحثِّ والدَّفعِ لها لجهادِ عدوِّهَا وإقامةِ دينِها في الأرض، وحمايةِ أبنائها ومداواةِ أبناءِ الأمَّةِ ممَّا أصابهُمْ مِن أمراضٍ في دينِهِمْ وغيرتِهِمْ ونخوتِهِمْ.

تعرَّى ليلُنا والخزيُ لاحَ *** بذُلٍّ ضيَّقَ السَّاحَ الفِسَاحَا
أتُسْبَى قُدْسُنَا حسناءَ تَبكِي *** وقد ناحتْ: أعيدوا لي صلاحا؟!
كأنَّ دموعَها في الأسرِ تجري *** لتُغرِقَ في مجاريها الشِّحاحَا
أجيبوا دمعَها بدمٍ صبيبٍ *** يحيلُ لياليَ الأقصى صباحا
تغنَّى النَّاسُ بالغِيدَا وإنَّا *** لعمرُ اللهِ لم نعرفْ مِلَاحا
نفوسٌ لم تدنِّسْها الدَّنايا *** ولم تقبلْ ضياعًا أو مِزَاحا
ففي حطِّينَ لم نَرهَبْ حشودًا *** وإنْ حملتْ حديدًا أو رِمَاحا
وفي اليرموكِ ذُلَّ الرومُ لمَّا *** حملنا حملةً صرنا رِيَاحا
قلبنا كلَّ قائمةٍ لديهِمْ *** وقد أضحوا لنا بيتًا مُبَاحا
بني ديني أجيبوني وإنِّي *** إلى العلياءِ أدعوكُمْ صُرَاحا

{أَعِدُّوا} لم تَزَلْ فينا تُنَادِي *** أقيموا في روابينا الصِّحَاحَا
خُذُوا قلبي خُذُوا ولدي ومالي *** خذوا مِن عزميَ الماضي سِلَاحا
خُذُوا مِن طفلتي شَعْرًا ليبقى *** لجام الخيلِ إنْ رمتُمْ كِفَاحا
خُذُوا حجرًا خُذُوا غصنًا وشوكًا *** خُذُوا مِقْلَاعَ طفلٍ إنْ أراحا
خُذُوا سيفًا بلا غمدٍ وسهمًا *** فإنَّ القومَ يخشونَ الصِّيَاحَا
أحيلُوا صبحَهُمْ ليلًا وشدُّوا *** أبيدوهُمْ ولا تَخشَوا جُنَاحا
ولا يُرهِبْكُمُ الأعداءُ يومًا *** وإنْ جمعوا طائراتٍ أو كِسَاحا
أبابيلٌ وسجِّيلٌ تدوِّي *** بهم، قَدْ أثخنتْ فيهِمْ جِرَاحا
فروُّوا الأرضَ مِن دمهِمْ وهبُّوا *** فكَمْ شَرِبُوا على دمِنَا القِدَاحَا
وُعِدْنَا النَّصرَ برَّاقَ الثَّنايا *** وإلَّا عندَ مولانا رَبَاحا
ومَن يقطعْ فيافيَ أو قِفَارًا *** ويظمأْ؛ يشربِ الماءَ القُرَاحَا

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [سورة الصافات].

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة التاسعة



الحلقة التاسعة: في قيامِ المسلمينَ بالعزَّة؛ يُدفَعُ الكافرُ ويصابُ بالهزَّة ٣

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، وليِّ الصَّالحين، ومعينِ الموحِّدين، ومبيدِ الطُّغاةِ المارقين، وناصرِ المستضعفينَ على مَن سلك سبيلَ المجرمين، وجعلَ العاقبةَ لهُمْ ليكونوا هُمُ الوارثين، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له إله الأوَّلينَ والآخِرين، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُه، مَن جاهدَ في الله حقَّ جهادِهِ حتَّى أتاهُ اليقين، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ وعلى آله وأصحابِهِ ناشري لواءِ الدِّين، وعلى مَن تبعهُمْ واقتفى آثارَهُمْ في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكُمُ اللهُ وأحياكُمْ، وجعلَ الجنَّةَ مأوانا ومأواكُمْ، وقوَّى تقواكُمْ، وأحسنَ أعمالَكُمْ، وأعاننا على مَن عادانا وعاداكُمْ، وذخرًا للخلافةِ أعدَّكُمْ، ترفعونَ راياتِهَا، وتذودونَ عن حياضِهَا، تحاربونَ عدوَّها، وتنصرونَ جنودَهَا، ترصُّونَ صفوفَهَا، وتشيِّدونَ صروحَهَا، وتضمِّدونَ جروحَها، وعلى منهاجِ النُّبوَّةِ تحملونَها.

ما زلنا معكُمْ -معاشرَ المسلمين- نبيِّنُ ونوضِّح، ونقوِّمُ ونصحِّح، ونشرحُ ونصرِّح، عنِ النُّفوسِ بالحقِّ نروِّح، فإنْ وافقتْ كُلَيْمَتي قبولًا فالحمدُ لله، وإنْ وافقتْ ردًّا فمنْ نفسي والشَّيطان، وأستغفرُ الرَّحمن، راجيًا مِن الله أنْ تنالَ هذهِ الكلماتُ القبولَ والإعجاب، وأنْ تكونَ لنا زادًا على الطَّريق، ومنارًا للسَّبيل، وحجَّةً لنا لا علينا يومَ اللِّقاء.

إنْ تجدْ عيبًا فسُدَّ الخللا *** جلَّ مَن لا عيبَ فيهِ وعلا

معاشرَ المسلمين، لقد سطَّر أجدادُنا أروعَ الأمثلةِ في الحميَّةِ والغَيرةِ والإباءِ والغضبِ لله، وطلبِ القصاصِ العادلِ مِن أصحابه، وكانتْ سِيَرُهُمْ وأحوالُهُمْ مع عدوِّهِمْ ومَنِ انتقص مِن حرماتِهِمْ أو عادى دينَهُمْ، أو تعدَّى عليهِمْ حازمًا سريعًا قويًّا صلبًا، على قدرِ الحدث، فلا مهانةَ ولا ذلَّة، ولا خضوعَ ولا خنوعَ، بلْ نجدةً وشدَّةً

ونخوةً وغيرةً وعزمًا وغضبًا وثأرًا وانتقامًا، وشهامةً وإقدامًا ولو على الضِّرغام، وحالُهُمْ:

ولا نرعى الهدونَ ولا الهُوَينَى *** إذا خارتْ مصاعيبُ الرِّجالِ
ولكنَّا بنو الألواءِ فيها *** جزعنا الدَّهرَ حالًا بعدَ حالِ
بنا يُستعطَفُ الأمرُ المولَّى *** ونحسمُ داءَ ذي الدَّاءِ العُضَالِ

وإنَّ أصحابَ الإيمانِ وأهلَ الدِّينِ لَيَغَارُونَ على دينِ الله، فلا يرضونَ أن يروا المعاصيَ والفواحش، ولا يقبلونَ أن تُمَسَّ هيبتُهُمْ أو تُجرَحَ كرامتُهُمْ أو تنتقصَ عزَّتُهُمْ، هكذا يربِّيهِمُ الإسلامُ على هذا النَّهج، ويدلُّهُمْ على ذا السُّلوك، فإمَّا أن يرضى النَّاسُ بدينِ اللهِ وشرعِهِ ويَخضَعُوا لحكمِه، وإمَّا أن يؤدَّبُوا بسيفِه، ولا مناصَ ولا خَيَارَ.

فإنْ ترضوا فإنَّا قد رضينا *** وإنْ تأبوا فأطرافُ الرِّماحِ
مقوَّمةٌ وبيضٌ مرهفاتٌ *** ترُّ جماجمًا وبنانَ راحِ

قالَ صاحبُ الظِّلال: "والمنهجُ الإسلاميُّ يريدُ للجماعةِ المسلمةِ أن يكونَ لها كيانٌ حيٌّ متجمِّعٌ صلبٌ، يَدفَعُ كلَّ بادرةٍ مِن بوادرِ العدوانِ والمعصيةِ قبلَ أن تصبحَ ظاهرةً عامَّة، ويريدُ للمجتمعِ الإسلاميِّ أن يكونَ صلبًا في الحقِّ، وحسَّاسًا اتِّجاهَ الاعتداءِ عليه، ويريدُ للقائمينَ على الدِّينِ أن يؤدُّوا أمانتَهُمُ الَّتي استُحفِظُوا عليها، فيقفوا في وجهِ الشَّرِّ والفسادِ والطُّغيانِ والاعتداء، لا يخافونَ لومةَ لائم، سواءٌ جاءَ هذا الشَّرُّ مِن الحكَّامِ المتسلِّطينَ بالحكمِ أو بالمال، أوِ الأشرارِ المتسلِّطينَ بالأذى، أوِ الجماهيرِ المتسلِّطةِ بالهوى، فمنهجُ اللهِ هو منهجُ الله، والخارجونَ عليه عَلَوا أم سفلوا سواءٌ، والإسلامُ يشدِّدُ في الوفاءِ بهذهِ الأمانة، فيجعلُ عقوبةَ الجماعةِ عامَّةً بما يقعُ فيها مِن شرٍّ إذا سكتتْ عليه، ويجعلُ الأمانةَ في عنقِ كلِّ فردٍ بعد أن يضعَهَا في عنقِ الجماعةِ عامَّة.

روى الإمامُ أحمدُ بإسنادِهِ عنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: (لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ، فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى

لِسَانِ دَاوُدَ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ متَّكِئًا فجلس، فقال: (لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا)[١].

وروى أبو داودَ بإسنادِهِ عنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ، ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}، ثُمَّ قَالَ: كَلاَّ وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوَ لَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا)[٢].

فليسَ هو مجرَّدَ الأمرِ والنَّهي، ثمَّ تنتهي المسألة، إنَّما هو الإصرارُ والمقاطعةُ والكفُّ بالقوَّةِ عنِ الشَّرِّ والفسادِ والمعصيةِ والاعتداء؛ روى مسلمٌ بإسنادِهِ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ)".

خذوا الحقَّ لا أعطيكُمُ اليوم غيرَهُ *** وللحقِّ إنْ لم تقبلوا الحقَّ تَابِعُوا
فلا الضَّيمَ أعطيكُمْ لأجْلِ وعيدِكِمْ *** ولا الحقَّ مِن بغضائكُمْ أنا مانعُ
فلم أر مثلَ الحقِّ يمنعُهُ امرؤٌ *** ولا الضَّيمُ يأتيه امرؤٌ وهو طائعُ

يا أهلَ المروءةِ والإسلام، إنَّ الرَّجلَ الحقَّ لَيأنَفُ مِن المثالبِ والمعايب، ولَأَنْ يُقدَّمَ فتُضرَبَ عنقُهُ أحبُّ إليه مِن أن يلحقَهُ العار، وتلزمَهُ المعيبةُ والنَّقيصة، ويُقدِمُ على الموتِ إقدامَ المستهام، خوفًا مِن المذامِّ، وحالُهُ:

أرى ملء عيني الرَّدى وأخوضُهُ *** إذا الموتُ قدَّامي وخلفي المعايبُ

لا صحبتُ الحياةَ إنْ صحبتْنِي *** في الملمَّاتِ مهجةٌ تُستَضَامُ

[١] ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.
[٢] قال الأرنؤوط: إسناده ضعيف لانقطاعه.

إنَّ الحميَّةَ والغيرةَ على دينِ اللهِ وعلى حرماتِ المسلمينَ لَتدفَعُ صاحبَهَا إلى دفعِ الضَّيمِ والمذلَّةِ بكلِّ حيلةٍ ووسيلة، ولا يبالي عندَهَا بالأعداءِ وأعدادِهِمْ وجموعِهِمْ وشوكتِهِمْ؛ فإنَّ المروءةَ قادتُهُ، والحميَّةَ صاحبتُهُ، والغيرةَ لازمتُهُ، والغضبَ الجارفَ دفعَهُ، وحبَّ الثَّأرِ والانتقامِ وردِّ الحقِّ لأهلِهِ قد شغَلَهُ، ومَن أحدَّ سنانَ الغضبِ للهِ؛ قَوِيَ على قتلِ أشدَّاءِ الباطل.

ففيمَ تسومُ مثلي أن يُضَامَا *** ويجعل في يديكَ النَّفسَ قسرًا
نصحتُكَ فالتمسْ -يا ليثُ- غيري *** طعامًا إنَّ لحمي كان مرًّا

لذا لا يُبَالِي مَن يلاقِي؛ فهو متوكِّلٌ على ربِّه، مستيقنٌ بوعدِه، مطمئنٌّ لنصرِه، ينظرُ المنافقونَ إلى هؤلاءِ الحميِّينَ وهم مستغربونَ مِن حميَّتِهِمْ للدِّين، رغمَ الحشودِ والجموعِ والأحزابِ قائلين: {غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ}.

قال صاحبُ الظِّلال: "وقولةُ المنافقينَ والَّذينَ في قلوبِهِمْ مرضٌ عنِ العصبةِ المسلمةِ يومَ بدر: {غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ}، وهي قولةُ المنافقينَ والَّذينَ في قلوبِهِمْ مرضٌ كلَّما رأوا العصبةَ المسلمةَ تتعرَّضُ لجحافلِ الطَّاغوتِ في عنفوانِه، وعدَّتُهَا الأساسيَّةُ الَّتي تملكُهَا هي هذا الدِّينُ وهذهِ العقيدةُ الدَّافعةُ الدَّافقة، وهي الغَيرَةُ على ألوهيَّةِ اللهِ وعلى حرماتِ الله، وهي التَّوكُّلُ على اللهِ والثِّقةُ بنصرِهِ لأوليائه.

إنَّ المنافقينَ والَّذينَ في قلوبِهِمْ مرضٌ يقفونَ ليتفرَّجوا والعصبةُ المسلمةُ تُصَارِعُ جحافلَ الطَّاغوت، وفي نفوسِهِمْ سخريةٌ من هذهِ العصبةِ الَّتي تتصدَّى للخطر، وتستخفُّ بالخطر، وفي نفوسِهِمْ عَجَبٌ كذلك ودهشةٌ في اقتحامِ العصبةِ المسلمةِ للمكارِهِ الظَّاهرةِ والأخطارِ الواضحة، إنَّهُمْ هُمْ لا يعرفونَ مبرِّرًا لهذا التَّهوُّرِ كما يسمُّونه، وللإلقاءِ بالنَّفسِ إلى التَّهلكةِ كما يحسبونَه، إنَّهُمْ يحسبونَ الحياةَ كلَّها -بما فيها الدِّينُ والعقيدةُ- صفقةً في سوقِ التِّجارة، إنْ كانتْ ظاهرةَ الرِّبحِ أقدموا عليها، وأمَّا إذا كان الخطرُ؛ فالسَّلامةُ أولى!

إنَّهُمْ لا يدركونَ الأمورَ ببصيرةِ المؤمن، ولا يزنونَ النَّتائجَ كذلك بميزانِ الإيمان، إنَّها في حسِّ المؤمنِ وميزانِهِ صفقةٌ رابحةٌ دائمًا؛ فهي مؤدِّيةٌ إلى إحدى الحسنيين: النَّصرِ والغلبةِ أو الشَّهادةِ والجنَّة، ثمَّ إنَّ حسابَ القُوَى في نفسِهِ يختلف؛ فهناك

لله، وهذا مَا لا يدخلُ في حسابِ المنافقينَ والَّذينَ في قلوبِهِمْ مرضٌ، والعصبةُ المسلمةُ في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمانٍ مدعوَّةٌ إلى أنْ تزنَ بميزانِ الإيمانِ والعقيدة، وأنْ تُدرِكَ ببصيرةِ المؤمنِ وقلبِه، وأنْ ترى بنورِ اللهِ وهُداهُ، وألَّا تتعاظَمَهَا قُوَى الطَّاغوتِ الظَّاهرة، وألَّا تستهينَ بقوَّتِهَا ووزنِهَا؛ فإنَّ معها اللهَ، وأنْ تُلقِيَ بَالَهَا دائمًا إلى رضوانِ اللهِ وتعليمِهِ للمؤمنينَ، {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)} [سورة الأنفال]"، انتهى كلامُه.

وإنِّيَ مِنْ قومٍ كرامٍ يزيدُهُمْ *** شماسًا وصبرًا شدَّةُ الحَدَثَانِ

وهكذا -والله- هُمْ أبناءُ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ وجند الخلافة، أصحابُ حميَّةٍ وشيمةٍ أبيَّة، وغيرةٍ عربيَّة، ونخوةٍ سميَّة، لا يرضونَ بالدَّنيَّة، والمنيَّةُ هديَّة، إنْ كانتْ لنصرةِ ربِّ البريَّة، والذَّبِّ عنْ حرماتِنَا السَّبيَّة.

فنفسي فداءٌ لبني الخلافة؛ إنَّهُمْ لفي الحربِ أبطالٌ، هيمٌ إلى الموتِ إذا خُيِّرُوا بينَ تبعاتٍ وتقتال، حَمَوا حِمَاهُمْ وسَمَا بينَهُمْ في باذخاتِ الشَّرف العالي.

وإنَّ مِن أعظمِ مَا يعينُ المرءَ على فهمِ هذا الأمرِ والتَّمسُّكِ به وحملِهِ والدَّعوةِ إليه: الاقتداءَ بسِيَرِ أصحابِ الحميَّةِ والغيرة، ومواقفِ أهلِ المروءةِ والنَّجدة، والأخذَ بصُوَرٍ مِن أعمالِ الرِّجالِ أهلِ الغضبِ للهِ والشَّهامةِ والنَّخوة، والسِّيرُ -والله- نعم الزَّادُ للقلوبِ والمحفِّزُ على المطلوب، وهي المحرِّضةُ على لزومِ أحوالِ وأقوالِ ومواقفِ أهلِ الصَّلاحِ والدِّينِ والخُلُقِ المتين، ولا يعرفُ قدرَ الشَّيءِ إلَّا مَن خَبِرَهُ، وقد قالَ أبو حنيفةَ النُّعمان: "سِيَرُ الرِّجالِ أحبُّ إليَّ مِن كثيرٍ مِنَ الفقه"، ومَا ذلك -عبادَ الله- إلَّا لأنَّ سِيَرَ الرِّجالِ وأخبارَ السَّلفِ تشحذُ الهمم، وتعينُ على لزومِ السُّنن.

وقد قالَ ابنُ الجوزيِّ -رحمه الله-: "واعلمْ أنَّ في ذكرِ السِّيَرِ والتَّاريخِ فوائدَ كثيرةً، مِن أهمِّهَا: أن يطَّلِعَ بذلك على عجائبِ الأمورِ وتقلُّباتِ الزَّمن، وتصاريفِ القَدَرِ وسماعِ الأخبار؛ فالنَّفسُ تجدُ راحةً بسماعِ الأخبار، وقالَ أبو عمرو بنُ العلاء: قيلَ لرجلٍ مِن بكرِ بنِ وائلٍ قد كَبُرَ وذهبتْ منه لذَّةُ المأكلِ والمشربِ والنِّكاح، قيلَ له: أتحبُّ أن تموتَ؟ قال: لا، قيلَ له: فما بقي لك مِن لذَّةِ الدُّنيا؟! قالَ: أستمعُ أخبارَ الرِّجال، وأستمعُ العجائب".

وقالَ مجاهدٌ -رحمه الله-: "القَصَصُ جندٌ مِن جنودِ الله يسلِّطُهَا اللهُ على مَن يشاءُ، واللهُ يقول: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ} [سورة يوسف: ١١١]، وقال: {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [سورة الأنعام: ٩٠]".

لذا فنحنُ سوفَ نستعرضُ جملةً مِن مواقفِ وسِيَرِ أهلِ الحميَّةِ والغيرة، وأقوالِ وأعمالِ أهلِ الشَّهامةِ والنَّخوة، وعِبَرًا ممَّن غَضِبَ لانتهاكِ محارمِ اللهِ والمسلمين، نذكرُهَا مُسْتَرْسِلِينَ، فانتفعْ مِن هذهِ الأخبار، واحتذِ هَدْيَ أصحابِهَا تَكُ مِن الأخيار، وانشرْ ذِكْرَهَا في الأقطار؛ لتَعْمُرَ بها الدِّيار، ولتُصبِحَ سجيَّةً وطبعًا عند الكبارِ والصِّغار، واللهُ المرجوُّ أن ينفعَنَا بها، وأن يجعلَنَا مِن المتأسِّين بأهلِهَا، وإنَّ في التَّاريخِ لَخَبَرًا، وإنَّ في سِيَرِ الرِّجالِ لَعِبَرًا، وإنَّ في أحوالِ الفضلاءِ لَمُدَّكرًا.

فتشبَّهُوا إنْ لم تكونوا مثلَهُمْ *** إنَّ التَّشبُّهَ بالكرامِ فَلَاحُ

وتعالَوا أيُّها الغيارى؛ لنأخذَ مِن حميَّةِ وغيرةِ وغضبِ النبيِّ ﷺ وصحابتِهِ الكرامِ للهِ ودينِهِ وحرماتِ المسلمين، ولنأخذَ قبسًا مِن الماضي ليكونَ لنا نورًا في الحاضر؛ فقد:

مَلَكْنَا هذهِ الدُّنيا القرونَا *** وأخضعَهَا جدودٌ خالدونَا
وسطَّرنا صحائفَ مِن ضياءٍ *** فما نَسِيَ الزَّمانُ ولا نَسِينَا
وكنَّا حينَ يأخذُنَا وليٌّ *** بطغيانٍ نَدُوسُ لَهُ الجبينَا
تفيضُ قلوبُنَا بالهدي بأسًا *** فما نُغضِي عنِ الظُّلمِ الجُفُونَا
كذلكَ أخرجَ الإسلامُ قومي *** شبابًا مُخْلِصًا حرًّا أمينا
وعلَّمَهُ الكرامةَ كيفَ تُبنَى *** فيأبى أنْ يقيَّدَ أو يهونَا
وما فتئَ الزَّمانُ يدورُ حتَّى *** مضى بالمجدِ قومٌ آخَرُونَا
وأصبحَ لا يُرَى في الرَّكبِ قومي *** وقَدْ عاشوا أئمَّتَهُ سنينَا
وآلمَني وآلَمَ كلَّ حرٍّ *** سؤالُ الدَّهر: أينَ المسلمونَا؟!
تُرَى هل يَرجِعُ الماضي فإنِّي *** أذوبُ لذلك الماضي حنينا

بعدَ موقعةِ أُحُدٍ؛ أشرفَ أبو سفيانَ بنُ حربٍ على المسلمينَ، فقال: أفي القومِ محمَّدٌ؟ فقالَ لهُمُ النَّبيُّ: (لَا تُجِيبُوهُ)، أفي القومِ ابنُ أبي قحافة؟ أفي القومِ ابنُ الخطَّاب؟ والنَّبيُّ يقول: (لَا تُجِيبُوهُ)، فقالَ أبو سفيانَ: إنَّ هؤلاءِ قُتِلُوا، فلو كانوا

أحياءً لأجابوا، فلم يملكْ عمرُ نفسَهُ أنْ قال: "كذبتَ واللهِ يا عدوَّ الله؛ إنَّ الذي عددتَّ لَأحياءٌ، وقد بَقِيَ لك مَا يسوءك".

فقالَ: يومٌ بيومِ بدرٍ والحربُ سِجَالٌ، فقالَ لَهُ عمرُ: "لا سواء؛ قتلانا في الجنَّةِ وقتلاكُمْ في النَّار"، فقالَ أبو سفيانَ: وإنَّكُمْ ستجدونَ في القومِ مُثْلَةً، لم آمرْ بِهَا ولم تَسُؤنِي! ثمَّ أخذ يرتجزُ: اُعْلُ هُبَلُ، اُعْلُ هُبَلُ! فقالَ النبيُّ ﷺ: (أَجِيبُوهُ)، قالوا: مَا نقولُ؟

قالَ: (قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ)، فقالَ أبو سفيانَ: لنا العزَّى ولا عزَّى لكم! فقالَ النبيُّ: (أَجِيبُوهُ)، قالوا: مَا نقولُ؟ قالَ: (قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ)[1]. ثمَّ قالَ أبو سفيانَ: إنَّ موعدَكُمْ بدرٌ العامَ المُقْبِلَ! فقالَ رسولُ الله ﷺ لرَجُلٍ مِن أصحابِه: (قُلْ: نَعَمْ، هُوَ بينَنَا وبينَكَ مَوعِدٌ)[2].

فهكذا هو نبيُّكُمْ وصحبُهُ، وهذهِ غيرتُهُمْ وحميَّتُهُمْ وغضبُهُمْ للهِ ودينِهِ.

فيَدَاهُ يدٌ تنهلُّ بالخيرِ والنَّدى *** وأخرى شديدٌ بالأعادي ضريرُها
وناراهُ نارٌ نارُ كلِّ مدفعٍ *** وأخرى يصيبُ المجرمينَ سعيرُهَا.

وحالُهُ:

قدْ رامَنِي الأقوامُ قبلكَ *** فامتنعتُ مِنَ المَظَالِمْ

وفي حادثةِ الإفكِ؛ قامَ رسولُ الله ﷺ واستعذَرَ مِن عبدِ اللهِ بنِ أبيِّ بنِ سلول، فقالَ وهُوَ على المنبرِ: (مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي)، قَالَتْ: فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ -رضي الله عنه- فقال: يا رسولَ الله، أنا -والله- أعذرك منه، إنْ كانَ مِنَ الأوسِ ضربنا عُنُقَه، وإنْ كانَ مِن إخوانِنَا مِنَ الخزرجِ أَمَرْتَنَا ففعلنَا فيهِ أمرَكَ[3]، وحالُهُ:

سأغسلُ عنِّي العارَ بالسَّيفِ جالبًا *** عليَّ قضاءَ اللهِ ما كانَ جالبا

---

[1] رواه البخاري.
[2] رواه ابن إسحاق في السيرة.
[3] رواه مسلم.

فقامَ سعدُ بنُ عبادةَ -رضي الله عنه- وهو سيِّدُ الخزرج، وكان رجلًا صالحًا ولكنْ أخذتْهُ الحميَّةُ، فقالَ لسعدِ بنِ معاذ: كذبتَ لعمرُ الله، لا تقتُلُهُ ولا تقدرُ على ذلك! فقامَ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ -رضي الله عنه- وهو ابنُ عمّ سعدِ بنِ معاذٍ، فقالَ لسعدِ بنِ عبادة: كذبتَ لعمرُ الله، لنقتلنَّهُ؛ فإنَّك منافقٌ تجادلُ عنِ المنافقين!

فثارَ الحيَّان: الأوسُ والخزرجُ، حتَّى همُّوا أنْ يقتتلوا، ورسولُ الله ﷺ على المنبر، فلم يزلْ يخفِّضُهُمْ حتَّى سَكَتُوا ونزل.

وفي إسلامِ حمزةَ -رضي الله عنه-؛ قالَ ابنُ إسحاقَ: حدَّثني رجلٌ مِن أسلمَ كانَ واعيةً أنَّ أبا جهلٍ مرَّ برسولِ الله ﷺ عندَ الصَّفا، فآذاهُ وشتَمَه، فلمْ يكلِّمْهُ النَّبيُّ ﷺ، ومولاةٌ لعبدِ اللهِ بنِ جدعانَ تَسمَعُ، ثمَّ انصرفَ عنهُ فعمد إلى نادي قريشٍ عندَ الكعبةِ فجَلَسَ معهُمْ، فلم يَلْبَثْ حمزةُ بنُ عبدِ المطَّلبِ أنْ أقبلَ متوشِّحًا قوسَهُ راجعًا مِن قنصٍ لـه، وكانَ صاحبَ قنصٍ، وكانَ إذا رَجَعَ مِن قنصِهِ بدأ بالطَّوافِ بالكعبة، وكانَ أعزَّ فتًى في قريش، وأشدَّهُمْ شكيمةً.

فلمَّا مرَّ بالمولاةِ قالتْ لَهُ: يا أبا عمارة، ما لَقِيَ ابنُ أخيكَ آنفًا مِن أبي الحكم؟! وجدَهُ ها هنا جالسًا فآذاهُ وسبَّهُ وبلغ منه، ولم يكلِّمْهُ محمَّد، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد اللهُ بِهِ مِن كرامتِه، فخرجَ يسعى مُغِذًّا لأبي جهل، فلمَّا رآهُ جالسًا في القومِ أقبلَ نحوَه، حتَّى إذا قامَ على رأسِهِ رَفَعَ القوس، فضَرَبَهُ بها، فشجَّهُ شجَّةً منكرة، ثمَّ قال: أتشتمُهُ؟! أنا على دينِهِ، أقولُ ما يقولُ، فرُدَّ على ذلكَ إنِ استطعتَ! وحالُهُ:

فما دارُ عمّي لي بدارِ خفارةٍ *** ولا عهدُ عمّي لي بعهدِ جوارِ

وينتصرُ للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام- غيرةً وحميَّةً، ونخوةً وشهامةً ونبلًا؛ حتَّى لا يقال: تركَ ابنَ أخيهِ يأكلُهُ ضبعُ الوادي ويرميهِ الشَّجر! فقامتْ رجالٌ مِن بني مخزومٍ إلى حمزةَ لينصروا أبا جهلٍ، فقالَ أبو جهلٍ: دعوا أبا عمارة؛ فواللهِ لقد سببتُ ابنَ أخيه سبًّا قبيحًا، وتمَّ حمزةُ على إسلامه، فلمَّا أسلمَ عرفتْ قريشٌ أنَّ رسولَ الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، وأنَّ حمزةَ -رضي الله عنه- سيمنعُهُ، فكَفُّوا بعضَ الشَّيءِ عنهُ.

فجارُكَ عندَ بيتِكَ لحمُ ظَبْيٍ *** وَجَارِي عندَ بيتي لا يُرَامُ



ودخلَ عثمانُ بنُ مظعونٍ بجوارِ الوليدِ بنِ المغيرة، فلمَّا رأى مَا فيه أصحابُ رسولِ الله ﷺ مِن البلاءِ وهُوَ يغدو ويروحُ في أمان؛ قالَ: "واللهِ إنَّ غُدُوِّي ورواحي آمنًا بجوارِ رجلٍ مِن أهلِ الشِّرك، وأصحابي وأهلُ ديني يلقونَ البلاءَ والأذى في اللهِ مَا لَا يصيبُني؛ لَنقصٌ كبيرٌ في نفسي"، فمشى إلى الوليدِ بنِ المغيرة، وقال لَهُ: "يا أبا عبدِ شمسٍ، وفَّتْ ذِمَّتُك، قد رددتُّ إليك جوارَك"، فقالَ لَهُ: يا ابنَ أخي، لعلَّهُ آذاك أحدٌ مِن قومي، قال: "لا، ولكنِّي أرضى بجوارِ الله، ولا أريدُ أنْ أستجيرَ بغيرِهِ"، وحالُهُ:

أبتْ لي عفَّتي وأبى بلائي *** وأخذي الحمدَ بالثَّمنِ الرَّبيحِ
وإقدامي على المكروهِ نفسي *** وضربي هامةَ البطلِ المشيحِ
لأدفعَ عنْ مآثرَ صالحاتٍ *** وأحمي بعدُ عنْ عرضٍ صحيحِ

فَانْطَلَقَا إلى البيتِ الحرام، وردَّ عثمانُ جوارَ الوليدِ علانية، والأمرُ مِن معدنِهِ لا يُستغرَبُ، والفرعُ للأصلِ حتمًا يُنسَبُ.

وفي يومِ بدرٍ؛ قالَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ: "إنِّي لَوَاقِفٌ يومَ بدرٍ في الصَّف، فنظرتُ عنْ يميني وعنْ شمالي، فإذا أنا بينَ غلامينِ مِن الأنصارِ حديثةٌ أسنانُهُمَا، فتمنَّيتُ أن أكونَ بينَ أضلع منهُمَا، فغمزني أحدُهُمَا فقال: يا عمِّ، أتعرفُ أبا جهلٍ؟ قلتُ: نعمْ، وما حاجتُكَ إليه؟ قال: أُخْبِرتُ أنَّه يسبُّ رسولَ الله ﷺ، والَّذي نفسي بيدِه، إنْ رأيتُهُ لا يفارقُ سوادي سوادَهُ حتَّى يموتَ الأعجلُ منَّا.

فتعجَّبتُ لذلك، فغمزني الآخرُ فقالَ لي مثلَهَا، فلم أنشبْ أن نظرتُ إلى أبي جهلٍ وهو يجولُ في النَّاس، فقلتُ: ألا تَرَيَانِ؟ هذا صاحبُكُمَا الَّذي تسألاني عنه، فابتدراهُ بسيفيهِمَا، فضرباهُ حتَّى قتلاهُ، ثمَّ انصرفا إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبراهُ، فقالَ: (أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟)، فقالَ كلُّ واحدٍ منهُمَا: أنا قتلتُهُ، فقالَ: (هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟)، قالا: لا، قالَ: فنظرَ في السَّيفَينِ فقالَ: (كِلَاكُمَا قَتَلَهُ)، وقضى بسَلَبِهِ لمعاذِ بنِ عمرٍو والآخر معاذ بن عفراء". [متَّفقٌ عليه].

فليسَ فراغُ القلبِ مجدًا ورفعةً *** ولكنَّ شغلَ القلبِ للهمِّ رَافِعُ
وذو الغيرةِ محمولٌ على كلِّ آلةٍ *** وكلُّ قصيرِ الهمِّ في الحيِّ وَادِعُ

وفي يومِ الحديبية؛ فبينَا النَّاسُ على ذلك قدِ اصطلحوا، والكتابُ لم يُكتَبْ؛ أقبلَ أبو جندلِ بنُ سهيلٍ وقدْ أفلتَ برَسَفٍ في القيدِ متوشِّحًا السَّيفَ خلالَهُ أسفلَ مكَّة، فخرجَ مِن أسفلِهَا حتَّى أتى رسولَ اللهِ ﷺ وهو يكاتبُ سهيلًا، فرفعَ سهيلٌ رأسَهُ فإذا بابنِهِ أبي جندل، فقامَ إليه سهيلٌ فضربَ وجهَهُ بغُصْنِ شوكٍ وأخذَ بلبَّتِه، وصاحَ أبو جندلٍ بأعلى صوتِه: "يا معشرَ المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركينَ يَفْتِنُونِي في ديني؟!"، فزاد المسلمونَ ذاك شرًّا إلى مَا بِهِمْ، وجعلوا يبكونَ لكلامِ أبي جندل، وقالَ سهيلٌ: هذا أوَّلُ مَا أقاضيكَ عليه، رُدُّوهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (إنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ)، فقالَ سهيلٌ: واللهِ لا أكاتبُكَ على شيءٍ حتى تردَّهُ إليَّ[١].

فردَّهُ رسولُ اللهِ ﷺ فكلَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ سهيلًا أنْ يتركَه، فأبى سهيلٌ، فقالَ مكرزُ بنُ حفصٍ وحويطبٌ: يا محمَّدُ، نحنُ نجيرُهُ لك، فأدخلاهُ فسطاطًا فأجاراهُ، وكفَّ أبوهُ عنه، ثمَّ رفعَ رسولُ اللهِ ﷺ صوتَهُ فقال: (يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَا نَغْدِرُ بِهِمْ)[٢].

وجاءَ عمرُ -وإذا ذُكِرَ الصَّالحونَ؛ فحيَّهلا بعمر- جاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، ألستَ برسولِ اللهِ؟ قال: (بَلَى)، قال: ألسنا على الحقِّ؟ قال: (بَلَى)، قال: أليسَ عدوُّنا على الباطل؟ قال: (بَلَى)، قال: فلمَ نعطي الدَّنيَّةَ في ديننا؟! -غيرةً وحميَّةً وغضبًا منهُ لله- فقالَ رسولُ الله: (إنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ أَعْصِيَهُ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي)[٣].

فانطلق عمرُ حتَّى جاءَ إلى أبي بكرٍ فقالَ لَهُ مثلَ مَا قالَ للنبيِّ ﷺ، فقال أبو بكر: "إنَّهُ رسولُ الله، ولنْ يعصيَهُ ولنْ يضيِّعَه، ودعْ عنكَ مَا تَرَى يا عمرُ"، فقالَ عمرُ: فوثبتُ إلى أبي جندل أمشي إلى جنبِهِ وسهيلُ بنُ عمرٍو يَدْفَعُهُ وعمرُ يقولُ: اصْبِرْ يا أبا جندل؛ فإنَّما هُمُ المشركون، وإنَّما دمُ أحدِهِمْ دمُ كلب، وإنَّما هو رجلٌ وأنتَ رجلٌ ومعك السَّيفُ، فرجوتُ أن يأخذَ السَّيفَ ويضربَ أباهُ، فضنَّ الرَّجلُ بأبيه، فقالَ

---

١ رواه البخاري.

٢ رواه ابن إسحاق في السيرة.

٣ رواه الواقدي في المغازي، والبخاري بنحوه.

عمرُ: يا أبا جندل، إنَّ الرَّجلَ يقتلُ أباهُ في الله، واللهِ لو أدركنا آباءَنَا لقتلناهُمْ في الله؛ فرَجُلٌ بِرَجُلٍ!

وحالُهُ:

ومَا لكَ لا تلقى بمُهْجَتِكَ القنا *** وأنتَ منَ القومِ الَّذينَ هُمُ هُمُ
طلبتُك حتَّى لمْ أجدْ لكَ مَطْلَبًا *** وأقدمتُ حتَّى قلَّ مَن يتقدَّمُ
سنضربُهُمْ ما دامَ للسَّيفِ قاطعٌ *** ونطعنُهُمْ ما دامَ للرُّمحِ لَهْذَمُ
فإنْ تَرغَبُوا في الصُّلحِ فالصُّلحُ صَالِحٌ *** وإنْ تجنحوا للسِّلمِ فالسِّلمُ أسلمُ

قال: وأقبلَ أبو جندل على عمرَ، فقالَ: "مَا لكَ لا تقتُلُهُ أنت؟!"، قالَ عمرُ: نهاني رسولُ الله ﷺ عنْ قتلِهِ وقتلِ غيرِه، قالَ أبو جندل: "ما أنتَ بأحقَّ بطاعةِ رسولِ اللهِ منِّي".

وفي غزوةِ حنينٍ؛ كانتْ أمُّ عمارةَ في يدِهَا سيفٌ صارمٌ، وأمُّ سُلَيمٍ معهَا خنجرٌ قدْ حزمتْهُ على وسطِهَا، وهي يومئذٍ حاملٌ بعبدِ اللهِ بنِ أبي طلحة، وأمُّ سليطٍ وأمُّ الحارثِ حينَ انهزمَ النَّاسُ يُقَاتِلْنَ، وأمُّ عمارةَ تصيحُ بالأنصار: "أيَّةُ عادةٍ هذه؟! ما لكُمْ وللفرار؟!"، وشدَّتْ على رجلٍ مِنْ هَوَازنَ فقَتَلَتْهُ، وأَخَذَتْ سيفَهُ، وأمُّ سليمٍ بنتُ ملحانَ تقولُ غيرةً وحميَّةً وغضبًا للهِ ورسولِه: "يا رسولَ الله، ما رأيتَ هؤلاءِ الَّذينَ أسلموا وفرُّوا عنكَ وخذلوك، لا تعفُ عنهم، إذا أمكنكَ اللهُ منهُم تقتلهُمْ كما تقتلُ هؤلاءِ المشركين"، هكذا كانتْ حميَّةُ النِّساء، فتبًّا لمَنْ كانَ النِّساءُ أشدَّ حميَّةً وغضبًا منه!

فأجابها النبيُّ ﷺ قائلًا: (يَا أُمّ سُلَيمٍ، قَدْ كَفَى اللهُ[1]! عَافِيَةُ اللهِ أَوْسَعُ)[2].

أذيقُ الصَّديقَ رأفتي وإحاطتي *** وقد تشتكي مَسّي العُدَاةُ الأباعدُ
ومَا أنا بالسَّاعي ليُحرزَ نفسَهُ *** ولكنَّني عنْ عورةِ الحيِّ ذائدُ
وقد عَلِمَ الأقوامُ أنَّ أرومتي *** يَفَاعٌ إذا عُدَّ الرَّوابي المواجدُ

[1] روى أحمد هذا الجزء من الحديث، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين
[2] رواه الواقدي في المغازي.

بلْ وحنقَ المسلمونَ على المشركين، فقتلوهُمْ حتَّى شَرَعُوا في قتلِ الذُّريَّة، فلمَّا بلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ قال: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ ذَهَبَ بِهِمُ الْقَتْلُ حَتّى بَلَغَ الذّرّيّةَ؟! أَلَا لَا تُقْتَلُ الذّرّيّةُ)، فقالَ أُسَيْدُ بنُ الحضير: "يا رسولَ الله، أليسَ إنَّما هُمْ أولادُ المشركين؟" فقالَ: (أَوَلَيْس خِيَارُكُمْ أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ؟ كُلّ نَسَمَةٍ تُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتّى يُعْرِبَ عَنْهَا لِسَانُهَا، فَأَبَوَاهَا يُهَوّدَانِهَا أَوْ يُنَصّرَانِهَا)[١].

فذلَّلَ أعناقَ الصِّعابِ ببأسِهِ *** وأعناقَ طُلَّابِ النَّدى بالفَوَاضِلِ
فما انقبضتْ كفَّاهُ إلَّا بصارمٍ *** ولا انبسَطَتْ كفَّاهُ إلَّا بنائلِ

ولاقى سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ معارضةً شديدةً لإسلامِهِ حتَّى مِن أمِّه، قالَ سعدٌ: كنتُ رجلًا بَرًّا بأمِّي، فلمَّا أسلمتُ قالتْ: يا سعدُ، ما هذا الَّذي أحدثتَ؟! لتَدَعَنَّ دينَك أوْ لا آكلُ ولا أشربُ حتَّى أموتَ فتُعَيَّرَ بي! فقلتُ لها: لا تفعلي يا أمَّاهُ؛ فإنِّي لا أدعُ ديني، فمَكَثَتْ يومًا وليلةً لا تأكلُ ولا تشربُ، فأصبحتْ وقدْ جَهِدَتْ، فقالَ لها حميَّةً وغيرةً وغضبًا لله: واللهِ لو كانَ لكِ ألفُ نَفْسٍ، فخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا ما تركتُ هذا الشَّيءَ، فلمَّا رأتْ ذلك منِّي أكلتْ وشَرِبَتْ، فأنزلَ اللهُ: {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [سورة لقمان: ١٥]، وحالُهُ:

فلنْ ألينَ لغيرِ الحقِّ أسألُهُ *** حتَّى يلينَ لضِرْسِ الماضغِ الحَجَرُ!

وفي الحَبَشَة؛ سألَ النَّجاشيُّ المهاجرينَ مِنَ المسلمينَ قائلًا: ما هذا الدِّينُ الَّذي فارقتُمْ فيه قومَكُمْ، ولم تَدخُلُوا ديني ولا دينَ أحدٍ مِن هذهِ الملل؟ فأجابَهُ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ -رضي الله عنه- قائلًا: "أيُّها الملك، كنَّا قومًا أهلَ جاهليَّة، نعبدُ الأصنامَ ونأكلُ الميتةَ ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ ونسيءُ الجوارَ، ويأكلُ القويُّ منَّا الضَّعيف، فكنَّا على ذلكَ حتَّى بعثَ اللهُ إلينا رسولًا منَّا، نعرفُ نَسَبَهُ وصِدْقَهُ وأمانتَهُ وعفافَهُ، فدعانا إلى اللهِ لنوحِّدَهُ ونعبدَهُ، ونخلعَ ما كنَّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا مِن دونِهِ مِنَ الحجارةِ والأوثان، وأمرنا بصِدْقِ الحديثِ وأداءِ الأمانةِ وصلةِ الرَّحمِ وحُسْنِ الجوار، والكفِّ عَنِ المحارمِ والدِّماء، ونهانا عَنِ الفواحشِ وقولِ الزُّورِ وأكلِ مالِ اليتيمِ وقذفِ المُحْصَنَات، وأمرنا أنْ نعبدَ اللهَ وحدَهُ لا نشركُ بِهِ شيئًا، وأمرنا بالصَّلاةِ والزَّكاةِ

[١] رواه أحمد والواقدي في المغازي والطبراني في الكبير. صححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

والصِّيام -وعدَّدَ عَلَيهِ مِنْ أمورِ الإسلامِ-، فصدَّقنَاهُ وآمنَّا به، واتَّبعنَاهُ على مَا جاءَ بِهِ مِنْ عندِ اللهِ.

فعبدنا اللهَ وحدَهُ فلمْ نُشرِكْ بِهِ شيئًا، وحرَّمنَا مَا حرَّمَ علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنَا فعذَّبونَا ففتنونا عنْ دينِنَا؛ ليردُّونَا إلى عبادةِ الأوثانِ مِنْ عبادةِ اللهِ تعالى، وأنْ نستحلَّ مَا كنَّا نستحلُّ مِنَ الخبائث، فلمَّا قَهَرُونَا وظَلَمُونَا وضيَّقوا علينا وحالوا بينَنَا وبينَ دينِنَا؛ خرجنا إلى بلادِكَ، واخترنَاكَ على سواك، ورغبنا في جوارِكَ، ورَجَونَا ألَّا نُظلَمَ عندَكَ أيُّها الملك".

صبورٌ ولو لم تبقَ منِّي بقيَّةٌ *** قؤولٌ ولو أنَّ السُّيوفَ جوابُ
وَقُورٌ وأحداثُ الزَّمانِ تَنُوشُنِي *** وللموتِ حولي جيئةٌ وذهابُ
أنا الجارُ لَا زادي بطيءٌ عليهِمُ *** ولَا دونَ بابي في الحوادثِ بابُ

فغيرةً على دينِ اللهِ هَاجَرُوا وخَرَجُوا مِنْ ديارِهِمْ حفاظًا على دينِهِمْ وحميَّةً وحبًّا له، قدَّمُوهُ على الأهلِ والمالِ والعشيرةِ والدِّيار، فرحمةُ اللهِ عليهِمْ مِنْ أخيار.

التَّاركِينَ مِنَ الأشياءِ أَهْوَنَهَا *** والرَّاكبِينَ مِنَ الأشياءِ مَا صَعُبَا

وفي غزوةِ المُرَيْسِيعِ؛ تَزَاحَمَ أحدُ المهاجرينَ مع أحدِ الأنصارِ على المَاءِ فاقتتلا، فصَرَخَ المهاجريُّ: "يا معشرَ المهاجرين"، وصَرَخَ الأنصاريُّ: "يا معشرَ الأنصار"، فغَضِبَ عبدُ اللهِ بنُ أبيِّ بنِ سلول، وقالَ: "أَوَقَدْ فَعَلُوهَا! قد نَافَرُونَا وكَاثَرُونَا في بلادِنَا، واللهِ مَا أعدُّنَا وجلابيبَ قريشٍ هذهِ إلَّا كما قالَ الأوَّلُ: سمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ! أما واللهِ لَئِنْ رجعنَا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منهَا الأذلَّ!".

وبلغ عبدَ اللهِ بنَ عبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ الَّذي كانَ مِنْ أمرِ أبيه، فأتى رسولَ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنَّما بَلَغَنِي أنَّك تريدُ قتلَ عبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ فيما بلغكَ عنه، فإنْ كنتَ لا بدَّ فاعلًا؛ فمُرْنِي بِهِ أحملْ إليكَ رأسَهُ، وحالُهُ:

فما دارُ أبي لي بدارِ خفارةٍ *** ولا عهدُ أبي لي بعهدِ أمانِ

فواللهِ لقد علمتِ الخزرجُ: مَا كانَ لها مِن رَجُلٍ أبرُّ بوالدِهِ منِّي، وإنِّي لأخشى أنْ تأمرَ غيري بِهِ فيقتلَهُ، فلا تَدَعَنِي نفسي أنظرُ إلى قاتلِ أبي يمشي في النَّاس فأقتلَهُ، فأقتلَ

رجلًا مؤمنًا بكافرٍ فأدخلَ النَّار، فقالَ رسولُ الله ﷺ: (بلْ نترفَّقُ بِهِ ونُحسِنُ صحبتَهُ مَا بقي مَعَنَا)[١].

ويومَ الرِّدَّة؛ تُسعِفُ الصِّديقَ طبيعةٌ هي أعمقُ الطَّبائعِ فيه، فيقولُ وقد خوَّفُوهُ الخطرَ على المدينةِ المنوَّرةِ، وجيشُ أسامةَ يفارقُها: "واللهِ لا أَحُلُّ عقدةً عقدهَا رسولُ الله ﷺ"، كلُّ هذا غيرةً على وصيَّةِ رسولِ اللهِ وحميَّةً لأمرِهِ ووفاءً لذمَّته، ومقالُهُ معَ المرتدِّينَ بغَضَبٍ وثباتٍ وحميَّةٍ للدِّين: "أينقصُ الدِّينُ وأنا حيٌّ؟! أقاتلُهُمْ وحدي حتَّى تنفردَ سالفتي"، وحالُهُ:

نحنُ الَّذينَ إذا تمخَّطَ عصبةٌ *** مِنْ معشَرٍ كنَّا لها أنكالا
وترى القَرومَ مخافةً لقَرُومِنا *** قبلَ اللِّقاءِ تُقَطِّرُ الأبوالا
نَرِدُ المنيَّةَ لا نخافُ ورودَها *** تحتَ العجاجةِ والعيونُ تَلَالا
نُعطِي الجزيلَ فلا نمنُّ عطاءنا *** قبلَ السُّؤالِ ونحملُ الأثقالا
وإذا البلادُ على العبادِ تزلزلتْ *** كنَّا لزلزلةِ البلادِ جبالا

ويومَ القادسيَّة؛ روى ابنُ أبي شيبةَ في مصنَّفِهِ عنْ إبراهيمَ بنِ محمَّدِ بنِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ عنْ أبيه، قال: لمَّا كانَ يومُ القادسيَّةِ أُتِيَ بسعدِ بنِ أبي مِحْجَنٍ وهو سكرانُ مِنَ الخمر، فأمر بِهِ إلى القَيْد، وكانَ سعدٌ بِهِ جِرَاحَةٌ فلمْ يَخْرُجْ يومئذٍ على النَّاس، واستعملَ على الخيلِ خالدًا، ورُفِعَ سعدٌ فوقَ العُذَيبِ لينظرَ إلى النَّاس، فلمَّا التقى النَّاسُ قالَ أبو محجن:

كفى حُزْنًا أنْ ترتديَ الخيلُ بالقنا *** وأُتْرَكَ مشدودًا عليَّ وِثَاقِيَ

هذا مِن غيرتِهِ وحميَّتِهِ لنصرةِ الدِّين، ولنخوتِهِ في نصرةِ المسلمين، مع أنَّهُ قد أُتِيَ في كبيرةٍ وهي شُرْبُ الخمر، فقالَ لابنةِ خفصةَ امرأةِ سعدٍ: "ويحكِ، حلِّيني ولكِ عهدُ اللهِ عليَّ إنْ سلَّمني اللهُ أنْ أجيءَ حتَّى أضعَ رِجْلِي في القيد، وإنْ قُتِلْتُ استرحتُمْ منِّي"، فخلَّتْهُ، فوَثَبَ على فرسٍ لسعدٍ يقالُ لها: "البَلْقَاءُ"، ثمَّ أخذَ الرُّمح، ثمَّ انطلقَ حتَّى أتى النَّاس، فجعلَ لا يحملُ في ناحيةٍ إلَّا هَزَمَهُمْ، فجعلَ النَّاسُ يقولونَ: "هَذَا مَلَكٌ!"،

---
[١] رواه ابن إسحاق في السيرة.

وسعدٌ ينظرُ، فجعلَ سعدٌ يقول: "الضَّبرُ ضبرُ البلقاء، والطَّعنُ طعنُ أبي مِحْجَن، وأبو مِحْجَنٍ في القيدِ"، وحالُهُ:

وإنَّا لعمرُ اللهِ إنْ جَدَّ مَا أرى *** لتلتبسُ أسيافُنَا بالأماثلِ
بكفِّ فتًى مثلِ الشِّهابِ سميدعٍ *** أخي ثقةٍ حامي الحقيقةِ باسلِ
وحتَّى ترى ذا الرَّدعِ يركبُ ردعَهُ *** مِنَ الطَّعنِ فعلَ الأنكبِ المتحاملِ

فلمَّا هُزِمَ العدوُّ؛ رجعَ أبو مِحْجَنٍ حتَّى وضعَ رِجْلَهُ في القيدِ، فأخبرتِ ابنةُ خفصةَ سعدًا بالَّذي كانَ مِن أمره، فقالَ: "واللهِ مَا أبلى أحدٌ مِنَ المسلمينَ مَا أبلى في هذا اليوم، واللهِ لا أضربُ رَجُلًا أبلى في المسلمينَ مَا أبلى"، قال: فخلَّى سبيلَهُ، قالَ أبو مِحْجَنٍ: "وقد كنتُ أشربُهَا إذْ يُقَامُ عليَّ الحدُّ وأطهَّرُ منها، فأمَّا إذا بَهْرَجْتَنِي، فواللهِ لا أشربُهَا أبدًا".

ويومَ اليمامة؛ قالَ زيدُ بنُ الخطَّابِ -رضي الله عنه- قبلَ استشهادِهِ في معركةِ اليمامة: "لا واللهِ لا أتكلَّمُ اليومَ حتَّى نهزمَهُمْ، أو ألقى اللهَ فأكلِّمَهُ بحجَّتي، عضُّوا على أضراسِكُمْ أيُّها النَّاس، واضربوا في عدوِّكُمْ، وامضوا قُدُمًا"، وقالَ أبو حذيفةَ في تلكَ المعركة: "يا أهلَ القرآنِ، زيِّنُوا القرآنَ بالفِعَالِ"، وحالُهُ:

إنَّا لَمِنْ معشرٍ أفنى أوائلَهُمْ *** قولُ الكماةِ: ألا أينَ المُحَامُونَا؟!
لو كانَ في الألفِ منَّا واحدٌ فدَعَوا *** مِنْ فارسٍ خالهُمْ إيَّاهُ يعنونَا
ولا تراهُمْ وإنْ جلَّتْ مصيبتُهُمْ *** معَ البُكَاةِ على مَن ماتَ يبكونَا
ونركبُ الكرهَ أحيانًا فيفرجُهُ *** عنَّا الحِفَاظُ وأسيافٌ تُوَاتِينَا
إنَّا لَنُرْخِصُ يومَ الرَّوعِ أنفسَنَا *** ولو نسامُ بهَا في الأمنِ أُغْلِينَا
بيضٌ مفارقُنَا تَغْلِي مَرَاجِلُنَا *** نأسو بأموالِنَا آثارَ أيدينا

وفي اليرموك؛ حملتِ الرُّومُ في اليرموكِ حملةً أزالوا المسلمينَ عنْ مواقعِهِمْ، فقال عكرمةُ: "قاتلتُ رسولَ الله ﷺ في كلِّ موطن، وأفرُّ منكُمُ اليوم؟!"، ثمَّ نادى: "مَن يبايعُنِي على الموتِ؟ مَن يبايعُنِي على الموتِ؟"، وحالُهُ:

فلا تخضعنَّ إلى ساقطٍ *** ولو كانتِ الأرضُ في كفِّهِ

فبايعه عمُّهُ الحارثُ بنُ هشامٍ وضرارُ بنُ الأزورِ في أربعمئةٍ من وجوهِ المسلمينَ وفرسانِهِمْ، فقاتلوا قُدَّامَ فسطاطِ خالدِ بنِ الوليد، حتَّى أُثْبِتُوا جميعًا جراحًا، فمنهُمْ مَن برئ ومنهُمْ مَن قُتِل، وكانَ عكرمةُ أعظمَ النَّاسِ بلاء، فكانَ يركبُ الأسنَّةَ حتَّى جُرِحَتْ صدرُهُ، فقيلَ له: اتَّقِ اللهَ وَارْفُقْ بنفسك، فقال: "كنتُ أجاهدُ بنفسي عنِ اللَّاتِ والعزَّى، فأبذلُهَا لها، أفَأَسْتَبْقِيهَا الآنَ عنِ اللهِ ورسولِهِ؟! لَا واللهِ أبدًا"، فلمْ يَزِدْ إلَّا إقدامًا! وحالُهُ:

تأخَّرتُ أستبقي الحياةَ فلَمْ أجدْ *** لنفسي حياةً مثلَ أنْ أتقدَّمَا
فلسنا على الأعقابِ تدمى كلومُنَا *** ولكنْ على أقدامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا
صَبَرْنَا وكانَ الصَّبرُ منَّا سجيَّةً *** بأسيافِنَا يَقْطَعْنَ كفًّا ومِعْصَمَا
فلستُ بمبتاعِ الحياةِ بذلَّةٍ *** ولَا مُرْتَقٍ مِن خشيةِ الموتِ سُلَّمَا

وفي معركةِ الجِسْرِ -وهي معركةُ قسِّ النَّاطِف-؛ بعثَ قائدُ الفُرْسِ إلى أبي عبيدٍ: "إمَّا أن تَعبُرُوا إلينا ونَدَعَكُمْ والعبور، وإمَّا أن تَدَعُونَا نعبرُ إليكُمْ"، فقالَ أبو عبيدٍ: "واللهِ لأقطعنَّ الفراتَ إليهِمْ، لا يكونونَ أجرأَ على الموتِ منَّا"، وحالُهُ:

وإنِّي لجرَّارٌ لكلِّ كتيبةٍ *** معوَّدةٍ ألَّا يُخَلَّى بها قَصْرُ
وإنِّي لَنَزَّالٌ بكلِّ مَخُوفَةٍ *** كثيرٌ إلى نُزَّالِهَا النَّظرُ الشَّزرُ
وأصدأ حتَّى ترتوي البيضُ والقنا *** وأسغبُ حتَّى يشبعَ الذِّئبُ والنِّسرُ
ويا رُبَّ دارٍ لم تُخِفْنِي منيعةٍ *** طلعتُ عليها بالرَّدى أنا والفجرُ

وأرادَ عمرُ بنُ الخطَّابِ أن يستخرجَ أبا عبيدةَ مِنَ المنطقةِ الَّتي أصيبتْ بوباءِ الطَّاعون، فكتبَ إليه: "سلامٌ عليك، أمَّا بعدُ: فقد عرضتْ لي إليك حاجة، أريدُ أنْ أشافِهَكَ فيها، فعزمتُ عليكَ إذا أنتَ نظرتَ في كتابي هذا ألَّا تضعَهُ مِن يدِكَ حتَّى تُقبِلَ".

فعرفَ أبو عبيدةَ ما أراد عمرُ، فكتبَ إليه: "يا أميرَ المؤمنين، قد عرفتُ حاجتَك إليَّ، وإنِّي في جندِ المسلمينَ لا أجدُ بنفسي رغبةً عنهُمْ، فلستُ أريدُ فراقَهُمْ حتَّى يَقْضِيَ اللهُ فيَّ وفيهِمْ أمرَهُ وقضاءَه، فخلِّني عزيمتَك"، فلمَّا قرأ عمرُ هذا الكتابَ بكى، فقالَ النَّاسُ: يا أميرَ المؤمنين، أماتَ أبو عبيدة؟ فقال: "لَا، وكأنْ قَدْ"، أي: قدْ يموتُ، وفعلًا ماتَ أبو عبيدةَ بالطَّاعون، وما منعه أن يستجيبَ لأمرِ أميرِ المؤمنين، ويَنجُوَ بنفسِهِ

إلَّا غيرةً على المسلمينَ وحبًّا لهُمْ، وشهامةً ونبلًا، ورجولةً ومروءة، فلنعم الأميرُ أبو عبيدةَ؛ ماتَ بينَ جنوده، ورفضَ أن يفارقَهُمْ إلَّا بأن يفارقَ الدُّنيا عنهُمْ لا غيرُ!

مَضَوا وكأنَّ المَكْرُمَاتِ لديهِمُ *** لكثرةِ مَا أوصوا بهنَّ شرائعُ

وهذا صلاحُ الدِّينِ الأيُّوبيُّ؛ قالَ يومًا وهو على البحرِ قُرْبَ عكَّا، كما نقلَ ذلك عنه قاضيهِ الفاضلُ بهاءُ الدِّينِ بنُ شدَّادٍ قائلًا: وسِرْنَا معَ السُّلطانِ -أي: صلاح الدِّينِ الأيُّوبي- على السَّاحلِ طالبينَ عكَّا، وكانَ الزَّمانُ شتاء، والبحرُ هائجًا هيجانًا عظيمًا، وموجُهُ كالجبال، وكنتُ حديثَ عهدٍ برؤيةِ البحر، فعَظُمَ أمرُ البحرِ عندي، واسْتَخْفَفْتُ رأيَ مَن يركبُ البحر، فبينَا أنا في ذلك؛ إذِ التفتَ إليَّ -أي: صلاحُ الدِّينِ- وقالَ في نفسِه: "إنَّهُ متى ما يسَّرَ اللهُ فتحَ بقيَّةِ السَّاحل؛ قسَّمتُ البلادَ وأوصيتُ وودَّعتُ، وركبتُ هذا البحرَ إلى جزائرِهِمْ، أَتَتَبَّعُهُمْ فيها، حتَّى لا أبقيَ على وجهِ الأرضِ مَن يكفرُ باللهِ أو أموتَ".

وليسَ فراغُ القلبِ مجدًا ورفعةً *** ولكنَّ شغلَ القلبِ للهمّ رافعُ
وذو المجدِ محمولٌ على كلِّ آلةٍ *** وكلُّ قصيرِ الهمّ في الحيّ وَادِعُ

قال: فعَظُمَ وَقْعُ هذا الكلامِ عندي حيثُ ناقضَ مَا كانَ يَخطُرُ لي، وقلتُ: ليسَ في الأرضِ أشجعُ نفسًا مِن المولى، ولا أقوى نيَّةً منهُ في نصرةِ دينِ الله، وحَكَيتُ له ما خَطَرَ لي، ثمَّ قلتُ: ما هذهِ إلا نيَّةٌ جميلةٌ، ولكنَّ المولى يَسِيرُ في البحرِ العساكرِ وهو سورُ الإسلامِ، ولا ينبغي أنْ يُخَاطِرَ بنفسِهِ، فقال له صلاحُ الدِّينِ: "أنا أستفتيكَ: مَا أشرفُ الميتاتِ؟"، فقلتُ: الموتُ في سبيلِ الله، فقالَ صلاحُ الدِّين: "غايةُ مَا في البابِ أنْ أموتَ أشرفَ المِيتَاتِ"!

فلا إله إلَّا الله! مَا أعظمَ هؤلاءِ الرِّجال! وما أشدَّ حميَّتَهُمْ وأقوى غيرتَهُمْ وأحسنَ فعالَهُمْ وأجملَ مقالَهُمْ! وما أعظمَ نخوتَهُمْ وشهامتَهُمْ! وما أكبرَ مكارمَهُمْ ومروءتَهُمْ! وما أروعَ غضبَهُمْ لله! وأبعدَ هِمَمَهُمْ ومطالبَهُمْ، وأسمى مقاصدَهُمْ ونواياهم! إنَّهُمْ قادةُ مبادئ، لا قادةُ مصالح!

أولو هِمَمٍ نوازعُ للتَّسامي *** على زُحَلٍ يلوحُ لها علاءُ
سِرَاعُ الغوثِ إنْ يُدعَوا لِعِزٍّ *** وإنْ يُدعَوا لمنقصةٍ بِطَاءُ

أكفُّهُمُ لدى الجدباءِ غيثٌ *** وكمْ رَوِيَتْ بها الأسلُ الظَّمَاءُ
لهُمْ يومَ الوغى وثباتُ أُسْدٍ *** إذا آوى بأشبلِهَا العياءُ
يخوضونَ الكريهةَ لم يبالوا *** أحانَ الحينُ أم نزلَ القضاءُ
لقد سادُوا وشادُوا كلَّ عزٍّ *** وطالَ بعزِّهِمْ ذاكَ البِنَاءُ
بهاليلُ تقوى اللهِ ركنٌ بِهِ *** اعتصموا وبالتَّقوى وقاءُ

كذا فليكنِ الرِّجالُ، وعلى هذهِ النَّماذجِ والسِّيرِ والصُّورِ والعِبَرِ ينبغي أن تُنَشَّأَ الأجيالُ، ليتخرَّجَ لنا الأبطالُ، صِحَابُ جليلِ الفِعَالِ قليلِ الجدالِ، كثيرِ العملِ، قليلِ العِلَلِ.

ويومَ عمُّوريَّة، وما أدراكُمْ مَا يومُ عمُّوريَّة، في سنةِ ٢٢٣ كانَ المعتصمُ بسامرَّاء، فجاءَ كتابٌ على البريدِ مِن ثغرِ الرُّومِ يَذْكُرُ أنَّ مَلِكَ الرُّومِ تَطَرَّقَ إلى نواحي الإسلام، ومدَّ يدَهُ إلى بعضِ القُرَى، وأنَّهُ أَسَرَ منها جماعة، وأنَّهُ كانَ في جملةِ الجماعةِ امرأةٌ هاشميَّةٌ، وأنَّهَا صَاحَتْ: وا معتصمَاهُ وا معتصماهُ! فأجابَ وهو على السَّريرِ: "لبَّيكِ لبَّيكِ"، ونادى بالنَّفير، ونهضَ مِن ساعتِه، فركبَ دابَّتَهُ وأخذ سلاحَهُ، وأَمَرَ العسكرَ فخَرَجُوا، وسارَ مِن ليلتِهِ والعساكرُ تتلاحقُ به، وكانَ في أربعينَ ألفَ فارسٍ، وأمَّا في أيَّامِنَا هذهِ فـ

ربَّ وا معتصماهُ انطلقتْ *** مِلْءَ أفواهِ الصَّبايا اليُتَّمِ
لامَسَتْ أسماعَهُمْ لكنَّهَا *** لَمْ تلامسْ نخوةَ المُعْتَصِمِ

وحينَ وصلَ المعتصمُ إلى أَنْقَرَة: خرَّبَهَا وأحرقَهَا، وهدم أسوارَها، وجاءَ بأبوابِهَا إلى بلادِ الإسلام، ونصبَ منها مِصْرَاعَيْنِ على الرَّقَّة، ومِصْرَاعَيْنِ على بابٍ من أبوابِ دارِ الخلافةِ ببغداد، وحينَ دخلَ إلى عمُّوريَّة كسَّرَ الأصنام، وصلَّى بالنَّاسِ التَّراويحَ هناك، وكانَ دخولُهُ إليها في رمضان، وأَخَذَ مَلِكَ الرُّومِ أسيرًا، وطلبَ منه الهاشميَّةَ، وأمرَ بإحضارِهَا على الحالةِ الَّتي كانتْ عليها، فأُحْضِرَتْ تحجلُ في قيودِهَا، فحينَ وَقَعَتْ عينُهُ عليها: قامَ على قَدَمِهِ وقالَ: "لبَّيكِ لبَّيكِ يا بنتَ العمِّ، أجبتُ دعوتَكِ في أربعينَ ألفَ فارسٍ".

قرومٌ نَمَتْنَا في فروعٍ قديمةٍ *** بحيثُ امتناع المجدِ أن يتنقَّلَا
فلا قومَ إلَّا نحنُ خيرٌ سياسةً *** وخيرٌ بقيَّاتٍ بقينَ وأوَّلَا

وأطولُ في دار الحفاظِ إقامةً *** وأربطُ أحلامًا إذا البَقْلُ أجهلَا
وأكثرُ منَّا سيِّدًا وابنُ سيِّدٍ *** وأجدرُ منَّا أن يقولَ فيفعلَا
حماةٌ غداة الرَّوعِ يأمنُ سِرْبَنَا *** إذا دهمَ الوِرْدُ الضَّعيفُ المُذَلَّلَا
مصاليتُ ضرَّابونَ في حومةِ الوغى *** إذا الصَّارخُ المكروبُ عمَّ وخلَّلَا

وحقَّ مَن بدأ بمسكٍ أنْ يَختِمَ بعنبرٍ، فنَختِمُ بذكرِ غيرةِ الكلابِ على رسولِ الله ﷺ وحميَّتِهِمْ وغضبِهِمْ له؛ قالَ الذَّهبيُّ في معجمِ الشُّيوخِ الكبيرِ: سمعتُ الشَّيخَ جمالَ الدِّينِ ابنَ الواصليِّ يقولُ في ملأ مِنَ النَّاس:

حضرتُ عندَ سَوْنَجَقَ خَزنَدَارَ هُولَاكُو وَأَبْغَا وَكَانَ ممَّن تنصَّرَ مِنَ المغُولِ، وذلكَ في دولةِ أبغا في أوَّلِهَا، وكنَّا في مخيَّمِهِ وعندَهُ جماعةٌ مِن أمراءِ المغُولِ وجماعةٌ مِن كبارِ النَّصارى في يوم ثَلْجٍ، فقالَ نصرانيٌّ كبيرٌ لَعِينٌ: "أيَّ شيءٍ كانَ محمَّدٌ -يعني: رسولَ اللهِ ﷺ-؟ كانَ راعيًا، وقامَ في ناسٍ عَرَبٍ جِيَاعٍ، فبقي يعطيهِمُ المالَ ويزهدُ فيه فيربطُهُمْ"، وأخذ يُبَالِغُ في تَنَقُّصِ الرَّسولِ ﷺ، وهناكَ كلبُ صَيْدٍ عزيزٍ على سَوْنَجَقَ في سلسلةِ ذَهَبٍ، فنهضَ الكلبُ وقَلَعَ السِّلْسِلَةَ، ووثبَ على ذلكَ النَّصرانيِّ فخَمَشَهُ وأدماهُ، فقَامُوا إليه وكفُّوهُ عنهُ وسَلْسَلُوهُ، فقالَ بعضُ الحاضرينَ: هذا لكلامِكَ في محمَّدٍ ﷺ، فقالَ: "أتظنُّونَ أنَّ هذا مِن أجلِ كلامي في محمَّدٍ؟! لَا! ولكنَّ هذا الكلبَ عزيزُ النَّفسِ، رآني أشيرُ بيدي فظَنَّ أنِّي أريدُ ضربَهُ فوثب!

ثمَّ أخذَ أيضًا يتنقَّصُ النبيَّ ﷺ ويزيدُ في ذلك، فوَثَبَ إليه الكلبُ ثانيًا وقطعَ السلسلةَ وافترسَهُ واللهِ العظيمِ! وأنَا أنظرُ، ثمَّ عَضَّ على زَرْدَمَتِه، فاقتلعَهَا فماتَ الملعونُ، وأسلمَ بسببِ هذهِ الواقعةِ العظيمةِ مِنَ المَغُولِ نحوٌ مِن أربعينَ ألفًا، واشتهرتِ الواقعة.

وبعدَ كلِّ هذا؛ فأينَ أهلُ النَّجدةِ والغيرةِ؟! وأينَ أهلُ الحميَّةِ والعصبيَّةِ؟! وأينَ أهلُ المَكْرُمَاتِ والمروءات؟! أينَ أهلُ النُّفوسِ الأبيَّاتِ والغيرةِ على الحُرُمَاتِ؟! لماذا لا يلبُّونَ الدَّعواتِ، ويستجيبونَ للنِّداءاتِ؟! لماذا لا يُفَرِّجُونَ الكُرُبَاتِ ويُغِيثُونَ اللَّهفاتِ؟! لماذا لا يَذُبُّونَ عنِ الحُرُمَاتِ ويُدْرِكُونَ الثَّاراتِ، وينصرونَ ربَّ البريَّات، ويرفعونَ الرَّاياتِ في كلِّ السَّاحات؟! فقد تعدَّدتْ وتنوَّعتْ مِن أمَّتنا الجراحات،

وتتابعتِ الصَّرخاتُ، وتوالتِ النَّكباتُ، وتكاثرتِ الإصاباتُ، وإلى اللهِ نرفعُ الحاجاتِ، ونشكو خذلانَ المسلمينَ لأمَّتِهِمْ ومَا هُمْ فيه مِن غفواتٍ.

فكَمْ يستغيثُ بنا المستضعفونَ وهُمْ *** قتلى وأسرى فما يهتزُّ إنسانُ
ماذا التَّقاطُعُ في الإسلامِ بينكُمُ *** وأنتُمْ يا عبادَ اللهِ إخوانُ؟!
ألا نفوسٌ أبيَّاتٌ لها همَمٌ *** أمَا على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ؟!
يا من لِذلَّةِ قومٍ بعدَ عزِّهِمُ *** أحالَ حالهُمُ جورٌ وطغيانُ!
بالأمسِ كانوا ملوكًا في منازلِهِمْ *** واليومَ هُمْ في بلادِ الكفرِ عُبْدَانُ!
فلو تراهُمْ حَيَارَى لا دليلَ لهُمْ *** عليهِمْ مِن ثيابِ الذُّلِّ ألوانُ
ولو رأيتَ بكاهُمْ عندَ بيعهِمُ *** لهالكَ الأمرُ واستهوتْكَ أحزانُ
يَا رُبَّ أمٍّ وطفلٍ حِيلَ بينهُمَا *** كما تفرَّق أرواحٌ وأبدانُ
وطفلةٍ مثلِ حُسْنِ الشَّمسِ إذْ طلعتْ *** كأنَّما هي ياقوتٌ ومرجانُ
يقودُها العِلْجُ للمكروهِ مُكْرَهَةً *** والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ
لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمَدٍ *** إنْ كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

فمَن للأسرى؟! مَن للجرحى؟! مَن للأراملِ والأيتامِ؟! مَن للقتلى والمعوَّقِين؟! مَن للفقراءِ والمساكين؟! مَن للجوعى والمحاصَرِين؟! مَن للنِّساءِ والبنين؟! مَن للشُّيوخِ والمستضعَفِين؟! مَن للمكلومينَ والمصابين؟! مَن ومَن لهُمْ بعدَ اللهِ إلَّا خيرةُ المجاهدينَ مِن أنصارٍ ومهاجِرين، مِن جندِ الخلافةِ الميامين، مِنِ استشهاديِّينَ وانغماسيِّين، وصناديدَ محارِبين، وأبطالٍ كواسرَ غيرِ هيَّابين؟! مَن لهُمْ سوى طلَّابِ الموتِ في سبيلِ ربِّ العالمين؟!

ومَا مُنِعَت دارٌ ولا عزَّ أهلُها *** مِنَ النَّاسِ إلَّا بالقنا والقنابلِ

وما الأَسَدُ الضِّرغامُ إلَّا فريسةٌ *** إذا لم تَطُلْ أنيابُهُ وأظافِرُه

فقُمْ وانتفضْ، ولتتحرَّكِ الغيرةُ والحميَّةُ والرُّجولةُ والمروءةُ والشَّهامةُ والنَّخوةُ فيك، فماذا تنتظر؟! وإلى متى تقعدُ وتتفرَّجُ على مآسي المسلمين، مِنْ أحداثٍ ونوازلَ وأخبارٍ وكوارث، يعجزُ عنْ وصفِهَا اللِّسان، ويحارُ فيها البيانُ، ويصطدمُ بها الجنان؟! فأينَ المِعْوَانُ الآنَ؟! أينَ المِعْوَانُ على هذا الشَّان؟! واللهُ المستعانُ.

بأيّ بيانٍ يستفيضُ لساني *** وأنا أرى في أسرِهِمْ إخواني
قد قُيِّدُوا تلكَ القيودَ وأُلْبِسُوا *** لبسَ المذلَّةِ كالذَّليلِ العاني
واللهِ لا شِعْرٌ يزيلُ هُمومَنَا *** أوْ يستفيضُ مشاعرَ الوُجْدَانِ
ماذا يفيدُ الشِّعْرُ في زمنٍ طغى *** فيهِ الرَّوافضُ وعابدُ الصُّلبانِ؟!
واللهِ ما كانَ الحقيقُ بأن نُرَى *** متمتِّعِينَ بذا المتاعِ الفاني
ما العذرُ عندَ اللهِ ماذا ندَّعي *** ماذا نقولُ لربِّنا الرَّحمنِ؟!
أنقولُ: إنَّا قدْ شَغَلْنَا وقتَنَا *** بوظائفٍ وملاعبٍ وغوانٍ؟!
أولم يقلْ ربِّي بأنَّ جهادَنَا *** للكفرِ فرضٌ بل على الأعيانِ؟!
أترى لنا عذرًا إذا جئنا إلى *** ربِّ العبادِ نقولُ: رأيُ فلانِ
إنَّ الجهادَ فريضةٌ لكنَّهُ *** فرضٌ كفائيٌّ بذي الأزمانِ!
أو أنْ نقولَ: فريضةٌ لكنَّهُ *** ما المسلمونَ اليومَ ذا إمكانِ!
أو نقولُ: فالمعاذرُ كثرةٌ *** لكنَّ ربِّي عالمٌ بالشَّانِ
لا يستوي -واللهِ- مَن هو جالسٌ *** في بيتِهِ في راحةٍ وأمانِ
يُغدَى عليه طعامُهُ وشرابُهُ *** متمتِّعًا بلذائذِ اللحمانِ
هو والمجاهدُ مَن غدا متأهِّبًا *** لِلِقَا عدوِّ اللهِ في الميدانِ
بينَ القاذئفِ والقنابلِ عيشُهُ *** يرجو الشَّهادةَ مقبلًا وَلْهَانِ
قَطَعَ الفيافيَ والمعاركَ خَاضَهَا *** وأتى إليهَا رغمَ بُعْدِ مكانِ
مِن أجلِهَا ترك الدِّيارَ وأهلَهَا *** لم يلتفتْ للأهلِ والأوطانِ
في كلِّ يومٍ وَهْوَ جَاشِمُ غزوةٍ *** في الشَّامِ يومًا ويومٌ ثانِ
مع جندِ الخلافةِ مِن إخوانِهِ *** في العراقِ في سَيْنَا وفي خراسانِ
لَمَّا أقمتُمْ في المذلَّةِ لم تُطِقْ *** نفسٌ لَهُ أنْ يَنْغَمِسْ بهوانِ
فالموتُ أهونُ مِنْ معيشةِ ذلَّةٍ *** عندَ الفتى لَمَّا التقى الزَّحفانِ
قالوا: اتَّئِدْ إنَّ العدوَّ مدجَّجٌ *** بقنابلٍ ومجهَّزٌ بِتَقَانِ
إنَّ العدوَّ لَمَالِكٌ ترسانةً *** وبَوَارِجًا تَرْسُو بذي الحيطانِ
إنَّ العدوَّ غدا يدمِّرُ أرضَهُمْ *** ويحيلُهَا حِمَمًا من النِّيرانِ
أوما ترى الأخبارَ تَنْقُلُ أَنَّهُمْ *** لم يرحموا طفلًا وشيخًا فانِ
ماذا دهاكَ أقد جُنِنْتَ فما لنا *** بلقائِهِمْ أبدَ الزَّمانِ يدانِ
قالَ الغيورُ: واللهِ ما أنا بالَّذي *** أرجو الحياةَ وإخوتي بِهَوَانِ
واللهِ لا عيشٌ يطيبُ لنا إذًا *** إنْ كانَ هذا الحالُ في البلدانِ
واللهِ لا أبقى إذًا متفرِّجًا *** متخاذِلًا ومخذِّلًا إخواني

بلْ أستعينُ اللهَ أنصرُ إخوتي *** هذا -وربِّي- مَعقِدُ الإيمانِ
وأعدُّ نفسي للجهادِ إذا دَنَا *** صوتُ النَّفيرِ كنتُ أوَّل دانِ
فإذا استطعتُ بذلتُ فيهِ مهجتي *** وإذا مُنِعْتُ نويتُهُ بجناني
فإنِ انتصرنا كانَ ذلكَ مطلبي *** وإذا قُتِلْنَا تلكَ خيرُ أمانِ
واعلمْ بأنَّ اللهَ ناصرُ دينِهِ *** ومعزُّهُ بكتائبِ الإيمانِ
لكنَّ حكمتَهُ اقتضتْ أن يَبْتَلِي *** بعضَ العبادِ ببعضِهِمْ لمعانِ
يتمايزُ الصَّفَّانِ يظهرُ منهُمُ *** مَا كانَ يخفى ظاهرًا لعيانِ
إنْ لم تكنْ في ذا الزَّمانِ مجاهدًا *** فعليكَ أن تحظى بكفِّ لسانِ

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [سورة الصافات].

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة العاشرة



الحلقة العاشرة: بالشِّدَّةِ والغلظةِ والإثخان؛ يُدفَعُ مِن أممِ الكفرِ البغيُ والعدوان

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعينِ الموحِّدين، ومبيدِ الطُّغاةِ والمارقين، وناصرِ المستضعفينَ على مَن سلك سبيلَ المجرمين، الَّذي جعلَ العاقبةَ لهُمْ ليكونوا هُمُ الوارثين، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له إلهُ الأوَّلينَ والآخرين، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ مَن جاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ حتَّى أتاهُ اليقين، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ناشري لواءِ الدِّين، وعلى مَنْ تبعهُمْ واقتفى آثارَهُمْ في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكُمُ اللهُ وأحياكُمْ، وجعلَ الجنَّةَ مأوانا ومأواكُمْ، وقوَّى تقواكُمْ، وأحسنَ أعمالَكُمْ، وأعاننا على مَن عادانا وعاداكُمْ، وذخرًا للخلافةِ أعدَّكُمْ، ترفعونَ راياتِهَا، وتذودونَ عنْ حياضِهَا، تحاربونَ عدوَّهَا، وتنصرونَ جنودَهَا، وتضمِّدونَ جروحَهَا، ترصُّونَ صفوفَهَا، وتشيِّدونَ صروحَهَا، وعلى منهاجِ النُّبوَّةِ تَحمِلُونَهَا.

ما زلنا معكُمْ -معاشرَ المسلمين- نبيِّنُ ونوضِّح، ونقوِّمُ ونصحِّح، ونشرحُ ونصرِّح، وعنِ النُّفوسِ بالحقِّ نروِّحُ، فإنْ وافقتْ كُلَيْمَتِي هذهِ قبولًا فالحمدُ لله، وإنْ وافقتْ ردًّا فمن نفسي والشَّيطان، وأستغفرُ الرَّحمن، راجيًا مِن اللهِ أن تنالَ هذهِ الكلماتُ القبولَ والإعجاب، وأن ينتفعَ منها صاحبُهَا والأهلُ والأصحاب، وكلُّ مَن يخافُ يومَ الحساب، وأن تكونَ لنا زادًا على الطَّريق، ومنارًا للسَّبيل، وحجَّةً لنا لا علينا يومَ اللِّقاء.

إنْ تجدْ عيبًا فسُدَّ الخللا *** جلَّ مَن لا عيبَ فيهِ وعلا

معاشرَ المسلمين، ما زلنا في السِّلسلةِ المباركةِ "شحذِ الهِمَمِ لدفعِ عاديةِ الأُمَمِ" نوضِّحُ معالمَ الحركةِ الجهاديَّة، ونُبرزُ مظاهرَ التَّربيةِ الجهاديَّةِ التي ينبغي أن يتحلَّى بها أهلُ الإسلامِ في إزالةِ الفساد، والعملِ على كسرِ العناد، وكبحِ جِمَاحِ التَّمادي مِن أممِ الكفرِ البِعَاد، ونبيِّنُ كيفَ ندفعُ عاديةَ الأممِ التي اعتدتْ علينا، وأوغلتْ في

دمائنا، وقد يسَّرَ اللهُ لنا أن تكلَّمْنَا عنْ لوازمَ لا بدَّ أن يأخذَ بها المجاهدُ، ووسائلَ يستعينُ بها أهلُ الإسلامِ على جهادِ عدوِّهم، ومقوِّماتٍ هي زادُ المجاهدينَ في حربِ أممِ الكفرِ المعتدين، وشَحَذْنَا بسِيَرِ وأخبارِ الرِّجالِ قلوبَ الصَّادقين، واستنهضنا همَّةَ أصحابِ الفِطَرِ السَّليمةِ والقلوبِ الحيَّة، والمروءةِ الأبيَّة -بفضل الله-.

وإنَّ حديثَنا اليومَ على أمرٍ عظيمٍ جدًّا، حارتْ فيه أفهامٌ، وضلَّتْ فيه أقوامٌ، وزلَّتْ فيه أقدامٌ، وخلطتْ فيه أقلامٌ، وسَرَتْ إلى عقولِ النَّاسِ بِهِ في ذا الزَّمانِ الأوهامُ، وتسلَّطَ الكتَّابُ والدُّعاةُ إلَّا أهلَ الحقِّ التَّمامِ على نفيِهِ ودحضِهِ وجحدِهِ والتبرُّؤ منه، وما ذلك إلَّا لِمَا في قلوبِهِمْ مِن أسقام، إنَّه أمرُ الشِّدَّةِ والقسوةِ والعنفِ والغلظةِ والإثخانِ في صاحبِ الكفرِ والعدوان، ولمن يجهلُ هذهِ الحقيقةَ والطَّبيعةَ والرَّكيزةَ في هذا الدِّين، نقولُ له: اقرأ القرآنَ؛ فإنَّهُ -والله- بهذا أَمَرَ الرَّحمنُ، وبه أوصى العدنان، وعمل الصَّحابةُ الشُّجعان، وسار على دربِهِمْ أهلُ الإيمان، وكلُّ مَن مشى ممَّنْ فَقِهَ الإسلام، لا تأخذُهُمْ باللهِ لومةُ لائمٍ ولا عذلُ عاذل، يُظهِرُونَ لأهلِ الحقِّ والإسلامِ اللِّينَ والرَّحمة، والرِّفقَ والمحبَّة، والسِّلمَ والأخوَّة، والعدلَ والنُّصرة، والإعانةَ والشَّفقة، وأمَّا لمنْ كفر باللهِ وارتدَّ عنْ دينِه؛ فيُظهِرُونَ لهُ الغلظةَ والشِّدَّة، والعنفَ والقسوة، والشَّرصَ والشَّزَن، وفي حربِ أهلِ الكفرِ يُجرُونَ الدِّماء، ويناثرونَ الأشلاء، ويقطعونَ الرُّؤوس، ويَبْقُرُونَ البطونَ، ويضربونَ فوقَ الأعناقِ وكلَّ بنان، ويقطعونَ كلَّ ساعد، ويترصَّدونَ لهم في كلِّ مكان، وينصبونَ لهُمُ الفِخَاخ، ويضعونَ لهُمُ الشِّباك، ويقعدونَ لهم كلَّ مرصد، ويأخذونهُمْ كلَّ مأخذ، ويبالغونَ في القتلِ والجرحِ ويُثخِنُون، ولا تأخذُهُمْ في عدوِّهِمْ رأفةٌ أو رحمة، بلْ هُمْ على عدوِّهِمْ أعزَّةٌ مستعلون، جفاةٌ أباةٌ مترفِّعون، صِلَابٌ في الحقِّ وبدينِهِمْ مستمسكون، وعلى البلاءِ والعداوةِ والحربِ صابرونَ ثابتون، لا يَظهَرُ منهُمْ أمامَ عدوِّهِمْ ضعفٌ أو لين، أو ذلَّةٌ أو مهانةٌ أو تنازلٌ أو جبنٌ أو عجزٌ أو كسلٌ، أو سآمةٌ أو مَلَلٌ، كلَّا؛ فهُمْ أهلُ الحقِّ والدِّين، وأهلُ الرُّشدِ والعدلِ والصَّلاحِ الَّذينَ بعثهُمُ اللهُ ليطهِّرُوا العَالَمَ مِنَ الخَبَثِ الَّذي فيه، ويزيحوا الظُّلمَ والكفرَ عنِ الأرضِ كلِّ الأرضِ بالسَّيفِ والسِّنان، لأهلِ الشِّقاقِ والعناد، وأهلِ الظُّلمِ والفساد، وأصحابِ البغيِ على العباد.

وهذا هو الدِّينُ القويمُ، وهذا هو منهجُ سيِّدِ المرسلين، صلوتُ اللهِ عليه وعلى آله وأصحابِهِ أجمعين، وهكذا تكونُ الدَّعوةُ لأهلِ الكفرِ والعناد، فَأَسْلِمُوا تَسْلَمُوا، قالَ ابنُ القيّمِ في الفروسيَّة: "إنَّ اللهَ سبحانه أقامَ دينَ الإسلامِ بالحجَّةِ والبرهان، والسَّيفِ والسِّنان؛ فكلاهُمَا في نَصْرِهِ أخوانِ شقيقان"، وقالَ الكِسَائِيُّ: "والدَّعوةُ دعوتان: دعوةٌ بالبنان، وهي القتالُ، ودعوةٌ بالبيان، وهو اللِّسان".

وهكذا ينبغي أن يكونَ المجاهدونَ الموحِّدون، يدعونَ إلى اللهِ بالسَّبيلَين، بالحجَّةِ والسَّيفِ لمن لا تنفعُ معه الحجَّة، وعلى هذا سارَ اليومَ أبناءُ الخلافة، وأهلُ الشَّوكةِ والبأسِ والسُّلطان، مِن أصحابِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ والإيمان، فبارك اللهُ فيهِمْ وكثَّرَ جمعَهُمْ، وقوَّى شوكتَهم وأعانَهُمْ وثبَّتَهُمْ، وقوَّاهُمْ وقوَّى تقواهم، وألحقَ كلَّ صادقٍ صالحٍ بهم؛ لأنهُمْ كانوا نعمَ الرِّجالُ على عدوِّهم، قساةً جفاةً غِلَاظًا شِدَادًا، أهلَ تقتيلٍ وإثخانٍ وتشريدٍ في عدوِّهم، يلاقونَهُمْ بأَرْمَاحٍ طِوَال، تُبَشِّرُهُمْ بأعمارٍ قِصَار، فضربوا مِن أهلِ الكفرِ والحربِ الرِّقاب، وأجروا الدِّماءَ وناثروا الأشلاء، وكَسَرُوا الجماجم، وقعدوا للحربيِّ المرتدِّ كلَّ مرصد، وضيَّقوا عليه كلَّ مسلك، وتخطَّفوا الزَّنادقةَ الباطنيَّة في كلِّ مذهب، وَاسْتَلَبُوا نفوسَهم، وفرَّقوا جماعتَهُمْ، وكسروا شوكتَهُم، وعاملوهُمْ بالمثل، وأخذوا القصاصَ، ومَا لكافرٍ منهُمْ إلَّا بالإسلامِ مناصٌ، وبالتَّوبةِ والإيمانِ الخلاصُ، فجزاهُمُ اللهُ عنِ الإسلامِ والمسلمينَ خيرًا.

فَدَتْ نفسي وما ملكتْ يميني *** فوارسَ صدَّقوا فيهِمْ ظُنُونِي
فوارسَ لا يملُّونَ المنايا *** إذا دارتْ رحى الحربِ الزَّبونِ
ولا يَجْزَونَ مِنْ حَسَنٍ بسَيْءٍ *** ولا يَجْزَونَ مِنْ غِلْظٍ بِلِينِ
ولا تَبْلَى بسالتُهُمْ وإنْ هُمْ *** صُلُوا بالحربِ حينًا بعدَ حينِ
هُمُ مَنَعُوا حمى الدَّولةِ بضربٍ *** يؤلِّفُ بينَ أشتاتِ المَنُونِ
ولا يَرْعَونَ أكنافَ الهُوَيْنَى *** إذا حلُّوا ولا أرضَ الهَدُونِ

عبادَ الله، إنَّ تعبيدَ النَّاسِ لله واجبُ الأنبياءِ وأتباعِهِمْ، وواجبُ المسلمينَ في كلِّ زمانٍ ومكان، وإنَّ الحقَّ والدِّينَ الَّذي أنزلهُ اللهُ وبُعِثَ به محمَّدٌ رسولُ الله؛ لَوَاجِبٌ على الخليقةِ أن يَخْضَعُوا لَهُ ويؤمنوا به ويستسلموا له ويأخذوه، فإنْ فَعَلُوا فازوا وظَهَرُوا وظَفِرُوا، وإنْ أَبَوا فإنَّ الواجبَ على أهلِ الإسلامِ وعلى مَنْ عَبَدَ اللهَ وَوَحَّدَهُ

وخَضَعَ له ألَّا يترُكَ على وجهِ الأرضِ أحدًا يكفرُ بِه، ويُشرِكُ معه غيرَه، والواجبُ على الموحِّدِ بعدَ دعوةِ هؤلاءِ إلى دينِ اللهِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ أنْ يجاهدَهُمْ، ويغلظَ عليهِمْ، ويعملَ بما أمرَ اللهُ فيهِمْ مِن أسرٍ وقتلٍ وطردٍ وغيرِه، ويَفرَحَ في حربِهِمْ، ويُسرِعَ إليها ويهشَّ لها، وينتظرَ أن ينتقمَ للهِ فيهِمْ، ويشفيَ غليلَهُ منهم.

لقد عَلِمَ الحماةُ الشُّمُّ أنِّي *** أهشُّ إذا دُعِيتُ إلى الطِّعانِ

قال تعالى: {وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [سورة التوبة: ٢٣] أي: وليجدوا فيكُمْ شدَّةً وخشونةً في القتالِ ومتعلِّقاتِه، والغلظةُ على المقاتلينَ في زمنِ الحربِ هي من مقتضياتِ الطَّبيعةِ والمصلحة، وتنكيرُهَا في الآيةِ يدلُّ على أنَّ لأولي الأمرِ أن يحدِّدُوهَا في كلِّ زمانٍ وكلِّ حالٍ بما يتَّفقُ مع المصلحة؛ لأنَّ الشِّدَّةَ في محلِّ اللِّين هي مِن الحُمْقِ والخَرَق، واللِّينَ في محلِّ الشِّدةِ هو من الضَّعفِ والخَوَر، والسَّدادُ الحكمةُ، وأن تكونَ الشِّدَّةُ في محلِ الشِّدَّة، واللِّينُ في محلِّ اللِّين، ويُظهِرُوا الغلظةَ والشِّدَّةَ والتَّرفُّعَ على الكافرين؛ لعلمِهِمْ أنَّ اللهَ خاذلُهُمْ ومهلكُهُمْ وإنِ اشتدَّ أمرُهُمْ، وظَهَرَ علوُّهُمْ وقهرُهُمْ.

قالَ السَّعديُّ: "فالغلظةُ والشِّدَّةُ على أعداءِ اللهِ تقرِّبُ العبدَ إلى اللهِ، ويوافقُ العبدُ ربَّهُ في سخطِهِ عليهِمْ"؛ إذْ نعمَ العبادةُ تلك الَّتي يوافقُ فيها العبدُ ربَّهُ ومولَاه؛ قالَ عليٌّ -رضي الله عنه- في الآيةِ: "أهلُ غلظةٍ على مَن خالفَهُمْ في دينِهِمْ".

وقالَ صاحبُ الظِّلال: "فهؤلاءِ فيهِمْ على الكافرينَ شماسٌ وإباءٌ واستعلاء، ولهذهِ الخصائصِ هنا موضعٌ، إنَّها ليستِ العزَّةُ للذَّات، ولا استعلاءٌ للنَّفس؛ إنَّما هي العزَّةُ للعقيدةِ والاستعلاءُ للرَّايةِ التي يقفونَ تحتَهَا في مواجهةِ الكافرين، إنَّها الثِّقةُ بأنَّ مَا معهُمْ هو الخيرُ، وأنَّ دَوْرَهُمْ هو أن يُطَوِّعُوا العَالَمَ للخيرِ الَّذي معهُمْ، لا أن يطوِّعُوا الآخرينَ لأنفسِهِمْ، ولا أن يطوِّعوا أنفسَهُمْ للآخرينَ ومَا عندَ الآخرين، ثمَّ هي الثِّقةُ بغلبةِ دينِ اللهِ على دينِ الهوى، وبغلبةِ قوَّةِ اللهِ على تلك القوى، وبغلبةِ حزبِ اللهِ على أحزابِ الجاهليَّة؛ فهُمُ الأعلونَ حتَّى وهُمْ ينهزمونَ في بعضِ المعاركِ في أثناءِ الطَّريقِ الطَّويل"، انتهى كلامُهُ -رحمه الله-.

وسبحانَ اللهِ! لقد أضحتْ هذهِ الصِّفةُ اليومَ في عِدَادِ المفقوداتِ في هذا الزَّمن، حتَّى إنَّك ترى جمعًا مِن المسلمينَ خاضعينَ ذليلينَ لأعداءِ الدِّين، يسترحمونَهُمْ ويستلطفونَهُمْ بشهوةٍ أو بشبهة، وكلاهما في حاصلِ الأمرِ سِيَّان، ويقلِّدونَهُمْ في الملبسِ والمأكل، حتَّى أمسوا قدوةً لهم، فتقمَّصَ المسلمونَ رداءَ الذِّلة، وَارْتَدَوا إزارَ الصَّغار، بسببِ هوانِهِمْ على اللهِ إلَّا مَن رَحِمَ ربِّي.

والبعضُ مِن الدُّعاةِ ضلَّ طريقَ العزَّة، فظنُّوهَا في مجرَّدِ جمعِ الأموالِ أو الجلوسِ عندَ ذوي السُّلطانِ والجاه، فالنَّاسُ يطلبونَ العزَّ بأبوابِ الملوك، ولا يجدونَهُ إلَّا في طاعةِ الله، ولكنْ والحمدُ لله؛ فقد فُضِحَ هؤلاءِ الأدعياءُ، وكُشِفَ منهُمُ الخفاءُ، {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩)} [سورة محمد]، وأمَّا أهلُ الحقّ والمجاهدونَ في سبيلِ الله؛ فقد عَقَدُوا العزمَ وأخذوا بالحزم، وركِبُوا الصَّعبَ وتجشَّمُوا الأخطار، وقَطَعُوا القِفَارَ ليُدْرِكُوا الأوطار.

التَّاركينَ مِنَ الأشياءِ أَهْوَنَهَا *** والرَّاكبينَ من الأشياءِ مَا صَعُبَا

فقد حَمَلُوا السِّلاح، وطاروا على الخيلِ الملاح؛ نصرةً للحقّ والصَّلاح، وسيرًا في دربِ الجهادِ والكفاح، حتَّى تُشرقَ كاملُ شمسِ الخلافةِ على أمَّتِنا في كلِّ صباح، وحالُ أحدِهِمْ:

فسرجي فِرَاشِي والحسامُ مُضَاجِعِي *** وعدَّةُ حربي لا ذواتُ الخَلَاخِلِ
ورمحي يُعَاطيني البعيدَ لأنَّني *** تناولتُ مَا أعيا على المتناوِلِ
ولي همَّةٌ تسمو على كلِّ همَّةٍ *** ولي أملٌ أعيا على كلِّ آملِ
ولي مِن بني الخلافةِ أنصارُ دولةٍ *** شدائدُ مِنْ أنجادِ كلِّ القبائلِ

أهلَ الدِّينِ والحقّ، إنَّ اللهَ قالَ عنْ رسولِه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)} [سورة الأنبياء]، ونبيُّنا قالَ عنْ نفسِه: (إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) كما أخرجَهُ مسلمٌ، وقد أمرَ اللهُ نبيَّه بأمرٍ عظيمٍ فقالَ له: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩)} [سورة التحريم]، وعنِ ابنِ مسعودٍ في قولِه: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [سورة التوبة: ٧٣] قال: يجاهدُهُمْ بيدِه، فإنْ لم يستطعْ

فبلسانِه، فإنْ لم يستطعْ فبقلبِه، فإنْ لم يستطعْ فليكفهرَّ في وجهه، وقولِه: {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} أي: واشدُدْ عليهِمْ بالجهادِ والقتلِ والإرهاب، وأن يُغلِظَ عليهِمْ بالكلام.

وهذهِ صفةُ المؤمنين؛ أن يكونَ أحدُهُمْ شديدًا عنيفًا على الكفَّار، برًّا رحيمًا بالأخيار، غَضُوبًا عَبُوسًا في وجهِ الكافر، ضَحُوكًا بَشُوشًا في وجهِ المؤمن؛ قال تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح: ٢٩]، {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} أي: غليظةٌ عليهِمْ قلوبُهُمْ، قليلةٌ بهِمْ رحمتُهُمْ، كالأَسَدِ على فريستِه، لا تأخذُهُمْ فيهِمْ رأفةٌ، والمعنى: أنَّهم يُظْهِرُونَ لمن خالفَ دينَهُمُ الشِّدَّةَ والصَّلابة، ولمن وَافَقَهُ الرَّحمةَ والرَّأفة، قالَ البغويُّ:{أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} يُعَادُونَهُمْ ويُغَالِبُونَهُمْ، وقالَ عطاءٌ: أعزَّةٌ على الكافرينَ، كالسَّبُعِ على فريستِهِ.

وقال تعالى: {فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)} [سورة الأنفال]، قال صاحبُ الظِّلالِ في هذهِ الآية: "إنَّهُ لَتعبيرٌ عجيبٌ، يَرسُمُ صورةَ الأخذِ المُفزِعِ والهولِ المُرعِبِ الَّذي يكفي السَّماعُ به للهربِ والشُّرود، إنَّها الضَّربةُ المروِّعة، يأمرُ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يأخذَ بها الَّذينَ مَرَدُوا على نقضِ العهد، وانطلقوا مِنْ ضوابطِ الإنسان، ليُؤمِّنَ المعسكرَ الإسلاميَّ أوَّلًا، وليدمِّرَ هيبةَ الخارجينَ عليه أخيرًا، وليَمْنَعَ كائنًا مَن كانَ أن يجرؤ على التَّفكيرِ في الوقوفِ في وجهِ المدِّ الإسلاميِّ مِن قريبٍ أو بعيد، إنَّها طبيعةُ هذا الدِّينِ الَّذي يجبُ أن تستقرَّ صورتُهُ في قلوبِ العصبةِ المسلمة، إنَّ هذا الدِّينَ لا بدَّ له مِن هيبة، لا بدَّ له مِن قوَّة، لا بدَّ له مِن سطوة، لا بدَّ له مِن الرُّعبِ الَّذي يزلزلُ الطَّواغيت، حتَّى لا تقفَ للمدِّ الإسلاميِّ وهو ينطلقُ لتحريرِ الإنسانِ في الأرضِ مِن كلِّ طاغوتٍ.

والَّذينَ يتصوَّرونَ أنَّ منهجَ هذا الدِّينِ هو مجرَّدُ الدَّعوةِ والتَّبليغِ في وجهِ العقباتِ الماديَّةِ مِن قوى الطَّاغوتِ هُمْ أناسٌ لا يعرفونَ شيئًا عنْ طبيعةِ هذا الدِّين، وهذا الحكمُ يتعلَّقُ بحالةِ نقضِ العهدِ فعلًا مع المعسكرِ الإسلامي، ومَا ينبغي أن يَتْبَعَ في ضربِ النَّاقضينَ للعهدِ وإرهابِهِمْ وإرهابِ مَن وراءهُمْ بالضَّربةِ القاصمةِ المروِّعةِ الهائلة"، انتهى كلامُهُ -رحمه الله-.

وإنَّ الأمرَ الرَّبانيَّ بالشِّدَّةِ والغلظةِ والإثخان، والتَّربُّصِ والقتلِ والحصرِ والإرهابِ للكافرينَ كثيرٌ جدًّا، ومنه قولُهُ تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [سورة الأنفال: ٦٠] أي: تُخيفُونَ وتُرْعِبُونَ به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم؛ فهو إلقاءُ الرُّعبِ والرَّهبةِ في قلوبِ أعداءِ الله الَّذينَ هُمْ أعداءُ العصبةِ المسلمةِ في الأرض، الظَّاهرينَ منهُم الَّذينَ يعلمُهُمُ المسلمون، ومَن وراءهُمْ ممَّن لا يعرفونَهُمْ، والمسلمونَ مكلَّفُونَ بأن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعونَ مِن أسبابِ القوَّةِ ليكونوا مرهوبِينَ في الأرض؛ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا، وليكونَ الدِّينُ كلُّهُ لله، ولا يكونُ إرهابٌ بلا شدَّةٍ ولا غلظة، وبأسٍ وعنفٍ وقوَّة، وقتلٍ وفتكٍ وأسرٍ وإهلاكٍ للطَّاغوتِ وجندِه.

وأيضًا قولُهُ تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)} [سورة الأنفال].

وفي آيةِ السَّيفِ الَّتي قالَ فيها الضَّحَّاكُ بنُ مُزَاحِم: "إنَّها نَسَخَتْ كلَّ عهدٍ بينَ النبيِّ ﷺ وبينَ أحدٍ من المشركين، وكلَّ عهدٍ وكلَّ مدَّة"، وهي قولُهُ تعالى: {فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)} [سورة التوبة]، قال ابنُ كثير: "أي: إذا انقضَتِ الأشهرُ الأربعةُ الَّتي حرَّمنا عليكُمْ فيها قتالَهم، وأجَّلناهُمْ فيها، فحيثُما وجدتُّمُوهُمْ فاقتلوهم، وَأْسِرُوهُمْ، وإنْ شئتُمْ قتلًا وإنْ شئتُمْ أسرًا، ولا تكتفوا بمجرَّدِ وُجْدانِكُمْ لهم، بلِ اقصُدُوهُمْ بالحصارِ في معاقِلِهِمْ وحصونِهِمْ، والرَّصْدِ في طُرُقِهِمْ ومسالكِهِمْ، حتَّى تُضَيِّقُوا عليهِمُ الواسع، وتضطرُّوهُمْ إلى القتلِ أوِ الإسلام؛ ولهذا قال: {فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}".

قالَ السَّعديُّ: "{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} في أيِّ مكانٍ وزمان، {وَخُذُوهُمْ} أَسْرَى، وضَيِّقُوا عليهِمْ، فلا تَدَعُوهُمْ يتوسَّعُونَ في بلادِ اللهِ وأرضِهِ الَّتي جعلها اللهُ لعباده؛ فهؤلاءِ ليسوا أهلًا لسُكْنَاهَا، ولا يستحقُّونَ منها شبرًا؛ لأنَّ الأرضَ

أرضُ اللهِ وهم أعداؤهُ والمنابذونَ لَهُ ولِرُسُلِه، والمحاربونَ الَّذينَ يريدونَ أن يُخْلُوا الأرضَ من دينه، {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)} [سورة التوبة]، واقعُدُوا لهُمْ كلَّ ثنيَّةٍ وموضعٍ يمرُّونَ عليه، ورابطوا في جهادِهِمْ، وابذلوا غايةَ مجهودِكُمْ في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمرِ حتَّى يتوبوا مِن شركِهِمْ".

عنْ أميرِ المؤمنينَ عليّ بنِ أبي طالبٍ أنَّهُ قال: "بُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ بأربعةِ أسيافٍ: سيفٍ للمشركينَ: {فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ}، وسيفٍ للكفَّارِ أهلِ الكتابِ: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)} [سورة التوبة]، وسيفٍ للمنافقينَ: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [سورة التوبة: ٧٣]، وسيفٍ للبغاةِ: {فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ} [سورة الحجرات: ٩]".

وقالَ تعالى حاكيًا عنْ شدَّةِ موسى ونوحٍ وقسوتِهِمْ وغلظتِهِمْ على قومِهِمُ الكفَّار: {وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)} [سورة يونس]، {وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)} [سورة نوح].

وأمرَ اللهُ بالشِّدَّةِ على مَن أتى حدًّا، وأمرَ ألَّا تأخذَ المسلمَ في عقوبتِهِ وحدِّهِ الرَّأفةُ، فقالَ: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)} [سورة النور].

وإنَّ مِنَ المقاصدِ الشَّرعيَّةِ في إعمالِ الشِّدَّةِ والغلظةِ والإرهابِ والقسوةِ والعنفِ والإثخان؛ هو إذلالَ الكفرِ وأهلِهِ وسحقَهُمْ، وإرهابَهُمْ وكسرَ شوكتِهِمْ، وإرغامَهُمْ ودفعَهُمْ على الأخذِ بدينِ الحقِّ، أو الخضوعِ والذُّلِّ والانكسارِ لأهلِ الحقِّ، وحتَّى يكونَ شعارُ المسلمينَ ظاهرًا، ورايتُهُمْ هي المرفوعة، وكلمتُهُمْ هي المسموعة، وجماعتُهُمْ هي المتَّبَعَة، ثمَّ إنَّ في كلِّ هذا هيبةَ أهلِ الإسلام، وحفظَ نظامِهِمْ، وسلامةَ دولتِهِمْ؛

حتَّى لا يفكِّرَ معتدٍ بالصِّيالِ عليهم، أو يطمحَ باغٍ لأخذِ مَا في حوزتِهِمْ، وليدفعَ اللهُ شرَّ أعداءِ اللهِ المتستِّرِينَ بمظهرِ الإيمان، ويكبحَ جماحَ مَن يحاولُ على دارِ الإسلام، وغير ذلك مِن المصالحِ والمكاسبِ والفوائدِ الَّتي يحظى بها أهلُ الإسلامِ بشدَّتِهِمْ على عدوِّهِم، وبطشِهِمْ وإثخانِهِمْ فيمن حاربهُمْ واعتدى عليهم؛ لذا كانَ بالشِّدَّةِ والغلظةِ والإثخان؛ يُدفَعُ مِنْ أممِ الكفرِ البغيُ والعدوان.

وإنَّ اللهَ -عز وجل- أعلمُ بمصلحةِ عبادِه، فما مِنْ أمرٍ أمرَ بِهِ سبحانه إلَّا ومصلحتُهُ متحقِّقةٌ أو راجحةٌ، {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)} [سورة الملك]، وقد بيَّنَ اللهُ جملةً من فوائدِ قتلِ وقتالِ الكفَّار، ووضَّح جملةً من عمومِ نفعِهِ فقال: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)} [سورة التوبة].

ثمَّ لماذا لا نكونُ أصحابَ قسوةٍ وغلظةٍ وشدَّةٍ ونكالٍ بأهلِ الكفرِ والحربِ والصِّيال، الَّذينَ أذاقوا المسلمينَ الويلات، فهَدَمُوا وقَتَّلُوا، وخَرَّبُوا وقَصَفُوا، ودَمَّرُوا وشَرَّدُوا، وهَتَكُوا وفَتَكُوا في كلِّ مَا للمسلمينَ مِنْ قوَّةٍ ورجالٍ ومالٍ وحِمًى وذريَّة، وساموا جموعَ المسلمينَ العبوديَّة، وكانوا معنا قساةً جفاةً عتاةً طغاةً مجرمين؟! ثمَّ يطلبونَ منَّا أن نكونَ معهُمْ على سلامٍ ولين! كلَّا وألفُ كلَّا؛ فإنَّ ميزانَ العقلِ يأمرُ بالعدلِ والقصاص، وإنَّ ميزانَ الشَّرعِ يأمرُ بالنِّكايةِ والإثخانِ لأجلِ الخلاص، وهكذا ينبغي أنْ نكونَ مع أهلِ الكفرِ الخؤون، وواللهِ مَا ذُقْنَا مِن عدوِّنا مِن الملاحدةِ والصَّحواتِ والمرتدِّين، والباطنيَّةِ والرَّافضةِ والطَّواغيتِ المجرمين، واليهودِ والصَّليبيِّينَ ومَن حالفهُمْ من أممِ الكفرِ في الأرضِ أجمعين؛ إلَّا السُّمَّ الذُّعافَ والمرَّ الحنظل، والشَّديدَ العَسِرَ هضمُهُ؛ لذا عَزَمْنَا على أنْ نسْقِيَهُمْ ممَّا سقونا، وأنْ نُرِيَهُمْ منَّا مَا يكرهونَ.

أَذَاقَنِي عدوّي بَلْوَى شرقتُ بها *** لو ذاقهَا لبكى مَا عاشَ وانْتَحَبَا
ولئنْ عُمِّرْتُ جعلتُ الحربَ والدةً *** والسَّمْهَرِيَّ أخًا والمَشْرَفِيَّ أبا
بكلِّ أشعثَ يلقى الموتَ مبتسمًا *** حتَّى كأنَّ لهُ في قتلِهِ أَرَبا
قحٍّ يكادُ صهيلُ الخيلِ يقذفُهُ *** عنْ سرجِهِ مَرَحًا بالعزِّ أو طَرَبا

الموتُ أعذرُ لي والصَّبرُ أجملُ بي *** والبرُّ أوسعُ والدُّنيا لمَنْ غَلَبَا

أيُّها الموحِّدون، إنَّ سيرةَ المسلمينَ مع عدوِّهِمْ مِن الكفَّارِ والمحاربين، وبخاصَّةٍ المنافقينَ منهُمْ والزَّنادقةِ والمرتدِّين، على طولِ الأيَّامِ وكرِّ السِّنين؛ كانتِ الصِّفةُ العامَّة لها، والصُّورةُ الظَّاهرةُ منها، والأصلُ الثَّابتُ فيها؛ القسوةَ والعنفَ والشَّرْصَ والشَّزَن، والمبالغةَ في العداوةِ والبغضاء، فأمرَ اللهُ بالغلظةِ والشِّدَّةِ كما بيَّنهُ في سورةِ الأنفال، والأسرِ بعدَ الإثخانِ مِن دونِ جدالٍ كما في سورةِ القتال، ولن تظهرَ هذهِ الحقيقةُ الصَّحيحةُ على أهلِ الشَّوكةِ والجهادِ مِن أهلِ الإسلام إلَّا بذكرِ أحوالِهِمْ وأقوالِهِمْ، وبسطِ سِيَرِهِمْ وأخبارِهِمْ فيما صَدَرَ عنهُمْ مع عدوِّهِمْ مِن غلظةٍ وخشونةٍ في القولِ والفعل، وقسوةٍ وشدَّةٍ وإثخانٍ وإكثارٍ في القتل، والفتكِ بالكفَّارِ والتَّشريدِ بهم؛ لذا سوفَ نستعرضُ جملةً مِن هذهِ القصصِ والسِّيرِ والأخبار؛ حتَّى يكونَ لنا فيها الاعتبار، ويستفيدَ منها الأخُ والصَّاحبُ والجار، وكلُّ مجاهدٍ طالبٍ للثَّار، وكلُّ موحِّدٍ في الدِّيار، وحتَّى يُتعَرَّفَ بها على الحمار، الَّذي زلَّ في الطِّينِ وفي الحقِّ حار، فأخطأ المسار، وظنَّ أنَّ المسلمَ مع عدوِّهِ المُحَارِبِ يكونُ رحيمًا شَفُوقًا كالجار، وأنَّه يتعاملُ بلينٍ ومحبَّةٍ وإحسانٍ فَيَا لَلْعَار! وواللهِ لَحَقِيقٌ بمثلِ هؤلاءِ الأنذالِ السَّفلةِ الجُبَنَاءِ أن يكونوا أهلًا للنَّار، في دارِ الجزاءِ ودارِ الاختبار.

وإنَّ مِن أعظمِ النَّاسِ سيرةً في هذا المضمار: سيرةَ النبيِّ المختار -عليه الصلاة والسلام-؛ فقد علَّم صحابتَهُ الشِّدَّةَ والغلظةَ والإثخانَ في الكفَّارِ وأهلِ العدوان، وهو الضَّحوكُ القتَّالُ، وحالُهُ:

ألم تعلموا أنِّي ضَحُوكٌ إليكُمْ *** وعندَ شديداتِ الأمورِ شديدُ؟!

فمِنْ صُوَرٍ وأخبارِ الشِّدَّةِ والغلظةِ والإثخانِ عندَ النبيِّ العدنان -عليه الصلاة والسلام-؛ ما رواهُ أبو هريرةَ الدَّوسيُّ قال: "بعثَنَا رسولُ اللهِ ﷺ في سريَّةٍ وقال: (إنْ ظَفِرتُمْ بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ فَحَرِّقُوهُمَا بالنَّارِ)، حتَّى إذا كانَ الغدُ بعثَ إلينا: (إنِّي قَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ بِتَحْرِيقِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ ظَفِرْتُمْ بِهِمَا فَاقْتُلُوهُمَا)"[١].

---

[١] رواه ابن أبي شيبة والدارمي، ورواه بنحوه البخاري.

وقالَ عنْ نفسِه: (إنَّمَا بُعثْتُ بِضَرْبِ الرِّقَابِ وَشَدِّ الْوَثَاقِ)[١]، وعنِ ابنِ عمرَ أنَّ النبيَّ ﷺ قطع نخلَ بني النَّضيرِ وحرّق، وعنْ أسامةَ قال: "بَعَثَني رسولُ اللهِ ﷺ إلى أرضٍ يُقَالُ لها: "أُبْنَى"، فقال: (ائْتِهَا صَبَاحًا ثُمَّ حَرِّقْ)"[٢]، وروى البخاريُّ عنْ جبيرِ بنِ مطعمٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ في أسارى بدرٍ: (لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ)، وقالَ النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- لابنِ صيَّادٍ: (اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ)[٣]، وعنِ ابنِ عبَّاسٍ قالَ: "فادى النبيُّ ﷺ أسارى بدرٍ، وكانَ فداءُ كلِّ واحدٍ أربعةَ آلاف، وقتل عقبة بن أبي مُعَيطٍ قبلَ الفداء، قامَ إليهِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقَتَلَهُ صبرًا، فقال: مَنْ للصِّبيةِ يا محمَّدُ؟ قال: (النَّارُ)"[٤]، وفي فتحِ مكَّةَ أمرَ بقتلِ هلالِ بنِ الأَخْطَلِ وعبدِ اللهِ بنْ أبي سَرحٍ وآخرينَ وقالَ: (اقْتُلُوهُمْ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ)[٥].

ومشى أُبَيُّ بنُ خلفٍ إلى رسولِ الله ﷺ بعظمٍ بالٍ قَدْ أَرْفَت، فقال: يا محمَّدُ، أنتَ تزعمُ أنْ يبعثَ هذا بعدما أَرِمَ؟! ثمَّ فتَّهُ بيدِه، ثمَّ نفخَهُ في الرِّيحِ نحوَ رسولِ الله ﷺ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: (نَعَمْ أنَا أقُولُ ذَلِكَ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ وإِيَّاكَ بَعْدَمَا تَكُونَانِ هَكَذَا، ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ)[٦].

وقالَ ابنُ إسحاقٍ: "إنَّ قريشًا اشتدَّ أمرُهُمْ للشَّقاءِ الَّذي أصابَهُمْ في عداوةِ رسولِ الله ﷺ ومَن أسلمَ معَهُ منهُمْ، فأغروا برسولِ الله ﷺ سفهاءَهُمْ، فكذَّبوهُ وآذوهُ ورموهُ بالشِّعرِ والسِّحرِ والكهانةِ والجنون، ورسولُ الله ﷺ مُظهِرٌ لأمرِ اللهِ لا يستخفي به، مُبَادٍ لهُمْ بما يكرهونَ مِنْ عيبِ دينِهِمْ واعتزالِ أوثانِهِمْ، وفراقِهِ إيَّاهُمْ على كفرِهِمْ".

يداهُ يدٌ تنهلُّ بالخيرِ والنَّدى *** وأخرى شديدٌ بالأعادي ضريرُهَا
ونَاراهُ نارٌ كلِّ مِدْفَعٍ *** وأخرى يصيبُ المجرمينَ سعيرُهَا

كلُّ هذا من شدَّتِهِ وغلظتِهِ وخشونتِهِ وعنفِهِ وشَزَنِه -عليه الصلاة والسلام-.

---

[١] رواه ابن أبي شيبة والطبري في تفسيره، (مرسل).
[٢] رواه أحمد، قال الأرنؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف صالح بن أبي الأخضر، وهو مع ضعفه يُعتبر به.
[٣] رواه البخاري.
[٤] رواه الطبراني في الأوسط والكبير، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح.
[٥] رواه أبو داود والنسائي والحاكم في المستدرك والدارقطني في سننه. صحح إسناده ابن القيم في زاد المعاد والذهبي في التلخيص.
[٦] رواه ابن إسحاق في السيرة.

وعنْ عـروةَ بنِ الزُّبيرِ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ قلتُ له: ما أكثرَ ما رأيتَ قريشًا أصابوا مِنْ رسولِ الله ﷺ فيما كانوا يُظْهِرُونَ مِن عداوتِهِ؟ قال: "حضرتُهُمْ وقدِ اجتمعَ أشرافُهُمْ يومًا في الحجر، فذكروا رسولَ الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثلما صبرنا عليه مِنْ أمرِ هذا الرَّجلِ قطُّ، سفَّه أحلامَنا، وشَتَمَ آباءنا، وعابَ دينَنا، وفرَّقَ جماعتَنا، وسبَّ آلهتَنا، لقد صَبَرْنَا منهُ على أمرٍ عظيمٍ -أو كما قالوا-؛ فبينما هُمْ كذلكَ إذْ طلعَ رسولُ الله ﷺ، فأقبلَ يمشي حتَّى استلمَ الرُّكن، ثمَّ مرَّ بهمْ طائفًا بالبيت، فلمَّا مرَّ بهم غَمَزُوهُ ببعضِ القول، قالَ: فعرفتُ ذلك في وجهِ رسولِ الله ﷺ، ثمَّ مضى فلمَّا مرَّ بِهِمُ الثَّانيةَ غَمَزُوهُ بمثلِهَا، فعرفتُ ذلك في وجهِه، ثمَّ مرَّ بِهِمُ الثَّالثةَ فغَمَزُوهُ بمثلِهَا، فوقفَ ثمَّ قال: (أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ)، قال: فأخذَ القومُ كلمتَهُ حتَّى مَا منهُمْ مِن رجلٍ إلَّا كأنَّما على رأسِهِ طائرٌ واقع، حتَّى أنَّ أشدَّهُمْ فيه وصاةً ليَرْفَأُهُ بأحسنِ مَا يجدُ مِنَ القول، حتَّى إنَّهُ لَيَقُولُ: انصرفْ يا أبا القاسم؛ فواللهِ مَا كنتَ جَهُولًا.

فانصرفَ رسولُ الله ﷺ حتَّى إذا كانَ مِنَ الغدِ اجتمعوا في الحجرِ وأنا معهُمْ، فقال بعضُهُمْ لبعضٍ: ذكرتُمْ مَا بلغَ منكُمْ وما بلغكُمْ عنه، حتَّى إذا باداًكُمْ بمَا تكرهونَ تركتُمُوهُ! فبينما هُمْ في ذلكَ طَلَعَ عليهِمْ رسولُ الله ﷺ فوَثَبُوا إليه وثبةَ رجلٍ واحد، وأَحَاطُوا بِهِ يقولونَ: أنتَ الَّذي تقولُ كَذَا وكَذَا -لِمَا كانَ يقولُ مِنْ عيبِ آلهتِهِمْ ودينِهِمْ-؟ فيقولُ رسولُ الله ﷺ: (نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ)"[1]، وحالُهُ:

وفي اللِّينِ ضعفٌ والشَّراسة هيبةٌ *** ومَن لم يُهَبْ يُحْمَلْ على مركبٍ وَعْرِ
وما بي على مَن لانَ لي في فَضَاضَةٍ *** ولكنَّني فظٌّ أبيٌّ على القَسْرِ

وكانَ مِن غلظتِهِ وشدَّتِهِ -عليه الصلاة والسلام- حتَّى على قتلى وأمواتِ المشركين المحاربينَ أنْ قالَ أنسٌ: تركَ رسولُ الله ﷺ قتلى بدرٍ ثلاثًا ثمَّ أتاهُمْ، قالَ أبو طلحة: فلمَّا كانَ ببدرٍ اليومَ الثَّالث؛ أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ براحلتِهِ فشُدَّ عليها رحلُها، ثمَّ مشى وتَبِعَهُ أصحابُه، وقالوا: ما نرى ينطلقُ إلَّا لبعضِ حاجتِه، حتَّى قامَ على شفا البئر، وفي بعضِ الرِّواياتِ عنْ أنسٍ: إذْ ذلكَ كانَ ليلًا، فجعلَ يناديهِمْ بأسمائِهِمْ وأسماءِ آبائِهِمْ: (يا أبا جهلِ بنَ هشام، يا أميَّةَ بنَ خَلَف، يا عتبةَ بنَ ربيعة، يا شيبةَ بنَ ربيعة؛

---

[1] رواه أحمدُ وابن حبَّان في صحيحه والبيهقي بإسناد حسنٍ صحيح.

أيسرُّكُمْ أنَّكُمْ أطعتُمُ اللهَ ورسولَهُ؟ هل وجدتُّمْ مَا وعد اللهُ ورسولُهُ حقًّا؛ فإنِّي قد وجدتُّ ما وعدني ربِّي حقًّا، بئسَ عشيرةُ النَّبيِّ كنتُمْ لنبيِّكُمْ؛ كذَّبتُمُوني وصدَّقني النَّاسُ، وأخرجتُمُوني وآواني النَّاسُ، وقاتلتُمُوني ونصرني النَّاسُ، فجزاكُمُ اللهُ عنِّي مِن عِصَابَةٍ شرًّا، خوَّنتُمُوني أمينًا، وكذَّبتُمُوني صادقًا)، فقالَ عمرُ: يا رسولَ الله، أتناديهِمْ بعدَ ثلاث؟! كيفَ تكلِّمُ أجسادًا لا أرواحَ فيها؟! وفي لفظٍ: كيفَ يسمعونَ، وأنَّى يجيبونَ وقد جَيَّفُوا؟! فقالَ: (ما أنتُمْ بأسمعَ لِمَا أقولُ منهُمْ، إنَّهُمُ الآنَ يسمعونَ ما أقولُ لهُمْ، غيرَ أنَّهُمْ لا يستطيعونَ أن يردُّوا علينا شيئًا)، وفي هذا قالَ حسَّانٌ شعرًا:

وَخَبَّرَ بِالَّذي لا عَيبَ فيهِ *** بِصِدقٍ غَيرِ إِخبارِ الكَذُوبِ
بِما صَنَعَ المَليكُ غَداةَ بَدرٍ *** بَدَتْ أَركانُهُ جُنْحَ الغُروبِ
فَلاقَيناهُمُ مِنَّا بِجَمعٍ *** كَأُسدِ الغابِ مُرْدَانٍ وَشِيبِ
أَمامَ مُحَمَّدٍ قَد وازَرُوهُ *** عَلى الأَعداءِ في لَفْحِ الحُروبِ
بِأَيديهِمْ صَوَارِمُ مُرهَفَاتٌ *** وَكُلُّ مُجَرَّبٍ خاظي الكُعوبِ
بَنُو الأَوسِ الغَطَارِفِ وازَرَتْهَا *** بَنُو النَجَّارِ في الدِّينِ الصَّليبِ
فَغادَرْنَا أَبا جَهلٍ صَرِيعًا *** وَعُتبَةَ قَد تَرَكْنَا بِالجَبُوبِ
وَشَيبَةَ قَد تَرَكْنَا في رِجالٍ *** ذَوي حَسَبٍ إِذا نُسِبُوا حَسِيبِ
يُناديهِمْ رَسولُ اللهِ لَمَّا *** قَذَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ في القَلِيبِ
أَلَم تَجِدُوا كلامي كانَ حَقًّا *** وَأَمرُ اللهِ يَأخُذُ بِالقُلوبِ
فَما نَطَقُوا وَلَو نَطَقُوا لَقَالُوا *** صَدَقْتَ وَكُنْتَ ذا رَأيٍ مُصِيبِ[١]

ومِنْ إثخانِهِ -عليه الصلاة والسلام- في عدوِّهِ؛ مَا جرى منهُ يومَ قريظةَ سنةَ خمسٍ للهجرة، قالَ ابنُ إسحاق: ولـمَّا أصبحَ رسولُ الله ﷺ انصرفَ عنِ الخندقِ راجعًا إلى المدينةِ والمسلمون، ووضعوا السِّلاح، وأتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ فقال: "أَوَقَدْ وضعتَ السِّلاحَ يا رسولَ الله؟!" قال: (نعم)، فقال جبريلُ: "فما وَضَعَتِ الملائكةُ السِّلاحَ بعدُ، وما رجعتَ الآنَ إلَّا من طلبِ القوم، إنَّ الله -عز وجل- يأمرُك -يا محمد- بالمسيرِ إلى بني قريظة؛ فإنِّي عامدٌ إليهم، فمُزَلْزِلٌ فيهِمْ". فأمرَ رسولُ الله ﷺ مؤذِّنًا فأذَّنَ في النَّاس: "مَنْ كانَ سامعًا مطيعًا؛ فلا يُصَلِّيَنَّ العصرَ إلَّا ببني قريظة".

إذا المرءُ لم تَغضَبْ لَهُ حينَ يَغضَبُ *** فوارسُ إنْ قيل: اركَبُوا الموتَ يَرْكَبُوا

---
[١] هذه رواية مركبة من عدة روايات، رواه مسلم والبخاري وأحمد وابن إسحاق في السيرة.

ولمْ يُجِبْهُ بالنَّصرِ قومٌ أعزَّةٌ *** مقاحيمُ في الأمرِ الَّذي يُتهيَّبُ
تَهَضَّمَهُ أدنى العدوِّ ولَمْ يزلْ *** وإنْ كانَ عضًّا بالظلامةِ يُضْرَبُ

فسار عليُّ بنُ أبي طالبٍ حتَّى إذا دنا مِن الحصونِ سمع منها مقالةً قبيحةً لرسولِ الله ﷺ فرجع حتَّى لقي رسولَ الله ﷺ بالطَّريق، فقال: "يا رسولَ الله، لا عليكَ أنْ تَدْنُوَ مِن هؤلاءِ الأَخَابث"، قال: (لِمَ؟ أَظُنُّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَذًى؟)، قال: "نعمْ يا رسولَ الله"، قالَ: (لو رأوني لم يقولوا مِنْ ذلكَ شيئًا)، فلمَّا دنا رسولُ اللهِ ﷺ مِن حصونِهِمْ؛ قال: (يَا إِخْوَانَ الْقِرَدَةِ، هَلْ أَخْزَاكُمُ اللَّهُ وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ؟!)، قالوا: يا أبا القاسمِ، مَا كنتَ جَهُولًا[١].

وحاصرهُمْ رسولُ الله ﷺ خمسًا وعشرينَ ليلة، حتَّى جهدهُمُ الحصارُ وقذفَ اللهُ في قلوبِهِمُ الرُّعب، وحالُهُ:

ففيمَ تسومُ مثلي أن يُضَامَا *** ويجعل في يديك النَّفسَ قسرا
نصحتُكَ فالتمسْ -يا ليثُ- غيري *** طعامًا إنَّ لحمي كانَ مُرًّا

ثمَّ إنَّهُمْ بعثوا إلى رسولِ الله ﷺ أنِ ابْعَثْ إلينا أبا لبابةَ أخا بني عمرِو بنِ عوف، وكانَ مِن حلفاءِ الأوس؛ لنستشيرَهُ في أمرِنا، فأرسلَهُ رسولُ الله ﷺ إليهِمْ، فلمَّا رأوهُ قامَ إليه الرِّجالُ، وجهشَ إليهِ النِّساءُ والصِّبيانُ يبكونَ في وجهه، فرقَّ لهُمْ، وقالوا له: يا أبا لبابةَ، أترى أن ننزلَ على حكمِ محمَّدٍ؟ قال: "نَعَمْ"، وأشارَ بيدِهِ إلى حلقِهِ أنَّهُ الذَّبحُ، فلمَّا أصبحوا نزلوا على حكمِ رسولِ الله ﷺ، فتواثبَ الأوسُ، فقالوا: "يا رسولَ الله، إنَّهُمْ موالينا دونَ الخزرج، وقدْ فعلتَ في موالي إخوانِنَا بالأمسِ مَا قد علمتَ"، وكانَ رسولُ الله ﷺ قَبْلَ بني قريظةَ قد حاصرَ بني قَيْنُقَاع، وكانوا حلفاءَ الخزرج، فنزلوا على حكمِه، فسألَهُ إيَّاهُمْ عبدُ اللهِ بنُ أبيّ بنِ سلول، فوهبهُمْ له، فلمَّا كلَّمتْهُ الأوسُ؛ قالَ رسولُ الله ﷺ: (أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟) قالوا: "بلى"، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ).

وكانَ رسولُ اللهِ قد جعلَ سعدَ بنَ معاذٍ في خيمةٍ لامرأةٍ مِنْ أَسْلَمَ يُقالُ لها: "رُفَيْدَة" في مسجدِه، كانتْ تداوي الجرحى، وتحتسبُ بنفسِها على خدمةِ مَن كانتْ به

[١] رواه ابن إسحاق في السيرة والطبري في تفسيره وتاريخه.

ضيعةٌ من المسلمين، وكانَ رسولُ الله ﷺ قد قالَ لقومِهِ حينَ أصابَهُ السَّهمُ بالخندق: (اجْعَلُوهُ في خيمةِ رُفَيدةَ حتى أعُودَه مِن قَرِيبٍ)، فلما حكَّمَهُ رسولُ الله ﷺ في بني قريظةَ أتاهُ قومُه، فحملُوهُ على حمارٍ قد وطَّأوا لَهُ بوسادةٍ مِن أدم، وكانَ رجلًا جسيمًا جميلًا، ثمَّ أقبلوا معه إلى رسولِ الله ﷺ وهُمْ يقولونَ: "يا أبا عمرو، أحسنْ في مواليك؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ إنَّما ولَّاكَ ذلكَ لتُحْسِنَ فيهِمْ"، فلمَّا أكثروا عليهِ قالَ: "لقد آن لسعدٍ ألَّا تأخذَهُ في اللهِ لومةُ لائم"، فرجعَ بعضُ مَن كان معهُ مِن قومِهِ إلى دارِ ابنِ عبدِ الأشهل، فنعى لهُمْ رجالَ بني قريظةَ قبلَ أن يصلَ إليهِمْ سعدٌ؛ عنْ كلمتِهِ الَّتي سمعَ منه، فلمَّا انتهى سعدٌ إلى رسولِ الله ﷺ والمسلمين؛ قالَ رسولُ الله: (قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ)، فأمَّا المهاجرونَ مِن قريشٍ؛ فيقولونَ: "إنَّما أرادَ النبيُّ الأنصار"، وأمَّا الأنصارُ؛ فيقولونَ: "قد عمَّ بها رسولُ الله ﷺ"، فقاموا إليهِ فقالوا: "يا أبا عمرو، إنَّ رسولَ الله ﷺ قد ولَّاك أمرَ مواليكَ لتَحْكُمَ فيهم"، فقالَ سعدُ بنُ معاذ: "عليكُمْ بذلكَ عهدُ اللهِ وميثاقُهُ أنَّ الحكمَ فيهِمْ لَمَا حَكَمْتُ؟" قالوا: "نَعَمْ، وعلى مَن ها هنا"، في النَّاحيةِ الَّتي فيها رسولُ الله ﷺ وهو معرضٌ عن رسولِ الله ﷺ؛ إجلالًا له، فقالَ رسولُ الله: (نعمْ)، قالَ سعدٌ: "فإنِّي أحكمُ فيهِمْ أن تُقتَلَ الرِّجالُ، وتُقَسَّمَ الأموالُ، وتسبى الذَّراري والنِّساء"، فقالَ رسولُ الله ﷺ لسعدٍ: (لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ[1])[2].

قالَ ابنُ إسحاق: "ثمَّ استُنْزِلُوا، فحبسهُمْ رسولُ الله ﷺ بالمدينةِ في دارِ بنتِ الحارثِ "امرأةٍ مِن بني النَّجَّار"، ثمَّ خرجَ رسولُ اللهِ إلى سوقِ المدينةِ الَّتي هي سوقُها اليوم، فخَنْدَقَ بها خنادقَ، ثمَّ بعثَ إليهِمْ فضربوا أعناقَهُمْ في تلكَ الخنادق، يُخرَجُ بهِمْ إليهِ أرسالًا".

قالَ ابنُ إسحاق: "فخندقوا لهُمْ خنادق، فضُرِبَتْ أعناقُهم، فجرى الدَّمُ في الخنادق، وقسَّمَ أموالَهُمْ ونساءهُمْ وأبناءهُمْ على المسلمين، وأَسْهَمَ للخيل، ويؤتى بشيخٍ كبيرٍ يقولُ: إنِّي أسألُكَ -يا ثابتُ- بيدي عندَكَ ألَّا ألحقتَني بالقوم؛ فواللهِ مَا في

---

[1] سبع أَرْقِعَةٍ: يعني سبع سماوات، وكل سماء يقال لها رَقِيعٌ، والجمع: أَرْقِعَةٌ. انظر النهاية (٢/ ٢٢٨).

[2] رواه ابن إسحاق في السيرة والطبري في تفسيره وتاريخه.

العيشِ خيرٌ بعدَ هؤلاءِ، حتَّى ألقى الأحبَّة، فقدَّمَهُ ثابتٌ فضربَ عنقَهُ، فلمَّا بلغ أبا بكرٍ الصِّدّيقَ قولُه: ألقى الأحبَّة؛ قال: «يلقاهُمْ في نارِ جهنَّمَ خالدًا مخلَّدًا فيها»".

وعنْ عطيَّةَ القرظيِّ قال: "كانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد أمر أن يُقتَلَ مِن بني قريظةَ كلُّ مَن أنبتَ منهُمْ، وكنتُ غلامًا، فوجدوني لم أنبت، فخلَّوا سبيلي".

فهكذا كانَ حالُهُ ودعوتُهُ مع عدوِّهِ ومَن حاربَهُ واعتدى عليه، حتَّى تأدَّبوا وكفُّوا شرَّهُمْ وردَّ مكرُهُم، ودُفِعَت عاديتُهُمْ إلى نحورِهِمْ.

دعا المصطفى دهرًا بمكَّةَ لم يُجَبْ *** وقد لانَ منهُ جَانِبٌ وخِطَابُ
فلمَّا دعا والسَّيفُ صَلْتٌ بكفِّهِ *** لَهُ أسلموا واستسلموا وأنابُوا

فهذهِ نبذةٌ مِن سيرتِه -عليه الصلاة والسلام- مع عدوِّه؛ غلظةٌ وشدَّةٌ، قسوةٌ وإرهابٌ، خشونةٌ وعنفٌ، قتلٌ وإثخانٌ، كانَ فيها مِن العبرةِ مَا نُعِشَ منها العليلُ، وشُحِذَ الكليلُ، وبُعِثَ الوَسْنَانُ، وأُوقِظَ الهاجعُ.

فيا أيُّها المستخبري مَا سألتَني *** بأيَّامِنا في الحربِ ألَا لِتَعْلَمَا
فما يستطيعُ النَّاسُ عقدًا نشدُّهُ *** وننقضُهُ منهُمْ وإنْ كانَ مُبْرَما
وإنَّا لنشفي صورةَ التَّيسِ مثلَهُ *** ونضربُهُ حتَّى نبلَّ استَهُ دَما
لنا العزَّةُ القَعْسَاءُ نَخْتَطِمُ العِدَا *** بِهَا ثمَّ نستعصي بها أنْ نُخَطَّمَا
فأبقتْ لنا آباؤنا مِنْ تُراثِهِمْ *** دعائمَ مجدٍ كانَ في النَّاسِ مَعْلَما
بني مَن بنى منهُمْ بناءً فمكَّنوا *** مكانًا لنا منهُ رفيعًا وسُلَّما
وكنَّا نُجُومًا كلَّما انقضَّ كوكبٌ *** بدا زاهرٌ منهنَّ ليسَ بأَقْتَمَا
بدا زاهرٌ منهنَّ تأوي نجومُهُ *** إليهِ إذا مُسْتَأسِدُ الشَّرِّ أظلمَا

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [سورة الصافات].

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة الحادية عشرة



الحلقة الحادية عشرة: بالشِّدَّةِ والغلظةِ والإثخان؛ يُدفَعُ مِن أممِ الكفرِ البغيُ والعدوان ٢

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعينِ الموحِّدين، ومبيدِ الطُّغاةِ والمارقين، وناصرِ المستضعفينَ على مَن سلكَ سبيلَ المجرمين، الَّذي جعلَ العاقبةَ لهُمْ ليكونوا هُمُ الوارثين، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، إلهُ الأوَّلينَ والآخرين، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، مَن جاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ حتَّى أتاهُ اليقين، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ناشري لواءِ الدِّين، وعلى مَن تبعهُمْ واقتفى آثارَهُمْ في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكُمُ اللهُ وأحياكُمْ، وجعلَ الجنَّةَ مأوانا ومأواكُمْ، وقوَّى تقواكُمْ، وأحسنَ أعمالَكُمْ، وأعاننا على مَن عادانا وعاداكُمْ، وذُخْرًا للخلافةِ أعدَّكُمْ، ترفعونَ راياتِهَا، وتذودونَ عنْ حياضِهَا، تحاربونَ عدوَّها، وتنصُرُونَ جنودَها، ترُصُّونَ صفوفَها، وتُضَمِّدُونَ جروحَهَا، وتشيِّدونَ صروحَها، وعلى منهاجِ الخلافةِ تحملونَهَا.

ما زلنا معكُمْ -معاشر المسلمين- نبيِّنُ ونوضِّح، ونقوِّمُ ونصحِّح، ونشرحُ ونصرِّح، وعنِ النُّفوسِ بالحقِّ نروِّح، فإنْ وافقتْ كُلَيْمَتِي هذهِ قبولًا فالحمدُ لله، وإنْ وافقتْ ردًّا فمن نفسي والشَّيطان، وأستغفرُ الرَّحمن، راجيًا مِن اللهِ أنْ تنالَ هذهِ الكلماتُ القبولَ والإعجاب، وأن ينتفعَ منها صاحبُهَا والأهلُ والأصحابُ، وأن تكونَ لنا زادًا على الطَّريقِ ومنارًا للسَّبيل، وحجَّةً لنا لا علينا يومَ اللِّقاء.

إنْ تَجِدْ عيبًا فسُدَّ الخللا *** جلَّ مَن لا عيبَ فيهِ وعلا

معاشرَ المسلمين، إنَّ سِيَرَ الرَّاشدينَ والأئمَّةِ المهتدينَ والنَّاصحينَ لهذا الدِّين؛ تحيي القلوبَ وتوقظُ النُّفوس، وتبعثُ البِشْرَ والرَّاحةَ للسَّالكين؛ حتَّى لا تزيغَ أقدامُهُمْ عنِ الطَّريقِ الصَّحيح، وحتَّى يكونوا على حالِ مَن نصرهُمُ اللهُ وأظهر دولتَهُمْ، فيصنع اللهُ للآخرين ما صنعَ للأوَّلين؛ فسنَّةُ الله لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، ولكنْ مَا في نفوسِ الخليقةِ هو الذي يتغيَّرُ ويتبدَّلُ، نسألُ اللهَ السَّلامةَ والثَّبات.

ولقد طلبَ السَّلفُ الصَّالحُ التَّشبُّهَ بحالِ وسيرِ وعملِ مَن سبقهُمْ بالخيرِ والإيمان، وكانوا لا يودُّونَ أن يغيِّروا أو يبدِّلوا ممَّا كانَ عليه سلفُهُمْ؛ فقد روى عكرمةُ بنُ خالدٍ وغيرُهُ أنَّ حفصةَ وعبدَ اللهِ وغيرَهُمَا كلَّموا عمرَ، فقالوا له: "لو أكلتَ طعامًا طيِّبًا كانَ أقوى لكَ على الحقِّ"، قال: "أَكُلُّكُمْ على هذا الرَّأي؟"، قالوا: "نعم"، قال: "قد علمتُ نصحَكُمْ، ولكنِّي تركتُ صاحبيَّ على جادَّة، فإنْ تركتُ جادَّتَهُمَا لم أدركْهُمَا في المنزل".

فلا إله إلَّا الله! لزم غرزَ صاحبيه، واقتفى آثارَهُمَا، وتشبَّه بهما حتَّى في المباحات، ومَا يستعينُ به على الطَّاعات؛ لذا حازوا السَّبقَ وكانتْ لهُمْ أعالي المقاماتِ والدَّرجات، نسألُ اللهَ أن يُلْحِقَنَا بِهِمْ ويجمعَنَا بِهِمْ.

ولذا فسوفَ نُوردُ -بحول الله- جملةً مِنْ سِيَرِ الصَّحابةِ -رضوان الله عليهم- في هذا الأمر؛ طلبًا للمزيدِ وعملًا بالتَّأكيد، وإنَّنَا -معاشرَ المسلمين- في ظلِّ تداعي الأممِ وتكالُبِهَا وتحزُّبِهَا على أمَّةِ الإسلام؛ فإنَّ مِنَ الوسائلِ العِظَامِ واللَّوازمِ الجِسَامِ الَّتي ينبغي على أهلِ الجهادِ والشَّوكة، وأهلِ البأسِ والسِّلاح أن يَعمَلُوا على دفعِ عدوِّهِمْ بها، وأن يستعملوها ويستعينوا بها في قتالِهِمْ بأقصى الدَّرجات؛ هو الانتصارَ والقوَّة، والغلظةَ والشِّدَّة، والعنفَ والقسوة، والإرهابَ والتَّشريد، والإثخانَ والتَّخشين؛ حتَّى ترتدعَ أممُ الكفرِ وتخافَ، وحتَّى تَرهَبَ أهلَ الإسلامِ ويُحسَبَ لهُمُ الحساب، ويكونوا مهابي الجَنَاب.

لذا أيُّها المسلمُ الموحِّد؛ إنَّ هذا الأصلَ -ألا وهُوَ البغضُ والعداوة، والغلظةُ والشِّدَّة، والتَّشريدُ والإثخانُ، في أهلِ الحربِ والكفران- أصلٌ ولازمٌ مِن لوازمِ الولاءِ والبراء، والموالاةِ والمعاداة، الَّتي لا قيامَ لدينِ المرءِ إلَّا بها، وهو علامةُ صحَّةِ الإيمانِ وصلابتِهِ وقوَّتِهِ وكمالِه.

ولقد أمرك ربُّك -أيُّها المسلم- بعداوةِ الكفَّارِ وبغضِهِم، فقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا

قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)} [سورة الممتحنة].

وقالَ لك معلِّمًا ومبشِّرًا ومُحذِّرًا أنْ لا تتركَ ذلكَ لكونِ الكافرِ المُحارِبِ قريبًا لك، فقال: {لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ} [سورة المجادلة: ٢٢].

وأمرك قبلَ قتالِ الكفَّارِ بإعدادِ المُستطَاعِ لإرهابِ العدوِّ وإخافتِهِ وكسرِ شوكتِه، فقال: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [سورة الأنفال: ٦٠].

وأمركَ بقتلِ الكفَّارِ وإشهارِ السَّيفِ على رقابِهِمْ حتَّى يُسْلِمُوا مع التَّربُّصِ لهُمْ والكمنِ والكيدِ والتَّضييقِ عليهِمْ فقال: {فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)} [سورة التوبة].

وبيَّن سبحانه مصلحةَ القتالِ وعظيمَ فوائدِه؛ فمنها خزيُ الكفرِ وذلُّهُ وغنيمةُ مالِهِمْ وردُّ عاديتِهِم، وشفاءُ الصَّدْرِ بإدراكِ الثَّأرِ؛ فقال: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} [سورة التوبة: ١٤-١٥].

وأمركَ بالغلظةِ والشِّدَّةِ بصفةٍ لازمةٍ في القتالِ وعلى كلِّ حال؛ فبقولِه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [سورة التوبة: ١٢٣]، وبقولِه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [سورة التوبة: ٧٣]، وبقولِه: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح: ٢٩].

ثمَّ أمركَ بعدَ القتالِ المُصَاحَبِ بالغلظةِ والشِّدَّة بالمبالغةِ والإكثارِ مِنَ القتلِ؛ فقالَ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [سورة الأنفال: ٦٧]، وقولُه: {حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [سورة محمد: ٤].

وأمركَ متى مَا لقيتَ عدوَّك أنْ تَضْرِبَ منهُمُ الرِّقاب، وأنْ تنكِّلَ بهِمْ وتشتِّتَهُمْ، وتجعلَهُمْ عبرةً وعظةً لمن وراءهُمْ؛ وذلكَ كلُّهُ بقولِه: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [سورة محمد: ٤]، وبقولِه: {فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)} [سورة الأنفال].

وأمركَ عندَ اللِّقاءِ والقتالِ بملازمةِ أمرٍ لَهُ قرينٍ، ألا وهو الثَّباتُ وعدمُ الفرار؛ وذلك بقولِه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)} [سورة الأنفال]، وبقولِه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥)} [سورة الأنفال].

ثمَّ أمركَ وخصَّصَ لك سبحانه فئةً محدَّدة، هي أَوْلَى الفئاتِ بالقتلِ والإهلاك، وهُمْ مَن يطعنونَ في الدِّين، وصناديدُ الكفرِ وأئمَّتُهُ ورؤوسُه، فقال: {وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢)} [سورة التوبة].

وأمركَ في هذا كلِّهِ بأخذِ الحيطةِ والحَذَرِ والاحتراس، وأخذِ السِّلاحِ والاستعداد، فقال: {وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ} [سورة النساء: ١٠٢]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١)} [سورة النساء].

وبيَّن لكَ النَّتيجةَ بعدَ ذلك كلِّه، إنْ تخلَّيتَ عنْ هذا الأمرِ وتركتَهُ جملةً؛ فإنَّ الهلاكَ والذُّلَّ والعودةَ إلى الكفرِ أو القتلَ هو مصيرُك، فقال: {وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً} [سورة النساء: ١٠٢]، وبقولِه: {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً} [سورة التوبة:

٨]، وبقولـه: {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَـرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُـوكُمْ أَوْ يُعِيـدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُـوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)} [سورة التوبة].

لذا؛ فبعدَ كلِّ هذا أيُّها المسلمُ، ويا أيُّها الموحِّدُ، ويا أيُّها المجاهدُ، ويا أيُّها الجنديُّ والقائدُ؛ ينبغي عليكَ في عـدوِّك أن تكونَ قـد باغضـتَهُ وماقدتَّـهُ وعاديتَـهُ وناوأتَـهُ، ونبـذتَ مودَّتَـه، وأسـباب المودَّةِ قـدِ انحلَّـتْ عُرَاهَـا ورثَّتْ قُوَاهَـا، واندكَّتْ قواعـدُهَا، وتقوَّضتْ دعائمُهَا.

وحالُك معَهُ أنْ عِفْتَ صحبتَه، وكرهتَ خلطتَه، والحبُّ والقربُ قدْ جُذِمَ حبلُه، وقُطِعَتْ علائقُـه، وصُرِمَتْ أسـبابُه، وطَوَيْتَ عنـه كَشْحًا، ونـأيتَ عنـهُ جانبًـا، وولَّيتَـهُ صفحةَ إعراضِك، وكشـفتَ لَهُ قِنَاعَ المصارمة، وقَلَبتَ له ظهرَ المِجَن، ثمَّ ليسَ ذلك فحسبُ، بلِ الواجبُ عليك أن تكونَ معهُ غليظَ الطَّبعِ خَشِنَ المِرَاس، صَعْبَ العريكةِ شديدَ الشَّكيمة، صعبَ المَقَادَةِ قاسيَ القلب، غليظَ الكَبِدِ خَشِنَ الجناب، في منتهى الشَّراسـةِ والشَّكاسـةِ والشَّماس، والفَضَاضَـةِ والجفاءِ والخشـونةِ والغلاضـة، شـديدَ التَّصلُّب معهُ ثقيلَ الوطأةِ عليه، قلبُكَ معه لا يعرفُ اللِّين، ولا تَلِجُهُ رحمةٌ، ولا عهدَ لـه بالرِّقَّـة، قلبٌ جبَّـارٌ أقسى مِنَ الحديـدِ وأقسى مِن الصُّـوَّانِ وأصلبُ منَ الجلمـود، صدرُك يجيشُ عليه بالغلِّ، فتتربَّصُ به الدَّوائرَ وتبغيهِ الغوائل، أبديتَ لَهُ صفحتَك، وكشَّـرتَ لـه عنْ نابِكَ، فتكونُ عليه عدوًّا أزرقَ، وبينكُمَا عداوةٌ فاشـيةٌ وشرٌّ مستطيرٌ وحربٌ طويلة.

وهكـذا ينبغي أن يكونَ الحـال، وبـذا أمـر الـرَّبُّ المتعـالي، في بـراءةَ والأنفـالِ والفتحِ والقتـال، وعلى هـذا سـارَ نبيُّـه وصـالَ وجـال، وتَبِعَـهُ الصَّحابةُ والتَّـابعونَ مقتفينَ فحَسُنَتْ منهُمُ الأخبـارُ والأحـوال، وضـربوا لـذلك أحسـنَ مثـال، وكانوا نعمَ الرِّجـال، فتعَالَوا نأخذْ شيئًا وقبَسًا مِن تلكَ السِّـيرِ والأفعال؛ ليعلمَ النَّـاسُ أنَّ هـذا الأمـرَ حقٌّ ليسَ بمُحَال، كما يدَّعي مَنْ عَنِ الحقِّ مال، وعلى اللهِ الاتِّكال.

أمَّـا وزيـرُ نبيِّنَـا الأوَّلُ وخليفتُـهُ مِنْ بعـدِه، وصـاحبُهُ في الغـارِ والهجـرة، الصَّـدِيقُ الصِّدِّيقُ -رضي الله عنـه- أبـو بكـر بنُ أبي قحافـةَ، أحبُّ النَّـاسِ إلى رسـولِ الله، وأوَّلُ مَن آمنَ بـه مِنَ الرِّجـال، وأعلمُ قـريشٍ بأنسـابِهَا، وأكثرُ النَّـاسِ صحبةً وملازمـةً ونفعًـا

لنبيّنا -عليه الصلاة والسلام-؛ فكانَ الرَّجلُ عتيقًا، ملازمًا لنبيّنا كالشَّقيق، سُدَّتْ كلُّ خوخةٍ في المسجدِ غير خوخةِ أبي بكر، وكانَ ناصحًا أمينًا فاضلًا عَدْلًا كريمًا، ثبَّت اللهُ الدِّينَ به بعدَ موتِ صاحبه.

ففي سببِ نزولِ قولِهِ تعالى: {لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [سورة المجادلة: ٢٢]، قيل: نزلتْ في أبي عبيدةَ بنِ الجرَّاح؛ قَتَلَ أباهُ عبدَ اللهِ بنَ الجرَّاحِ يومَ أُحُد، وفي أبي بكر؛ دعا ابنَهُ يومَ بدرٍ إلى البراز، وفي مصعبِ بنِ عمير؛ قَتَلَ أخاهُ ابنَ عميرٍ يوم أحد.

وأمَّا في يومِ الحديبية؛ قامَ عروةُ بنُ مسعودٍ الثَّقفيُّ فقال: "أيْ قوم، ألستُمْ بالوالد؟"، قالوا: "بلى"، قال: "أولستُ بالولد؟"، قالوا: "بلى"، قال: "فهل تتَّهمونَنِي؟"، قالوا: "لا"، قال: "أولستُمْ تعلمونَ أنِّي استنفرتُ أهلَ عكاظٍ، فلمَّا بلَّحوا عليَّ جئتُكُمْ بأهلي ومَن أطاعني؟"، قالوا: "بلى"، قال: "إنَّ هذا -يعني النبيَّ ﷺ- قد عرضَ عليكُمْ خطَّةَ رُشْدٍ، فَاقْبَلُوهَا ودعوني آتِهِ"، فقالوا: "ائتِهِ"، فأتاهُ، قالَ: فجعلَ يكلِّمُ النبيَّ ﷺ، فقالَ عروةُ عندَ ذلك: "أيْ محمَّدُ، أرأيتَ إنِ استأصلتَ قومَك، هلْ سمعتَ بأحدٍ مِنَ العربِ اجتاحَ أصلَهُ قبلَك؟! وإنْ تكنِ الأخرى؛ فواللهِ إنِّي لأرى وجوهًا وأرى أوباشًا مِن النَّاسِ خليقًا أن يفرُّوا ويَدَعُوك".

فقالَ له الصِّدِّيقُ أبو بكر -رضي الله عنه-: "امصُصْ بظرَ اللَّات! أنحنُ نفرُّ عنهُ ونَدَعُه؟!" فقال: "مَن ذا؟" قالوا: "أبو بكر"، قالَ: "أما والَّذي نفسي بيده، لولا يدٌ كانتْ لكَ عندي لم أجزكَ بها لأجبتُكَ".

وجعلَ يكلِّمُ النبيَّ ﷺ، فكلَّما كلَّمهُ أخذَ بلحيتِه، والمغيرةُ بنُ شعبةَ قائمٌ على رأسِ النبيِّ ومعهُ السَّيفُ وعليه المغفر، وكلَّما أهوى عروةُ بيدِهِ إلى لحيةِ النبيِّ ﷺ ضربَ يدَهُ بنصلِ السَّيف، وقال: "أخِّرْ يدَك عنْ لحيةِ رسولِ الله ﷺ".

وأمَّا موقفُهُ وحالُهُ في أهلِ الرِّدَّة؛ فحدِّثْ عنِ البحرِ ولا حرج؛ فقد ثبتَ الإسلامُ على يديهِ بفضلِ الله، بعد أن كادتْ تزيغُ قلوبُ بعضِ الصَّحابةِ ويمتنعونَ مِن قتالِ أهلِ الرِّدَّة.

فعنْ طارقِ بنِ شهابٍ قال: "جاءَ وفدُ بزاخةَ أسدٍ وغطَفَانَ إلى أبي بكر -رضي الله عنه- يسألونَهُ الصُّلح، فخيَّرهُمْ أبو بكرٍ -رضي الله عنه- بينَ الحربِ المُجْلِيَةِ أو السِّلمِ المُخْزِيَة، فقالوا: "هذهِ الحربُ المجليةُ قد عَرَفْنَا، فما السِّلمُ المخزية؟"، قال أبو بكرٍ: "تؤدُّونَ الحلقةَ والكراع، وتُتْرَكُونَ أقوامًا تتَّبعُونَ أذنابَ الإبل، حتَّى يُرِيَ اللهُ خليفةَ نبيِّهِ والمسلمينَ أمرًا يعذرونَكُمْ به، وتَدُونَ قتلانا ولا نَدِي قتلاكُمْ، وتشهدونَ على قتلانا في الجنَّة وعلى قتلاكُمْ في النَّار، وتردُّونَ ما أصبتُمْ منَّا، ونغنمُ ما أصبنا منكُمْ"، ويَعرِضُ عليهِمُ الخطَّةَ المخزية، وحالُهُ:

فإنْ تَرْضَوا فقد رَضِينَا *** وإنْ تَأبَوا فأطرافُ الرِّماحِ
مقوَّمةٌ وبيضٌ مرهفاتٌ *** تترُّ جماجمًا وبنانَ راحِ
فسَلَّمُوا وأذعنوا وخَضَعُوا، وجَاءوا تائبين، وحالُهُ:

وقد علموا بأنَّ الحربَ ليستْ *** لأصحابِ المجامرِ والخلوقِ
ضربناكُمْ على الإسلامِ حتَّى *** أقمناكُمْ على وَضَحِ الطَّريقِ

وأمَّا ابنُ الخطَّابِ شهيدُ المحراب، أبو حفصٍ عمرُ؛ فمن آسادِ هذا الميدان، رجلٌ أعزَّ اللهُ به الإسلامَ، وأعزَّ اللهُ الإسلامَ به، فلَمْ يزلِ الإسلامُ في اختفاءٍ حتَّى أسلمَ عمرُ، كيفَ لا، وهو مِنْ شدَّتِهِ وقسوتِهِ وغلظتِهِ على أعداءِ الله، وصلابتِهِ في أمرِ الله؛ تَفْرَقُ منه الشَّياطينُ؟! والَّذي مَا لقيهُ شيطانٌ سالكًا فجًّا قطُّ إلَّا سلك فجًّا غيرَ فجِّهِ، محدَّثٌ مُلهَمٌ، وضعَ اللهُ الحقَّ على قلبِهِ ولسانِهِ، وهو أشدُّ النَّاسِ في دينِ الله، يقولُ الحقَّ وإنْ كانَ مُرًّا.

وهو مَن فتحَ اللهُ له الشَّامَ كلَّه، والجزيرةَ ومصرَ والعراقَ كلَّها، ودوَّنَ الدَّواوينَ قبلَ أنْ يموتَ بعامٍ، وقسَّمَ على النَّاسِ فيئَهُمْ، ولقد صَدَقَ أبو أسامةَ عندما قالَ: "أبو بكرٍ وعمرُ هما أَبَوَا الإسلامِ وأمُّه"، قَتَلَهُ عبدٌ للمغيرة، يُكنَّى أبا لؤلؤةَ وكانَ مجوسيًّا -عليه لعنة الله-، ومِن شدَّتِهِ وغلظتِهِ وخشونتِهِ على أعداءِ الله، ما ذاعَ وشاع، وملأ الأسماعَ والأصقاع.

ومنها: أنَّهُ لما تهيَّأ المشركونَ للانصرافِ يومَ أُحُد؛ وقفَ أبو سفيانَ فقال: أفي القومِ محمَّدٌ؟ أفي القومِ محمَّدٌ؟ أفي القومِ محمَّدٌ؟ ثلاثًا، فنهاهُمْ رسولُ الله أن يُجِيبُوهُ، ثمَّ

قالَ: أفي القومِ ابنُ أبي قحافة؟ أفي القومِ ابنُ أبي قحافة؟ أفي القومِ ابنُ الخطَّاب؟ أفي القومِ ابنُ الخطَّاب؟، ثمَّ أقبلَ على أصحابِهِ فقالَ: أما هؤلاءِ فقد قُتِلُوا، وقَدْ كُفِيتُمُوهُمْ، فما ملكَ عمرُ نفسَهُ أنْ قالَ: "كذبتَ -واللهِ- يا عدوَّ الله؛ إنَّ الذين عددتَّ لأحياءٌ كلُّهُمْ، وقد بقي لكَ مَا يسوؤك".

فقالَ: يومٌ بيومِ بدر، والحربُ سِجَالٌ، إنَّكُمْ ستجدونَ في القومِ مُثْلَةً لم آمرْ بِهَا ولم تَسُؤنِي، ثمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: اعلُ هُبَلُ، اعلُ هُبَلُ، فقالَ رسولُ الله: (أَلَا تجيبُوهُ؟) قالوا: يا رسولَ الله، وما نقولُ؟ قالَ: (قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ)، قالَ: إنَّ العُزَّى لنا ولا عزَّى لكُمْ، فقالَ رسولُ الله: (ألا تجيبُوهُ؟)، قالوا: يا رسولَ الله، وما نقولُ؟ قال: (قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ)، فأجابَ عمرُ وقالَ: "لا سواء، قتلانا في الجنَّةِ وقتلاكُمْ في النَّار"[1].

ويومَ بدرٍ وفي أُسَارَى بدرٍ، بعدَ أنِ التقوا يومَ بدرٍ هزمَ اللهُ المشركين، فقُتِلَ منهُمْ سبعونَ رجلًا، وأُسِرَ منهُمْ سبعونَ رجلًا، ويستشيرُ رسولُ الله ﷺ أبا بكرٍ وعليًّا وعمرَ، فقالَ أبو بكر: "يا نبيَّ الله، هؤلاءِ بنو العمِّ والعشيرةِ والإخوان، فإنِّي أرى أن تأخذَ منهُمُ الفديةَ، فيكونَ ما أخذنا منهُمْ قوَّةً لنا على الكفَّار، وعسى أن يهديَهُمُ الله، فيكونوا لنا عضُدًا".

فقالَ رسولُ الله: (مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟)، فقلتُ: "واللهِ ما أرى مثلَ ما رأى أبو بكرٍ، ولكنِّي أرى أن تمكِّنَني مِنْ فلانٍ قريبٍ لعمر، فأضربَ عنقَه، وأرى أن تمكِّنَ عليًّا مِنْ عقيل، فيضربَ عنقَه، وتمكِّنَ حمزةَ مِنْ فلانٍ ابنِ أخيه، فيضربَ عنقَه؛ حتَّى يعلمَ اللهُ سبحانه أنَّه ليستْ في قلوبِنَا هوادةٌ للمشركين، هؤلاءِ صناديدُهُمْ وأئمتُهُمْ وقادتُهُمْ".

فهوى رسولُ الله ﷺ ما قالَ أبو بكرٍ ولم يهو ما قالَهُ عمرُ، فأخذَ منهُمُ الفداءَ، وقالَ النبيُّ -عليه الصلاة والسلام-: (أنتُمُ اليومَ عَالَةٌ، فلا يَفْتَلِتَنَّ أحدٌ إلَّا بفداءٍ أو ضربةِ عُنُقٍ)، فلمَّا كانَ من الغد قالَ عمرُ: "غدوتُ إلى النبيِّ ﷺ فإذا هو قاعدٌ وأبو

---

[1] رواه البخاري.

بكر، وإذا هُمَا يبكيانِ، قلتُ: يا رسولَ الله، أخبرْنِي مَا الَّذي يُبكِيكَ أنتَ وصاحبَكَ؟ فإنْ وجدتُّ بكاءً بكيتُ، وإنْ لم أجدْ بكاءً تباكيتُ لبكائكُمَا"، فقالَ النبيُّ ﷺ: (لِلَّذِي عَرَضَ عليَّ أصحابُكَ مِنْ أخذِهم الفداء، ولقد عرضَ عليَّ عذابُكُمْ أدنى مِن هذهِ الشَّجرة)، لشجرةٍ قريبةٍ، وأنزلَ اللهُ -عز وجل-: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [سورة الأنفال: ٦٧][1]، انتهى.

ومعنَى قولِهِ تعالى:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [سورة الأنفال: ٦٧] أي: حتَّى يُبالِغَ في قتلِ المشركين، ويقهرَهُمْ غلبةً وقَسْرًا، وحتَّى ينفيَهُمْ مِن الأرض، وحتَّى يظهرَ على الأرض، وحتَّى يقوى ويشتدَّ ويغلبَ ويبالغَ ويَقهَرَ.

قال الزَّجَّاج: "أي: يبالغُ في قتلِ أعدائه"، وقالَ الفراءُ: "حتَّى يَغلِبَ على كثيرٍ مِنَ الأرض"، وقالَ ابنُ الأعرابِيّ: "أَثْخَنَ: إذا غَلَبَ وقَهَر"، والمعنى: حتى يُذِلَّ الكفرَ ويُضْعِفَهُ بإشاعةِ القتلِ في أهله، ويُعَزَّ الإسلامُ ويقوى بالاستيلاءِ والقهر، ثمَّ بالأسرِ بعدَ ذلك.

والوجهُ فيه أنَّ الإثخانَ في الأرضِ ليس مضبوطًا بضابطٍ معلومٍ معيَّن، بلِ المقصودُ إكثارُ القتلِ بحيثُ يُوجِبُ وقوعَ الرُّعبِ في قلوبِ الكافرين، وأن لا يجترئوا على محاربةِ المسلمين، وبلوغُ القتلِ إلى هذا الحدِّ المعيَّنِ لا شكَّ أنَّه يكونُ مفوَّضًا إلى الاجتهادِ فيهِ وإلى الإمام، ثمَّ إنَّ كثيرًا مِن المفسِّرينَ قالوا: "المرادُ منه أن يُبَالِغَ في قتلِ أعدائِه، وقالوا: إنَّما حملنا اللَّفظَ عليه لأنَّ الملكَ والدَّولةَ لا تقوى وتشتدُّ إلَّا بالقتل"، قالَ الشَّاعرُ:

لا يَسْلَمُ الشَّرفُ الرَّفيعُ من الأذى *** حتَّى يُرَاقَ على جوانبِهِ الدَّمُ

ولأنَّ كثرةَ القتلِ توجبُ قوَّةَ الرُّعب وشدَّةَ المهابة، وذلكَ يمنعُ من الجرأةِ ومن الإقدامِ على مَا لا ينبغي؛ فلهذا السَّببِ أمرَ اللهُ تعالى بذلك.

قالَ صاحبُ الظِّلال: "{حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [سورة محمد: ٤]، والإثخانُ شدَّةُ التَّقتيلِ حتَّى تتحطَّمَ قوَّةُ العدوِّ وتتهاوى، فلا يعودَ به قدرةٌ على هجومٍ أو دفاع، وعندَ ذلك -لا قبلَه- يُؤسَرُ مَنِ استأسر، ويُشَدُّ وثاقُه، فأمَّا والعدوُّ ما زالَ

[1] رواه الترمذي ومسلم والطبري وأحمد.

قويًّا؛ فالإثخانُ والتَّقتيلُ يكونُ الهدفَ لتحطيمِ ذلكَ الخطر، فالإثخانُ أوَّلًا لتحطيمِ قوَّةِ العدوِّ وكسرِ شوكتِه، وبعد ذلكَ يكونُ الأسرُ، والحكمةُ ظاهرةٌ؛ لأنَّ إزالةَ القوَّةِ المعتديةِ المعاديةِ للإسلامِ هي الهدفُ الأوَّلُ من القتال، وبخاصَّةٍ حينَ كانتِ القوَّةُ العدديَّةُ للأمَّةِ المسلمةِ قليلةً محدودة، وكانتِ الكثرةُ للمشركين، وكانَ قتلُ محاربٍ يساوي شيئًا كبيرًا في ميزانِ القوى حينذاك، والحكمُ ما يزالُ ساريًا في عمومِهِ في كلِّ زمان، بالصُّورةِ الَّتي تَكفَلُ تحطيمَ قوَّةِ العدوِّ وتعجيزَهُ عنِ الهجومِ والدِّفاع"، انتهى.

ومِن مواقفِ وغلظةِ وشدَّةِ وقسوةِ عُمَرَ وخشونتِهِ على أعداءِ الله؛ أنَّه يومَ نقضِ قريشٍ لصلحِ الحديبية، وبعدَ أنْ أدركتْ قريشٌ مغبَّةَ غدرِهَا ونقضِهَا للعهد؛ أرسلتْ أبا سفيانَ إلى المدينةِ يؤكِّدُ العهدَ ويمدُّه، فخرجَ أبو سفيانَ حتَّى قدم على رسولِ الله ﷺ المدينة، فدخلَ على ابنتِهِ أمِّ حبيبة، فلمَّا ذهبَ ليجلسَ على فراشِ رسولِ الله ﷺ طَوَتْهُ عنه، فقالَ: يا بنيَّة، أرَغِبتِ بي عنْ هذا الفراشِ، أو رَغِبتِ بِهِ عنِّي؟ فقالتْ: "هو فراشُ رسولِ الله ﷺ وأنتَ مشركٌ نجسٌ، فلم أحبَّ أن تجلسَ على فراشِه"، فقالَ: يا بنيَّة، واللهِ لقد أصابكِ بعدي شرٌّ.

ثمَّ ذهبَ إلى أبي بكرٍ فكلَّمهُ أن يُكلِّمَ له رسولَ الله ﷺ فقالَ: "مَا أنا بفاعلٍ"، ثمَّ أتى عمرَ فكلَّمَهُ، فقالَ عمرُ: "أنا أشفعُ لكُمْ إلى رسولِ الله ﷺ؟! واللهِ لو لم أجدْ إلَّا الذَّرَّ لجاهدتُّكُمْ به!"، ويأتي عليًّا لذاتِ الأمر، فيجيبُهُ قائلًا: "ويحكَ أبا سفيان، واللهِ لقد عزمَ رسولُ الله ﷺ على أمرٍ ما نستطيعُ أن نكلِّمَهُ فيه".

وأمَّا عليُّ بنُ أبي طالب، الأسدُ الغالب، والشُّجاعُ الفارسُ، صاحبُ المواقفِ والوقائع، والَّذي كانَ إذا كانَ قتالٌ فهو على النَّاس حاملُ الرَّاية، رجلٌ يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه، فتحَ اللهُ على يديه، وهو مِن أخشنِ النَّاسِ في أمرِ الله، لا يحبُّه إلَّا مؤمنٌ، ولا يبغضُهُ إلَّا منافقٌ، فاز بالشَّهادةِ في سبيلِ الله، صاحبُ القلبِ العقولِ واللِّسانِ النَّطوق، وأقضى الصَّحابةِ وأزهدُ النَّاس، جعلَ اللهُ على يديه هلاكَ الخوارجِ وحَرْقَ الزَّنادقةِ والغاليةِ مِن شيعتِه؛ فقد بَطَشَ وفتك بِهِمْ، قتلَهُ ابنُ ملجمٍ -عليه لعنة الله-.

وكانَ عليٌّ يتمثَّلُ قولَ القائل:

اشدُدْ حيازيمَكَ للموتِ فإنَّ الموتَ لَاقِيكَ *** ولَا تَجزَعْ مِن القتلِ إذا حلَّ بِوَادِيكَ

فمِنْ شدَّتِهِ وغلظتِهِ وقسوتِهِ وإثخانِهِ مَا لَا يُعرَفُ مثلُه؛ فعنْ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عبيدٍ عنْ أبيهِ قالَ: كانَ أناسٌ يأخذونَ العطاءَ والرِّزق، ويصلُّونَ مع النَّاس، وكانوا يعبدونَ الأصنامَ في السِّر، فأتى بهِمْ عليٌّ -رضي الله عنه- فوضعهُمْ في المسجد، أو قالَ: في السِّجن، ثمَّ قال: "أيُّها النَّاسُ، ما ترونَ في قومٍ كانوا يأخذونَ معكُمُ العطاءَ والرِّزقَ ويعبدونَ هذهِ الأصنام؟"، قالَ النَّاسُ: اقتلْهُمْ، قالَ: "لا، ولكنْ أصنعُ بِهِمْ كما صَنَعُوا بأبينا إبراهيمَ"، فحرَّقهُمْ بالنَّار.

عنْ عيسى بنِ أبي عثمانَ، قالَ: جاءَ نَفَرٌ من الشِّيعةِ إلى عليٍّ، فقالوا: أنتَ هُوَ! قالَ: "ومن أنا؟"، قالوا: أنتَ هو! قالَ: "ويلكُمْ! مَن أنا؟"، قالوا: "أنتَ ربُّنا!"، قالَ: "ارْجِعُوا وتوبوا"، فأبوا، فضربَ أعناقَهُمْ، ثمَّ مدَّ لهُمْ في الأرضِ أخدودًا، فقال: "يا قنبر، ائتِنِي بحزمِ الحَطَب"، فأتاهُ بحزمِ الحَطَب، فأحرقَهُمْ بالنَّار، ثمَّ قال:

إنِّي لمَّا رأيتُ الأمرَ أمرًا منكَرًا *** أوقدتُّ ناري ودعوتُ قنبرًا

قال ابنُ حجرٍ: "وسندُهُ حسنٌ".

وأمَّا سيفُ اللهِ تعالى وفارسُ الإسلام، وليثُ المَشَاهِدِ السَّيِّدُ الإمام، والأميرُ الكبيرُ قائدُ المجاهدين، أبو سليمانَ القرشيُّ خالدُ بنُ الوليد، سيفٌ سلَّهُ اللهُ على المشركين، تأمَّر في أيَّامِ النبيِّ، واحتبسَ أَدْرُعَهُ ولأْمَتَهُ في سبيلِ الله، وحاربَ أهلَ الردَّة، ولم يبقَ في جسدِهِ قِيدَ شِبْرٍ إلَّا وعليهِ طابعُ الشُّهداء.

مناقبُهُ غزيرةٌ، أمَّرهُ الصِّدّيقُ على سائرِ الأمراءِ والأجناد، وقالَ الصِّدّيقُ: "عجزتِ النِّساءُ أن يَلِدْنَ مثلَ خالدِ بنِ الوليد"، ثمَّ جرتْ أمورٌ طويلةٌ لخالدٍ في أماكنَ متعدِّدةٍ يملُّ سماعُها، وهو مع ذلكَ لا يكلُّ ولا يملُّ، ولا يهِنُ ولا يَحزَنُ، بل كلُّ ما لَهُ في قوَّةٍ وصرامةٍ وشدَّةٍ وشهامةٍ، ومثلُ هذا إنَّما خلقَهُ اللهُ -عز وجل- عزًّا للإسلامِ وأهلِه، وذُلًّا للكفرِ وشتاتَ شملِه، عاشَ ستِّينَ سنةً، قتلَ جماعةً مِن الأبطال، ماتَ على فراشِهِ، فلا قرَّتْ أعينُ الجبناء! وكانَ ديدنُهُ:

إذا ما فرغنَا مِن ضرابِ كتيبةٍ *** سَمَونَا لأخرى مثلِهَا بضِرَابِ

وقد رُوِي عنْ سيفِ اللهِ المسلولِ أبي سليمانَ في أمرِ الشِّدَّةِ والغلظةِ والإثخانِ والقتلِ والتَّشريد؛ ما يَحسُنُ بنا ضمُّهُ في مُصنَّفٍ وجمعُهُ في مُؤلَّف؛ فهو كثيرٌ كثيرٌ، وليسَ له نظيرٌ، حتَّى أنَّ بعضَ الصَّحابةِ أنكر عليه شيئًا من ذلك، فاعتلى سدةَ الشَّرفِ في هذا الميدانِ أبو سليمان، حتَّى هابهُ وخافهُ الأبطالُ الشُّجعان، بل كانَ يأمرُ ويوصي بالشِّدَّة، ويحثُّ عليها.

وإذا نظرتَ إلى أسِرَّةِ وجهِهِ *** بَرَقَتْ كبرقِ العارضِ المتهلِّلِ
صعبُ الكريهةِ لا يُرامُ جنابُهُ *** ماضي العزيمةِ كالحسامِ المِقْصَلِي
يحمي الصِّحابَ إذا تكونُ عظيمةٌ *** وإذا هُمُ نزلوا فمأوى العُيَّلِ

قال قيسُ بنُ أبي حازمٍ في فتوحِ الشَّام: وكنَّا نظنُّ أنَّ الكثيرَ مِنَ المشركينَ والقليلَ عندَ خالدٍ سواءٌ؛ لأنَّه كانَ لا يملأ صدرَهُ منهُمْ شيءٌ، ولا يبالي بِمَنْ لاقى منهُمْ لجرأتِهِ عليهم، فلمَّا دَنَوا منَّا شَدُّوا علينا شدَّتَينِ فلَمْ نَبْرَحْ، ثمَّ إنَّ خالدًا نادى بصوتٍ له جَهْوَرِيٍّ شديدٍ عالٍ، فقالَ: "يا أهلَ الإسلام، الشِّدَّةَ الشِّدَّةَ، احْمِلُوا -رحمكم الله- عليهِمْ؛ فإنَّكُمْ إنْ قاتلتُمُوهُمْ محتسبينَ بذلكَ وجهَ الله؛ فليسَ لهُمْ أن يوافقوكُمْ ساعةً"، قال: فواللهِ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، ما ثَبَتُوا لنا فواقًا حتَّى انهزموا، فقتلنا منهُمْ في المعركةِ مقتلةً عظيمة، ثمَّ اتَّبعناهُمْ نَكْرُدُهُمْ -أي: نَطْرُدُهُمْ- ونصيبُ الطَّرفَ منهم، ونقطعُهُمْ عن أصحابهم ثمَّ نقتلُهُمْ، فلم نزلْ كذلكَ حتَّى انتهينا إلى مدينةِ بصرى.

إذا لقيتَ كتيبةً فتقدَّمَنْ *** إنَّ المُقدَّمَ لا يكونُ الأخيبَا
تلقى التَّحيَّةَ أو تموتُ بطعنةٍ *** والموتُ آتٍ مَن نأى وتجنَّبَا
نُباشرُ في الحربِ المنايا ولا تُرَى *** لمن لا يباشِرُهَا مِنَ الموتِ مهربَا
أخو غمراتٍ ما يَرُوعُ جَأشُهُ *** إذا الموتُ بالموتِ ارتدَى وتعصَّبَا

وقالَ خالدٌ يومَ اليرموك: "يا أهلَ الإسلام، لم يبقَ عندَ القومِ من الجَلَدِ والقتالِ إلَّا مَا رأيتُمْ، الشِّدَّةَ الشِّدَّةَ؛ فوالذي نفسي بيده، إنِّي لأرجو أن يمنحَكُمُ اللهُ أكتافَهُمْ"، وخرجَ نحوَ حمصٍ، فجمعَ له أهلَهَا جمعًا عظيمًا، ثمَّ استقبلوه، فلمَّا نظر

إليهِمْ خالـدٌ قـال: "يـا أهـلَ الإسـلام، الشِّـدَّةَ الشِّـدَّةَ"، ثمَّ حمـلَ عليهِمْ خالـدٌ، وحمـلَ المسلمونَ معه، فولَّوا منهزمينَ حتَّى دخلوا مدينتَهُمْ.

وقالَ رجلٌ مِن نصارى العربِ لخالدِ بنِ الوليد: ما أكثرَ الرُّوم وما أقلَّ المسلمين! فقالَ خالدٌ: "ويلك! أتخوِّفُني بالرُّوم؟! إنَّما تكثرُ الجنودُ بالنَّصر، وتقلُّ بالخذلانِ لا بعددِ الرِّجال، وواللهِ لوددتُّ أنَّهُمْ أضعفوا في العددا!".

ومِنْ عَجَبٍ تهديدُهُمْ بجموعِهِمْ *** وودَّ لوِ ازدادُوا ليزدادَ مَغْنَمَا

***

وهُمْ مئونَ ألوفًا وهو في نَفَرٍ *** شمِّ العرانينِ ضَرَّابينَ للبَهَم

وكتبَ خالدُ بنُ الوليدِ إلى أهلِ المدائن: "مِنْ خالدِ بنِ الوليدِ إلى أهلِ فارس؛ سلامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهُدَى؛ أمَّا بعد: فالحمدُ للهِ الَّذي فضَّ خدمتَكُمْ، وسلبَ ملكَكُمْ، ووهنَ كيدَكُمْ، وإنَّه مَن صلَّى صلاتَنا، واستقبلَ قبلتَنا، وأكلَ ذبيحتَنا؛ فذلكَ المسلمُ الَّذي له مَا لنا وعليهِ مَا علينا؛ أمَّا بعد: فإذا جاءكُمْ كتابي هذا، فابعثوا إليَّ بالرَّهن، واعتَقِدُوا منِّي الذِّمَّة، وإلَّا فوالَّذي لا إلهَ غيرُه، لأبعثَنَّ إليكُمْ قومًا يُحِبُّونَ الموتَ كما تُحِبُّونَ الحياة". فلمَّا قرأوا الكتابَ، أخذوا يتعجَّبُونَ، وذلك سنَةَ ١٢.

وكتبَ خالدٌ للفرسِ أيضًا: "بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم، مِن خالدِ بنِ الوليدِ إلى رستمَ في ملأ فارس؛ سلامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهُدَى؛ أمَّا بعد: فإنَّا ندعوكُمْ إلى الإسلام، فإنْ أبيتُمْ فأعطوا الجزيةَ عنْ يدٍ وأنتُمْ صاغرون، فإنْ أبيتُمْ فإنَّ معي قومًا يحبُّونَ القتلَ في سبيلِ الله، وإنَّ معي جندًا يحبُّونَ القتلَ كما تحبُّ فارس الخمرَ، والسَّلامُ على مَنِ اتَّبعَ الهُدَى"، وحاله:

إنْ أبى القومُ أن يسلموا أَنْصَفَتْ *** قواطعُ في أيمانِنا تقطُرُ الدِّما
نتركُهُمْ لا يستحلُّونَ بعدها *** لذي رَحِمٍ مِنْ سائرِ النَّاسِ محرما
وزعناهم وَزْعَ الحوامسِ غدوةً *** بكلِّ سريجيٍّ إذا هزَّ صَمَما

وقد ذكرَ الوليدُ بنُ مسلمٍ -كما عند ابنِ كثيرٍ في البدايةِ والنِّهايةِ وغيرِه- أنَّ ماهانَ قائدَ الرُّومِ طلبَ خالدًا ليبرزَ إليه فيما بينَ الصَّفَّين، فيجتمعا في مصلحةٍ لهُمْ، فقالَ ماهانُ: إنَّا قد علمنا أنَّما أخرجَكُمْ من بلادِكُمُ الجهدُ والجوعُ، فهلمُّوا إلى أنْ أعطيَ كلَّ

رجلٍ منكُمْ عشرةَ دنانيرَ وكسوةً وطعامًا، وترجعونَ إلى بلادِكُمْ، فإذا كانَ من العامِ المقبلِ بعثنا لكُمْ بمثلِهَا، فقالَ خالدٌ: "إنَّه لم يُخرجْنَا مِن بلادِنَا مَا ذكرتَ، غيرَ أنَّا قومٌ نشربُ الدِّماء، وأنَّه بَلَغَنَا أنَّه لا دمَ أطيبَ مِن دمِ الرُّومِ! فجئنا لذلك". فقالَ أصحابُ ماهانَ: هذا -واللهِ- ما كنَّا نتحدَّثُ به عنِ العربِ! وحالُهُ:

نسيرُ إلى الأعداءِ والطَّيرُ فوقَنا *** لها القوتُ من أعدائِنَا ولنا النَّصْرُ

قالَ الشَّعبيُّ: بارزَ خالدٌ يومَ الولجةِ رجلًا مِن الأعاجمِ يعدلُ بألفِ رجلٍ فقتله، ثمَّ اتَّكأ عليه، وأُتِيَ بغدائِهِ فأكلَهُ وهو متَّكئٌ عليه، يعني: بينَ الصَّفَّين!

ولمَّا كانتْ وقعةُ أُلَّيسَ في صَفَر، وكانَ خالدٌ قد قَتَلَ يومَ الولجةِ طائفةً مِن بكرِ بنِ وائلٍ مِن نصارى العربِ ممَّن كانَ مع الفُرْس؛ اجتمعَ عشائرُهُمْ -وأشدُّهُمْ حنقًا عبدُ الأسودِ العجليُّ، وكانَ قد قُتِلَ له ابنٌ بالأمس- فكاتبوا الأعاجمَ، فأرسلوا إليهِمْ جيشًا مددًا، فاجتمعوا بمكانٍ يُقَالُ له: "أُلَّيس"، فبينما هُمْ قد نصبوا لهم سِمَاطًا فيه طعامٌ يريدونَ أكلَه، إذْ غافلَهُمْ خالدٌ بجيشِه، فلمَّا رأوهُ أشارَ مَن أشارَ منهُم بأكلِ الطَّعامِ وعدمِ الاعتناءِ بخالد، وقالَ أميرُ كسرى واسمُهُ جابان: "بلْ ننهضُ إليه"، فلم يسمعوا منه، فلمَّا نزلَ خالدٌ تقدَّمَ بين يدي جيشِه، ونادى بأعلى صوتِهِ لشجعانٍ مِن هنالك مِنَ الأعراب: "أينَ فلانٌ؟ أينَ فلانٌ؟"، فكلُّهُمْ نكلوا عنه إلَّا رجلًا يقالُ له: "مالكُ بنُ قيسٍ" مِن بني جذرة؛ فإنَّه برز إليه، فقالَ له خالدٌ: "يا ابنَ الخبيثة، مَا جرَّأكَ عليَّ مِن بينِهِمْ وليسَ فيكَ وفاءٌ؟!"، فضربهُ فقتلهُ، ونفرتِ الأعاجمُ عن الطَّعام، وقاموا إلى السِّلاح، واقتتلوا قتالًا شديدًا جدًّا، والمشركونَ يرقبونَ قدومَ بَهْمَنَ مددًا مِن جهةِ المَلِكِ إليهم؛ فهُمْ في قوَّةٍ وشدَّةٍ وكَلَبٍ في القتال، وصبرَ المسلمونَ صبرًا بليغًا، وقال خالدٌ: "اللهمَّ لك عليَّ، إنْ منحتَنَا أكتافَهُمْ ألَّا أستبقيَ منهُمْ أحدًا أَقْدِرُ عليه، حتَّى أُجْرِيَ نهرَهُمْ بدمائِهِم".

ثمَّ إنَّ الله -عز وجل- منح المسلمينَ أكتافَهُمْ، فنادى منادي خالدٍ: "الأسرَ الأسرَ، لا تقتلوا إلَّا مَنِ امتنعَ مِنَ الأسر"، فأقبلتِ الخيولُ بهِمْ أفواجًا يُسَاقُونَ سوقًا، وقد وُكِّلَ بهِمْ رجالٌ يضربونَ أعناقَهُمْ في النَّهر، ففعلَ ذلك بهِمْ خالدٌ يومًا وليلةً، يطلبُهُمْ في الغدِ ومِن بعدِ الغد، وكلَّما حضرَ منهُمْ أحدٌ ضُرِبَتْ عنقُهُ في النَّهر، وقد صرفَ ماءَ

النَّهرِ إلى موضعٍ آخر، فقالَ له بعضُ الأمراء: "إنَّ النَّهرَ لن يجريَ بدمائهم؛ حتَّى ترسلَ الماءَ على الدَّمِ فيجريَ معه، فتبرَّ بيمينِك"، فأرسلَهُ فسالَ النَّهرُ دمًا عبيطًا؛ فلذلك سُمِّيَ "نهرَ الدَّم"، فدارتِ الطَّواحينُ بذلك الماءِ المختلطِ بالدَّم العبيطِ مَا كفى العسكرَ بكمالِهِ ثلاثةَ أيَّام، وبلغَ عددُ القتلى سبعينَ ألفًا! وحالُه:

قاتلتُهُمْ حتَّى تكفَّأ جمعُهُمْ *** والخيلُ في سُبُلِ الدِّماءِ تعومُ
ومعي أسودٌ مِن خِلَافَةَ في الوَغَى *** للبيض فوق رؤوسِهِمْ تسويمُ
قومٌ إذا لبسوا الحديدَ كأنَّهُمْ *** في البيض والحِلَقِ الدِّلاصِ نجومُ
فلئنْ بقيتُ لأرحلنَّ بغزوةٍ *** نحو المَفَاخِرِ أوْ يموتُ كريمُ

وكانَ كلُّ مَن قُتِلَ بهذهِ الوقعةِ يومَ أُلَّيسَ مِنْ بلدةٍ يقالُ لها: "أَمَغِيشِيَا"، فعدلَ إليها خالدٌ وأمر بخرابِها، واستولى على مَا بها، فوجدوا فيها مغنمًا عظيمًا، فقسَّمَهُ بينَ الغانمين، وبعثَ خالدٌ إلى الصِّدِّيقِ بالبشارةِ والفتحِ والخُمُسِ مِن الأموالِ والسَّبيِ مع رجلٍ يقالُ له: "جندل"، وكانَ دليلًا صارمًا، فلما بلغ الصديق الرسالة وأدَّى الأمانة؛ أثنى عليه وأجازَهُ جاريةً مِنَ السَّبي، وقالَ الصِّدِّيقُ: "يا معشرَ قريشٍ، فإنَّ أسدَكُمْ قد عَدَا على الأسدِ فغلبَهُ على خراذيلِهِ، عجزتِ النِّساءُ أن يلدنَ مثلَ خالدِ بنِ الوليد!".

ثمَّ جرتْ أمورٌ طويلةٌ لخالدٍ في أماكنَ متعدِّدةٍ يُمَلُّ سماعُها، ومثلُ هذا إنَّما خلقَهُ اللهُ -عز وجل- عزًّا للإسلامِ وأهلِه، وذُلًّا للكفرِ وشتاتَ شملِه.

وكانَ مِن أمرِهِ مع مالكِ بنِ نُوَيْرَةَ اليَرْبُوعِيِّ التَّميميِّ؛ أنْ قصد خالدٌ بجنودِهِ البطاح، وعليها مالكُ بنُ نويرة، واستدعى خالدٌ مالكَ بنَ نويرة فأنَّبَهُ على مَا صَدَرَ منهُ مِن متابعةِ سَجَاح، وعلى منعِهِ الزَّكاةَ وقالَ: "ألم تعلمْ أنَّها قرينةُ الصَّلاة؟"، فقالَ مالكٌ: إنَّ صاحبَكُمْ كانَ يزعمُ ذلك، فقالَ: "أهو صاحبُنَا وليسَ بصاحبِك؟! يا ضرارُ اضربْ عنقَه"، فضربَ عنقَهُ وأمرَ برأسِهِ فجُعِلَ مع حَجَرَين، وطُبِخَ على الثَّلاثةِ قدرًا، فأكلَ منه خالدٌ تلكَ اللَّيلةَ ليُرهِبَ بذلكَ الأعرابَ مِن المرتدَّةِ وغيرِهِمْ، وحالُه:

وفي يومِ الرِّدَّةِ قد تركنا *** لنا بفعالِنَا خَبَرًا مُشَاعا
أقمنا بالذَّوابِ لسوق حربٍ *** وصيَّرنَا النُّفوسَ لها متاعا
حَصَاني كانَ دلَّالَ المنايا *** فخاضَ غِمَارَهَا وشَرَى وباعَا
وسيفي كانَ في الهيجَا طبيبًا *** يداوي رأسَ مَن يشكو الصُّدَاعَا

أنا العبدُ الَّذي خُبِّرتَ عنهُ *** وقد عاينتَنِي فَدَعِ السَّماعَا
ولو أرسلتُ رمحي معْ جبانٍ *** لكانَ بهيبتي يلقى السِّباعَا
ملأتُ الأرضَ خوفًا مِن حُسَامِي *** وخصمي لم يجدْ فيها اتِّساعا
إذا الأبطالُ فَرَّتْ خوفَ بأسي *** ترى الأقطارَ باعًا أو ذراعا
فلا تخشَ المنيَّةَ والْتَقِهَا *** ودافعْ مَا استطعتَ لها دِفَاعا

ويقالُ: إنَّ شَعْرَ مالكٍ جعلتِ النَّارُ تعملُ فيه إلى أنْ نضج فيهِ لحمُ القِدْرِ ولمْ يفرغِ الشَّعرُ لكثرته، وقد تكلَّم أبو قتادةَ مع خالدٍ فيما صنع، وتقاولا في ذلكَ حتَّى ذهبَ أبو قتادةَ فشكاهُ إلى الصِّدِّيق، وتكلَّم عمرُ مع أبي قتادةَ في خالدٍ وقالَ للصِّدِّيق: "اعزلْهُ؛ فإنَّ في سيفِهِ رَهَقًا"، فقالَ أبو بكرٍ: "لا أشيمُ سيفًا سلَّهُ اللهُ على الكفَّار".

وبعثَ الصِّدِّيقُ إلى خالدِ بنِ الوليد، فقَدِمَ عليه المدينةَ وقد لبسَ عليه درعَهُ الَّتي مِن حديد، وقد صَدِئَ مِن كثرةِ الدِّماء! وغرز في عمامتِهِ النِّشابُ المضمَّخُ بالدِّماء، فهكذا ينبغي أن تكونَ سيرةُ الأواخرِ مع المرتدِّينَ كما كانتِ السِّيرةُ مع أوائلِهِمْ.

فبَادِرْ وبادِرْ بدونِ انتظار *** إذا كنتَ أهلًا لخوضِ البِحَار
فلا يعقرُ الكلبَ مَن يرحمُهُ *** ولا يصرعُ النِّمْرَ من يطعمُهُ

قالَ هشامُ بنُ حُصَين: لَمَّا قَدِمَ خالدُ بنُ الوليدِ ها هنا، إذْ هُوَ بمَشْيَخَةٍ لأهلِ فارسَ عليهِمْ رجلٌ شديدٌ، قال: فذكروا مِنْ عظيمِ عملِهِ وشجاعتِه، قال: فقتلَهُ خالدُ بنُ الوليد، ثمَّ دعا بغدائِهِ فتغدَّى وهو متَّكئ على جثَّتِه!

أأخا الفوارسِ لو رأيتَ مواقفي *** والخيلُ من تحتِ الفوارسِ تَخْبِطُ
لقرأتَ منها ما تخطُّ يدُ الوَغَى *** والبيضُ تشكلُ والأسنَّةُ تنقُطُ

عنْ هشامٍ عنْ أبيهِ قال: كانتْ في بني سليمٍ ردَّة، فبعثَ إليهِمْ أبو بكرٍ خالدَ بنَ الوليد، فجمعَ منهُمْ أناسًا في حظيرةٍ حرَّقَهَا عليهِمْ بالنَّار، فبلغ ذلكَ عمرَ فأتى أبو بكرٍ فقالَ: "انزِعْ رجلًا يعذِّبُ بعذابِ الله"، فقالَ أبو بكرٍ: "واللهِ لا أشيمُ سيفًا سلَّهُ اللهُ على عدوِّه، حتَّى يكونَ اللهُ هو يشيمُهُ، وأمرَهُ فمَضَى من وجهِهِ ذلك إلى مسيلمة.

وقد ذكرَ الواقديُّ عنْ يعقوبَ بنِ يزيدَ أنَّ خالدًا جمعَ الأسارى في الحظائر، ثمَّ أضرمَهَا عليهِمْ، فاحترقوا وهُمْ أحياءٌ، ولم يَحرِقْ أحدًا مِنْ بني فزارة، فقلتُ لبعضِ

أهلِ العلم: "لِمَ حرَّقَ هؤلاءِ مِن بينِ أهلِ الردَّة؟" قال: "بلغتْ عنهُمْ مقالةٌ سيِّئةٌ شتموا النبيَّ ﷺ، وثبتوا على ردَّتِهِمْ".

وذُكِرَ عنْ غيرِ يعقوبَ أنَّ خالدًا أمرَ بالأخدودِ يُحفَرُ، فقيلَ لهُ: ما تريدُ بهذا الأخدود؟ قال: "أُحْرِقُهُمْ بالنَّار"، فكُلِّمَ في ذلك، فقالَ: "هذا عهدُ الصِّدِّيقِ أبي بكرٍ إليَّ، اقرؤوهُ في كلِّ مجمع: إنْ أظفركَ اللهُ بِهِمْ فاحرقْهُمْ بالنَّار"، فهكذا كانَ -رضي الله عنه- سيفًا مُصْلَتًا على الكفَّار، شديدًا بأهلِ الردَّةِ الفجَّار، يضربُ الأعناقَ ويحرقُ بالنَّار، ويجري بالدِّماءِ الأنهار، ويتغدَّى على جُثَثِ الكفَّار، ويُثخِنُ ويُشرِّدُ بعدوِّهِ ومَنْ وراءهُمْ، وحالُه:

وما لكَ لا تلقى بمُهجَتِكَ القنا *** وأنتَ مِنَ القومِ الَّذينَ هُمُ هُمُ
طلبتُك حتَّى لم أجدْ لكَ مطلبًا *** وأقدمتُ حتَّى قلَّ مَن يتقدَّمُ
سنضربُهُمْ ما دامَ للسَّيفِ قاطعٌ *** ونطعنُهُمْ ما دام للرُّمحِ لهذمُ
فإنْ ترغبوا في الصُّلحِ فالصُّلحُ صالحٌ *** وإنْ تجنحوا للسِّلمِ فالسِّلمُ أسلمُ

ولقد كانَ حالُ بقيَّةِ الصَّحابةِ كحالِ مَن سبقهُمْ، فلا ضعفَ ولا عجزَ ولا جبنَ ولا خَوَرَ ولا لينَ ولا رقَّة، بلْ قسوةٌ وشدَّةٌ وتشريدٌ، وغلظةٌ وقوَّةٌ وإثخانٌ؛ حتَّى يُوحَّدَ الرَّحمنُ في كلِّ مكان.

لقد كانَ هذا المظهرُ معلمًا مِن معالِمِهِمْ، وطبيعةً مستقرَّةً من طبائعِهِمْ مع مَن كفرَ باللهِ وأشركَ به، وحاربَ المسلمين، ومَن صالَ وبغى على الموحِّدين، وهكذا تربَّوا وعلى هذا ساروا، ولذا فازوا وظَفِرُوا وظَهَرُوا على مَن سواهُمْ مِنَ الأمم، وكانتْ لهُمُ المهابةُ والاحترامُ بينَ الأنام، ودخلَ في صلحِ أهلِ الإسلامِ الفئامُ الفئام، وأَعْطَوُا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون، وخضعوا أذلَّاءَ مقهورين؛ بفضلِ الإرهابِ والشدَّةِ والغلظةِ على الكافرين، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

ففي غزوةِ حُنَين: حنقَ المسلمونَ على المشركينَ فقتلوهُمْ، حتَّى شرعوا في قتلِ الذُّرِّيَّة، فلمَّا بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ قال: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ ذَهَبَ بِهِمُ الْقَتْلُ حَتّى بَلَغَ الذّرّيّةَ؟! أَلَا لَا تُقْتَلُ الذّرّيّةُ)، فقالَ أُسَيْدُ بنُ الحُضَير: "يا رسولَ الله، أليسَ إنَّما هُمْ

أولادُ المشركين؟" فقال: (أَوَلَيْسَ خِيَارُكُمْ أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ؟ كُلّ نَسَمَةٍ تُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتّى يُعْرِبَ عَنْهَا لِسَانُهَا، فَأَبَوَاهَا يُهَوّدَانِهَا أَوْ يُنَصّرَانِهَا)[١].

وأمَّا في يومِ الخَنْدَمَة؛ قالَ ابنُ إسحاق: وحدَّثني عبدُ اللهِ بنُ أبي نجيحٍ وعبدُ اللهِ بنُ أبي بكرٍ أنَّ صفوانَ بنَ أميَّةَ وعكرمةَ بنَ أبي جهلٍ وسُهَيلَ بنَ عمروٍ كانوا قد جَمَعُوا ناسًا بالخندمةِ ليقاتلوا، وكانَ حِمَاسُ بنُ قيسِ بنِ خالدٍ أخو بني بَكْرٍ يُعِدُّ سلاحًا قبلَ دخولِ رسول الله ﷺ ويُصْلِحُ منه، فقالتْ لهُ امرأتُه: "لماذا تُعِدُّ ما أرى؟"، قال: "لمحمَّدٍ وأصحابِه"، قالتْ: "واللهِ ما أراهُ يقومُ لمحمَّدٍ وأصحابِهِ شيءٌ"، قالَ: "واللهِ إنِّي لأرجو أنْ أَخْدِمَكِ بعضُهُمْ"، ثمَّ قالَ:

إنْ يُقْبِلُوا اليومَ فما لي عِلَّة
هذا سلاحٌ كاملٌ وأَلَّة
ذو غِرارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّة

ثمَّ شهد الخندمةَ مع صفوانَ وسهيلٍ وعكرمة، فلمَّا لقيهُمُ المسلمونَ مِن أصحابِ خالدِ بنِ الوليدِ ناوشوهُمْ شيئًا من قتال، وأُصِيبَ من المشركينَ ناسٌ قريبًا مِن اثني عشر رجلًا، ثمَّ انهزموا، فخرجَ حِمَاسٌ منهزمًا حتَّى دخلَ بيتَه، ثمَّ قال لامرأتِه: "أغلقي عليَّ الباب"، قالتْ: "فأينَ ما كنتَ تقولُ؟! فقال:

إنَّكِ لو شهدتِّ يومَ الخندمة *** إذْ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
وأبو يزيدَ قائمٌ كالمُوتَمَة *** واستقبلتْهُمْ بالسُّيوفِ المُسْلِمَة
يَقْطَعْنَ كلَّ ساعدٍ وجُمْجُمَة *** ضربًا فلا تسمعُ إلَّا غَمْغَمَة
لهُمْ نَهِيتٌ خلفَنا وهَمْهَمَة *** لم تَنْطِقِي في اللَّومِ أدنى كَلِمَة

وعنْ عائذِ بنِ عمروٍ أنَّ سليمانَ وصهيبًا وبلالًا كانوا قعودًا في أناس، فمرَّ بهمْ أبو سفيانَ بنُ حربٍ فقالوا: "ما أخذتْ سيوفُ اللهِ مِن عُنُقِ عدوِّ اللهِ مَأخَذَهَا بعدُ"، فقالَ أبو بكرٍ: "أتقولونَ هذا لشيخِ قريشٍ وسيِّدِهَا؟!"، قالَ: فأُخْبِرَ بذلك النبيُّ ﷺ فقال: (يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، فَلَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ)، فرجعَ إليهِمْ فقالَ: "أيْ إخوتَنَا، لعلَّكُمْ غضبتُمْ؟"، فقالوا: "لا يا أبا بكرٍ، يغفرُ اللهُ لكَ"[٢].

---

[١] رواه أحمد والواقدي في المغازي والطبراني في الكبير. صححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

[٢] رواه مسلم وأحمد واللفظ له.

ومنهُ أيضًا ما ذكرهُ ابنُ إسحاقَ قالَ: لمَّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة، وكانَ عبدُ اللهِ بنُ أبيّ بنِ سلول -كما حدَّثني ابنُ شهابٍ الزُّهري- له مقامٌ يقومُهُ كلَّ جمعةٍ لَا يُنكَرُ؛ شرفًا له في نفسِهِ وفي قومِه، وكانَ فيهِمْ شريفًا، إذْ جلس رسولُ الله ﷺ يومَ الجُمُعَةِ وهو يخطبُ النَّاس؛ قامَ فقالَ: "أيُّها النَّاسُ، هذا رسولُ الله ﷺ بينَ أَظْهُرِكُمْ، أكرمكُمُ اللهُ وأعزَّكُمْ به، فانصروهُ وعزّروهُ واسمعوا لهُ وأطيعوا"، ثمَّ يجلسُ، حتَّى إذا صنع يومَ أحدٍ مَا صنعَ ورجعَ بالنَّاس؛ قامَ يفعلُ ذلكَ كما كانَ يفعلُه، فأخذَ المسلمونَ بثيابِهِ مِن نواحيه، وقالوا: "اجلسْ أيْ عدوَّ الله! لستَ لذلك بأهلٍ وقد صنعتَ ما صنعتَ".

وفي أمرِ طَرْدِ المنافقينَ مِن مسجدِ رسولِ الله ﷺ: ذكرَ ابنُ هشامٍ في السِّيرةِ أنَّ المنافقينَ كانوا يَحْضُرُونَ المسجد، فيستمعونَ أحاديثَ المسلمين، ويسخرونَ ويستهزئونَ بدينِهِمْ، فاجتمعَ يومًا في المسجدِ منهُمْ ناسٌ، فرآهُمْ رسولُ الله ﷺ يتحدَّثونَ بينهُمْ خافضي أصواتِهِمْ، وقد لصق بعضُهُمْ ببعض، فأمر بهِمْ رسولُ الله ﷺ فأُخْرِجُوا مِنَ المسجدِ إخراجًا عنيفًا، فقامَ أبو أيُّوبَ خالدُ بنُ زيدٍ إلى عمر بنِ قيسٍ -وكانَ صاحبَ آلهتِهِمْ في الجاهليَّة- فأخذَ برجْلِهِ فسَحَبَهُ حتَّى أخرجَهُ مِنَ المسجد، ثمَّ أقبلَ أبو أيُّوبَ أيضًا إلى رافعِ بنِ وديعةَ أحدِ بني النَّجَّار، فلبَّبَهُ بردائه، ثمَّ نَتَرَهُ نترًا شديدًا ولطم وجهَه، ثمَّ أخرجهُ مِنَ المسجد، وأبو أيُّوبَ يقولُ له: "أُفٍّ لكَ منافقًا خبيثًا، أدراجَكَ -يا منافقُ- مِن مسجدِ رسولِ الله ﷺ"، قالَ ابنُ هشامٍ: أي: ارجعْ مِن الطَّريقِ الَّتي جئتَ مِنْهَا، قالَ الشَّاعرُ:

فولَّى وأدبرَ أدراجَهُ *** وقد باءَ بالظُّلمِ مَن كانَ ثَمّ

وقامَ عمارةُ بنُ حزمٍ إلى زيدِ بنِ عمرٍو -وكانَ رجلًا طويلَ اللِّحية- فأخذَ بلحيتِه، فقادَهُ بها قودًا عنيفًا حتَّى أخرجَهُ مِنَ المسجد، ثمَّ جمعَ عمارةُ يديه فلَدَمَهُ بهِمَا في صدرِهِ لَدْمَةً خرَّ منها، قال: يقولُ: "خَدَشْتَنِي يا عمارة!"، قالَ: "أبعدكَ اللهُ يا منافقُ! فما أعدَّ اللهُ لك مِنَ العذابِ أشدُّ مِن ذلك، فلا تقربنَّ مسجدَ رسولِ الله ﷺ".

وقامَ رجلٌ مِنْ رهطِ أبي سعيدٍ الخدريّ يُقَالُ لهُ: "عبدُ اللهِ بنُ الحارث" حينَ أمرَ رسولُ الله ﷺ بإخراجِ المنافقينَ مِنَ المسجدِ إلى رجلٍ يُقالُ له: "الحارثُ بنُ عمرٍو"،

وكانَ ذا جمَّة، فأخذهُ بجمَّتِهِ فسَحَبَهُ بها سحبًا عنيفًا على ما مرَّ به مِنَ الأرض، حتَّى أخرجهُ من المسجد، قال: يقولُ المنافقُ: "لقد أغلظتَ يا ابنَ الحارث!"، فقالَ له: "إنَّكَ أهلٌ لذلكَ أيْ عدوَّ الله؛ لِمَا أنزلَ اللهُ فيك، فلا تقربنَّ مسجدَ رسولِ الله ﷺ؛ فإنَّكَ نجسٌ".

وقامَ رجلٌ مِن بني عمرِو بنِ عوفٍ إلى أخيهِ زَوِيِّ بنِ الحارث، فأخرجَهُ مِنَ المسجدِ إخراجًا عنيفًا، وأفَّفَ منهُ، وقال: "غلبَ عليكَ الشَّيطانُ وأمرُه".

فهؤلاءِ مَن حضرَ المسجدَ يومئذٍ مِنَ المنافقين، وأمرَ رسولُ الله ﷺ بطردِهِمْ وإخراجِهِمْ.

ويومَ أُحُد؛ روى الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ بإسنادٍ صحيحٍ عنْ أنسٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذ سيفًا يومَ أُحُد، فقال: (مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ؟)، فأخذَهُ قومٌ فجعلوا ينظرونَ إليه، فقال: (مَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟)، فأحجمَ القومُ، فقالَ أبو دُجَانَةَ سِمَاكٌ: "أنا آخذُهُ بحقِّهِ يا رسولَ الله"، فأخذَهُ ففلقَ هامَ المشركِينَ يومَ أُحُد.

وفي روايةٍ للبيهقيِّ في الدَّلائل؛ قال: (مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ؟)، فقامَ أبو دجانةَ سِمَاكُ بنُ خرشةَ فقال: "أنا آخذُهُ بحقِّهِ يا رسولَ الله، فما حقُّه؟" قال: (أَنْ لَا تَقْتُلَ بِهِ مُسْلِمًا، وَلا تَفِرَّ بِهِ عَنْ كَافِرٍ)[١]، وفي روايةٍ قال: "وما حقُّه؟"، قال: (أَنْ تَضْرِبَ بِهِ فِي الْعَدُوِّ حَتَّى يَنْحَنِيَ)[٢]، وفي روايةٍ قال: "فما حقُّه؟" قال: (تُقَاتِلُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ، أَوْ تُقْتَلَ)[٣]، فأخذَهُ بذلك الشَّرط، وكانَ إذا أرادَ القتالَ أعلمَ بعصابةٍ، فجعلَ لا يرتفعُ له شيءٌ إلَّا هَتَكَهُ وأفراهُ.

قالَ ابنُ هشام: "وحدَّثني غيرُ واحدٍ مِنْ أهلِ العلمِ أنَّ الزُّبيرَ بنَ العوام قال: "وجدتُّ في نفسي حينَ سألتُ رسولَ الله ﷺ السَّيفَ، فمنعنيهِ وأعطاهُ أبا دجانة، أنا ابنُ صفيَّةَ عمَّتِهِ ومِنْ قريش، وقد قمتُ إليه فسألتُهُ إيَّاهُ قبلَهُ، فأعطاهُ إيَّاهُ وتركني! واللهِ لأنظرنَّ ما يصنعُ قالَ: فاتَّبعتُهُ فأخرجَ عِصَابَةً له حمراءَ، فعَصَبَ بها رأسَهُ،

---
١ قال الحاكم صحيح الإسناد.
٢ رواه ابن إسحاق في السيرة منقطعا.
٣ وجدت هذه الرواية في سير أعلام النبلاء للذهبي ولم أجد عند غيره.

فقالتِ الأنصارُ: أخرجَ أبو دجانةَ عصابةَ الموتِ، وهكذا كانتْ تقولُ إذا تَعَصَّبَ بها، فخرجَ وهو يقولُ:

أنا الَّذي عاهدني خليلي *** ونحنُ بالسَّفحِ لدى النَّخيلِ
ألَّا أقومَ الدَّهرَ في الكُيُولِ *** أضرب بسيفِ اللهِ والرَّسولِ".

والكُيُولُ يعني: مؤخِّر الصُّفوفِ.

قالَ ابنُ هشام: "فجعلَ لا يلقى أحدًا إلَّا قتلَهُ، وكانَ لا يدعُ رجلًا من المشركينَ جريحًا إلَّا ذَفَّفَ عليه -أي: أَجْهَزَ عليه-"، وحالُهُ:

وإذا الجَبَانُ نهاكَ يومَ كريهةٍ *** خوفًا عليكَ مِن ازدحامِ الجَحْفَلِ
فاعصِ مقالتَهُ ولا تحفلْ بها *** واقدمْ إذا حقَّ اللِّقا في الأوَّلِ
واخترْ لنفسِكَ منزلًا تعلو بِهِ *** أو متْ كريمًا تحتَ ظلِّ القسطلِ
فالموتُ لا ينجيكَ من آفاتِهِ *** حِصْنٌ ولو شيَّدتَّهُ بالجَنْدَلِ
موتُ الفتى في عزَّةٍ خيرٌ لَهُ *** مِن أنْ يبيتَ أسيرَ طَرْفٍ أكحلِ
لا تسقِني ماءَ الحياةِ بذلَّةٍ *** بلْ فاسقِني بالعزِّ كأسَ الحَنْظَلِ

وأمَّا نساءُ الصَّحابة؛ فكنَّ بشدَّةِ الرِّجال وصلابةِ الجبال، على كلِّ عدوٍّ كافرٍ محتال؛ نصرةً للرَّبِّ المتعالي؛ ففي غزوةِ حُنَينٍ قاتلتْ أمُّ عمارةَ وصاحباتُها، وكانتْ أمُّ عمارةَ في يدِهَا سيفٌ صارمٌ، وأمُّ سليمٍ معها خنجرٌ قد حزمتْهُ على وسطِها، وهي يومئذٍ حاملٌ بعبدِ اللهِ بن أبي طلحة، وأمُّ سُلَيطٍ وأمُّ الحارثِ حينَ انهزمَ النَّاسُ يُقَاتِلْنَ، وأمُّ عمارةَ تصيحُ بالأنصار: "أيُّ عادةٍ هذه؟! ما لكم وللفرار؟!"، وشدَّتْ على رجلٍ من هَوَازِنَ فقتلتْهُ وأخذتْ سيفَه، وأمُّ سليمٍ بنتُ ملحانَ تقولُ: "يا رسولَ الله، ما رأيتَ هؤلاءِ الَّذينَ أسلموا وفرُّوا عنكَ وخذلوك؟ لا تعفُ عنهُمْ إذا أمكنكَ اللهُ منهُمْ، تقتلُهُمْ كما تقتلُ المشركين"، فقال: (يَا أُمّ سُلَيْمٍ، قَدْ كَفَى اللهُ[1]! عَافِيَةُ اللهِ أَوْسَعُ)[2]

وإذا نظرتَ إلى أسرَّةِ وجهِهِ *** بَرَقَتْ كبرقِ العارضِ المتهلِّلِ
صعبُ الكريهةِ لا يُرَامُ جنابُهُ *** ماضي العزيمةِ كالحسامِ المِقْصَلِ

[1] روى أحمد هذا الجزء من الحديث، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين
[2] رواه الواقدي في المغازي.

يحمي الصِّحابَ إذا تكونُ عظيمةٌ *** وإنْ هُمُ نزلوا فمأوى العُيَّلِ

يا مَن يشنِّعُ على جندِ دولةِ الخلافةِ الإسلاميَّةِ فيما عندَهُمْ من شدَّةٍ وغلظةٍ وقسوةٍ وعنفٍ وتشريدٍ وإثخانٍ وقوَّةٍ وشَزَنٍ وخشونةٍ ونكاية؛ فاعلمْ أنَّهُ لأهلِ الحقِّ والعدلِ والدِّينِ؛ الرَّحمةُ والرِّفقُ والذِّلَّةُ واللِّينُ، وعلى أهلِ الكفرِ والحربِ؛ الشِّدَّةُ والغلظةُ والعزَّةُ والضَّربُ.

يتلقَّى النَّديَّ بوجهٍ صَبِيح *** وصدورَ القَنَا بوجهٍ وقاح
فبهذا وذا تتمُّ المعالي *** طُرُقُ الجِدِّ غيرُ طُرُقِ المزاح

ويزعمونَ أنَّ أبناءَ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ قد أسرفوا، وأنَّهُمْ أهلُ غُلُوٍّ وعُتُوٍّ وتشدُّدٍ، وأنَّهُمْ بذا وذا قد أساءوا وما أحسنوا، وأخطؤوا وما أصابوا، فقلنا: كلَّا، كذبتُمْ -واللهِ- وخبتُمْ وخسئتُمْ.

وقالَ رجالٌ: قد غَرِمْتَ غرامةً *** فقلتُ: كذبتُمْ إنَّما أنا غانمُ

وقد ذكرنا -ولله الحمد- مِنَ الأخبارِ والآثارِ والسِّيَرِ والعِبَرِ ما يدلُّ على أنَّنا في دولةِ الخلافةِ الإسلاميَّةِ -أعزها الله- لم نتجاوزْ كتابَ الله وسنَّةَ نبيِّه -عليه الصلاة والسلام- وهديَ السَّلفِ الصَّالحِ مِنْ صحابةٍ وتابعينَ وأئمَّةٍ مهتدين، بلْ وأنَّنَا -ولله الحمد- للرُّشدِ والصَّوابِ موافقون، وللسُّنَّةِ متابعون، وللدَّليلِ ملازمون، وللأمرِ العتيقِ مجدِّدون، بلْ وينبغي أن نزيدَ من قسوتِنَا وشدَّتِنَا وغلظتِنَا وتشريدِنَا وإثخانِنَا في أعداءِ الله، ولكنَّ هذهِ المعالمَ معالمُ حقٍّ تنكَّرَ لها كثيرٌ مِن النَّاس؛ إمَّا لتأثُّرهِمْ بالدَّعواتِ العلمانيَّةِ والإنسانيَّةِ والوطنيَّةِ والكفريَّةِ، وتأثُّرهِمْ بالسِّلمِ والأمنِ الدُّوليِّ وأخوَّةِ الوطن، وغيرِ ذلكَ مِنْ دعواتٍ كفريَّةٍ انتشرتِ انتشارَ النَّارِ في الهشيم، في ظلِّ حكمِ الطَّواغيتِ بينَ النَّاس، فانسلخَ الواحدُ منهُمْ عنْ دينِهِ واتَّبعَ الأهواء، أو لأنَّهُ عاجزٌ ضعيفٌ خاملٌ يستحيي مِن الحقِّ، فاللهُ لا يستحيي من الحقِّ، أو لأنَّه جاهلٌ بدينِ اللهِ وسِيَرِ الأوَّلين، متَّبعٌ لمن ضلَّ وزلَّ وغيَّر وبدَّل، فصار الحقُّ عندَهُ باطلًا، واللهُ المستعان.

وعليه؛ فإنَّنَا قد أتينا لكُمْ بالبرهانِ على صحَّةِ هذا الشَّان، وأنَّه لا بدَّ لأهلِ الإسلام إذا أرادوا أن يَدْفَعُوا صيالَ وعداوةَ وحربَ مَن تحزَّبَ عليهِمْ مِنَ الأمم؛ فعليهِمْ

أن يأخذوا بأمرِ الله: {وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [سورة التوبة: ١٢٣]، وأنْ يكونَ الإرهابُ والإثخانُ والتَّشريدُ والتَّربُّصُ والقتلُ والاغتيالُ والقوَّةُ والانتصارُ هي السِّمةَ البارزةَ والعلامةَ الظَّاهرةَ والمنهجَ المُقْتَدَى والطَّريقَ المسلوكَ والدِّينَ المتبوعَ؛ حتَّى يرهبَنَا النَّاس، ويهابَنَا أولو الباس، وحتَّى نطردَ مِن رأسِ مَن يفكِّرُ أنْ يصولَ علينا الوَسْوَاس، فيعرفَ أنَّنا للخيلِ أحلاس، فإنْ تطاولَ علينا أحدُهُمْ قطعنَا منهُ الرَّاس، فيبوءَ بعدَهَا ومَن وراءَهُ منَّا بالإياس، وهكذا يرتدعُ النَّاس، ويكونُ حِمَانا على عدوِّنا منيعًا قاسيًا.

إنَّ العدوَّ وإنْ أبدى مسالمةً *** إذا رأى منكَ يومًا غرَّةً وَثَبَا

***

إذا مَلِكٌ لم يكنْ ذَا هِبَة *** فدعْهُ فدولتُهُ ذاهبة

وإنِّي أوصيكُمْ -معاشر المجاهدين- بما أوصى به قبلي مِنَ القادةِ جيشَ المسلمينَ قائلًا: يا معاشرَ المسلمين، إنَّكُمْ قد أصبحتُمُ اليومَ في دارٍ منقطعينَ عَنِ الأهلِ وإمدادِ المسلمين، وقدْ -والله- أصبحتُمْ بإزاءِ عدوٍّ كثيرٍ عددُهُ شديدٍ عليكُمْ حنقُه، وقد وترتُمُوهُمْ في أنفسِهِمْ وأولادِهِمْ ونسائِهِمْ وأموالِهِمْ وديارِهِمْ، واللهِ لا ينجيكُمْ يا معاشرَ المجاهدين؛ لا ينجيكُمْ من هؤلاءِ القومِ ولا يبلُغُ بكُمْ رضوانَ اللهِ غدًا إلَّا بصدقِ اللِّقاءِ والصَّبرِ في المواطنِ المكروهة، فامتنعوا بسيوفِكُمْ وتعاونوا، ولتكُنْ هي الحُصُون، ويا أهلَ الإسلام، لم يبقَ عندَ القومِ مِنَ الجَلَدِ والقتالِ إلَّا ما رأيتُمْ؛ فالشِّدَّةَ الشِّدَّة؛ فوالَّذي نفسي بيدِه، إنِّي لأرجو أنْ يمنحَكُمُ اللهُ أكتافَهُمْ عمَّا قريبٍ، فاصبروا قليلًا، تَنَالُوا الخيرَ طويلًا.

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [سورة الصافات].

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة الثانية عشرة



الحلقة الثانية عشرة: بالقوَّة والشَّجاعة؛ تُدفَعُ مِن أممِ الكفرِ العداوة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعينِ الموحِّدين، ومبيدِ الطُّغاةِ المارقين، وناصرِ المستضعفينَ على مَن سلكَ سبيلَ المجرمين، الَّذي جعلَ العاقبةَ لهُمْ ليكونوا هُمُ الوارثين، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له إلهُ الأوَّلينَ والآخرين، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُه مَن جاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ حتَّى أتاهُ اليقينُ، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ناشري لواءِ الدِّين، وعلى مَن تبعهُمْ واقتفى آثارَهُمْ في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكُمُ الله وأحياكُمْ، وجعلَ الجنَّةَ مأوانا ومأواكُمْ، وقوَّى تقواكُمْ، وأحسنَ أعمالكُمْ، وأعانَنا على مَن عادانا وعاداكُمْ، وذخرًا للخلافةِ أعدَّكُمْ، ترفعونَ راياتِهَا، وتذودونَ عن حياضِهَا، تحاربونَ عدوَّهَا، وتنصرونَ جنودَها، ترصُّونَ صفوفَها، وتشيِّدونَ صروحَها، وتضمِّدونَ جروحَها، وعلى منهاجِ النُّبوَّةِ تحملونَها.

ما زلنا معكُمْ -معاشرَ المسلمين- نبيِّنُ ونوضِّحُ، ونقوِّمُ ونصحِّح ونشرحُ ونصرِّح، وعنِ النُّفوسِ بالحقِّ نروِّح، فإنْ وافقتْ كُلَيْمَتِي قبولًا فالحمدُ لله، وإنْ وافقتْ ردًّا فمن نفسي والشَّيطان، وأستغفرُ الرَّحمن، راجيًا مِنَ اللهِ أنْ تنالَ هذهِ الكلماتُ القبولَ والإعجاب، وأن ينتفعَ منها صاحبُها والأهلُ والأصحابُ، وكلُّ مَن يخافُ يومَ الحساب، وأنْ تكونَ لنا زادًا على الطَّريقِ ومنارًا للسَّبيلِ وحجَّةً لنا لا علينا يومَ اللِّقاء.

إنْ تَجِدْ عيبًا فسُدَّ الخللا *** جَلَّ مَن لا عيبَ فيهِ وعلا

روى أحمدُ في مسندِهِ بإسنادٍ صحيحٍ عنْ ثوبانَ مولى رسولِ الله ﷺ قال: (يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا)، قال: قلنا: يا رسولَ الله، أمِنْ قِلَّةٍ بنا يومئذٍ؟ قال: (أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ)، قال: قلنا: وما الوهنُ؟ قال: (حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ).

معاشـرَ المسـلمين، في ظـلِّ الحملـةِ الشَّرسـةِ للحـربِ على الإسـلامِ بكلِّ الأصـعدةِ وبمختلـفِ الوسـائل؛ صـارَ خـبرُ نبيِّنـا -عليـه الصلاة والسـلام- بتـداعي الأممِ على أهـلِ الإسلامِ مِنْ كلِّ أفقٍ ومِنْ كلِّ حَدَبٍ وصوبٍ مَاثِلًا للعَيَان، واللهُ المستعان؛ فقـد تكالبَ الكفـرُ كلُّـهُ بكلِّ مِلَلِـهِ ونِحَلِـهِ وعلى اختلافِ مناهجِـهِ وعقائـدِهِ ولغاتِـهِ على الخلافـةِ الإسـلاميَّةِ الرَّاشـدة؛ يرومـونَ هـدمَهَا، وعلى الشَّـريعةِ يطلبـونَ إزاحتَهـا، وعلى الموحِّـدِ يرومـونَ كسـرَه، والمجاهِـدِ يبغـونَ قتلَـهُ، والحـقِّ يريـدونَ قلبَـهُ وحرفَـهُ وصـرفَهُ، ولا تنقطعُ المؤامراتُ ولا يتوقَّـفُ الكيدُ والحـربُ والمكر، ولا تسـتريحُ أممُ الكفـرِ قاطبةً مع مَنْ لحقهُمْ مِنْ خبالةِ المسلمين؛ إلَّا إذا زالتِ الخلافةُ وسقطتِ الرَّايةُ وغرقتْ سفينةُ الجهـادِ -لا قـدَّرَ الله-، ولا يسـتريحونَ إلَّا إذا كفـرَ العبـادُ واحتُلَّتِ البلادُ وهُتِكَتِ الأعراضُ وانتشرتِ الأمراضُ وعمَّ وطمَّ الفسادُ. نسألُ اللهَ العافيةَ والسَّلامة.

وفي ظلِّ هذهِ الأحـوال؛ كانَ لا بدَّ لنـا أنْ ننتفضَ لكي ننصرَ أمَّتَنا، وأنْ نقومَ لنقودَ القافلـةَ ونوجِّـهَ الحافلـة، ونرفـعَ اللِّـواءَ ونجـدِّدَ الإخـاء، ونـبيِّنَ الحـقَّ ونعليـهِ ونُخْفِضَ الباطلَ ونؤذيه، وأن نبيِّنَ لعمومِ الأمَّةِ كيـفَ هـو المَخْرَجُ والسَّبيل، ومـا هـو الطَّريقُ مع الـدَّليل، ونصحِّحَ ونـذكِّرَ ونعلِّمَ ونـبيِّن: كيـفَ يُـداوَى جُـرْحُ أمتِنَـا العليـل، ويصبحُ كلُّ محاربٍ كفَّارٍ ذليلًا، وتُردُّ وتُدفَعُ عاديةُ الكافرين، وتُردُّ صولةُ الصَّائلين، ويُكبَحُ جماحُ المعتدينَ عن المسلمينَ والمستضعفين، ولكنَّ ذلك -كما مرَّ معنا سابقًا- لا يكونُ إلَّا بالتَّوكُّلِ واليقينِ والعـزَّةِ والغـيرةِ وتحـريضِ المؤمـنينَ على جهـادِ الكافرين، والشِّـدَّةِ والغلظةِ والإثخان، حتَّى يرضى الرَّحمنُ ويُدفَعَ الكفران.

ومواصلـةً منَّـا لبيـانِ السُّبُلِ والعُـدَدِ الَّتي يُسـتعَانُ بهـا على ردٍّ وصدٍّ ودفـعِ عاديـةِ الأممِ المحاربـةِ للمسـلمين؛ فـإنَّ اقتنـاءَ المَنَـاقِبِ باحتمـالِ المَتَـاعِب، وإحـرازَ الـذِّكرِ الجميلِ بالسَّعيِ في الخَطْبِ الجليل؛ إنَّمـا الشَّجاعةُ في الجهادِ يا معاشرَ العباد؛ فإنَّها مِنْ أعظمِ الوسـائلِ وأنجحِ الفضـائلِ المُعِينَـةِ على النَّصـرِ والتَّمكينِ وحفـظِ الحـوزةِ وسـلامةِ الملَّـةِ ودفـعِ الكافرينَ وإرهـابِ الطَّـواغيتِ والمرتـدين، الشَّجاعةُ والجـرأةُ والبَسَالَةُ والبطولة.

يقضي الكريمُ مدافعًا عن عرضِهِ *** ويموتُ عنْ أشبالِهِ الضِّرغامُ
يعلو الحِمَى بأشاوسٍ مِن أهلِهِ *** وتُعَزُّ في آسادِهَا الآجامُ

لـذا كانَ حـديثُنا اليـومَ تحتَ عنـوان: "بـالقوَّةِ والشَّجاعة: تُـدفَعُ من أممِ الكفـرِ العداوة".

الشَّجاعةُ ما الشَّجاعة؟ الشَّجاعةُ هي شدَّةُ القلبِ عند البأس، وهي هيئةٌ حاصلةٌ للقوَّةِ الغضبيَّةِ بين التَّهوُّرِ والجبن، بها يقدمُ على أمورٍ ينبغي أن يقدمَ عليها، كقتالِ الكفَّارِ ونحوهِمْ، وقيل: هي الإقدامُ على المكارهِ والمهالكِ عندَ الحاجةِ لذلك، وثباتُ الجأشِ عندَ المخاوف، والاستهانةُ بالموت.

وقد أطنبَ ابنُ حزمٍ فقال: "حدُّ الشَّجاعةِ بذلُ النَّفسِ للموتِ عَنِ الدِّينِ والحريمِ وعَنِ الجارِ المُضطَهَدِ وعنِ المستجيرِ المظلومِ وعنِ الهضيمةِ ظلمًا في المالِ والعرضِ وفي سائرِ سُبُلِ الحقِّ، سواء قلَّ مَن يعارضُ أو كَثُر".

وإنَّ الشَّجاعةَ مِنَ القلب هي: ثباتُهُ واستقرارُهُ عندَ المخاوف، وهو خُلُقٌ يتولَّدُ مِنَ الصَّبرِ وحسنِ الظَّن؛ فإنَّه متى ظنَّ الظَّفَرَ وساعدَهُ الصَّبْرُ ثبت، كما أنَّ الجبنَ يتولَّدُ مِنْ سوءِ الظَّنِّ وعدمِ الصَّبر، فلا يظنُّ الظَّفرَ ولا يساعدُهُ الصَّبرُ؛ لذا كانَ الشُّجاعُ هو الجريءَ المِقْدَامَ في الحرب، ضعيفًا كانَ أو قويًّا، والجرأةُ قوَّةُ القلبِ الدَّاعي إلى الإقدامِ على المكاره؛ فالشَّجاعةُ تنبئُ عَنِ الجرأة، والبَسَالَةُ تنبئُ عَنِ الشِّدَّة.

إنَّ السَّماحةَ والشَّجاعَةَ *** في الفَتَى خيرُ الغَرَائز

ولقدْ أمرَ اللهُ -سبحانه وتعالى- المسلمينَ بالقتالِ في سبيلِ اللهِ والثَّباتِ عليهِ والإقدامِ في الحروبِ وعدمِ الجبنِ والخوف؛ قالَ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)} [سورة الأنفال].

هذا، وقد كانَ -عليه الصلاة والسلام- يستعيذُ مِنَ الجبنِ الَّذي هو نقيضُ الشَّجاعة، وقد روى البخاريُّ عنْ عمرو بن ميمونٍ الأوديّ قال: كانَ سعدٌ يعلِّمُ بنيه هؤلاءِ الكلماتِ كما يعلِّمُ المعلِّمُ الغلمانَ الكتابة، يقولُ: "إنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يتعوَّذُ منهُنَّ دُبُرَ الصَّلاة: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ،

وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ)". فحدَّثتُ بها مصعبًا فصدَّقه.

قالَ المُهَلَّبُ: "أمَّا استعاذتُهُ -عليه الصلاة والسلام- مِنَ الجُبْنِ: فلأنَّهُ يؤدِّي إلى عذابِ الآخرة؛ لأنَّهُ يفرُّ مِنْ قرنه في الزَّحفِ فيَدْخُلُ تحتَ وعيدِ الله؛ لقوله: {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ} الآية، قالَ: وربَّمَا يُفتَنُ في دينِهِ فيرتدُّ لجُبْنٍ أدركه".

وعنْ عبادةَ بنِ الصَّامتِ قال: "بايعنا رسولَ الله ﷺ على السَّمعِ والطَّاعةِ في العسرِ واليسرِ والمنشطِ والمكره، والأَثَرَةِ علينا، وأن لا ننازعَ الأمرَ أهلَهُ، وأنْ نقولَ بالحقِّ حيثما كنَّا لا نخافُ في الله لومةَ لائمٍ"، [متَّفقٌ عليه].

وإنَّه في ظلِّ تداعي الأممِ على المسلمينَ مِن كلِّ حَدَبٍ وصوب، وتَحَالُفِ الملاحدةِ والمرتدِّينَ مع الصَّليبيِّين، وتشكيلِ هيئةِ الأممِ المتَّحدةِ على المسلمين؛ كانَ لا بدَّ مِن مواجهةِ الأمم؛ فليسَ الفرارُ والجبنُ والعجزُ والتَّنازلُ إلَّا مِنْ صفاتِ الضُّعفاءِ الجُبَنَاءِ الأذلَّاءِ الصُّغراء، وأمَّا أهلُ الإسلام؛ فهُمْ أهلُ قوَّةٍ وشَجَاعَة، أهلُ نَجْدَةٍ وأَنَفَة، أهلُ عزَّةٍ ورِفْعَةٍ وبأس، لا يُعطُونَ الدَّنيَّةَ ولا يفرُّونَ من المواجهةِ ولا يَهِنُونَ ولا يَضعُفُون، وحتَّى يستردَّ المسلمونَ عزَّتَهُمْ، ويَحفَظُوا دولتَهُمْ، وينشروا خلافتَهَمْ، ويرفعوا رايتَهُم؛ كانَ ولا بدَّ مِنْ مصادمةِ ومدافعةِ الأُمَم، بشجاعةٍ وبأسٍ وشَمَم.

فيا أيُّها المسلمُ، احرصْ على الموتِ؛ تُوهَبْ لكَ الحياةُ، لقد خطبَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ النَّاسَ لمَّا بلغه قتلُ مصعبٍ أخيهِ فقالَ بكلِّ شجاعة: "إنْ يُقتَلْ؛ فقد قُتِلَ أبوهُ وأخوهُ وعمُّه، وإنَّا -واللهِ- لا نموتُ حتفًا، ولكنْ نموتُ قعصًا بأطرافِ الرِّماح، وموتًا تحتَ ظلالِ السُّيوف، وإنْ يُقتَلْ مصعبٌ؛ فإنَّ في آلِ الزُّبيرِ خَلَفًا منه"، هكذا كانوا صِلَابًا شِدَادًا ثِبَاتًا شُجعانًا.

ثمَّ إنَّ الشَّجاعةَ مِنَ الغرائزِ الَّتي يمكنُ تنميتُها واكتسابُها، وقد كتبَ زيادٌ إلى ابنِ عبَّاسٍ قائلًا: "أنْ صِفْ لي الشَّجاعةَ والجبنَ والجودَ والبخل". فكتبَ إليه: "كتبتَ تسألُني عنْ طبائعَ رُكِّبَتْ في الإنسانِ تركيبَ الجوارح، اعلمْ أنَّ الشُّجاعَ يقاتلُ عمَّنْ لا يعرفُه، والجبانَ يفرُّ عنْ عُرْسِه، وإنَّ الجوادَ يعطي مَن لَا يلزمُه، وإنَّ البخيلَ يُمْسِكُ عنْ نفسِه".

يفرُّ جبانُ القومِ مِنْ أمِّ نفسِهِ *** ويحمي شجاعُ القومِ مَن لَا يناسِبُه

وقد قالوا: "حدُّ الشَّجاعةِ سِعَةُ الصَّدرِ بالإقدامِ على الأمورِ المُتْلِفَة"، وسُئِلَ بعضُهُمْ عَنِ الشَّجاعةِ فقالَ: "جَلَبَةُ نفسٍ أبيَّة"، قيل له: فما النَّجدةُ؟ قال: "ثقةُ النَّفسِ عند استرسالِهَا إلى الموتِ حتَّى تُحمَدَ بفعلِهَا دونَ خوف"، وقيلَ لبعضِهِمْ: ما الشَّجاعةُ؟ فقال: "صبرُ ساعة"، وقالَ بعضُ أهلِ التَّجارب: "الرِّجالُ ثلاثةٌ: فارسٌ، وشجاعٌ، وبطلٌ؛ فالفارسُ الَّذي يَشُدُّ إذا شَدُّوا، والشُّجاعُ الدَّاعي إلى البِرَازِ والمُجِيبُ داعيه، والبَطَلُ الحامي لظهورِ القومِ إذا وَلَّوا".

وإنَّه -معاشر المسلمين- لا حربَ بلا شَجَاعَة، ولا نصرَ ولا ثباتَ بلا شجاعة؛ فجسمُ الحربِ الشَّجاعة، وقلبُهَا التَّدبيرُ، ولسانُهَا المكيدةُ، وجناحُهَا الطَّاعةُ، وقائدُهَا الرِّفقُ، وسائقُهَا النَّصرُ.

قالَ ابنُ تيمية: "ولمَّا كانَ صلاحُ بني آدمَ لا يتمُّ في دينِهِمْ ودنياهُمْ إلَّا بالشَّجاعةِ والكرم؛ بيَّنَ اللهُ سبحانه أنَّه مَن تولَّى عنْ تركِ الجهادِ بنفسِهِ أبدلَ اللهُ بِهِ مَن يقومُ بذلك، ومَن تولَّى عنهُ بإنفاقِ مالِهِ أبدلَ اللهُ بِهِ مَن يقومُ بذلك".

قالَ الذَّهبيُّ: "الشَّجاعةُ والسَّخاءُ أخوان، فمَن لم يَجُدْ بمالِهِ فلنْ يجودَ بنفسِه"، والشُّجاعُ ضدُّ البخيل؛ لأنَّ البخيلَ يضنُّ بمالِه، والشُّجاعُ يجودُ بنفسِه، كما قالَ القائلُ:

كم بينَ قومٍ إنَّما نفقاتُهُمْ *** مالٌ وقومٍ يُنفِقُونَ نُفُوسا

فمن يتَّصِفُ بالشَّجاعةِ يتحلَّى أيضًا بكبرِ النَّفسِ والنَّجدةِ وعِظَمِ الهمَّةِ والثَّباتِ والصَّبرِ والحلمِ وعدمِ الطَّيشِ والشَّهامةِ واحتمالِ الكدِّ.

قالَ ابنُ القيِّمُ: "والشَّجاعةُ تحملُ على عزَّةِ النَّفسِ وإيثارِ معالي الأخلاقِ والشَّمم، وعلى بذلِ النَّدى الَّذي هو شجاعةُ النَّفسِ وقوَّتُها، وعلى إخراجِ المحبوبِ ومفارقتِه، وتحملُهُ على كظمِ الغيظِ والحلم؛ فإنَّهُ بقوَّةِ نفسِهِ وشجاعتِهَا يُمْسِكُ عنانَهَا ويكبحُهَا بلجامِهَا عنِ النَّزغِ والبطش، كما قال: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي

يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)[1]، وهو حقيقةُ الشَّجاعة، وهي ملكةٌ يقتدرُ بها العبدُ على قهرِ خصمِه"، انتهى كلامُهُ -رحمه الله-.

وقالَ ابنُ القيّم: "والجبنُ خُلُقٌ مذمومٌ عندَ جميعِ الخلق، وأهلُ الجُبنِ هُمْ أهلُ سوءِ الظَّنِّ بالله، وأهلُ الشَّجاعةِ والجودِ هُمْ أهلُ حسنِ الظَّنِّ بالله، كما قالَ بعضُ الحكماءِ في وصيَّتِه: عليكُمْ بأهلِ السَّخاءِ والشَّجاعة؛ فإنَّهُمْ أهلُ حسنِ الظَّنِّ بالله، الشَّجاعةُ جُنَّةُ الرَّجلِ مِنَ المكاره، والجبنُ إعانةٌ منهُ لعدوِّهِ على نفسِه؛ فهو جندٌ وسلاحٌ يعطيه عدوَّهُ ليحاربَهُ به، وقد قالتِ العربُ: الشَّجاعةُ وِقَايَةٌ والجبنُ مقتلةٌ، وقد أكذبَ اللهُ سبحانه أطماعَ الجبناءِ في ظنِّهِمْ أنَّ جبنَهُمْ ينجيهِمْ مِنَ القتلِ والموت؛ فقالَ اللهُ تعالى: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ} [سورة الأحزاب: ١٦]، ولقد أحسنَ القائلُ:

أقولُ لها وقد طَارَتْ شُعَاعا *** مِنَ الأبطالِ ويحكِ لم تُرَاعِي
فإنَّكِ لو طلبتِ حياةَ يومٍ *** على الأجلِ الَّذي لكِ لم تُطَاعِي
فصبرًا في مجالِ الموتِ صبرًا *** فما نيلُ الخلودِ بمُسْتَطَاعِ
ومَا ثوبُ الحياةِ بثوبِ عزٍّ *** فيُطْوَى عَنْ أخِ الخنعِ اليَرَاعِ
سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حيٍّ *** وداعيهِ لأهلِ الأرضِ داعِ
ومن لا يُعْتَبَطْ يَهْرَمْ ويَسْأَمْ *** ويُفْضِ بِهِ البقاءُ إلى انقطاعِ
وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ *** إذا ما عُدَّ مِنْ سَقَطِ المتاعِ".

معاشرَ الموحِّدين، إنَّ الشَّجاعةَ لَمِنْ أحسنِ الفضائلِ وأكملِهَا وأعلاها رتبةً، والَّتي لا تتمُّ مصلحةُ الإمارةِ والسِّياسةِ إلَّا بها، قالَ ابنُ تيمية: "لا يتمُّ رعايةُ الخلقِ وسياستُهُمْ إلَّا بالجودِ الَّذي هو العطاءُ، والنَّجدةِ الَّتي هي الشَّجاعة، بلْ لا يَصلُحُ الدِّينُ والدُّنيا إلَّا بذلك؛ ولهذا كانَ مَن لا يقومُ بهمَا سَلَبَهُ الأمرُ ونَقَلَهُ إلى غيرِه، كما قالَ اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)} [سورة التوبة]، وقال تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ

[1] رواه البخاري.

الْفَتْحِ وَقَاتَلَۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ} [سورة الحديد: ١٠]، فعلَّقَ الأمرَ بالإنفاقِ الَّذي هو السَّخاءُ، والقتالِ الَّذي هو الشَّجاعة، وكذلك قالَ اللهُ تعالى في غيرِ موضعٍ: {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [سورة التوبة: ٤١]".

وقالَ في موضعٍ آخر: "إنَّ عليهِمْ -أي: ولاة الأمور- مِنَ الشَّجاعةِ والسَّماحةِ مَا ليسَ على غيرهم؛ لأنَّ مصلحةَ الإمارةِ لا تتمُّ إلَّا بذلك".

وإنَّ مِنْ آثارِ الشَّجاعةِ وفضائلِها وثمارِها: النَّجدةَ وكبرَ النَّفسِ وعظمَ الهمَّةِ والثَّباتَ والحلمَ والسُّكونَ والشَّهامةَ واحتمالَ الكدِّ والاطمئنان.

وقد تحدَّثَ ابنُ القيِّمِ بكلامٍ قيِّمٍ عنْ مراتبِ الشُّجعان، فذَكَرَ أوَّلَ مراتبِهِم: "الهُمَام؛ وسُمِّيَ بذلكَ لهمَّتِهِ وعزمِهِ، الثَّاني: المِقْدَام؛ وسُمِّيَ بذلكَ مِنَ الإقدامِ وهو ضدُّ الإحجام، الثَّالث: الباسلُ، وهو اسمُ فاعلٍ مِنْ بَسَلَ يبسلُ، والبسالةُ: الشَّجاعةُ والشِّدَّة، الرَّابعُ: البَطَلُ، وجمعُهُ أبطالٌ، وفي تسميتِهِ قولانِ: أحدُهُمَا: لأنَّه يُبطِلُ فعلَ الأقران، فتَبطُلُ عندَهُ شجاعةُ الشُّجعان، والثَّاني: أنَّه بمعنى فاعلٍ لفظًا ومعنًى؛ لأنَّه الَّذي يُبطِلُ شجاعةَ غيرِه، فيجعَلُها بمنزلةِ العدم، فهو بطلٌ بمعنى مُبْطِلٌ، ويجوزُ أن يكونَ "بَطَلٌ" بمعنى مُبطلٌ بوزنِ مكرمٌ، وهو الَّذي قد بَطَلَهُ غيرُه؛ فلشجاعتِهِ تحاماهُ النَّاسُ، فبطلوا فعلَهُ باستسلامِهِمْ له، وتركِ محاربتِهِمْ إيَّاهُ، الخامسُ: الصِّنديدُ بكسرِ الصَّاد"، انتهى كلامُه.

وإنَّ ممَّا يعينُ على اكتسابِ خُلُقِ الشَّجاعةِ وسائلَ، ومن ضمنِهَا اللُّجوءُ إلى اللهِ بالدُّعاءِ والذكر؛ قالَ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)} [سورة الأنفال]، فأمر بالثَّباتِ عندَ قتالِ الكفَّار -كما في الآيةِ قبلَهَا النَّهيُ عَنِ الفرارِ عنهُمْ-. فالتقى الأمرُ والنَّهيُ على سواءٍ، وهذا تأكيدٌ على الوقوفِ للعدوِّ والتَّجلُّدِ له.

وقولُهُ تعالى: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، للعلماءِ في هذا الذِّكرِ ثلاثةُ أقوال؛ الأوَّل: اذكروا اللهَ عندَ جَزَعِ قلوبِكُم؛ فإنَّ ذكرَهُ يعينُ على الثَّباتِ في الشَّدائد، الثَّاني: اثبتوا بقلوبكُمْ واذكروهُ بألسنتِكُمْ؛ فإنَّ القلبَ لا يسكنُ عندَ اللِّقاءِ ويضطربُ

اللِّسـان، فـأمرَ بالـذِّكرِ حتَّى يثبتَ القلبُ على اليقين، ويثبتَ اللِّسـانُ على الـذِّكر، ويقولَ ما قالَهُ أصحابُ طالوت: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)} [سورة البقرة]، وهذهِ حالـةٌ لا تكونُ إلَّا عن قوَّةِ المعرفةِ واتِّقادِ البصيرة، وهي الشَّجاعةُ المحمودةُ في النَّاس، الثَّالث: اذكروا مَا عندَكُمْ مِنْ وعدِ اللهِ لكُمْ في ابتياعِهِ أنفسَكُمْ ومثابتِهِ لكُمْ.

وكذا أيضًا ممَّا يعينُ على اكتساب خُلُقِ الشَّجاعة: ترسيخُ عقيدةِ الإيمانِ بقضاءِ اللهِ وقـدرِه، وأنَّ الإنسـانَ لن يصيبَهُ إلَّا مـا كتبَ اللهُ لـه، والتَّـدريبُ العمليُّ بـدفعِ الإنسـانِ إلى المواقـفِ الحَرِجَـةِ الَّتي لا يتخلَّصُ منهـا إلَّا بـأن يتشجَّع، والاقتنـاعُ بـأنَّ معظمَ مُثِيرَاتِ الجبنِ لا تعـدو بأنَّهـا أوهـامٌ لا حقيقـةَ لهـا، وكـذا النَّظـرُ في القـدوةِ الحسنةِ من الشُّجعان، وعرضُ مشاهدِ الشُّجعانِ وذكرُ سِيَرِهِم.

وهـا نحنُ نمثِّلُ لكُمْ -معاشـر المسلمين- صُـوَرًا وسِـيَرًا ومواقـفَ وعِبَرًا مِنْ أحـوالِ الشُّجعان، وأقوالِ وأعمالِ الفرسان، وخيرُ مَا نبدأ فيهِ بالإعلان؛ أستاذُ هذا الميدانِ النَّبيُّ العـدنان -عليـه الصلاة والسـلام-؛ فقـدْ كانَ -عليـه الصلاة والسلام- أشجعَ النَّاسِ وأمضاهُمْ عزمًا وأحسنَهُمْ إقدامًا، كانَ النَّاسُ يفرُّونَ وهـو ثابتٌ مِقْدَامٌ وغيرُ هيَّاب، قـالَ رجلٌ للبراء: يا أبا عِمَارَة، أفررتُمْ يومَ حُنَينٍ؟ قـال: "لا واللهِ، ما وَلَّى رسـولُ اللهِ ﷺ، ولكنَّـهُ خَـرَجَ شُـبَّانٌ أصحابُه، ليسَ عليهِمْ سـلاحٌ أو كثيرُ سـلاح، فلقـوا قومًـا رمـاةً لا يكادُ يسـقطُ لهُمْ سـهمٌ جمعُ هـوازنَ وبني نصـر، فرشـقوهُمْ رشـقًا مـا يكادونَ يُخطِئـون، فـأقبلوا هنالـكَ إلى رسـولِ اللهِ ﷺ ورسـولُ اللهِ ﷺ على بغلتِـهِ البيضـاءِ وأبـو سـفيانَ بنُ الحـارثِ يقـودُ بـه، فنَزَلَ فاسـتنصر، وقـال: (أَنا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ)[١]، ثمَّ صفَّهُمْ.

وعنْ عليٍّ -رضي الله عنه- قال: "لقد رأيتُنا يومَ بدرٍ ونحنُ نلوذُ برسولِ اللهِ ﷺ وهـو أقربُنا إلى العدو، وكانَ مِنْ أشدِّ النَّاسِ يومئذٍ بأسًا"، وعنْ أنسٍ قـال: "كان النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- أحسنَ النَّاسِ وأجودَ النَّاس وأشجعَ النَّاس؛ ولقد فَزِعَ أهلُ المدينةِ ذاتَ ليلـة، فـانطلقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّـوت، فاسـتقبلهُمُ النبيُّ ﷺ وقـد سـبقَ النَّـاسَ إلى الصَّوت، وهو يقول: (لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا)، وهُوَ على فرسٍ لأبي طلحةَ عريٍّ مَا عليهِ

[١] رواه البخاري.

سِرْجٌ، في عنقِهِ سيفٌ، ولقد وجدتُهُ بَحْرًا أو إنَّه لَبَحْرٌ"[١]، وعنِ ابنِ عمرَ قال: "ما رأيتُ أحدًا أجودَ ولا أنجدَ ولا أشجعَ ولا أرضى مِنْ رسولِ الله ﷺ"، وعنْ عمرانَ بنِ حُصَيْنٍ قال: "ما لقي النَّبيُّ ﷺ كتيبةً إلَّا كانَ أوَّلَ مَن يضربُ، فداهُ أبي وأمِّي ﷺ".

وعَنِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ -رضي الله عنه- قال: "شهدتُّ مع رسولِ الله ﷺ يومَ حُنَين، فلزمتُ أنا وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلب رسولَ الله ﷺ فلم نفارقْهُ، ورسولُ اللهِ على بغلةٍ لَهُ بيضاءَ، فلمَّا التقى المسلمونَ والكفَّارُ؛ ولَّى المسلمونَ مدبرين، فطَفِقَ رسولُ الله يركضُ ببغلتِهِ قِبَلَ الكفَّار، قالَ ابنُ عبَّاس: وأنا آخذٌ بلجامِ بغلةِ رسولِ الله ﷺ أكفُّها إرادةَ ألَّا تُسرِعَ، وأبو سفيانَ آخذٌ بركابِ رسولِ الله ﷺ، فقالَ رسولُ الله: (أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ)، فقالَ عبَّاسٌ -وكانَ رجلًا صيِّتًا-: فقلت بأعلى صوتي: أينَ أصحابُ السَّمُرَة؟ قال: فوالله لكأنَّ عَطْفَتَهُمْ حينَ سمعوا صوتي عطفةُ البقرِ على أولادِهَا، فقالوا: يا لبَّيك! يا لبَّيك! قال: فاقتتلوا والكفَّارُ، والدَّعوةُ في الأنصارِ يقولون: يا معشرَ الأنصار! يا معشرَ الأنصار! قال: ثمَّ قَصُرَتِ الدَّعوةُ على بني الحارثِ بنِ الخزرج، فقالوا: يا بني الحارثِ بنِ الخزرج! يا بني الحارث بن الخزرج! فنظر رسولُ الله ﷺ وهو على بغلتِهِ كالمتطاولِ عليهَا إلى قتالِهِمْ، فقالَ رسولُ الله: (هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ)"[٢].

ولأنه -صلوات الله وسلامه عليه- أشجعُ النَّاس؛ فكذلك وارثُه وخليفتُهُ من بعدِهِ أشجعُ الأمَّةِ بالقياس، ويكفي أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ سهمٌ من كنانته، وخالدُ بنُ الوليدِ سلاحٌ مِنْ أسلحته، والمهاجرونَ والأنصارُ أهلُ بيعتِهِ وشوكتِه، ما منهُمْ إلَّا مَنِ اعترفَ أنَّه يستمدُّ من ثباتِهِ وشجاعتِه.

مَن لي بجيلٍ مستجدٍّ لم يرثْ *** إلَّا عَنِ الجَدِّ القديمِ الأبعدِ
يرث أبا حفصٍ في أصالةِ رأيِهِ *** أو خالدًا في عزمِهِ المتوقِّدِ
جيلٌ إذا سيمَ الهوانَ أبى *** وإن يُطلَبْ إليه البذلُ لم يتردَّدِ
يهوى الحياةَ عقيدةً ويعافُها *** فوضى ويُدعَى للفداءِ فيفتدي

---

١ رواه البخاري.

٢ رواه مسلم.

شجاعةُ أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وهذا الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه- أشجعُ الأمَّةِ بعد رسولِ الله ﷺ؛ بـرز على الصَّحابةِ كلِّهِمْ بثبـاتِ قلبِـهِ في كلِّ مـوطنٍ مِنَ المواطنِ الَّـتي تزلـزلُ الجبال، وهو في ذلك ثابتُ القلبِ ربيطُ الجأش، يلوذُ به شجعانُ الصَّحابةِ وأبطالُهم، فيثبِّتُهُمْ ويشجِّعُهُم، ولو لم يكنْ لَهُ إلَّا ثباتُ قلبِهِ يومَ الغارِ وليلتَه، وثباتُ قلبِهِ يومَ بدر، وثباتُ قلبه يومَ أُحُدٍ وقد صرخَ الشَّيطانُ في النَّاسِ بأنَّ محمَّدًا قد قُتِل، ولم يبقَ أَحَدٌ مع رسولِ الله إلَّا دونَ عشرينَ في أُحُد، وهو مع ذلك ثابتُ القلبِ ساكنُ الجأش، وثباتُ قلبه يومَ الخندقِ أيضًا وقدْ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجر، وثباتُ قلبه يومَ الحديبيةِ وقد قَلِقَ فارسُ الإسلامِ عمرُ، حتَّى إنَّ الصِّدِّيقَ ليثبِّتُهُ ويسكِّنُهُ ويطمئنُهُ، وثباتُ قلبه يومَ حُنَينٍ حيثُ فرَّ النَّاسُ وهو لم يفرَّ.

وثباتُ قلبه حينَ النَّازلةِ الَّتي اهتزَّتْ لها الدُّنيا أجمعُ، وكادتْ تزولُ لها الجبالُ، وعُقِرَتْ لها أقدامُ الأبطال، وماجتْ لها قلوبُ أهلِ الإسلامِ كموجِ البحرِ عندَ هبوبِ قواصفِ الرِّياح، وصاح لها الشَّيطانُ في أقطارِ الأرضِ أبلغَ الصِّياح، وخرج النَّاسُ بها من دينِ اللهِ أفواجًا، وأثار عدوُّ الله بها أقطارَ الأرضِ عجاجًا، وانقطعَ لها الوحيُ من السَّماء، وكادَ لولا دِفَاعُ اللهِ لطُمِسَ نجومُ الاهتداء، وأنكرتِ الصَّحابةُ بها قلوبَهم، كيف لا، وقد فقدوا رسولَهم بينَ أظهرِهم وحبيبَهُم؟! وطاشتِ الأحلامُ، وغَشِيَ الآفاقَ ما غشيها مِنَ الظَّلام، واشرأبَّ النفاق، ومدَّ أهلُه الأعناق، ورفع الباطلُ رأسًا كانَ تحتَ قدمِ الرَّسولِ موضوعًا، وسمع المسلمونَ من أعداءِ اللهِ ما لم يكنْ في حياتِهِ مسموعًا، وطَمِعَ عدوُّ الله أن يعيدَ النَّاسَ إلى عبادةِ الأصنام، وأن يَصرِفَ وجوهَهم عنِ البيتِ الحرام، وأن يصدَّ قلوبَهم عن الإيمانِ والقرآن، ويدعوهم إلى ما كانوا عليه من التَّهوُّد والتَّمجُّس والشِّركِ وعبادةِ الأصنام!

فشمَّر الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه- من جِدِّهِ عنْ ساقٍ غيرِ خوَّار، وانتضى سيفَ عزمِه الَّذي هو ثاني ذي الفقار، وامتطى من ظهورِ عزائمِهِ جوادًا لم يكنْ يكبو يومَ السِّباق، وتقدَّم جنودَ الإسلامِ فكان أفرسَهُمْ وإنَّما همُّهُ اللَّحاق، وقال: "والله، لأجاهدنَّ أعداءَ الإسلامِ جهدي، ولَأَصْدُقَنَّهُمُ الحربَ حتَّى تنفردَ سالفتي أو أُفْرَدَ وَحْدِي، ولَأُدْخِلَنَّهُمْ في البابِ الَّذي خرجوا منه، ولأردَّنَّهُمْ إلى الحقِّ الَّذي رَغِبُوا عنه"، فثبَّتَ اللهُ بذلك القلبَ الذي لو وُزِنَ بِقلوبِ الأمَّة لرَجَحَهَا، فسيَّر جيوشَ الإسلام،

وأذلَّ بها المنافقينَ والمرتدِّينَ وأهلَ الكتابِ وعبدةَ الأصنام؛ حتَّى استقامتْ قناةُ الدِّينِ بعدَ اعوجاجِهَا، وجرتِ الملَّة الحنيفيَّةُ على سَنَنِهَا ومنهاجِها، وتولَّى حزبُ الشَّيطانِ وهُمُ الخاسرون، وأذَّنَ مؤذِّنُ الإيمانِ على رؤوسِ الخلائق: {فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)} [سورة التوبة].

هذا، وما ضَعُفَ جيوشُ عزماته، وَلَا اسْتَكَانَتْ ولا وَهَنَتْ، بلْ لم تزلِ الجيوشُ بها مؤيَّدَةً منصورةً، وما فرحتْ عزائمُ أعدائِهِ بالظَّفرِ في موطنٍ من المواطن، بل لم تزلْ مغلوبةً مكسورةً، وتلك -لعَمْرُ الله- الشَّجاعةُ التي تضاءلتْ لها فرسانُ الأمم، والهمَّةُ التي تصاغرتْ عندها عليَّاتُ الهِمَم، ويحقُّ لصدِّيقِ الأمَّة أن يضربَ مِنْ هذا المغنمِ بأوفرِ نصيب، وكيفَ لا، وقد فاز مِن ميراثِ النبوَّةِ بكمالِ التَّعصُّب؟!

معشرٌ أمسكتْ حلومُهُمُ الأرضَ *** وكادتْ لولاهُمُ أن تميدَا
فإذا الجدبُ جاءَ كانوا غيوثًا *** وإذا النَّقعُ ثارَ ثاروا أسودا
وكأنَّ الإلهَ قالَ لهُمْ في الحربِ *** كونوا حجارةً أو حديدا

عن أبي هريرةَ قال: لمَّا تُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ واستخلف أبو بكرٍ بعدَهُ، وكفر مَنْ كفر مِنَ العرب؛ قال عمرُ بنُ الخطَّابِ لأبي بكر: "كيفَ تقاتلُ النَّاسَ وقد قالَ رسولُ الله ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَمَنْ قالَها فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسابُهُ على اللَّهِ)؟!"، فقالَ أبو بكر: "والله، لأقاتلنَّ مَن فرَّق بين الصَّلاةِ والزَّكاة؛ فإنَّ الزَّكاةَ حقُّ المال، والله، لو منعوني عِقالًا كانوا يؤدُّونَهُ إلى رسولِ الله ﷺ؛ لقاتلتُهُمْ على منعِه"، فقالَ عمرُ بنُ الخطَّاب: "فوالله، ما هو إلَّا أنْ رأيتُ أنَّ الله -عز وجل- قد شرح صدرَ أبي بكرٍ للقتال، فعرفتُ أنَّه الحقُّ"[١].

وعنْ محمَّدِ بن عقيلِ بنِ أبي طالبٍ قال: خطبنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ -رضي الله عنه- فقال: "أيُّها النَّاس، أخبروني بأشجعِ النَّاس"، قالوا: قلنا: أنتَ يا أميرَ المؤمنين، فقال: "أما إنِّي ما بارزتُ أحدًا إلَّا انتصفتُ منه، ولكنْ أخبروني بأشجعِ النَّاس"، قالوا: لا نعلمُ، فمن؟ قال: "أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ؛ إنَّا لمَّا كنَّا يومَ بدر، جعلنا لرسولِ الله ﷺ عريشًا، قلنا: فمن يكونُ مع النبيِّ ﷺ لا يَهوِي إليه أحَدٌ من المشركين؟ فوالله، ما دنا

[١] متفق عليه.

منّا أحدٌ إلَّا أبو بكرٍ شاهرٌ بالسَّيفِ على رسولِ الله ﷺ، لا يهوي إليه أحدٌ إلَّا هوى إليه، وهذا أشجعُ النَّاس".

قال عليٌّ: فلقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ أخذتْهُ قريشٌ، فهذا يَجَأهُ وهذا يُتَلْتِلُه، وهم يقولون: أنتَ الَّذي جعلتَ الآلهةَ إلهًا واحدًا؟! قال: فوالله، ما دنا منه إليه أحدٌ إلَّا أبو بكر، يضربُ هذا، ويَجَأُ هذا، ويُتَلْتِلُ هذا، وهو يقولُ: "ويلكم! أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟!"، أمؤمنُ آلِ فرعونَ خيرٌ أم أبو بكر؟ قال: فسكتَ القومُ، فقال: ألا تجيبوني؟! واللهِ لساعةٌ مِن أبي بكرٍ خيرٌ من ملء الأرضِ من مثلِ مؤمنِ آلِ فرعون؛ ذاك رجلٌ يكتمُ إيمانَه، وهذا رجلٌ أعلنَ إيمانَه.

وأمَّا ابنُ الخطَّابِ عمرُ؛ فرجلُ الشُّجعانِ وسيِّدُ الفرسانِ وبطلُ هذا الميدان؛ فعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ -رضي الله عنه- قال: "ما زلنا أعزَّةً منذُ أسلمَ عمر"، وعن ابنِ عمرَ قال: "لمَّا أسلمَ عمرُ بنُ الخطَّاب -رضي الله عنه-؛ لم تعلم قريشٌ بإسلامه، فقال: أيُّ أهلِ مكَّةَ أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميلُ بنُ معمر، فخرجَ إليهِ وأنا معهُ أتَّبعُ أثرَهُ، أعقلُ ما أرى وأسمعُ، فأتاهُ فقال: يا جميلُ، إنِّي قد أسلمتُ، قالَ: فوالله، ما ردَّ عليه كلمةً، حتَّى قامَ عامدًا إلى المسجد، فنادى أنديةَ قريشٍ، فقال: يا معشرَ قريش، إنَّ ابنَ الخطَّابِ قد صبأ، فقال عمرُ: كذبَ، ولكنِّي أسلمتُ وآمنتُ بالله، وصدَّقتُ رسولَه، فثاروا في وجهه، فقاتلهُمْ حتَّى ركدتِ الشَّمسُ على رؤوسهم، حتَّى فتر عمرُ وجلس، فقاموا على رأسِهِ، فقالَ عمرُ: افعلوا ما بدا لكُمْ! فوالله، لو كنَّا ثلاثمئةِ رجلٍ لقد تركتموها لنا، أو تركناها لكُمْ".

وعنْ محمَّدِ بنِ إسحاقَ قال: "لمَّا قَدِمَ عبدُ اللهِ بنُ أبي ربيعةَ وعمرو بنُ العاصِ على قريش، ولم يدركوا ما طلبوا مِنْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وردَّهُمُ النجاشيُّ بما يكرهون؛ أسلمَ عمرُ بنُ الخطَّاب، وكانَ رجلًا ذا شكيمة، لا يُرامُ ما وراءَ ظهرِه، امتنع به أصحابُ رسولِ الله ﷺ وبحمزةَ بنِ عبدِ المطَّلب، حتَّى غزا قريش، فكان عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ يقولُ: ما كنَّا نقدرُ على أن نصليَ عندَ الكعبةِ حتَّى أسلم عمرُ بنُ الخطَّاب، فلمَّا أسلمَ قاتلَ قريشًا حتَّى صلَّى عندَ الكعبةِ وصلَّينا معه رُغْمًا عنْ أنوفِ صناديدِ المشركين، وكان إسلامُ عمرَ بعدَ خروجِ مَن خرج من أصحابِ النبيِّ ﷺ إلى أرضِ الحبشة".

وأمَّا عليُّ بنُ أبي طالب؛ فقويٌّ شجاعٌ مجرَّبٌ بطلٌ، لا يعرفُ الخوفُ إلى قلبِهِ طريقًا، صرعَ الأبطالَ وغلبَ شدائدَ الرِّجال، ونالَ مِنْ عدوّهِ ما نال، وصالَ وجالَ؛ حتَّى صارَ في ذا البابِ مضربَ الأمثال؛ فعن سلمةَ بنِ الأكوعِ -رضي الله عنه- قال: "لمَّا قدمنا خيبرَ، خرجَ مَلِكُهُمْ "مَرْحَبٌ" يخطرُ بسيفِهِ ويقولُ:

قد علمتْ خيبرُ أنِّي مرحب
شاكي السِّلاحِ بطلٌ مجرَّب
أَضرِبُ أحيانًا وحينًا أُضرَب

قال: وبرزَ له عمِّي عامرٌ فقالَ:

قد علمتْ خيبرُ أنِّي عَامِر *** شاكي السِّلاحِ بطلٌ مُغَامِر

قال: فاختلفا ضربتين، فوقع سيفُ مرحبٍ في تُرْسِ عامر، وذهبَ عامرٌ يَسْفُلُ له، فرجعَ سيفُهُ على نفسِه، فقطع أَكْحُلَه، فكانتْ فيها نفسه، قالَ سلمةُ: فخرجتُ فإذا نفرٌ مِنْ أصحابِ النبيِّ ﷺ يقولون: بطلَ عملُ عامرٍ؛ قَتَلَ نفسَهُ، فأتيتُ النبيَّ ﷺ وأنا أبكي، فقلتُ: يا رسولَ الله، بطلَ عملُ عامرٍ، قالَ رسولُ الله ﷺ: (مَنْ قَالَ ذَلِكَ؟)، قال: قلتُ: ناسٌ مِنْ أصحابِك، قال: (كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ، بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ)، ثمَّ أرسلني إلى عليٍّ وهو أَرْمَدُ، فقال: (لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ).

قال: فأتيتُ عليًّا فجئتُ به أقودُهُ وهو أرمدُ، حتَّى أتيتُ به رسولَ الله ﷺ فبَصَقَ في عينيه فبرأ، وأعطاهُ الرَّاية، وخرجَ مرحبٌ، فقال:

قد علمتْ خيبرُ أنِّي مَرْحَب
شاكي السِّلاحِ بطلٌ مجرَّب
إذا الحروبُ أقبلتْ تَلهَب

فقالَ عليٌّ:

أنا الَّذي سمَّتْنِي أمِّي حيدره
كليثِ غاباتٍ كريهِ المنظره

أُوفِيهِمُ بالصَّاعِ كيلَ السَّندرة

قال: فضربَ رأسَ مَرْحَبٍ فقتلَهُ، ثمَّ كانَ الفتحُ على يديه"[١].

وأمَّا الزُّبير؛ فمِقْدَامٌ لا يهابُ، وشجاعٌ لا يرتاب، يكرُّ حيث يكِعُّ الشُّجعان، يشدُّ على النَّاسِ حتَّى لا يبقى في وجوهِهِمْ إلَّا هو من شدَّةِ البأس، أجرأُ النَّاسِ على عدوِّه، عنْ عمرو بن دينارٍ قال: "كانَ يقال: أشجعُ الناسِ الزُّبيرُ، وأبسلُهُمْ عليٌّ -رضي الله عنه-"، والباسلُ فوقَ الشُّجاع، وعنْ هشامِ بنِ عروةَ عن أبيه: أنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ قالوا للزُّبيرِ يومَ اليرموك: ألا تشدُّ فنَشُدَّ معك؟ قال: "إنِّي إذا شددتُ كذبتُمْ"، فقالوا: لا نفعل، فحملَ عليهِمْ حتَّى شقَّ صفوفَهم، فجاوزهُمْ وما معه أحدٌ، ثمَّ رجعَ مُقبلًا، فأخذوا بلجامِهِ فضربوهُ ضربتينِ على عاتقِهِ بينهُمَا ضربةٌ ضُرِبَهَا يومَ بدر، قال عروةُ: "كنتُ أدخِلُ أصابعي في تلكَ الضَّرباتِ ألعبُ بها وأنا صغيرٌ، قال عروةُ: وكانَ معه عبدُ الله بنُ الزُّبيرِ يومئذٍ وهو ابنُ عشرِ سنين، حملَهُ على فرسٍ وكَّل به رجلًا"، وحالُهُ:

أشدُّ على الكتيبةِ لا أبالي *** أحتفي كانَ فيها أم سواهَا

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ قال: كنتُ يومَ الأحزابِ جُعِلتُ أنا وعمرُ بنُ أبي مسلمةَ في النِّساء، فنظرتُ فإذا أنا بالزُّبيرِ على فرسِهِ يختلفُ إلى بني قريظةَ مرَّتينِ أو ثلاثًا، فلما رجعتُ قلتُ: يا أبتِ رأيتُكَ تختلفُ، قال: "أَوَهَلْ رأيتَني يا بنيَّ؟" قلتُ: نعم، قال: "كانَ رسولُ الله ﷺ قال: (مَنْ يَأْتِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ؟)، فانطلقتُ، فلمَّا رجعتُ جمعَ لي رسولُ الله ﷺ أبويه فقال: (فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي)"[٢].

وأمَّا سيفُ اللهِ المسلول، والصِّنديدُ الَّذي لم يُغلَبْ، والبطلُ الشُّجاعُ المجرَّب، صاحبُ الإثخانِ والإرهابِ بمرتدَّةِ الأعراب، مَنْ هابهُ وخافهُ شُجعانُ الكفَّار، وحلَّ على يديهِ فيهِمْ خرابُ الدِّيار، وعلى يديهِ كانَ فتحُ الأمصار، قائدُ المجاهدين، مَن تكسَّرتْ في يدِهِ مِنْ ضَرْبِ الكفرةِ السُّيوف، وأسقاهُمْ مرَّ الحتوفِ وهُمْ وقوف، الشُّجاعُ الخالدُ، ابنُ الوليدِ خالدٌ.

---

١ رواه مسلم.

٢ رواه البخاري.

قالَ -رضي الله عنه-: "لقد رأيتُني يومَ مؤتةَ تقطَّعتْ في يدي تسعةُ أسيافٍ، وما صبرَ في يدي إلَّا صفيحةٌ يمانيَّةٌ"، ولمَّا احتضر قال: "لقد طلبتُ القتلَ مظانَّه، فلم يُقدَّرْ لي إلَّا أنْ أموتَ على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعدَ لا إله إلَّا الله، مِن ليلةٍ بِتُّهَا وأنا متترِّسٌ بترسي، والسَّماءُ تهلُّني، ننتظرُ الصُّبحَ حتَّى نُغِيرَ على الكفَّار"، ثمَّ قال: "إذا أنا متُّ، فانظروا سلاحي وفرسي، فاجعلوها عدَّةً في سبيل الله".

وهذهِ شهادةُ النَّصارى الرُّومِ في المسلمينَ وعلى رأسِهِمْ خالدٌ، قالوا: خرجنا إليهم -أيِ المسلمين- بعدما جاءنا مددُ أهلِ بعلبكَّ وأهلِ بصرى بيومٍ، فخرجنا وإنَّا لَأكثرُ مِنْ خالدٍ وأصحابِهِ بعشرةِ أضعافٍ أو أكثرَ، فما هو إلَّا أن دنونا منهُمْ، فثاروا في وجوهِنَا بالسُّيوفِ كأنَّهُمُ الأُسْدُ، فانهزمنا أقبحَ الهزيمة، وقَتَلُونا شرَّ المقتلة، فما عدنا نخرجُ إليهِمْ حتَّى صالحناهُمْ.

ولقد رأيتُ رجلًا منَّا -كنَّا نعدُّهُ بألفِ رجل- قال: "لئن رأيتُ أميرَهم لأقتلنَّهُ"، فلمَّا رأى خالدًا قيلَ له: هذا خالدٌ أميرُ القوم، فحَمَلَ عليه، وإنَّا لنرجو بأسَه أن يقتلَهُ، قال: فما هو إلَّا أنْ دنا منه، فضربَ خالدٌ فرسَهُ فقدمه عليه، ثمَّ استعرضَ وجهَهُ بالسَّيفِ فأطارَ قحفَ رأسِه، ودخلنا مدينتَنا، فما كانَ لنا منهُمْ إلَّا الصُّلحُ حتَّى صالحناهُمْ.

ثمَّ مرَّ خالدٌ بتدمر، فتحصَّنوا منه، وأحاط بهِمْ مِن كلِّ جانب، وأخذهُمْ من كلِّ مأخذٍ فلم يَقْدِرْ عليهم، فلمَّا لم يُطِقْهُمْ ترحَّلَ عنهم، وقالَ لهُمْ حينَ أراد أن يترحَّلَ فيما روى عبدُ اللهِ بنُ قِرْطٍ: "والله، لو كنتُمْ في السَّحابِ لاستنزلناكُمْ وظهَرْنَا عليكُمْ، ما جئناكُمْ إلَّا ونحنُ نعلمُ أنَّكُمْ ستُفتَحُونَ علينا، وإنْ أنتُمْ لم تُصَالِحُوا هذهِ المرَّةَ لأرجعنَّ إليكُمْ ولو قَدِ انصرفتُ مِنْ وجهي هذا، ثمَّ لا أرحلُ عنكُمْ حتَّى أقتلَ مقاتلتَكُمْ، وأسبيَ نساءكُمْ وذراريكُمْ"، فلمَّا فَصَلَ، قالَ علماؤهُمْ واجتمعوا: "إنَّا لا نرى هؤلاءِ القومَ إلَّا الذين كنَّا نتحدَّثُ أنهم يظهرونَ علينا، فافتحوا لهُمْ"، فبعثوا إلى خالدٍ ففتحوا لَهُ وصالحوه.

وقالَ رجلٌ من نصارى العربِ لخالدِ بنِ الوليد: ما أكثرَ الرُّومَ وأقلَّ المسلمين! فقال خالدٌ: "ويلك! أتخوِّفُني بالرُّوم؟! إنَّما تكثرُ الجيوشُ بالنَّصر، وتقلُّ بالخذلانِ لا بعددِ الرِّجال، وواللهِ لوددتُّ أنَّهُمْ أضعفوا في العددا!".

ومِنْ عجبٍ تهديدهُمْ بجموعِهِمْ *** ووَدَّ لَوِ ازدادوا ليزدادَ مغنمًا

هكذا علَّم سيِّدُ الأنبياءِ صحبَهُ الكرام، علَّمهُمُ الشَّجاعةَ والإقدام، والجرأةَ والثَّباتَ والصَّبرَ والاقتحامَ ولو على الضِّرغام؛ ولذا تخرَّجَ جيلٌ لا يهابُ عدوًّا وإنْ كَثُرَ جمعُهُ وكَبُرَ عَدَدُهُ وعُدَدُهُ، لا يخافُ ولا يجبنُ ولا يضعفُ كالأَسَدِ على عدوِّه، لا يهابُ الموت، والقتلُ في سبيلِ اللهِ أحلى الأمنيات.

فمِنْ شجاعةِ الصَّحابة -وهُمْ جماعةُ الشُّجعان-: ما رواهُ عامرُ بنُ سعدٍ عن أبيه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جمعَ له أبويه، قال: "كانَ رجلٌ مِنَ المشركينَ قد خَرَقَ المسلمين، فقالَ النَّبيُّ ﷺ لسعدٍ: (ارْمِ فِداكَ أَبِي وَأُمِّي)، قال: فنزعتُ بسهمٍ لي فيهِ نَصْلٌ فأصبتُ جَنْبَهُ، فوقعَ وانكشفتْ عورتُه، فضحكَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى نظرتُ إلى نوَاجِذِه"[١]، فسبحانَ ربِّي!

قومٌ شَرَابُ سيوفِهِمْ ورماحِهِمْ *** في كلِّ معتركٍ دمُ الأشرافِ
رجعتْ إليهِمْ خيلُهُمْ بمعاشرٍ *** كلٌّ لكلِّ جسيمِ أمرٍ كافِ
يتحنَّنُونَ إلى لقاءِ عدوِّهِمْ *** كتحنُّنِ الآلافِ للآلافِ
ويباشرونَ ظبى السُّيوفِ بأنفسٍ *** أمضى وأقطعَ مِنْ ظبى الأسيافِ

فعنْ إياسِ بنِ سلمةَ قال: حدَّثني أبي قال: "إنَّ المشركينَ راسلونا الصُّلحَ حتَّى مشى بعضُنا في بعضٍ واصطلحنا، قال: وكنتُ تبيعًا لطلحةَ بنِ عبيدِ الله، أسقي فرسَهُ وأحسُّهُ وأخدمُهُ وآكلُ من طعامِه، وتركتُ أهلي ومالي مهاجرًا إلى اللهِ ورسولِهِ ﷺ، قال: فلمَّا اصطلحنا نحنُ وأهلُ مكَّة، واختلط بعضُنا ببعضٍ؛ أتيتُ شجرةً فكَسَحْتُ شوكَهَا فاضطجعتُ في أصلِهَا، قال: فأتاني أربعةٌ مِنَ المشركينَ من أهلِ مكَّة، فجعلوا يَقَعُونَ في رسولِ اللهِ ﷺ فأبغضتُهُمْ وتحوَّلتُ إلى شجرةٍ أخرى، وعلَّقوا أسلحتَهُمْ واضطجعوا، فبينما هم كذلكَ إذْ نادى منادٍ مِنْ أسفلِ الوادي: يا

---

[١] رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

للمهاجرين، قُتِلَ ابنُ زُنَيْم، قال: فاخترطتُّ سيفي، ثمَّ شددتُّ على أولئكَ الأربعةِ وهم رُقُودٌ، فأخذتُ سلاحَهُمْ فجعلتُهُ ضغثًا في يدي، قال: ثمَّ قلتُ: والَّذي كرَّم وجهَ محمَّد، لا يَرفَعُ أحدٌ منكُمْ رأسَهُ إلَّا ضربتُ الذي فيهِ عيناهُ، قال: ثمَّ جئتُ بِهِمْ أسوقُهُمْ إلى رسولِ الله ﷺ، قال: وجاءَ عمِّي عامرٌ برجلٍ من العَبَلَاتِ يقالُ له: "مِكْرَزٌ" يقودُهُ إلى رسولِ الله ﷺ على فرسٍ في سبعينَ مِنَ المشركين، فنظرَ إليهِمْ رسولُ الله ﷺ فقال: (دَعُوهُمْ)، وعفا عنهُمْ رسولُ الله ﷺ، وأنزلَ اللهُ: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [سورة الفتح: ٢٤]" الآية[١].

وعنْ جابرِ بنِ عبدِ الله -رضي الله عنهما- قال: "قالَ رجلٌ للنبيِّ ﷺ يومَ أُحُد: أرأيتَ إنْ قُتِلْتُ فأينَ أنا؟ قال: (فِي الْجَنَّةِ)، فألقى تمراتٍ في يدِهِ ثمَّ قاتلَ حتَّى قُتِل"[٢].

وعنْ أنسٍ -رضي الله عنه- قال: "غابَ عمِّي أنسُ بنُ النَّضرِ عن قتالِ بدر، فقال: يا رسولَ الله، غِبْتُ عنْ أوَّلِ قتالٍ قاتلتَ المشركين، لئن أشهدني اللهُ قتالَ المشركين؛ ليرينَّ اللهُ ما أصنع، فلمَّا كانَ يومُ أُحُدٍ وانكشفَ المسلمون؛ قال: اللَّهمَّ إنِّي أعتذرُ إليكَ ممَّا صنعَ هؤلاء -يعني: أصحابَه-، وأبرأ إليكَ ممَّا صنعَ هؤلاء -يعني: المشركين-، ثمَّ تقدَّم فاستقبلَهُ سعدُ بنُ معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنَّةَ وربِّ النَّضر، إنِّي أجدُ رِيحَهَا مِنْ دونِ أُحُد، قال سعدٌ: فَمَا استطعتُ -يا رسولَ الله- ما صنع، قال أنسٌ: فوجدنا به بضعًا وثمانينَ ضربةً بالسَّيفِ أو طعنةً برمحٍ أو رميةً بسهم، ووجدناهُ قد قُتِلَ وقد مثَّل به المشركون، فما عرفَهُ أحدٌ إلَّا أختُهُ مِنْ بنانِه، قال أنسٌ: كنَّا نرى أو نظنُّ أنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ فيهِ وفي أشباهِه: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [سورة الأحزاب: ٢٣]"، إلى آخرِ الآية.

تأخَّرتُ أستبقي الحياةَ فلم أَجِدْ *** لنفسي حياةً مثلَ أنْ أتقدَّمَ

وعنه أيضًا: أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذَ سيفًا يومَ أُحُدٍ فقال: (مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا؟)، فبسطوا أيديَهُم، كلُّ إنسانٍ منهُمْ يقولُ: "أنا، أنا"، قال: (فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟)، قال:

---

[١] رواه مسلم.

[٢] رواه البخاري.

فأحجمَ القومُ، فقالَ سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ أبو دجانة: "أنا آخذُهُ بحقِّهِ يا رسولَ الله"، قال: فأخذَهُ ففَلَقَ به هامَ المشركين[١]. هكذا كانَ الصَّحابة.

مقاديمُ وصَّالونَ في الرَّوعِ خطوهُمْ *** بكلِّ رقيقِ الشَّفرتَينِ يماني
إذا استُنْجِدُوا لم يسألوا مَنْ دعاهُمُ *** إلى أيِّ حيٍّ أمْ بأيِّ مكانِ

ونختمُ بشهادةِ أعداءِ اللهِ في شجاعةِ المسلمين، وأنَّها كانتْ مع طاعةِ اللهِ ولزومِ دينِهِ سببًا في ردِّ عاديةِ الأمم ودفعِهَا وكسرِهَا ودفعِ شرِّها، ذكرَ ابنُ كثيرٍ في البدايةِ والنِّهايةِ وغيرُه: أنَّه عندما قَدِمَتْ منهزمةُ الرُّومِ على هِرَقْلَ وهو بأنطاكية، فدعا رجالًا مِنْ عظمائِهم، فقال: "ويحكُمْ! أخبروني ما هؤلاءِ الَّذينَ تقاتلونَهُمْ؟ أليسوا بشرًا مثلَكُمْ؟!"، قالوا: بلى -يعني: العرب-، قال: "فأنتُمْ أكثرُ أم هُمْ؟" قالوا: بلْ نحنُ أكثرُ منهُمْ أضعافًا في كلِّ موطن، قال: "ويلكُمْ! فما بالكُمْ تنهزمونَ كلَّما لقيتموهُمْ؟!"، فسكتوا، فقالَ شيخٌ منهُمْ: "أنا أخبرُك أيُّها المَلِكُ مِنْ أينَ تُؤتَون"، قال: "أخبرني"، قالوا: "إذا حَمَلْنَا عليهِمْ صبروا، وإذا حَمَلُوا علينا صَدَقُوا، ونحملُ عليهِمْ فنكذبُ، ويحملونَ علينا فلا نصبرُ"، قالَ: "ويلكُمْ! فما بالكُمْ كما تصفونَ، وهُمْ كما تزعمون؟!"، قال الشَّيخُ: "ما كنتُ أراكَ إلَّا وقد علمتَ مِنْ أينَ هذا"، قالَ له: "ومِنْ أينَ هو؟"، قال: "لأنَّ القومَ يصومونَ بالنَّهار، ويقومونَ باللَّيل، ويوفونَ بالعهد، ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عَنِ المنكر، ولا يظلمونَ أحدًا، ويتناصفونَ بينَهُمْ، ومِنْ أجلِ أنَّا -أي: الرُّوم- نشربُ الخمرَ ونزني، ونركبُ الحرام، وننقضُ العهدَ ونَغصِبُ ونظلمُ، ونأمرُ بما يُسخِطُ اللهَ، وننهى عمَّا يُرضِي الله، ونُفسِدُ في الأرض"، قال: "صدقتَني، واللهِ لأخرُجَنَّ مِنْ هذهِ القرية؛ فما لي في صحبتِكُمْ خيرٌ وأنتُمْ هكذا".

نعمْ معاشرَ المسلمين، أينَ المهاوي مِنَ المراقي، والأقدامُ مِنَ التَّراقي؟! فإنَّ الثَّعالبَ لا تَجسُرُ على أخياسِ الأسود، والأرانبَ لا تُقدِمُ على أغيالِ اللُّيوث، وبالآباءِ يقتدي الأولادُ، وعلى الأعراقِ تجري الجِيَاد، كلُّ إنسانٍ يجري على عِرْقِ أوَّليه، وكلُّ إناءٍ يرشحُ بما فيه، وبالصَّبرِ يُنَالُ العلاءُ، وعندَ الصَّباحِ يحمدُ القوم السُّرى، وفي الزَّوايا خبايا، وفي الرِّجال -ولله الحمد- بقايا.

وَمَا كلُّ مَنْ هزَّ الحُسَامَ بضاربٍ *** وَلَا كلُّ مَنْ أجرى الْيَراعَ بكاتبِ

---

[١] رواه مسلم.

فَدَنْدِنْ وشنِّفْ مَسْمَعِي مَا سرَّني *** في غُرْبتي إلَّا حِداءُ المؤمنِ
واعزفْ على صوتِ الرَّصاصِ ملاحِمًا *** مِن عزَّةٍ قعساءَ واطربْ أُذُني
إنِّي على طولِ الزَّمانِ متيَّمٌ *** بسماعِ صوتٍ للعُلَا قد شدَّني
فلْتَرْكَبِي -خيلَ الإلهِ- وحطِّمِي *** طاغوتَ كفرٍ عنْ إلهي صدَّني
دندنْ بهذا الصَّوتِ واحشُدْ أمَّةً *** تاقتْ إلى ساحِ الجهادِ المُعْلَنِ
ما حرَّكتْ قلبي معازفُ مَاجِنٍ *** متكسِّرٍ في لهوِهِ متعفِّنِ
لا أبتغي عيشًا ذليلًا خانعًا *** لا أرتضي عِلْجًا أراهُ يُهيمُنِي
أَوَمَا ترَى جندَ الصَّليبِ بأرضِنَا *** يستأسدونَ لذُلِّنَا كي ننحني؟!
قد بِعْتُ نفسي للإلهِ وإنَّني *** في رحمةِ المنَّانِ فَاقْبَلْ وَامنُنِ
أنا لا أريدُ العيشَ عيشَ مذلَّةٍ *** أكرِمْ بموتٍ بالمعزَّةِ يعتني
ما ضقتُ ذرعًا بالصَّليبِ وجندِهِ *** حتَّى أتى ذيلٌ له في موطني
لكنَّني صهواتُ خيلي دائمًا *** لم تخشَ طاغوتًا وليستْ تَجْبُنِ
لم أخشَ خوَّانًا وليس يضيرُني *** إفكٌ بدَا مِنْ حقدِهِ ليعيبَني
أيعيبُني أنْ قد هببتُ لنجدةٍ *** في اللهِ أَبْغِيهَا لعبدٍ مؤمنٍ؟!
لنْ ننثني في عزمِنَا وجهادِنَا *** والوعدُ حتمًا شرقُ نهرِ الأردنِ

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [سورة الصافات].

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة الثالثة عشرة



الحلقة الثالثة عشرة: بالقوَّةِ والشَّجاعة؛ تُدفَعُ من أممِ الكفرِ العداوة ٢

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومُعينِ الموحّدين، ومُبيد الطُّغاةِ والمارقين، ناصرِ المستضعفينَ على مَن سلكَ سبيلَ المجرمين، الذي جعل العاقبة لهُمْ ليكونوا هُمُ الوارثين، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له إلهُ الأوَّلينَ والآخرين، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ مَن جاهد في الله حقَّ جهادِهِ حتَّى أتاهُ اليقين، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ناشري لواءِ الدِّين، وعلى مَن تبعهُمْ واقتفى آثارَهُمْ في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكُمُ اللهُ وأحياكُمْ، وجعل الجنَّة مأوانا ومأواكُمْ، وقوَّى تقواكُمْ، وأحسنَ أعمالَكُمْ، وأعانَنا على مَن عادانا وعاداكُمْ، وذخرًا للخلافةِ أعدَّكم، ترفعونَ راياتِهَا وتذودونَ عن حياضِهَا، تحاربونَ عدوَّها، وتنصرونَ جنودَها، ترصُّونَ صفوفَها، وتشيِّدونَ صروحَهَا، وتضمِّدونَ جروحَها، وعلى منهاجِ النُّبوَّةِ تحملونَها.

ما زلنا معكُمْ -معاشر المسلمين- نبيِّنُ ونوضِّح، ونقوِّمُ ونصحِّح، ونشرحُ ونصرِّح، وعَنِ النُّفوسِ بالحقِّ نروِّح، فإنْ وافقتْ كُلَيْمَتِي هذهِ قبولًا فالحمدُ لله، وإنْ وافقتْ ردًّا فمن نفسي والشَّيطان، وأستغفرُ الرَّحمن، راجيًا من الله أن تنالَ هذهِ الكلماتُ القبولَ والإعجاب، وأن ينتفعَ منها صاحبُها والأهلُ والأصحاب، ومَن يخافُ يومَ الحساب، وأنْ تكونَ لنا زادًا على الطَّريقِ ومنارًا للسَّبيلِ وحجَّةً لنا لا علينا يومَ اللِّقاء.

إنْ تجدْ عيبًا فسُدَّ الخللا *** جلَّ مَن لا عيبَ فيهِ وعلا

معاشرَ المسلمين، إنَّ سِيَرَ الشُّجعانِ ومواقفَ الفرسان، ورجولةَ الرِّجالِ ومحاسنَ الأبطال، وأخبارَ الهُمَامِ المِقْدَام؛ لتبقى مدرسةً ماثلةً بنفسِها للأجيال، تنهلُ مِن معينِهَا، وترتعُ في حدائقِها، وتستنشقُ مِنْ أزهارِهَا ورياحينِهَا عِبَرًا ودروسًا وفوائدَ وتجارب، تكونُ عونًا للمستفيدِ المحارب، ومثالًا على المطلوب، وتحريضًا على المرغوب.

وإنَّ تاريخَنا حافلٌ بسِيَرِ وأحوالِ وأقوالِ الشُّجعانِ الفرسان، أهلِ البَسَالَةِ والحميَّةِ والإقدام، كيف لا، وأمَّتُنَا أمَّةُ السَّيفِ والقلم، أمَّةُ العزَّة والسِّيادة على الأمم؟! فما عزَّ الحقُّ إلا بشوكة، ولا نُصِرَ الإسلامُ إلَّا بقوَّة، ولا ظَهَرَ الدِّينُ بينَ العالمين إلا بالجهادِ والشَّجاعةِ والتَّضحيةِ والإقدام، وما كُسِرَ العوائقُ ولا ظهر الدِّينُ بينَ العالمين إلا بتضحيةٍ وشجاعةٍ وإقدام، كَسَرَ العوائقَ وحطَّم الحدود، وأزالَ السُّدود، وأذلَّ أهلَ الشِّركِ والرِّدَّةِ واليهود، كلُّ ذلك على أيدي شجعانِ الجنود، ممَّن لا يعرفُ الخوفَ والجبن.

ولأنَّ الأممَ المعتديةَ على المسلمينَ في ذا الزَّمانِ لا تُدفَعُ ولا تُردَعُ إلَّا بعزيمةِ الشُّجعانِ وهمَّةِ الفرسان، وصدقِ الأبطالِ وصولاتِ الرِّجال؛ كان ولا بدَّ من تحريضِ الأمَّةِ وتشجيعِهَا وتحفيزِهَا على عدوِّها، بذكرِ سِيَرِ مَن سَلَفَهَا، وبيانِ مواقفِ أبنائِهَا الأُوَل، الَّذينَ ما سادوا بينَ الأنامِ ولا رفعوا شعارَ الإسلام إلَّا بالشَّجاعةِ والجرأةِ والإقدامِ والبطولةِ والبسالةِ في الحرب؛ لذا ظَهَرُوا ونُصِرُوا وعزُّوا وسادُوا.

ولا بدَّ للأمَّةِ أن تأخذَ بهذهِ المعالم، وتتحلَّى بهذهِ الأخلاقِ والآداب، وتسيرَ على هذهِ السِّيَر، وتتَّعظَ بهذا الخبرِ ممَّن عَبَرَ وغَبَر؛ حتَّى تستعينَ على ذلك في دفعِ عدوِّها وحمايةِ بيضتِهَا؛ لكي تعليَ رايتَهَا، وتصدعَ بدينِهَا، وتلتزمَ بشريعتِهَا، وتتحلَّى بأخلاقِ وسِيَرِ وآدابِ السَّالفينَ الأوَّلينَ مِنْ أبنائها.

إنَّ الشَّجاعةَ لَخُلُقٌ لازمٌ ضروريٌّ أن تتحلَّى به الأمَّةُ في زمانِ الذُّلِّ والضَّعةِ والهوانِ والامتهانِ وتسلُّطِ الأعداءِ وعمومِ البلاء؛ حتَّى ينكسرَ حاجزُ الخوفِ الَّذي يُكَبِّلُ رجالَهَا عَنِ الجهادِ والجلاد، ويفتحَ طريقَ الحربِ والقتالِ الذي تَصلُحُ به الأحوال، ويُستَرَدُّ به ما ضاعَ من الدِّينِ والحمى والمال، وعلى الله الاتِّكال.

فرصُّوا الصُّفوفَ المُسْلِمَة *** هذا زمانُ المَلْحَمَة
هذا زمانُ العادياتِ *** على بقايا الشِّرْذِمَة
هذا أوانُ الزَّاحفينَ *** إلى اللَّظى بالأَحْزِمَة
فاثأرْ لدينِكَ وَاسْتَعِدْ *** زمنَ الهُدَى والمكْرُمَة
حطِّمْ طواغيتَ الزَّمانِ *** ذوي القُصُورِ المُتْخَمَة
قطِّعْ شرايينَ الأَذَى *** كسِّرَ غزورَ الجُمْجُمَة

مَن ذا يصاولُ أمَّةً *** بالمرهفاتِ مُعَمَّمَة
بكتابِهَا وسيوفِهَا *** محميَّةٌ مستعصِمَة؟!
للحربِ نحنُ وَقُودُهَا *** وأسودُهَا المستلحِمَة
إنَّا الجنودُ المسلمونَ *** بنو الجنودِ المُسْلِمَة

هـذا الصَّحابيُّ الجليـلُ طليحـةُ -رضي الله عنـه-، كانَ من خـبرِهِ وأمـرِهِ مـا يُـذهِلُ العقـولَ ويُعجِبُ الفحـول، كانَ مِنْ أمرِ طليحـةَ مع فـارس أمرٌ عظيم، أنبـأ عنْ رجلٍ مِغْوَارٍ فتَّاكٍ غَشَمْشَم، وإنَّه -والله- ليدلُّ على رجلٍ صادقِ الحملة، مِسْعَرِ حربٍ وابنِ كريهـةٍ وكبشِ كتيبـة، فـارسِ بَهْمَة، أشجعَ مِنْ أسـامةَ ومِنْ ليثِ عِفْرِين، قـالَ الطَّبريُّ -رحمه الله- في تاريخه: ومضى طليحـةُ وعـارضَ المياهَ على الطُّفوف، حتَّى دخلَ عسكرَ رُسْتُم، وباتَ فيه يجوسُـهُ وينظُرُ ويتوسَّم، فلمَّا أدبر اللَّيلُ خرجَ وقـد أتى أفضل مَنْ توسَّم في ناحيةِ العسكر، فـإذا فـرسٌ لـه لم يَرَ في خيلِ القومِ مثلَه، وفسـطاطٌ أبيضُ لم يَرَ مثلَه، فانتضى سيفَه، فقطعَ مِقْوَدَ الفرس، ثمَّ ضمَّهُ إلى مِقْوَدِ فرسِه، ثمَّ حرَّك فرسَـه، فخـرج يعدو بـه، ونذر بـه النَّاسُ والرَّجلُ، فتنـادوا وركبـوا الـصَّعبَ والـذَّلول، وعجَّل بعضُهم أن يُسرِجَ، فخرجوا في طلبه.

فأصبحَ وقـد لَحِقَـهُ فـارس مِنَ الجنـد، فلمَّـا غَشِـيَهُ وبـوَّأ لـه الـرُّمحَ ليطعَنَـه، عَـدَلَ طليحـةُ فرسَـه فنَـدَرَ الفارسيُّ بينَ يديـه، فكرَّ عليـه طليحـةُ فقصم ظهـرَهُ بـالرُّمح، ثمَّ لحق به آخرُ، ففعلَ بِهِ مثلَ ذلك، ثمَّ لحق به آخرُ وقد رأى مصرعَ صاحبيهِ وهما ابنا عمِّه، فـازدادَ حنقًـا، فلمَّـا لحـق بطليحـةَ وبـوَّأ لـه الـرُّمح، عـدل طليحـةُ فرسَـه، فنـدر الفارسيُّ أمامـه، وكـرَّ عليـه طليحـةُ ودعـاهُ إلى الإيسـار، فعـرف الفارسيُّ أنَّـه قاتلُـهُ فاستأسر.

وأمرهُ طليحـةُ أن يَرْكُضَ بين يديـه، ففعـلَ ولحـق النـاس فـرأوا فَارِسَـيِ الجنـدِ قـد قُتِلَا وأُسِـرَ الثَّـالث، وقـد شـارفَ طليحـةُ عسـكرَهُمْ، فـأحجموا عنـه ونكسـوا، وأقبـلَ طليحـةُ حتَّى غَشِيَ العسـكرَ وهم على تعبئـةٍ فـأفزعَ النَّـاسُ وجـوَّزوهُ إلى سـعدٍ، فلمَّـا انتهى إليه قال: "ويحك! ما وراءك؟"، قال: دخلتُ عساكرَهُمْ وجُسْتُهَا منذُ اللَّيلة، وقد أخذتُ أفضلَهُمْ توسُّمًا، وما أدري أصبتُ أم أخطأتُ، وهـا هـو ذا فاستخبِرُوهُ، فـأقيمَ ترجمـانٌ بينَ سـعدٍ وبين الفارسيِّ، فقـال لـه الفارسيُّ: أتؤمِّنُني على دمي إنْ صدقتُك؟

قال: "نعم، الصِّدقُ في الحربِ أحبُّ إلينا من الكذب"، قال: أُخبِرُكُمْ عن صاحبِكُمْ هذا قبلَ أن أخبرَكُمْ عمَّن قبلي: باشرتُ الحروبَ وغشيتُها، وسمعتُ الأبطالَ ولقيتُها منذُ أنا غلامٌ إلى أن بلغتُ ما ترى؛ ولم أر ولم أسمعْ بمثلِ هذا!

إنَّ رجلًا قطعَ عسكرينِ لا يجترئ عليهِمَا الأبطالُ إلى عسكرٍ فيه سبعونَ ألفًا، يخدمُ الرَّجل منهُمُ الخمسة والعشرة إلى ما هو دون، فلم يرضَ أن يخرجَ كما دخل، حتَّى سلبَ فارسَ الجند، وهتك أطنابَ بيتِهِ فأنذرنا به، فطلبناهُ فأدركَهُ الأوَّل، وهو فارسُ النَّاسِ يعدلُ ألفَ فارسٍ فقتلَهُ، فأدركه الثَّاني وهو نظيرُهُ فقتله، ثمَّ أدركتُهُ ولا أظنُّ أنَّني خلَّفتُ بعدي من يعدلُني، وأنا الثَّائرُ بين القتيلينِ وهما ابنا عمِّي، فرأيتُ الموتَ فاستأسرتُ، وحالُ طليحة:

ومَوقفٍ مثلِ حدِّ السَّيفِ قمتُ بِهِ *** أحمي الذِّمارَ وترميني به الحدقُ
فما زللتُ وما ألفيتُ ذا خطلٍ *** إذا الرِّجالُ على أمثالِهَا زلقُوا

ثمَّ أخبرهُ عَنْ أهلِ فارس بأنَّ الجندَ عشرونَ ومئةُ ألف، وأنَّ الأتباعَ مثلهم خدَّامٌ لهم، وأسلمَ الرَّجل، وسمَّاهُ سعدٌ مُسْلِمًا، وعادَ إلى طليحةَ وقال: "لا والله، لا تُهزَمُونَ ما دمتُمْ على ما أرى مِنَ الوفاءِ والصِّدقِ والإصلاحِ والمواساة، لا حاجةَ لي في صحبةِ فارس"، فكانَ من أهلِ البلاءِ يومئذ.

وعنِ العلاءِ بنِ سفيانَ الحضرميِّ قال: غزا بسرُ بنُ أرطأةَ الرُّومَ، فجعلتْ ساقتُهُ لا تزالُ تُصَابُ، فيكمنُ لهُمُ الكمينَ فيُصَابُ الكمين، فلمَّا رأى ذلك تخلَّف في مئةٍ من جيشِه، فانفردَ يومًا في بعضِ أوديةِ الرُّوم، فإذا براذينُ مربوطةٌ نحو ثلاثين، والكنيسةُ إلى جانبِهِمْ فيها فرسانُ تلك البراذينِ الَّتي كانوا يعقبونَهُ في ساقتِه، فنزل عَنْ فرسِهِ ثمَّ ربطه، ثمَّ دخل الكنيسةَ فأغلقَ عليه وعليهِمْ بابَها، فجعلتِ الرُّومُ تعجبُ مِنْ إغلاقِه، فما استقلُّوا إلى رماحِهِمْ حتَّى صَرَعَ منهُمْ ثلاثةٌ، وفقدَهُ أصحابُهُ فطلبوه، فأتوا فعرفوا فرسَه، وسمعوا الجَلَبَةَ في الكنيسةِ، فأتوها فإذا بابُها مغلقٌ، فقلعوا بعضَ السَّقفِ ونزلوا عليهِمْ، وبسرٌ مُمْسِكٌ طائفةً مِنْ أمعائهِ بيدِه، والسَّيفُ بيدِهِ اليمنى، فلمَّا تمكَّن أصحابُهُ في الكنيسةِ سقط بسرٌ مغشيًّا عليه، فأقبلوا على أولئكَ فأَسَرُوا وقَتَلُوا.

فأقبلتْ عليهِمُ الأسارى فقالوا: ننشدُكُمُ اللهَ مَنْ هذا؟ قالوا: "بسرُ بنُ أرطأة"، فقالوا: واللهِ ما ولدتِ النِّساءُ مثلَه.

كاللَّيثِ لا يثنيه عَنْ إقدامِهِ *** خوفُ الأذى وقعاقعُ الأعداءِ

تسرَّع حتَّى قالَ مَن شَهِدَ الوغى *** لقاءُ أعادٍ أمْ لقاءُ حبائبِ؟!

فعَمَدُوا إلى أمعائه فردُّوهُ في جوفِه، ولم ينخرقْ منها شيءٌ، ثمَّ عَصَبُوهُ بعمائمِهِمْ وحملوه، ثمَّ خاطوهُ فسَلِمَ وعُوفِي، فرحمةُ اللهِ عليه مِنْ بطلٍ شجاعٍ مقدام.

وأمَّا الأسدُ الغالبُ، عليٌّ بنُ أبي طالب؛ فإذا ذكرنا الشَّجاعةَ كان أحقَّ النَّاسِ بها وأهلَها، وإذا ذكرنا البطولةَ كانتْ له اليدُ الطُّولى، وإذا ذكرنا الإقدامَ كانَ الضِّرغام، وإن تعرَّضنا للحديثِ عنِ الفرسان؛ كان أستاذَ الميدان، وإن أتينا للحديثِ عَنِ الباسل؛ كانَ الحديثُ عنه غيرَ مائل، مَا بارزَ صحيحًا إلَّا ترك قَرْنَهُ سطيحًا، وكبشَ القومِ نطيحًا.

قيل: "كانتْ قريشٌ إذا رأتْ أميرَ المؤمنينَ عليًّا في كتيبة؛ تواصتْ خوفًا منه"، ونظرَ إليهِ رجلٌ وقد شقَّ العسكرَ فقال: "لقد علمتُ أنَّ ملكَ الموتِ في الجانبِ الَّذي فيه عليٌّ"، قيلَ لعليِّ بن أبي طالب: إذا جالتِ الخيلُ فأينَ نطلبُك؟ قال: "حيثُ تركتُمُوني"، وقيلَ لأميرِ المؤمنين: بم غلبتَ الأقران؟ قال: "بتمكُّنِ هيبتي في قلوبِهِمْ"، وقيلَ له: كيفَ صرتَ تقتلُ الأبطال؟ قال: "لأنِّي كنتُ ألقى الرَّجل، فأقدِّرُ أنِّي أقتلُهُ، ويقدِّرُ أنِّي أقتلُهُ، فأكونُ أنا ونفسُهُ عونَينِ عليه".

في يومِ الأحزاب -واسمعْ لأمر عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه-: خرج عمرو بنُ ودٍّ فنادى: مَنْ يبارز؟ فقام عليٌّ -رضي الله عنه- وهو مقنَّعٌ في الحديدِ فقال: "أنا لها يا نبيَّ الله"، فقال: (إنَّهُ عمرٌو، اجْلِسْ)، ونادى عمرٌو: ألَا رجلٌ؟! وهو يؤنِّبُهُمْ ويقولُ: أين جنَّتُكُمُ الَّتي تزعمونَ أنَّه مَنْ قُتِلَ منكُمْ؛ دخلَهَا وصارَ إليها؟! أفلا تُبرِزُونَ إليَّ رجلًا؟! فقام عليٌّ فقال: "أنا يا رسولَ الله"، فقال: (اجلس)، ثمَّ نادى الثَّالثةَ فقالَ:

ولقد بححتُ مِنَ النِّداءِ *** بجمعِكُمْ هل مِنْ مبارز؟

ووقفتُ إذْ جَبُنَ المشجِّعُ *** موقفَ القرنِ المناجز

وكذاك إنّي لم أزلْ *** متسرّعًا قبلَ الهَزَاهِز
إنَّ الشَّجاعةَ في الفتى *** والجودَ مِنْ خيرِ الغَرَائز

فقام عليٌّ فقال: "يا رسولَ الله أنا"، فقال: (إنَّه عمرٌو)، فقال: "وإنْ كان عمروا"، فأذنَ له رسولُ الله ﷺ، فمشى إليه حتَّى أتاهُ وهو يقولُ:

لا تعجلنَّ فقد أتاك *** مجيبُ صوتِكَ غير عاجز
ذو نيَّةٍ وبصيرةٍ *** والصِّدقُ منجى كلِّ فائز
إنِّي لأرجو أن أُقِيمَ *** عليكَ نائحةَ الجَنَائِز
مِنْ ضربةٍ نجلاءَ يبقى *** ذكرُها عندَ الهَزَاهِز

فقالَ له عمرٌو: مَن أنت؟ قال: "أنا عليٌّ"، قالَ: ابنُ عبدِ مناف؟ فقال: "عليُّ بنُ أبي طالب"، فقال: غيرَكَ يا ابنَ أخي، ومِنْ أعمامِكَ مَنْ هو أسنُّ منك؛ فإنِّي أكرهُ أن أُهْرِيَ قدمَك، فقال عليٌّ -رضي الله عنه-: "ولكنَّني -والله- أشتهي أن أُهْرِيَ قدمَك"، فغَضِبَ ونزل وسلَّ سيفَهُ كأنَّه شعلةُ نار، ثمَّ أقبلَ نحو عليٍّ مُغضبًا، واستقبلَهُ عليٌّ -رضي الله عنه- بدَرْقَتِه، فضربَهُ عمرو في الدَّرقَةِ فقدَّهَا، وأثبتَ فيها السَّيفُ، وأصابَ رأسَهُ فشجَّاهُ، وضربَهُ عليٌّ على حبلِ العاتقِ فسقط وثار العجاجُ، وسمعَ رسولُ الله ﷺ التَّكبير، فعرف أنَّ عليًا قد قتَلَهُ، فتمَّ عليٌّ -رضي الله عنه- وهو يقول:

أعليَّ تُقتَحَمُ الفوارسُ هكَذَا *** عنِّي وعنهُمْ أخِّرُوا أصحابي
اليومَ يَمْنَعُنِي الفرارَ حفيظتي *** ومصمِّمٌ في الرَّأسِ ليسَ بنابِ
فصددتُّ حينَ تركتُهُ متجدِّلًا *** كالجذعِ بينَ دَكَادِكٍ ورواب
وعففتُ عنْ أثوابِهِ لو أنَّني *** كنتُ المقطَّرَ بزَّني أثوابي
لا تحسبنَّ اللهَ خاذلَ دينِهِ *** ونبيِّه يا معشرَ الأحزابِ
عبدَ الحجارةَ مِنْ سفاهةِ عقلِهِ *** وعبدتُّ ربَّ محمَّدٍ بصوابِ

ثمَّ أقبل عليٌّ نحوَ رسولِ الله ﷺ ووجهُهُ يتهلَّلُ، فقالَ له عمرُ بنُ الخطَّاب: "هلَّا استلبتَهُ درعَه؛ فإنَّه ليسَ للعربِ درعٌ خيرٌ منها"، فقال: "ضربتُهُ فاتَّقاني بسوءتِه، فاستحييتُ ابنَ عمِّي أن أَسْلُبَه" قال: وخرجتْ خيولُهُ منهزمةً حتَّى اقتحمتْ مِنَ الخندق[1]. وحالُهُ:

---

[1] رواه الحاكم والبيهقي وابن إسحاق في السيرة، (مرسل وإسناده حسن).

إنَّ الأسودَ أسودَ الغابِ همَّتُهَا *** يومَ الكريهةِ في المسلوبِ لا السَّلبِ

قال ابنُ إسحاق: وحدَّثني أبو ليلى عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرَّحمنِ الأنصاريُّ أخو بني حارثة: أنَّ عائشةَ أمَّ المؤمنينَ كانتْ في حصنِ بني حارثةَ يومَ الخندق، وكانَ من أحصنِ حصونِ المدينة، قال: وكانتْ أمُّ سعدِ بن معاذٍ معها في الحصن، فقالت: وذلكَ قبلَ أن يُضربَ علينا الحجابُ، فمرَّ سعدٌ وعليه درعٌ قد خرجتْ منها ذراعُهُ كلُّها، وفي يدِهِ حربتُهُ يرقُد بها، ويقول:

لبِثَ قليلًا يَشْهَدُ الهيجَا جَمَل *** لا بأسَ بالموتِ إذا حانَ الأجل

فقالتْ له أمُّه: "الحقْ أيْ بنيَّ؛ فقد -واللهِ- أخَّرتَ"، قالتْ عائشةُ -رضي الله عنها-: "فقلتُ لها: يا أمَّ سعد، واللهِ لوددتُّ أنَّ درعَ سعدٍ كانتْ أسبغَ ممَّا هي عليه، قالت: وخفتُ عليه، حيثُ أصابَ السَّهمُ منه، فرُمِيَ سعدُ بنُ معاذٍ بسهم، فقَطَعَ منه الأكحلَ أحدُ بني عامرِ بنِ لؤي، فلمَّا أصابَهُ قال: خذْهَا منِّي وأنا ابنُ العَرِقَة، فقال له سعدٌ: عَرَّقَ اللهُ وجهَك في النَّار".

ثمَّ قال سعدٌ: "اللهمَّ إنْ كنتَ أبقيتَ من حربِ قريشٍ شيئًا فأبقِني لها؛ فإنَّه لا قومَ أحبَّ إليَّ أن أجاهدَهُمْ من قومٍ آذوا رسولَكَ وأخرجوهُ وكذَّبوه، اللهمَّ إن كنتَ قد وضعتَ الحربَ بيننا وبينهُمْ؛ فاجعلْهَا لي شهادةً، ولا تُمِتْني حتَّى تقرَّ عيني مِنْ بني قريظة"، فماتَ -رحمه الله- بعدَ أن أقرَّ اللهُ عينَهُ فيهِمْ قتلًا وسبيًا وغنمًا.

ولو أنَّ الحياةَ تبقى لحيٍّ *** لعَدَدْنَا أَضَلَّنَا الشُّجعانَا
وإذا لم يكنْ مِنَ الموتِ بدٌّ *** فمن العجزِ أن تكونَ جبانا
كلُّ مَا لم يكنْ مِنَ الصَّعبِ في *** الأنفُسِ سهلٌ فيها إذا هو كانا

معاشرَ المسلمين، لقد علَّمنا الصَّحابةُ -رضوان الله عليهم- بشجاعتِهِمْ وبسالتِهِمْ وإقدامِهِمْ أنَّ مَن عدا علينا؛ فضربًا وطعنًا حتَّى يموتَ الأعجلُ منَّا، وأنَّ الدَّمَ الدَّمَ والهدمَ الهدم، وأنَّه قبلَ نزولِ الحربِ تُملَأ الكنائنُ، والسِّلاحَ السِّلاحَ ثمَّ الجهادَ والكفاح، وأنَّ محرِّضًا واحدًا خيرٌ مِنْ ألفِ مقاتل، والتَّقدُّم قبلَ التَّندُّم، وأنَّ الجبانَ حتفُهُ من فوقِه، وموتٌ في عزٍّ خيرٌ من حياةٍ في ذُلّ، وأنَّ الإقدامَ أنفى للعارِ وأدركُ للثَّار، والشُّجاعُ موقى، والجبانُ ملقى، والسَّلامةُ في الإقدام، والحِمَامُ في الأحكام، وأنَّ

الجبنَ منقصةٌ، والسِّلاحُ جُنَّةُ الأبدانِ ووقايةُ الأنفس، وأنَّه متى ما ابتُلِيتَ بالبَيَاتِ فعليكَ بالثَّبات، وأنَّ الجزعَ لا يغني مِنَ القدر، والصَّبرُ من أبوابِ الظَّفر، والمنيَّةَ ولا الدَّنيَّة، واستقبالُ الموتِ خيرٌ مِن استدبارِه، وأنَّ الطَّعنَ في الثَّغرِ أكرمُ منه في الدُّبُر، وهالكٌ معذورٌ خيرٌ مِنْ ناجٍ فَرُورٌ، ومَنْ أكثرَ النَّظرَ في العواقبِ لم يتشجَّعْ، وأنَّ مَن قُتِلَ في الحربِ مُدْبِرًا أكثرُ ممَّن قُتِلَ مقبلًا.

والحربُ إنْ باشرتَهَا *** فلا يكنْ منكَ الفَشَل
واصبرْ على أهوالِهَا *** لا موتَ إلَّا بالأَجَل

في غزوةِ ذاتِ الصَّواري؛ قالَ ابنُ الجوزي: لمَّا أصابَ المسلمونَ مِنَ الرُّومِ بإفريقية؛ خرجَ الرُّومُ في جمعٍ لم يُجمَعْ مثلُهُ قطُّ، خرجوا في خمسمئةِ مركبٍ عليهِمْ قُسْطَنطِينُ بنُ هرقل، فباتوا يضربون النَّواقيس، وباتَ المسلمونَ يصلُّونَ ويَدْعُونَ، ثمَّ أصبحوا فقالَ المسلمونَ: إنْ شئتُمْ فالسَّاحلُ حتَّى يموتَ الأعجلُ منَّا ومنكُمْ، وإنْ شئتُمْ فالبحرُ، قال: فنَخَرُوا نخرةَ واحدٍ وقالوا: الماءُ، والسُّفنُ بعضُها إلى بعضٍ، واقتتلوا أشدَّ القتال، ووثبَ الرِّجالُ على الرِّجال، يضربونَ بالسُّيوفِ على السُّفُن، ويتواجؤونَ بالخناجر؛ حتَّى رجعتِ الدِّماءُ إلى السَّاحلِ تضربُهَا الأمواج، وطرحتِ الأمواجُ جثثَ الرِّجالِ رُكَامًا، حتَّى صارتْ كالخبالِ العظيمِ عند السَّاحل، وقُتِلَ من الفريقينِ خلقٌ عظيمٌ، ثمَّ نصر اللهُ المسلمينَ فقتَلُوا منهُمْ مقتلةً عظيمة، لم ينجُ منهُمْ إلَّا الشَّريدُ، وانهزمَ قسطنطينُ، وأقامَ عبدُ الله بذاتِ الصَّواري أيَّامًا بعدَ هزيمةِ القومِ ثمَّ أقبلَ راجعًا.

وروى المدائنيُّ عن مصعبِ بنِ عبدِ الله قال: "أجمعَ أهلُ الإسلامِ أنَّه لم يكنْ في النَّاسِ رجلٌ أشجعُ من عليِّ بنِ أبي طالب، ولا فارسٌ أشجعُ من الزُّبيرِ بنِ العوامِّ -رضي الله عنهما-"؛ ففي أمرِ إفريقيَّة؛ أوردَ صاحبُ لبابِ الآدابِ عنْ أحمدَ بنِ يوسفَ بنِ إبراهيم: أنَّ أمرَ إفريقيَّةَ الطَّربُ بتنازعِ أعيانِهَا الرِّياسةَ فيها، فكتبَ عمرُو بنُ العاصِ من مصر -وهو يومئذٍ عليها- إلى عمرَ بنِ الخطَّاب -رضي الله عنه- يخبرُهُ بذلك، وأنَّه قد عزمَ على أن يسيِّرَ إليها جيشًا، واستدعى من عمرَ -رضي الله عنه- نجدةً، فكتبَ إليه عمرُ يستصوبُ رأيَهُ ويذكرُ له أنَّه ينفذُ إليه على أثرِ كتابِهِ ألفَ فارس، فتشوَّفَ عمرُو إليهم، فوافاهُ الزُّبيرُ بنُ العوام -رضي الله عنه- وحدَه، ومعه

كتابُ عمر: "قد أنفذتُ إليك الزُّبيرَ بنَ العوام، وهو عندي يعدلُ ألفَ فارسٍ -إن شاء الله-".

وسيَّرَ عمرٌو الجيشَ إلى إفريقيَّة، فلمَّا انتهوا إلى مَفرَقِ طريقين؛ خافوا أن يسلكُوا في أحدِ الطَّريقينِ فتقعَ بِهِمْ مكيدةٌ في الأخرى، فقالَ لهُمُ الزُّبير: "أفردوني في إحدى الطَّريقين؛ فإنِّي أَكْفِيكُمُوها"، فسار وحدَهُ في أحد الطَّريقين، وسلك الجيشُ في الطَّريقِ الآخر؛ لأنَّه كانَ جيشًا لوحدِه، واتَّفق أنْ كانتْ طريقُ الزبيرِ قريبةً جدًا، فلم تزلِ الشَّمسُ حتَّى وافى حصنَ إفريقيَّة، فنزلَ عن دابَّتِهِ واحتشَّ لها بقلًا يَشْغَلُهَا به، وقام يصلِّي، وأشرفَ كفرةُ إفريقيَّةَ من حصنِهَا، فرأوا رجلًا واحدًا من المسلمين، حسنَ الطُّمأنينةِ غيرَ قلقٍ في موضعِه، ولا مستوحشٍ في محلِّه، فقالوا لرجلٍ مِنْ شجعانِهِمْ: "اخرجْ إليهِ واكفِنَا مؤنتَه"، فخرجَ إليه، وركبَ الزُّبيرُ فرسَهُ وجاولَهُ فقتَلَه، وخرجَ إليه فارسانِ فطعنَ أحدَهُمَا فقتلَه، وهربَ الآخرُ منهُ وصارَ إلى أصحابِه، فقال: "لو خرجتُمْ بأجمعِكُمْ إلى هذا الرَّجلِ لقَتَلَكُم، فرِيعُوا منه"، ووجَّهوا إليه أسقفتَهُم، فقالوا: "يا هذا، ما تلتمسُ؟ وهل جئتَنا وحدَكَ أو في جماعة؟" فقال: "أنا واحدٌ مِنْ جمعٍ كثيرٍ قد توجَّهُوا معي إليكُم، والَّذي ألتمسُهُ أن تُسلِمُوا أو تؤدُّوا إلينا الجزية"، قالوا: "فنحنُ نجيبُ إلى إحداهُمَا"، فماسحوهُ وفتحوا له الباب، ووافى الجيشُ وقد فتحَ الزبيرُ -رضي الله عنه- إفريقيَّةَ وحدَه.

فتًى عرضُهُ عندَ أعدائهِ *** مَصُونٌ وأموالُهُ تُبتَذَل
وأيَّامُهُ دُوَلٌ للصَّديق *** وأفعالُهُ في الأعادي مَثَل
فلَوْ كانَ غيثًا لعمَّ البلاد *** ولو كانَ سيفًا لكانَ الأَجَل
ولو كانَ معطى على قدرِهِ *** لأغنى النُّفوسَ وأفنى الأَمَل

فرحمةُ اللّهِ عليهِمْ من شُجعانٍ فُرسَان.

وهذا أبو الغادية، وما أدراكَ مَنْ أبو الغادية؟! الصَّحابيُّ الجليل، لأنَّه كانَ من أهلِ الشَّجاعةِ والبلاء؛ جعلهُ الذهبيُّ في سِيَرِ أعلامِ النُّبلاء؛ فروى عن عثمانَ بنِ أبي العاتكةِ قال: "رمى العدوُّ الناسَ بالنِّفط، فقال معاوية: أمَا إذا فَعَلُوها فافعلوا،

فكانوا يترامَونَ بها، فتهيَّأ روميٌّ لرمي سفينةِ أبي الغاديةِ في طنجير، فرماهُ أبو الغاديةِ بسهمٍ فقتَلَه، وخرَّ الطِّنجيرُ في سفينتِهِمْ، فاحترقتْ بأهلِهَا وكانوا ثلاثَمئة، فكان يُقال: رميةُ سهمِ أبي الغاديةِ قَتَلَتْ ثلاثَمئةِ نفسٍ"، وكأنَّ مقالَه:

فلا يغرَّنَّكَ منِّي الثَّوبُ أسحبُهُ *** إنِّي امرؤٌ فيَّ عندَ الجدِّ تشميرُ

ولستُ لريحانٍ وَلَا راحِ *** وَلَا على الْهِجرانِ نَوَّاحِ
بلى، إذا أبصرتَني قائمًا *** فبينَ أسيافٍ وأرمَاحِ
تَرَى فتًى تحتَ ظلالِ القنا *** يقبضُ أرواحًا بأرواحِ

هكذا كانَ الصَّحابةُ -رضوان الله عليهم-؛ أسودُ وقائعَ وليوثُ الغابةِ وحاطةُ الحريم، أسودُ الشَّرى وحماةُ الحقائق، أباةُ الذُّلِّ سقاةُ الحتوف، نجومُ الاقتداءِ والائتمامِ وسيوفُ دينِ الإسلام، السَّادةُ البَرَرَةُ والقادةُ الأعلام، أحلاسُ الخيلِ ورهبانُ اللَّيل، فيا معشرَ المسلمين، يا معشرَ المسلمين!

سِيرُوا كما سَارُوا لتجنُوا مَا جَنَوا *** لا يحصدُ الحبَّ سوى الزُّراعِ
وتيقَّظُوا فالسَّيلُ قد بلغَ الزُّبى *** يا أيُّها النَّومى على الأنطاعِ
واسترجِعُوا ما فاتَ من أمجادِكُمْ *** ما دمتُمُ في مهلةِ استِرْجَاعِ
يا خاطبَ العلياءِ إنَّ صداقَها *** صعبُ المنالِ على قصيرِ الباعِ

ويا معشرَ المجاهدين، ويا خيرةَ الموحِّدين، ويا أشاوسَ المقاتلين، ويا ساداتِ الأنصارِ وفرسَانَ المهاجرين؛ إنِّي ناصحٌ لكُمْ ومُعِينٌ، وباعثٌ لكُمْ بوصيَّةٍ عربيَّةٍ أدبيَّة، فمَن عملَ بها فاز، ومَنْ تركهَا خاب؛ فبسمِ اللهِ وباللهِ وعلى عونِ الله:

امضُوا بتأييدِ اللهِ والنَّصر، ولزومِ الحقِّ والصَّبر، قاتلوا في سبيلِ الله مَنْ كفر بالله، ولا تَعتَدُوا إنَّ الله لا يحبُّ المعتدين، ولا تَجْبُنُوا عندَ اللِّقاء، ولا تغفلوا عندَ القدرة، ولا تُسْرِفُوا عندَ الظُّهور، عَاوِدُوا الكرَّ واستحيُوا مِنَ الفرِّ؛ فإنَّهُ عارٌ في الأعقابِ ونارٌ يومَ الحساب، وطيبوا عنِ الحياةِ نفسًا، وسيروا إلى الموتِ سَيْرًا، وقدِّمُوا للوثبةِ رِجْلًا، وأخِّرُوا للنُّكوصِ أخرى، فصَمْدًا صَمْدًا حتَّى يبلغَ الحقُّ أجلَه، واللهُ معكُمْ ولن يَتِرَكُمْ أعمالَكُم، والرُّتَبُ لا تُبلَغُ إلا بتدرُّجٍ وتدرُّب، ولا تُدرَكُ إلا بتجشُّمِ كلفةٍ ونَصَب، ولا بدَّ من مصابرةِ الغمرةِ حتَّى تنجلي، وملاطفةِ الشِّدَّةِ حتَّى تنتهي، ثمَّ

إنَّ مَن سعى رعى، ومَن نامَ رأى الأحلام، وبالتَّأني يُدرَك الغرضُ، ومَنْ أدمنَ الاستفتاحَ فتحَ الإغلاق، ومَن أكلَ القَلَايَا صبر على البلايا، ولا تُطلَبُ الغنيمةُ في الهزيمة، لا تُطلَبُ الغنيمةُ في الهزيمة!

قوموا قِيَامًا على أمشاطِ أرجلِكُمْ *** ثمَّ افزَعُوا قد يَنَالُ الأمنَ مَنْ فَزِعَ

وما ثَمَّ -واللهِ- إلا الشَّجاعةُ والصَّبر؛ فإنَّهُمَا لا يُغلَبان، وهما جندانِ منصوران، لا تضرُّ معهما قلَّةٌ، ولا تنفعُ مع الخورِ والكسلِ والفشلِ والاختلافِ والعجبِ كثرةٌ، وإيَّاكُمْ إيَّاكُمْ أن ترضوا بالدَّنيَّة، ولا تُعطُوا بأيديكم، وارغَبُوا فيما عجَّلَ اللهُ لكُمْ مِنَ الكرامةِ والرَّاحة؛ مِنَ المهانةِ والذِّلَّة، وما حلَّ لكُمْ من ثوابِ الشَّهادة، وإنَّ لكلِّ امرئ ميتةً هو ميِّتٌ بها، ووالله، ما مِنْ ميتةٍ بأفضلَ من ميتةِ الشَّهادة، وقد ساقها اللهُ إليكُمْ، ألا فاغتنموها -رحمة الله عليكم-؛ فوالله، ما كلَّ ما أردتُّمُوهَا وجدتُّمُوهَا، واصدُقُوا اللِّقاء؛ فإنَّهُ -والله- ما صَدَقَ قومٌ قطُّ إلا نُصِرُوا، فلا تُغلَبُنَّ على الشُّكرِ في حينِهِ والصَّبرِ في وقتِه، وعندَ الأوجالِ تتفاضلُ الرِّجال، وبتفاضُلِ الهِمَمِ تتفاوتُ القِيَم، وبخَلَلِ الأحوالِ تتبيَّنُ الأهوال، وبمُوجَبِ الصَّبرِ ثمرةُ النَّصر، واستحقاقُ الإحمادِ بحسبِ الاجتهاد، وثِقُوا بأنَّكُمْ المستَخْلَفُونَ في الأرض، والعاقبةُ للمتَّقين.

ثمَّ يا معشرَ المجاهدين، شُدُّوا ولا تصُدُّوا، وكَرُّوا ولا تَفِرُّوا، ولا يكونُنَّ على دنياهُمْ أحمى منكُمْ على دينِكُم، واتَّقى اللهَ عبدٌ صدقَ اللهَ، وأبلى نفسَهُ فأحسنَ البلاء؛ فإنَّكُمْ بينَ خيرينِ مُنتَظَرَين، إحدى الحسنَيَين: بينَ شهيدٍ حيٍّ مرزوق، أو فتحٍ قريبٍ وظَفَرٍ يسير، واقرعْ بابَ رعيِك بسعيِك، وجُبْ كلَّ فجٍّ ولُجْ كلَّ لجٍّ، وانتَجِعْ كلَّ روضٍ، وألقِ دلوَكَ إلى كلِّ حوضٍ، ولا تسأمِ الطَّلبَ ولا تملَّ الدَّأب؛ فإنَّ مَن طلبَ جلب، ومَن جالَ نال، وإيَّاكَ والكسلَ ولبوسَ ذوي البُوس، وشيمةَ العَجَزَةِ الجَهَلَة، وشنشنةَ الوُكلةِ التُّكلة، وما اشترى العسلَ مَنِ اختارَ الكسل، ولا ملأ الرَّاحةَ مَنِ استوطأَ الرَّاحة، وعليك بالإقدامِ ولو على الضِّرغام؛ فإنَّ جراءةَ الجنانِ تُنطِقُ اللِّسانَ وتُطلِقُ العنان، وبها تُدرَكُ الحَظْوَةُ وتُملَكُ الثَّروة، كما أنَّ الخورَ صِنْوُ الكسلِ وسببُ الفشلِ ومبطأةٌ للعملِ ومخيبةٌ للأمل، ومَن جَسَرَ أيسر، ومَنْ هابَ خاب، والتزامُ الحزامةِ زمامُ السَّلامة، واصبرْ على كيدِ العدوِّ وكدِّه، فعسى اللهُ أن يأتيَ بالفتحِ أو أمرٍ مِنْ

عنـدِه، ثمَّ خُضِ الغمـارَ لتجنيَ الثِّمـار، واقتحمِ الأخطـارَ لكي تُـدرِكَ الأوطـار، لِيَعْلَمْ عدوُّك منكَ أنَّ ريحَهُ لاقتْ إعصارًا، وأنَّ جدولَهُ صادفَ تيَّارًا.

ثمَّ يـا سـاداتِ المجاهـدينَ والغـرِّ الميـامين؛ إنَّـه ليسَ بينَكُمْ وبينَ الفتحِ في العاجـلِ والجنَّةِ في الآجل: إلَّا ساعةٌ مِنَ النَّهار، فأرسلوا أقدامَكُمْ وسوُّوا صفوفَكُمْ، وأعيروا ربَّكُمْ جماجمَكُمْ، واستعينوا باللهِ إلهِكُمْ، وجَاهِـدُوا عـدوَّ اللهِ وعـدوَّكُم، واقتلـوهُمْ -قتلهم الله وأبادهم-، واصبروا؛ فـإنَّ الأرضَ للهِ يورثُها مَن يشاءُ مِنْ عبادِه، والعاقبةُ للمتَّقين، وعليكُمْ بتقـوى اللهِ والإقـدامِ والحـزمِ والصَّبر، وواللهِ إنَّـا لَنعلَمُ إنَّكُمْ لعلى حقٍّ، وإنَّ عدوَّكُمْ لعلى باطل، فلا يكونُنَّ أولى بالجدِّ على باطلِهِمْ منكُمْ في حقِّكُم، وإنَّا لَنعلمُ أنَّ اللهَ سيعذِّبُهُمْ بأيديكُمْ أو بأيدي غيرِكُم، فـاللهمَّ أعنَّـا ولا تَخْذُلْنَا، وانصُرْنَا على عدوِّنا، وافتحْ بينَنا وبينَ قومِنَا بالحقِّ وأنتَ خيرُ الفاتحين.

واقـرؤوا سـورةَ الفتح، وأَبْشِـرُوا بانـدمالِ القـرح؛ فقـد جـبر اللهُ ثكلَكُم، وسـنَّى جمعَكم، وجمعَ في ظلِّ الخلافةِ شملَكُمْ، وعسى أن تكرهُوا شيئًا وهو خيرٌ لكُمْ، ومع كثرةِ ما ذكرتُ ونصحتُ وأعدتُّ وأفدتُّ؛ فتاللهِ في كلِّ ذا مَا فُهْتُ بزُورٍ، ولا دلَّيتُكَ بغُرُور، وستخبرُ حقيقةَ الأمور، فـإنْ قبلتَ فاللهُ حسبُك، وإنْ أبيتَ فلا تلـومنَّ إلَّا نفسَك؛ فمَن أنذر فقد أعذر، ومَن حذَّرَ كمَنْ بشَّر، ومَن بصَّرَ فما قصَّر.

قد علمَ المستأخِرُونَ في الوَهَل
إذا السُّيوفُ عَرِيَتْ مِنَ الخَلَل
أنَّ الفِرارَ لا يزيدُ في الأَجَل

{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)} [سورة النساء].

ضربًا بحدِّ البَوَاتِر *** ثأرًا لكلِّ الحَرَائِر
يا هبَّةَ الدِّينِ هيَّا *** نَسْفًا لكلِّ السَّوَاتِر
هيَّا امسَحُوا سِفْرَ عارٍ *** بالعاصفاتِ المَوَاطِر
هيَّا اجعَلُوهَا يبابًا *** هيَّا اقطَعُوا كلَّ دَابِر
وزلزلوا الأرضَ ثأرًا *** واستأصِلُوا كلَّ كَافِر
كبِّرْ على الكفرِ واهجُمْ *** ثمَّ اقتَلِعْ كلَّ كَافِر

مُسْتَبْسِلًا في جهادٍ *** يَسْمُو بِهِ كلُّ ثَائِر
فاستغفرِ اللهَ وارقُبْ *** فيهِمْ فظيعَ المَصَائِر

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [سورة الصافات].

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة الرابعة عشرة



الحلقة الرابعة عشرة: بالتَّحمُّلِ والصَّبر؛ يكونُ على أممِ الكفرِ النَّصرُ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعينِ الموحِّدين، ومبيدِ الطُّغاةِ المارقين، وناصرِ المستضعَفينَ على مَن سلك سبيلَ المجرمين، الَّذي جعلَ العاقبةَ لهُمْ ليكونوا هُمُ الوارثين، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، إلهُ الأوَّلينَ والآخرين، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، مَن جاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ حتَّى أتاهُ اليقين، صلواتُ الله وسلامُهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ناشري لواءِ الدِّين، وعلى مَن تبِعَهُمْ واقتفى آثارَهُمْ في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكُمُ اللهُ وأحياكُمْ، وجعل الجنَّة مأوانا ومأواكُمْ، وقوَّى تقواكُمْ، وأحسنَ أعمالَكُمْ، وأعانَنا على مَن عادانا وعاداكُم، وذُخرًا للخلافةِ أعدَّكم، ترفعونَ راياتِهَا، وتذودونَ عنْ حياضِهَا، تحاربونَ عدوَّها، وتنصرونَ جنودَها، ترصُّونَ صفوفَهَا، وتُشيِّدونَ صروحَهَا، وتُضمِّدونَ جروحَهَا، وعلى منهاجِ النبوَّةِ تحملونَهَا.

ما زلنا معكُمْ -معاشر المسلمين- نبيِّنُ ونوضِّحُ، ونقوِّمُ ونصحِّح، ونشرحُ ونصرِّح، وعنِ النُّفوسِ بالحقِّ نروِّح، فإنْ وافقتْ كُلَيْمَتِي قبولًا فالحمدُ لله، وإنْ وافقتْ ردًّا فمِنْ نفسي والشَّيطان، وأستغفرُ الرَّحمن، راجيًا مِنَ اللهِ أنْ تنالَ هذهِ الكلماتُ القبولَ والإعجاب، وأنْ ينتفعَ منهَا صاحبُهَا والأهلُ والأصحاب، ومَنْ يخافُ يومَ الحساب، وأنْ تكونَ لنا زادًا على الطَّريق، ومنارًا للسَّبيل، وحجَّةً لنا لا علينا يوم اللِّقاء.

إنْ تَجِدْ عيبًا فسُدَّ الخلَلَا *** جلَّ مَنْ لا عيبَ فيهِ وعلا

معاشرَ المسلمين، إنَّ الدُّنيا مليئةٌ بالهمومِ والغمومِ والمصائبِ والنَّكبات، والنَّوازِلِ والمُدْلَهِمَّات، والبلايا والرَّزايا المتتابعات، والفواجعِ والمُلِمَّات، ولا حيلةَ مع كلِّ ذا إلَّا بالصَّبرِ والتَّحمُّلِ والتَّصبُّرِ والتَّجلُّد، ولا ينفعُ ولا يُجدِي مع صُرُوفِ الزَّمنِ إلَّا الصَّبرُ والسلوان، وخاصَّةً في أيَّامِ الحربِ والعدوان، وتطاولِ اللِّئامِ وتعدِّي أممِ

الكفرِ والطُّغيان، على أمَّةِ الإسلامِ واللهُ المستعان، ولا حيلةَ في أيَّامِ الجهادِ إلَّا بالتَّصبُّرِ للجلاد.

فاصبرْ على سودِ اللَّيالي وادَّرعْ *** بعزيمةٍ كالطَّودِ إنْ خَطْبٌ نَزَل
فالصَّبرُ مفتاحُ النَّجاحِ ولم نَجِدْ *** صعبًا بغيرِ الصَّبرِ يبلغُهُ الأَمَل

فإذا نزلتِ الحربُ ووقع الضَّربُ، وتنوَّعتِ الفتنُ وتعدَّدتِ المحنُ، وتوالتْ شدائدُ الزَّمن، ونزلتْ بك المصائبُ وحلَّتْ بك النَّوازلُ مِنْ قتلٍ للأحبابِ وفرقةِ الأصحاب، وانقطاعِ الأسبابِ وإغلاقِ الباب، وتعدِّي كلِّ مرتدٍّ مرتاب، وتطاوَلَ على نَهْشِ لحمِكَ الضِّباعُ والسِّباعُ والكلاب، وصارتْ ديارُكَ بلاقعَ خرابٍ، وأرضُكَ صلاقعَ يبابٍ؛ فلا جزعَ ولا حزن، ولا يأسَ ولا قنوط، ولا خوفَ ولا وجل، ولا كسلَ ولا ملل، ولا صُرَاخَ ولا عويل، ولا تَضَعْضُعَ ولا تَزَعْزُع، ولا هَلَعَ ولا فزَع.

فيا أيُّها الموحِّدُ صبرًا *** إنَّ بعدَ العسرِ يُسْرًا
اشربِ الصَّبرَ وإنْ *** كانَ مِنَ الصَّبرِ أمرَّا

بلْ ينبغي أنْ تكونَ في ثباتٍ وصبرٍ وتحمُّلٍ ومصابرةٍ ومرابطةٍ وشدَّةِ بأسٍ وحسنِ يقين:

وحسبُ الفتى إنْ لم ينلْ ما يريدُهُ *** مع الصَّبرِ أنْ يُلفَى مقيمًا على الصَّبرِ

على أنْ تكونَ في كلِّ هذهِ الأحوالِ -يا أيُّها الموحِّدُ ويا أيُّها المجاهدُ- رجلًا حَمُولًا للنَّائبات، مُطَّلِعًا بالشَّدائدِ جلدًا على مَضِّ النَّوازل، تتلقَّى الأمرَ برُحْبِ صدرٍ وثباتِ جَنَان، وتحتمِلُهُ بطولِ أناتِكَ وسعةِ ذَرْعِك، فتكونَ رجلًا لاذَ بالصَّبرِ ووطَّنَ نفسَهُ عليه، وضربَ على الأمرِ أطنابَ صبرِهِ وصَبَرَ فيه على تجرُّعِ الغُصَصِ، وتجلَّدَ على مَضَضِ المحن، وردَّ نفسَهُ على مكروهِهَا، بل وصَبَرَ على شيءٍ أمرَّ مِنَ الصَّبر، كذا تكونُ ولا تهونُ.

فإنْ تَصبِرِ النَّفسُ تلقَ السُّرور *** وإنْ تجزعِ النَّفسُ أشْقَى لهَا

فإيَّاك إيَّاك -رحمة الله عليك- مِنْ كثرةِ الشَّكوى والجزعِ والقنوطِ واليأسِ والتأفُّفِ بأقدارِ اللهِ والتسخُّط؛ فإنَّ هذا أمرٌ مِنْ سمةِ أهلِ الشَّكوى والجزع، ودلالةٌ

على انعدامِ الصَّبرِ وضيقِ الصَّدر، وحَاذِرْ أن تَشكُوَ لابنِ آدمَ أقدارَ الله؛ فإنَّ ذلك ليسَ بنافع.

إذا عرتْكَ بليَّةٌ فاصبرْ لهَا *** صَبْرَ الكريمِ فإنَّه بكَ أعلمُ
وإذا شكوتَ إلى ابنِ آدمَ إنَّما *** تشكو الرَّحيمَ إلى الَّذي لا يَرحَمُ

معاشرَ المسلمين، هو الدَّهرُ وعلاجُهُ الصَّبر، لَا تَهنَأُ فيهِ المواهبُ حتَّى تتخلَّلَها المصائبُ، ولا تَصفُو فيه المشاربُ حتَّى تُكدِّرَهَا الشَّوائبُ، ومَن عرفَ الزَّمانَ لم يستشعرْ منهُ الأمان؛ إنَّك لتعلمُ أنَّ شوائبَ الدَّهرِ لا تُدفَعُ إلَّا بعزائمِ الصَّبر، فالصَّبرَ الصَّبر!

وإنِّي لصبَّارٌ على مَا ينوبُني *** لأنِّي رأيتُ اللهَ أثنى على الصَّبرِ

ولمْ أرَ لي خيرًا مِنَ الصَّبرِ إنَّهُ *** أعفُّ وأحرى إذْ عَرَتْنِي الفواجعُ

ثمَّ إنَّ المِحَنَ إذا لم تُعالَجْ بالصَّبر؛ كانتْ كالمِنَحِ إذا لم تعالَجْ بالشُّكر، فصبرًا فإنَّ فحولَ الرِّجالِ لا تستفزُّها الأيَّامُ بخُطُوبِهَا كما أنَّ متونَ الجبالِ لا تهزُّهَا العواصفُ بهُبُوبِهَا.

عليكَ بحسنِ الصَّبرِ في كلِّ موردٍ *** مِنَ الأمرِ كي تَحظَى بحسنِ المصادرِ

واعلم -رحمة الله عليك- أنَّ الجزعَ للرَّبِّ مَسخَطَةٌ، وللأجرِ مَحْبَطَةٌ، وما تَضَعُ والقضاءُ نازلٌ، والموتُ حكمٌ شاملٌ.

وعاقبةُ الصَّبرِ محمودةٌ *** ولكنْ أخو الخَرْقِ مُستعجِلُ

فعليكَ بعزيمةِ الصَّبرِ وصريمةِ الجلد؛ فإنَّها في العينِ حَتْمٌ، وفي الرَّأيِ حزمٌ، وليسَ في خلافِهِ مَا للحيِّ انتفاعٌ، ولا للميِّتِ ارتجاعٌ، واعلمْ أنَّ المقتولَ لا تردُّهُ نارٌ تُلْهِبُهَا مِنَ الهمّ على كَبِدِك، ولا يُرْجِعُهُ انزعاجٌ تُسلِّطُهُ بالحُزْنِ على جَسَدِك، وخيرٌ لك مِنْ ذلك أن تفعلَ ما يفعلُهُ الذَّاكرون، وتقولَ: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، وإنْ لم تَغُضَّ على القَذَى لم ترضَ أبدًا.

وليسَ لمن ليستْ له حيلةٌ موجودةٌ خيرٌ مِنَ الصَّبر؛ قالَ ابنُ القيّم -رحمه الله تعالى-: "الصَّبرُ من الإيمانِ بمنزلةِ الرَّأسِ من الجسد، ولا إيمانَ لمن لا صبرَ له، كما أنَّه لا جسدَ لمن لا رأسَ له".

عبادَ الله، في ظلِّ تكالُبِ الأممِ على خلافةِ المسلمين؛ فإنَّ العدوَّ لا يندفعُ شرُّهُ وينكسرُ قرنُهُ وينثلمُ حدُّه ويُوهَى زِندُه؛ إلَّا بالصَّبرِ والتَّحمُّلِ والتَّجلُّدِ والتَّجمُّل، حتَّى يتكسَّرَ تداعيهِمْ على صخرةِ ثباتِ المسلمينَ وصبرِهِمْ، ومَن صبرَ ظَفَرَ وظَهَر، وإنَّ الخضوعَ والخنوعَ والرُّجوعَ والجزعَ والوَهَلَ مِنْ سماتِ العبيدِ لا الرِّجال -نسألُ الله السَّلامةَ والعافية-، ومِنْ سماتِ العَجَزَةِ لا الأبطال، ومِنْ سماتِ الضَّعفةِ الجهُّال، أهلِ الخَبَالِ والوَبَال.

فاصبرْ على مَضَضِ الإدلاجِ في السَّحرِ *** وفي الرَّواحِ إلى الحاجاتِ والبكرِ
لا تضجرنَّ ولا يحزنْكَ مطلبُهَا *** فالنُّجحُ يتلفُ بينَ العجزِ والضَّجرِ
إنِّي رأيتُ وفي الأيَّامِ تجربةٌ *** للصَّبرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثرِ
وقلَّ مَن جدَّ في أمرٍ يطالبُهُ *** واستصحبَ الصَّبرَ إلَّا فازَ بالظَّفرِ

ولعظيمِ شرفِ الصَّبرِ وجلالةِ مكانتِه؛ كانَ ولا بدَّ مِنْ بيانِ محاسنِهِ وفضلِه، وجميلِ عاقبتِه، وعِظَمِ مكانتِه وأهميَّتِهِ في دفعِ عاديةِ الأمم؛ فإنَّه بالتَّحمُّلِ والصَّبرِ يكونُ على أممِ الكفرِ النَّصر، فالصَّبرُ ما الصَّبر؟ الصَّبرُ هو حبسُ النفسِ عَنِ الجزع، وأصلُ الصَّبرِ الحبسُ، وكلُّ مَن حبسَ شيئًا فقد صَبَرَه، وعرَّفهُ ابنُ القيّمِ بقوله: "هو خُلُقٌ فاضلٌ مِنْ أخلاقِ النَّفس، يمتنعُ بِهِ مِنْ فعلِ مَا لا يحسُنُ ولا يجمُلُ، وهو قوَّةٌ من قوى النَّفسِ التي بها صلاحُ شأنِهَا وقوامُ أمرِهَا"، وقيل: هو تركُ الشَّكوى مِنْ ألمِ البلوى، وهو قوَّةٌ تُمكّنُ الإنسانَ من ضبطِ نفسِهِ لتحمُّلِ المتاعبِ والمشاقِّ والآلام، وكما في الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: (وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ)[1]، قالَ اللهُ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)} [سورة آل عمران]، فأمرهُمْ سبحانَهُ بالصَّبرِ وهو حالُ الصَّابرِ في نفسِه، والمصابرةِ وهي حالةٌ في الصَّبرِ مع خصمِه، والمرابطةِ وهي الثَّباتُ واللُّزومُ والإقامةُ على الصَّبرِ والمصابرة، فقد

[1] رواه البخاري.

يصبرُ العبدُ ولا يصابرُ، وقد يصابرُ ولا يرابطُ، وقد يصبرُ ويصابرُ ويرابطُ مِنْ غيرِ تعبُّدٍ بالتَّقوى، فأخبرَ سبحانه أنَّ ملاكَ ذلكَ كلَّهُ التَّقوى.

وإنَّ الصَّبرَ -معاشر المسلمين- يشتملُ على أكثرِ مكارمِ الأخلاق؛ فيدخلُ فيه الحلمُ؛ فإنَّه الصَّبرُ مِنْ دواعي الانتقامِ عن الغضب، والأناةُ صبرٌ عن إجابةِ دواعي العَجَلَة، والعفوُ والصَّفحُ صبرٌ عن إجابةِ دواعي الانتقام، والجودُ والكرمُ صبرٌ عن إجابةِ دواعي الإمساك، والكيسُ صبرٌ عن إجابةِ دواعي الكسلِ والخمول، وسعةُ الصَّدرِ صبرٌ عن الضَّجر، والكتمانُ وحفظُ السِّرِّ صبرٌ عن إظهارِ مَا لا يحسُنُ إظهارُه، والشَّجاعةُ صبرٌ عن إجابةِ دواعي الفرار.

والصَّبرُ مثلُ اسمِهِ مرٌّ مذاقتُهُ *** لكنْ عواقبُهُ أحلى مِنَ العسلِ

قالَ تعالى: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} [سورة العصر].

قالَ الشَّوكانيُّ في فتحِ القدير: "{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} أي: بالقرآن، وقيل: بالتَّوحيد، والحملُ على العمومِ أولى، {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} أي: بالصَّبرِ عَنْ معاصي الله سبحانه، والصَّبرِ على فرائضِه، وفي جعلِ التَّواصي بالصَّبرِ قرينًا للتَّواصي بالحقّ دليلٌ على عظيمِ قدرِهِ وفخامةِ شرفِهِ ومزيدِ ثوابِ الصَّابرينَ على ما يحقُّ الصَّبرُ عليه؛ {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)} [سورة البقرة]، وأيضًا التَّواصي بالصَّبرِ ممَّا يندرجُ تحتَ التواصي بالحقّ، فإفرادُهُ بالذِّكرِ وتخصيصُهُ بالنصّ عليه مِنْ أعظمِ الدَّلالةِ على إنافتِهِ على خصالِ الحقّ، ومزيدِ شرفِهِ عليها، وارتفاعِ طبقتِهِ عنها".

قالَ صاحبُ الظِّلال: "وهكذا يريدُ الإسلامُ أمَّةَ الإسلام، يريدُهَا أمَّةً خيِّرَةً قويَّةً واعية، قائمةً على حراسةِ الحقّ والخير، متواصيةً بالحقّ والصَّبرِ في مودَّةٍ وتعاونٍ وتآخٍ، والتَّواصي بالحقّ ضرورةٌ؛ فالنُّهوضُ بالحقّ عسيرٌ، والمعوّقاتُ عَنِ الحقّ كثيرةٌ: هوى النَّفسِ ومَنطِقُ المصلحةِ وتصوُّرُ البيئةِ وطغيانُ الطُّغاةِ وظلمُ الظَّلمةِ وجورُ الجائرين، والتَّواصي تذكيرٌ وتشجيعٌ وإشعارٌ بالقُربَى في الهدفِ والغاية، والأُخوَّةِ في العبءِ والأمانة.

والتَّواصي بالصَّبرِ كذلك ضرورةٌ؛ فالقيامُ على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ وحراسةِ الحقِّ والعدل؛ مِنْ أعسرِ مَا يواجهُ الفردَ والجماعة، ولا بدَّ من الصَّبرِ على جهادِ النَّفسِ وجهادِ الغير، والصَّبرِ على الأذى والمشقَّة، والصَّبرِ على تبجُّحِ الباطلِ وتنفُّجِ الشَّر، والصَّبرِ على طولِ الطَّريقِ وبطءِ المراحلِ وانطماسِ المعالمِ وبعدِ النِّهاية، والتَّواصي بالصَّبرِ يضاعفُ المَقْدِرَةَ بما يبعثُهُ مِنْ إحساسٍ بوحدةِ الهدفِ ووحدةِ المتَّجَهِ وتساندِ الجميع، وتزوُّدِهِمْ بالحبِّ والعزمِ والإصرار، إلى آخرِ ما يثيرُهُ مِنْ معاني الجماعةِ الَّتي لا تعيشُ حقيقةُ الإسلامِ إلَّا في جوِّها، ولا تبرُزُ إلَّا مِنْ خلالِهَا، وإلَّا فهو الخسرانُ والضَّياعُ"، انتهى كلامُهُ -رحمه الله-.

فيا جندَ الخلافة، ويا فرسانَ الدَّولة، ويا أصحابَ الصَّولة، يا حماةَ الثُّغورِ وضَرَبَةَ النُّحور، والقاصمينَ من الكفرِ الظُّهور؛ لئن تحزَّبتْ عليكُمُ الأممُ ورماكُمُ العربُ والعجمُ، وعظمتِ الشَّدائدُ وكثرتِ الجراح، وتتابعتِ المحنُ والفتنُ والبلايا، ونزل بكم أليمُ الرَّزايا؛ فصبرًا صبرًا، وتحمُّلًا تحمُّلًا، وإيَّاكم من الجزعِ والضَّعفِ والوهنِ والشَّكوى، بل جَلَدًا وصبرًا وتحمُّلًا.

تعزَّ فإنَّ الصَّبرَ بالحرِّ أجملُ *** وليسَ على ريبِ الزَّمانِ معوَّلُ
فلو كانَ يغني أنْ يُرَى المرءُ جازعًا *** لحادثةٍ أو كانَ يغني التَّذلُّلُ
لكانَ التَّعزِّي عند كلِّ مصيبةٍ *** ونائبةٍ بالحرِّ أولى وأجملُ
وإنْ ترَنا هزلًا فأعراضٌ لنا *** موفَّرةٌ ممَّن يجودُ ويبخلُ
وَقِينَا بحسنِ الصَّبرِ منها أديمَها *** فصحَّتْ لنا الأعراضُ والقومُ هزَّلُ
ومَنْ يفتقرْ منَّا يعشْ بحسامِهِ *** ومَنْ يفتقرْ مِنْ سائرِ النَّاسِ يسألُ
فإنْ تكنِ الأيَّامُ فينا تقلَّبتْ *** ببؤسٍ ونُعْمَى فالحوادثُ تفعلُ
فما ليَّنَتْ منَّا قَنَاةً صَلِيبَةً *** ولا عَرَّضَتْنا للَّذي ليس يجملُ
ولكنْ رحلنَاهَا نفوسًا كريمةً *** تُحَمَّلُ ما لا تستطيعُ فتَحْمِلُ
غَضَضْنَا مِنَ الأبصارِ مِنْ أنْ نَمُدَّها *** إلى مطمعٍ فيه على الحرِّ مَدخَلُ

نعمْ معاشرَ المسلمين، في مواطنِ المحنِ والفتن، وعندَ حلولِ البلايا والرَّزايا، وفي شدَّةِ كَلَبِ العدوِّ وغَضَبِه، وقمَّةِ ضربِهِ وقصفِهِ وعدوانِه؛ لا نأمرُكم ولا نحضُّكم إلَّا على التَّصبُّرِ والتَّحمُّلِ والتَّجلُّد، هذا ما دعا إليه الربُّ -جل جلاله-، وجعلَ أهلَهُ

الصَّادقينَ والمتَّقين، فقال: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)} [سورة البقرة].

عنِ الضَّحاكِ بنِ مزاحمٍ قال في قولِهِ تعالى: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ}، قال: "أمَّا البأساءُ فالفقرُ، وأمَّا الضَّراءُ فالمرضُ، وأمَّا حينَ البأسِ فهو حينَ القتال".

بذا أيضًا أوصى نبيُّنا صحابتَه -عليه وعليهم أفضل الصَّلاة والسلام-؛ فقد بوَّب البخاريُّ: "باب: مَنِ اختارَ الضَّربَ والقتلَ والهوانَ على الكفر"، وساقَ بإسنادِهِ عنْ قيسٍ يقول: سمعتُ خبَّابًا يقولُ: "أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً وهو في ظلِّ الكعبة، وقد لقينا من المشركينَ شدَّة، فقلتُ: ألا تستنصرُ لنا؟! ألا تدعو لنا؟! قالَ سفيانُ: فقعدَ وهو مُحمَرٌّ وجهُهُ فقال: (قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)"، وفي روايةٍ عندَ ابنِ أبي الدُّنيا[١] قال: (أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا وَاصْبِرُوا، فَوَاللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ لَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِاثْنَيْنِ، لَا يَرْتَدُّ عَنْ دِينِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاصْبِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ فَاتِحٌ وَصَانِعٌ لَكُمْ).

إنِّي أقولُ لنفسي وهي ضيِّقةٌ *** وقد أناخَ عليها الدَّهرُ بالعَجَبِ
صبرًا على شدَّةِ الأيَّامِ إنَّ لها *** عُقبَى وما الصَّبرُ إلَّا عندَ ذي الحسبِ
سيفتحُ اللهُ عَنْ قربٍ بنافعةٍ *** فيها لمثلِكَ راحاتٌ مِنَ التَّعَبِ

عبادَ الله، إنَّ أمرَ اللهِ جارٍ عليكم، وإنَّ قضاءهُ نافذٌ فيكم، فليسَ لكم إلَّا الرِّضا والصَّبرُ والتَّسليم، وإلَّا فالسَّخطُ والجزعُ والهَلَع، قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ -رضي الله عنه- للأشعثِ بنِ قيسٍ: "إنَّكَ إنْ صبرتَ؛ جرى عليكَ قضاءُ اللهِ وأنتَ مأجور، وإنْ جزعتَ جرى عليك أمرُ اللهِ وأنتَ مَوْزُورٌ".

فإنَّك إنْ لم تَسْلُ احتسابًا *** سلوتَ كما تسلو البهائم

---

[١] ورواه الحاكم والطبراني. وقال الحاكم والذهبي: صحيح.

فحكاهُ أبو تَمَّامٍ حكايةً حسنةً في قوله:

وقالَ عليٌّ في التَّعازي لأشعثٍ *** وخافَ عليهِ بعضَ تلكَ المآثمِ
أتصبرُ للبلوى رجاءً وحِسْبَةً *** فتُؤجَرَ أم تسلُو سُلُوَّ البهائمِ
خُلِقْنَا رجالًا للتَّجلُّدِ والأسى *** وتلكَ الغواني للبُكَا والمآتمِ

والبيتُ الأخيرُ من قولِ عبدِ الله بنِ الزُّبيرِ لَمَّا قُتِلَ مصعبٌ قال: "وإنَّما التَّسليمُ والسلوةُ لحزماءِ الرِّجال، وإنَّ الهَلَعَ والجَزَعَ لربَّاةِ الحِجَال".

فإنْ تسأليني كيفَ أنتَ فإنَّني *** صبورٌ على ريبِ الزَّمانِ صعيبُ
حريصٌ على أن لا يُرَى بي كآبةٌ *** فيشمتَ عادٍ أو يُسَاءَ حبيبُ

فاصبرْ على مَا نابك، واربطْ للأمرِ جأشًا، ولا يزالُ أمرُكَ كلُّهُ رابطَ الجأش، لا تروعُك النَّوائب، ولا تنالُ من صبرك المُلِمَّات، ولا يلينُ جنبُك لحادثٍ، ولا يتضعضعُ لريبِ الدَّهر.

تعوَّدتُ مسَّ الضُّرِّ حتَّى ألفتُهُ *** وأحْوَجَني طولُ العزاءِ إلى الصَّبرِ
ووسَّع صدري للأذى كثرةُ الأذى *** وقد كنتُ أحيانًا يضيقُ به صدري
وصيَّرني يأسي مِنَ النَّاسِ راجيًا *** لسرعةِ لطفِ الله مِنْ حيثُ لا أدري

وقد حكى أبو بكرٍ الأنباريُّ عنْ بعضِ العلماءِ أنَّه قال: "إنَّما سُمِّيَ الصَّبرُ صبرًا؛ لأنَّ تَمَرْمُرَهُ في القلبِ وإزعاجَهُ للنَّفسِ كتَمَرْمُرِ الصَّبرِ في الفم"، والصَّبرُ مِنْ أكثرِ الأخلاقِ الَّتي اعتنى بها القرآنُ الكريم، وهو مِنْ أكثرِ ما تكرَّر ذكرُهُ في القرآن، قالَ الإمامُ أحمدُ -رحمه الله-: "ذكر اللهُ سبحانه الصَّبرَ في القرآنِ في تسعينَ موضعًا".

وقد سيقَ الصَّبرُ في القرآنِ في عدَّةِ أنواعٍ نذكرُ بعضَها؛ أحدُها: الأمرُ به، فقال: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [سورة النحل: ١٢٧]، وقولُه: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [سورة الطور: ٤٨]، ومنه: تعليقُ الفلاحِ به، كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)} [سورة آل عمران]، فعلَّق الفلاحَ بمجموعِ هذهِ الأمور، ومنه: تعليقُ الإمامةِ في الدِّينِ به وباليقين، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)} [سورة السجدة].

وقد ذمَّ اللهُ -عز وجل- مَن لم يَصبِرْ على الأذى مِنْ أجلِ دينِه، فقالَ سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} [سورة العنكبوت: ١٠]، ولهذا قالَ سبحانه: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)} [سورة البقرة]، وهذا لقمانُ عندما أوصى ابنَهُ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عَنِ المنكر؛ قَرَنَ ذلك بالصَّبر، فقال: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)} [سورة لقمان]، وَأَمَرَ اللهُ نبيَّهُ بالصَّبرِ على أذى الكفَّار، فقالَ: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)} [سورة الروم].

وبالصَّبرِ مع الأخذِ بالأسباب؛ ينتصرُ المجاهدُ على عدوِّهِ من الكفَّارِ والمنافقينَ والمعاندينَ أصحابِ الحِرَاب، بإذنِ اللهِ ربِّ العالمين، قال -عز وجل-: {وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًاۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)} [سورة آل عمران]، وقالَ تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)} [سورة آل عمران]، وأمرَ اللهُ رسولَهُ أن يصبرَ على إيذاءِ قومِهِ فقال: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)} [سورة المزمل]، قالَ تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)} [سورة البقرة].

فاصبرْ لكلِّ مصيبةٍ وتجلَّدِ *** واعلمْ بأنَّ الدَّهرَ غيرُ مخلَّدِ
أوما ترى أنَّ الحوادثَ جمَّةٌ *** وترى المنيَّةَ للعبادِ بمَرصَدِ؟!

قالَ تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)} [سورة الأنعام]، وبيَّن سبحانه فضلَ الصَّبرِ وعِظَمَ قدرِهِ وعظيمَ الجزاءِ عليه، فجمعَهُ مع الجهادِ فقال: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠)} [سورة النحل]، وبيَّن أنَّ معيَّةَ الله مع الصَّابرينَ وقرَنَهُ بالصَّلاة، فقال: {اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)} [سورة

البقرة]، وقالَ اللهُ: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)} [سورة النحل].

وضَمِنَ سبحانَهُ النَّصرَ والمَدَدَ للصَّابرين، فقال: {بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [سورة آل عمران]، وجعلَ سبحانَهُ بالصَّبرِ الحفظَ مِنْ كيدِ الأعداء، فقال: {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} [سورة آل عمران: ١٢٠]، وكلُّ عملٍ يُعرَفُ ثوابُهُ إلَّا الصَّبر، قال -عز وجل-: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)} [سورة الزمر].

وفي الحديثِ المتَّفقِ عليهِ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ -رضي الله عنه-: أنَّ ناسًا مِنَ الأنصارِ سألوا رسولَ الله ﷺ فأعطاهم، ثمَّ سألوهُ فأعطاهم، ثمَّ سألوهُ فأعطاهم، حتَّى نَفِدَ ما عندَهُ فقال: (ما يَكُونُ عِنْدِي مِن خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطاءً خَيْرًا وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)، وذلك لأنَّ مقامَ الصَّبر أعلى المقامات، ولأنَّه جامعٌ لمكارمِ الصِّفاتِ والحالات.

وعندَ البخاريِّ في الصَّحيح عنْ أنسِ بنِ مالكٍ -رضي الله عنه- قال: "مرَّ النبيُّ ﷺ بامرأةٍ تبكي عندَ قبر، فقال: (اتَّقِي اللَّهَ واصْبِرِي)، قالتْ: إليكَ عنِّي؛ فإنَّك لم تُصَبْ بمصيبتي، ولم تَعْرِفْهُ، فقيلَ لها: إنَّه النبيُّ ﷺ، فأتتْ بابَ النبيِّ ﷺ فلم تجدْ عندَهُ بوَّابِينَ، فقالت: لمْ أَعْرِفْكَ، فقال: (إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى)".

قال ابنُ القيِّم -رحمه الله-: "فإنَّ لمفاجآتِ المصيبةِ بَغْتَةً لها، وروعَةً تزعزعُ القلبَ وتُزْعِجُهُ بصدمِهَا، فإنْ صبر للصَّدمةِ الأولى؛ انكسرَ حدُّها وضَعُفَتْ قوَّتُها، فهانَ عليه استدامةُ الصَّبر، وأيضًا: فإنَّ المصيبةَ تَرِدُ القلبَ وهو غيرُ موطَّنٍ لها، فتزعجُهُ وهي الصَّدمةُ الأولى، وأمَّا إذا وردتْ عليه بعدَ ذلك؛ توطَّنَ لها وعلم أنَّه لا بدَّ منها، فيصيرُ صبرُهُ شبيهَ الاضطرار، وهذهِ المرأةُ لمَّا علمتْ أنَّ جزعَها لا يُجْدِي عليها شيئًا؛

جاءتْ تعتذرُ إلى النبيّ كأنَّها تقولُ له: قد صبرتُ، فأخبرها أنَّ الصَّبرَ إنَّما هو عندَ الصَّدمةِ الأولى".

وعندَ مسلمٍ في الصَّحيحِ أيضًا عن صهيبٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: (عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ له خيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).

فيا عبادَ الله، ويا معاشرَ المسلمين، ويا رجالَ الخلافةِ الميامين، ويا خيرةَ المجاهدين؛ ثلاثٌ مَن كنَّ فيه أصابَ البِرَّ: سخاوةُ النَّفس، والصَّبرُ على الأذى، وطيبُ الكلام، وما مِنْ عبدٍ وهبَ اللهُ له صبرًا على الأذى، وصبرًا على البلاء، وصبرًا على المصائب؛ إلَّا وقد أوتي أفضلَ مَا أُوتِيَهُ أحدٌ بعدَ الإيمانِ بالله.

فاصبرْ أيُّها الموحِّدُ؛ حتَّى يستريحَ برٌّ ويُستَرَاحَ مِنْ فاجر، وإذا رأيتَ أمرًا لا تستطيعُ غيرَه؛ فاصبرْ وانتظرْ فرجَ الله؛ فالصَّبرُ خيرُ مراكبِ الصَّعب، والدُّنيا خوَّانةٌ لا يدومُ نعيمُها، ولا تؤمنُ فجائعُها، ومَنْ يَعِشْ يُبْتَلَ، ومَنْ يتفقَّدْ يُفقَدْ، ومَنْ لا يُعِدَّ صبرًا لفجائعِ الأمورِ يَعْجَزْ، وخشيةُ الله وحبُّ الفردوسِ يُباعِدَانِ من زهرةِ الدُّنيا، ويُورثَانِ الصَّبرَ على المشقَّة، وما أحسنَ عاقبةَ الصَّبر! وقد قيلَ للبطَّال: ما الشَّجاعةُ؟ قال: "صبرُ ساعة"، فاللهمَّ ارزقنا صبرًا على طاعتِك، وارزقنا صبرًا عَنْ معصيتِك، وارزقنا صبرًا على ما تحبُّ، وارزقنا صبرًا على ما نكرَهُ، وارزقنا صبرًا عندَ عزائمِ الأمور.

واعلموا -وفَّقكُمُ الله لما يرضَاه- أنَّ المؤمنَ يحتاجُ إلى الصَّبرِ كما يحتاجُ إلى الطَّعامِ والشَّراب، فأدخِلْ نفسَك في همومِ الدُّنيا واخرجْ منها بالصَّبر؛ فإنَّ في الصَّبرِ جوامعَ التَّقوى، وإليه موئل المؤمنين، وهو أعلى خلالِ الكرم، وإذا رأيتُمْ أمرًا لا تستطيعونَ أن تغيِّروهُ؛ فاصبروا حتَّى يكونَ اللهُ هو الَّذي يغيِّرُه؛ فإنَّ انتظارَ الفرجِ بالصَّبرِ عبادةٌ، وهُنَّ ثلاثٌ يُدرِكُ بهنَّ العبدُ رغائبَ الدُّنيا والآخرة: الصَّبرُ عند البلاء، والرِّضَا بالقضاء، والدُّعاءُ في الرَّخاء، وإنَّما يصيبُ الإنسان الخير في صبرِ ساعة، وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدًا ابتلاه، وإذا ابتلاهُ صبَّرَه، ومَنِ امتطى الصَّبرَ قَوِيَ على العبادة.

فاصبِرْ أيْ أُخَيَّ؛ فوالله، ما أرى لثوابِ الصَّبرِ في القيمةِ مثلًا، واعلمْ أنَّ الصَّبرَ مواهبُ، ولن يُعطَاهُ إلَّا من كَرُمَ على سيِّدِه، فاغتنمْهُ ما قدرتَ عليه؛ لأنَّك ستجدُ

عاقبتَهُ عاجلًا أو آجلًا -إن شاء الله-. فاصبروا على طاعةِ الله؛ فإنَّما هو صبرٌ قليلٌ وغُنْمٌ طويلٌ، والأمرُ أعجلُ من ذلك، وإيَّاكم والجزعَ؛ فإنَّه شرُّ الحالين، يباعدُ المطلوب، ويورثُ الحسرة، ويُبقِي على صاحبِهِ عارًا.

وعليكم بالصَّبرِ والتَّصبُّرِ والاصطبار، فإنْ قلتَ: ما الصَّبر؟ وما التَّصبُّر؟ وما الاصطبار؟ قلتُ: أمَّا الصَّبرُ فالتَّسليمُ والرِّضا بنزولِ المصائبِ والبلوى، وتوطينُ النُّفوسِ عليها قبلَ حلولِهَا، وأمَّا التصبُّرُ فتجرُّعُ مرارتِهَا عندَ نزولِهَا، ومجاهدةُ النَّفسِ على هدوئِها وسكونِهَا، وأمَّا الاصطبارُ فاستقبالُ ما ينزلُ مِنَ المصائبِ والبلوى بالطَّلاقةِ والبِشْر، وانتظارُ ما لم ينزلْ منها بالاعتبارِ والفِكْر، فإنْ كانَ العبدُ كذلك كانَ مصطبِرًا.

قالَ عمرُ بنُ الخطَّاب -رضي الله عنه-: "إنَّ أفضلَ عيشٍ أدركناهُ بالصَّبر، ولو أنَّ الصَّبرَ كانَ من الرِّجالِ لكان كريمًا، وهلْ وجدنا عيشَنا إلَّا في الصَّبر؟!"، وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ -رضي الله عنه-: "ألا إنَّ الصَّبرَ من الإيمانِ بمنزلةِ الرَّأسِ من الجسد، فإنْ قُطِعَ الرَّأسُ بَادَ الجسدُ -ثمَّ رفع صوتَهُ فقال-: ألا إنَّه لا إيمانَ لمن لا صبرَ له"، وقالَ عمرُو بنُ العاص: "إنِّي لأصبرُ على الكلمة، ولَهِيَ أشدُّ عليَّ من القبضِ على الجمر، ما يحملُني على الصَّبرِ عليها إلَّا التَّخوُّفُ مِنْ أخرى شرٍّ منها".

صبرتُ على اللذَّاتِ لمَّا تولَّتِ *** وألزمتُ نفسي الصَّبرَ حتَّى استمرَّتِ
وكانتْ على الأيَّامِ نفسي عزيزةً *** فلمَّا رأتْ صبري على الذُّلِّ ذلَّتِ
فقلتُ لها: يا نفسُ عِيشِي كريمةً *** لقد كانتِ الدُّنيا لنا ثمَّ ولَّتِ
وما النَّفسُ إلَّا حيثُ يجعلُها الفتى *** فإنْ أُطْعِمَتْ تَاقَتْ وإلَّا تسلَّتِ
فكَمْ غمرةٍ دافعتُها بعدَ غمرةٍ *** تجرَّعتُهَا بالصَّبرِ حتَّى تولَّتِ

معاشرَ المسلمين، لقد صبر وتصبَّر وتجلَّد الرسولُ النبيُّ الكريم -عليه أفضل الصَّلاة والتَّسليم-، وبلغ صبرُهُ مبلغًا عظيمًا، ولا يُعلَمُ أحدٌ مرَّ به مِنَ المصائبِ والمصاعبِ والمشاقِّ والأزماتِ كما مرَّ بالنبيِّ ﷺ وهو صابرٌ محتسبٌ كما أمرَهُ ربُّك: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ} [سورة لقمان: ١٧]، صبر على اليُتْمِ والفقرِ والعوز، صبر على الجوعِ والحاجةِ والتَّعبِ والحَسَدِ وغلبةِ العدوِّ أحيانًا، صبر على الطَّردِ من الوطنِ والإخراجِ من الدَّارِ والإبعادِ عنِ الأهل، صبر على قتلِ القرابةِ والفتكِ بالأصحابِ

وتشـريدِ الأتبـاعِ وتكالُبِ الأعـداءِ وتحـزُّبِ الخصـومِ واجتمـاعِ المحـاربينَ وصَـلَفِ المغرضين، صبر على كِبْرِ الجبَّارينَ وجهلِ الأعرابِ وجفاءِ الباديةِ ومكرِ اليهودِ وعتوِّ النَّصارى وخُبْثِ المنافقينَ وضراوةِ المحاربين، صبر على تجهُّمِ القريبِ وتكالُبِ البعيدِ وصولةِ الباطلِ وطغيانِ المكذِّبين؛ طلبًا لمرضاةِ ربه، فهو ﷺ الصَّابرُ المحتسبُ في كلِّ شأنٍ من شؤونِ حياتِه، فالصَّبرُ درعُه وترسُه وصاحبُه وحليفُه، كلَّما أزعجَهُ كلامُ أعدائِه؛ تذكَّر قوله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} [سورة المزمل: ١٠]، وكلَّما بلغ به الحالُ أَشُدَّهُ والأمرُ أضيقَه؛ تذكَّر: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)} [سورة يوسف]، وكلَّما راعَهُ هولُ العدوِّ وأقضَّ مضجعَهُ تحزُّبُ الكفَّار؛ تذكَّر: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف: ٣٥]؛ فهو مضربُ المثلِ في سعةِ الصَّدرِ وجليلِ الصَّبرِ وعظيمِ التَّجمُّلِ وثباتِ القلب، وهو إمامُ الصَّابرينَ وقدوةُ الشَّاكرين، صلَّى اللهُ عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ أجمعين.

ففي الصَّحيحينِ عن عائشـةَ -رضي الله عنهـا- أنَّهـا قـالتْ للنَّبيِّ -عليـه الصـلاة والسلام-: هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ مِنْ يومِ أُحُد؟ قال: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ ما لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ ما لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي على ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنا مَهْمُومٌ على وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذا أَنا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذا فيها جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقالَ: إنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَما رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بما شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ. فَقالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ)، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا).

وعندَ البخاريِّ في صحيحِهِ عن عروةَ بنِ الزُّبيرِ قال: سألتُ عبدَ الله بنَ عمرِو بنِ العاص، قلتُ: أخبرني بأشدِّ شيءٍ رأيتَهُ صنعَهُ المشركونَ برسولِ الله، قال: "أقبلَ عقبةُ بنُ أبي معيطٍ ورسولُ الله ﷺ يُصَلِّي عندَ الكعبة، فلَوَى ثوبَهُ في عنقِهِ فخَنَقَهُ خنقًا شديدًا، فأقبلَ أبو بكرٍ فأخذَ بمَنْكِبِهِ فدفعَهُ عن رسولِ الله ﷺ فقالَ أبو بكر: يا قوم؛أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ؟!"، الآية.

ولقد علَّم النبيُّ ﷺ أصحابَهُ كيف يصبرونَ في مختلفِ الأمورِ وضروبِهَا؛ فقد علَّمهُمُ الصَّبرَ من أجل هذا الدِّين، والتَّضحيةَ في سبيلِ ربِّ العالمين، والصَّحابة -رضي الله عنهم- لهُمْ مواقفُ كثيرةٌ مشهورةٌ جدًّا، لا يستطيعُ أحدٌ أن يحصرَهَا في الصِّبر؛ لأنَّهُمْ -رضي الله عنهم- لاقوا صنوفَ البلاءِ والعذابِ والشِّدَّةِ في سبيلِ إقامةِ الدِّين، وضحَّوا بكلِّ شيء، وتحزَّبتْ عليهِمُ الأحزاب، ووقعتْ بهِمُ المصائبُ والرَّزايا، وهم صابرونَ متجلِّدُون.

فما شدَّةٌ يومًا وإنْ جلَّ خَطبُهَا *** بنازلةٍ إلَّا سيتبعُهَا يسرُ
وإنْ عَسُرَتْ يومًا على المرءِ حاجةٌ *** وضاقتْ عليهِ كانَ مفتاحَهَا الصَّبرُ

قال ابنُ إسحاق: ثمَّ إنَّ المشركين عَدَوْا على مَنْ أسلمَ واتَّبعَ رسولَ الله ﷺ من أصحابه، فوثبتْ كلُّ قبيلةٍ على مَنْ فيها مِنَ المسلمين، فجعلوا يحبسونَهُمْ ويعذِّبونَهُمْ بالضَّربِ والجوعِ والعَطَشِ وبرمضاءِ مكَّةَ إذا اشتدَّ الحرُّ ممَّنِ استُضْعِفُوا منهُمْ، يفتنونَهُمْ عن دينِهِم، فمنهُمْ مَن يُفتَنُ مِنْ شدَّةِ البلاءِ الَّذي يصيبُه، ومنهُمْ مَن يصلبُ لهم ويعصمُهُ اللهُ منهُم، وكانَ أبو جهلٍ الفاسقُ الَّذي يُغْرِي بهِمْ في رجالٍ مِنْ قريش، إذا سمع بالرَّجلِ قد أسلمَ له شرفٌ ومنعةٌ؛ أنَّبَهُ وأخزاهُ وقال: "تركتَ دينَ أبيكَ وهو خيرٌ منك؟! لنُسَفِّهَنَّ حِلْمَكَ ولنضعنَّ شرفَك"، وإنْ كانَ تاجرًا قال: "والله، لنُكَدِّسَنَّ تجارتَكَ ولنُهلِكَنَّ مالَك"، وإنْ كانَ ضعيفًا، أغرى بِهِ وضَرَبَه.

وروى الحاكمُ في المستدركِ عَنِ ابنِ إسحاقَ قال: كانَ عمَّارُ بنُ ياسرٍ وأبوهُ وأمُّهُ أهلَ بيتِ إسلام، وكانَ بنو مخزومٍ يعذِّبونَهُمْ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: (صبرًا آلَ ياسر؛ فإنَّ موعدَكُمُ الجنَّة)[1].

وعنْ سعيدِ بنِ المسيبِ عنْ صُهَيبٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: (أُرِيتُ دارَ هجرتِكُمْ)، قال: وخرج ﷺ إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر -رضي الله عنه-، وكنتُ قد هممتُ بالخروجِ معه، فصَدَّني فتيانٌ مِنْ قريش، فجعلتُ ليلتي تلكَ أقومُ ولا أقعدُ، فقالوا: "قد شغَلَهُ اللهُ عنكُمْ ببطنِه"، ولم أكُ شاكِيًا، فناموا، فخرجتُ فلَحِقَني منهُمْ ناسٌ بعدما سِرتُ بريدًا ليردُّوني، فقلتُ لهم: "هل لكُمْ أن أعطيَكُمْ أَوَاقِيَ من ذهبٍ وتُخَلُّوا

[1] سكت عنه الذهبي في التلخيص.

سبيلي وتَفُوا لي"، فَفَعَلُوا، فسُقْتُهُمْ إلى مكَّةَ، فقلتُ: "احفِرُوا تحتَ أسكفةِ البابِ؛ فإنَّ تحتَهَا الأواقي، واذهبوا إلى فلانةٍ فخذوا الحُلَّتين"، وخرجتُ حتَّى قدمتُ على رسولِ الله ﷺ قباء قبلَ أن يتحوَّلَ منها، فلمَّا رآني قال: (يا أبا يحيى، رَبِحَ البيعُ، يا أبا يحيى، ربح البيع، يا أبا يحيى، ربح البيع)، فقلتُ: "يا رسولَ الله، ما سبقني إليك أحدٌ، وما أخبرَك إلَّا جبريلُ -عليه السلام-"[١]. وحالُهُ:

صَبَرتُ على بعضِ الأذى خوفَ كلِّهِ *** وألزمتُ نفسي صبرَهَا فاستقرَّتِ
وجرَّعتُهَا المكروهَ حتَّى تدرَّبتْ *** ولو حمَّلتهَا جملةً لاشمأزَّتِ
وما العزُّ إلَّا خيفةُ اللهِ وحدَهُ *** ومَن خافَ مِنْهُ خافَهُ مَا أقلَّتِ
فيا صدقَ نفسي إنَّ في الصِّدقِ حاجتي *** فأرضى بدُنيَايَ وإنْ هي قلَّتِ
إذا ما مددتُ الكفَّ ألتمسُ الغنى *** إلى غيرِ مَنْ قال: "اسألوني" فشُلَّتِ
إذا طرقتْني الحادثاتُ بنكبةٍ *** تذكَّرتُ ما عوقبتُ منه فقلَّتِ
وما نكبةٌ إلَّا ولله منَّةٌ *** إذا قابلتها أدبرتْ واضمحلَّتِ
وكمْ مِنْ جليلٍ لا يرامُ حجابُهُ *** بدارِ غرورٍ أدبرتْ وتولَّتِ
تشوبُ القذى بالصَّفوِ والصَّفوُ بالقذى *** ولو أحسنتْ في كلِّ حالٍ لملَّتِ

وفي صبرِ عبدِ اللهِ بنِ حذافة؛ ساقَ الذَّهبيُّ في السِّير، في ترجمتِه -رضي الله عنه- أعجبَ الخبر، في الصَّبرِ والثَّباتِ والتَّحمُّلِ والشَّدائد، فقال: إنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ -رضي الله عنه- وجَّه جيشًا إلى الرُّوم، وفيهِمْ رجلٌ يُقَالُ له: "عبدُ الله بنُ حذافة" مِنْ أصحابِ النبيِّ ﷺ، فأسرهُ الرُّومُ فذهبوا به إلى ملكِهِمْ، فقالوا: "إنَّ هذا من أصحابِ محمَّد"، فقالَ له الطَّاغيةُ: "هل لك أن تتنصَّرَ وأشركَكَ في ملكي وسلطاني؟" فقالَ له عبدُ اللهِ بنُ حذافة: "لو أعطيتَني جميعَ ما تملكُ، وجميعَ ما ملكتْهُ العربُ -وفي رواية القطَّان-: وجميعَ مملكةِ العرب، على أن أرجعَ عن دينِ محمَّدٍ ﷺ طرفةَ عينٍ؛ ما فعلتُ"، قال: "إذنْ أقتلَك"، قال: "أنتَ وذاك".

قال: فأُمِرَ به فصُلِب، وقالَ للرُّماة: "ارموهُ قريبًا مِنْ يديهِ وقريبًا مِنْ رجليه"، وهو يَعرِضُ عليه النَّصرانيَّةَ ويأبى، ثمَّ أمر به فأُنزِل، ثمَّ دعا بقدرٍ وصبَّ فيها ماءً حتَّى احترقتْ، ثمَّ دعا بأسيرينِ مِنَ المسلمين، فأمر بأحدهما فأُلْقِيَ فيها، وهو يعرضُ عليه النصرانيَّةَ وهو يأبى، ثمَّ أمر به أن يُلقَى فيها، فلمَّا ذُهِبَ به، بكى، فقيلَ له: "إنَّه

[١] رواه البيهقي في الدلائل والحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

بكى"، فظنَّ أنَّه رجع، فقال: "ردُّوه"، فعرض عليه النصرانيَّةَ فأبى، قال: "إذًا فما أبكاك؟!"، قال: "أبكاني أنِّي قلتُ: هي نفسٌ واحدةٌ تُلقَى هذهِ السَّاعةَ في هذا القدرِ فتذهبُ، فكنتُ أشتهي أن يكونَ بعددِ كلِّ شعرةٍ في جسدي نفسٌ تُلقَى في هذا للهِ -عز وجل-"، قالَ الطَّاغيةُ عند ذلك: "فهل لك أن تقبِّلَ رأسي وأُخَلِّيَ عنك؟"، قال عبدُ الله: "وعنْ جميعِ أسارى المسلمين؟"، قال: "وعنْ جميعِ أسارى المسلمين"، قال عبدُ الله: "فقلتُ في نفسي: عدوٌّ من أعداءِ الله، أقبِّلُ رأسَهُ ويخلِّي عنِّي وعَنْ أسارى المسلمين، لا أبالي"، قال: فدنا منه وقبَّل رأسَه، فدفعَ إليه الأسارى، فقَدِمَ بهم على عمرَ فأخبرهُ الخبر، فقال: "حقٌّ على كلِّ مسلمٍ أن يقبِّلَ رأسَ عبدِ الله بنِ حذافة، وأنا أبدأ"، فقامَ عمرُ فقبَّلَ رأسَه، وحالُهُ:

تعزَّ بحسنِ الصَّبرِ عن كلِّ هالكٍ *** ففي الصَّبرِ مسلاةُ الهمومِ اللَّوازمِ
إذا أنتَ لم تسلُ اصطبارًا وخشيةً *** سلوتَ على الأيَّامِ مثلَ البهائمِ
وليسَ يذودُ النَّفسَ عنْ شهواتِهَا *** مِنَ النَّاسِ إلَّا كلُّ ماضي العزائمِ
صبرتَ ومَن يصبرْ يَجِدْ غبَّ صبرِهِ *** ألذَّ وأحلى مِنْ جنى النَّحلِ في الفَمِ

روى البخاريُّ في صحيحِهِ بإسنادِهِ عن أبي هريرةَ -رضي الله عنه- قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ عشرةً عينًا، وأمَّر عليهمْ عاصمَ بنَ ثابتٍ الأنصاريَّ، حتَّى إذا كانوا بينَ عَسَفَانَ ومكَّة، وذُكِرُوا لحيٍّ مِنْ هُذَيلٍ يُقَالُ لهُمْ: "بنو لحيان"؛ فنفروا لهُمْ بقريبٍ من مئةِ رجلٍ رام، فاقتصُّوا آثارَهُمْ حتَّى وجدوا مأكلَهُمُ التَّمرَ في منزلٍ نزلوهُ، فقالوا: "تمرُ يثرب"، فاتَّبعوا آثارَهُمْ.

فلمَّا حسَّ بهم عاصمٌ وأصحابُه؛ لجأوا إلى موضع، فأحاطَ بِهِمُ القومُ، فقالوا لهم: "انزلوا فأعطُوا بأيديكُم، ولكُمُ العهدُ والميثاقُ ألَّا نقتلَ منكُمْ أحدًا"، فقال عاصمُ بنُ ثابت: "أيُّها القومُ، أمَّا أنا فلا أنزلُ في ذمَّةِ كافر، ثمَّ قال: اللَّهمَّ أخبرْ عنَّا نبيَّك ﷺ"، فرموهُمْ بالنَّبلِ فقَتَلُوا عاصمًا، ونزلَ إليهمْ ثلاثةُ نفرٍ على العهدِ والميثاق، منهُمْ خبيبٌ وزيدُ بنُ الدَّثنةِ ورجلٌ آخر، فلمَّا استمكنوا منهُمْ؛ أطلقوا أوتارَ قِسِيِّهِمْ فربطوهُمْ بها، قال الرَّجلُ الثَّالث: "هذا أوَّلُ الغدر، والله، لا أصحبُكُمْ؛ إنَّ لي بهؤلاءِ أسوة -يريدُ القتلى-"، فجرجروهُ وعالجوهُ فأبى أن يصحبَهُمْ، فانطُلِقَ بخبيبٍ وزيدِ بنِ الدثنةِ حتَّى

باعوهُمَا بعدَ وقعةِ بدر، فابتاعَ بنو الحارثِ بنِ عامرِ بنِ نوفل خبيبًا، وكانَ خبيبٌ هو قتلَ الحارثَ بنَ عامرٍ يومَ بدر، فلبثَ خبيبٌ عندهُمْ أسيرًا حتَّى أجمعوا قتلَه.

قالتْ بعضُ بناتِ الحارث: "والله، ما رأيتُ أسيرًا قطُّ خيرًا مِنْ خبيب، والله، لقد وجدتُّهُ يومًا يأكلُ قِطَفًا مِنْ عنبٍ في يدِه، وإنَّه لموثقٌ بالحديد، وما بمكَّة مِنْ ثمرة، وكانتْ تقولُ: إنَّه لرزقٌ رزقَهُ اللهُ خبيبًا". فلمَّا خرجوا بِهِ من الحَرَمِ ليقتلوهُ في الحلِّ؛ قالَ لهُمْ خبيبٌ: "دعوني أصلِّ ركعتين". فتركوهُ فركعَ ركعتين، فقال: "والله، لولا أن تَحْسِبُوا أنَّ ما بي جزعٌ لزدتُّ، ثمَّ قال: اللهمَّ أحصِهِمْ عددًا، واقتلْهُمْ بَدَدًا، ولا تُبقِ منهُمْ أحدًا". ثمَّ أنشأ يقولُ:

فلستُ أبالي حينَ أُقتَلُ مسلمًا *** على أيِّ جنبٍ كانَ في اللهِ مَصْرَعِي
وذلكَ في ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ *** يبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثمَّ قام إليه عقبةُ بنُ الحارثِ فقَتَلَه، وكانَ خبيبٌ هو مَن سنَّ لكلِّ مسلمٍ قُتِلَ صبرًا الصَّلاةَ، وأُخْبِرَ أصحابُهُ يومَ أصيبوا خبرَهُم، وبعثَ ناسٌ من قريشٍ إلى عاصمِ بنِ ثابتٍ حينَ حُدِّثُوا أنَّه قُتِل؛ أن يأتوا بشيءٍ منه يُعرَف، وكانَ قَتَلَ رجلًا عظيمًا مِنْ عظمائِهِمْ، فبعثَ اللهُ لعاصمٍ مثلَ الظلَّةِ من الدَّبر، فحَمَتْهُ من رُسُلِهِمْ، فلم يَقْدِرُوا أن يَقْطَعُوا منهُ شيئًا.

فلا إله إلَّا الله! ثباتٌ وتصبُّرٌ وتجلُّدٌ وتحمُّلٌ وعزَّةٌ وغيرةٌ وقوَّةٌ واستعلاءٌ وإباءٌ.

إنْ خفتُ مِنْ خَطْبٍ ألمَّ فبعدَهُ *** فَرَجٌ يُرَجَّى عندَهُ ويُخَافُ
فاصبرْ على قحمِ النَّوائبِ مثلما *** صبرتْ لها آباؤكَ الأشرافُ

وفي غزوةِ حمراءِ الأسد؛ ذكر الواقديُّ في المغازي قال: لمَّا صلَّى رسولُ الله ﷺ الصُّبح، ومعهُ وجوهُ الأوسِ والخزرج، وكانوا باتوا في المسجدِ على بابِهِ سعدُ بنُ عبادة، وحبَّابُ بنُ المنذر، وسعدُ بنُ معاذٍ، وأوسُ بنُ خوليٍّ، وقتادةُ بنُ النُّعمان، وعبيدُ بنُ أوسٍ في عدَّةٍ منهُم، فلمَّا انصرفَ رسولُ الله ﷺ من الصُّبح؛ أمر بلالًا ينادي: "إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمرُكُمْ بطلبِ عدوِّكم، ولا يَخرُجْ معنا إلَّا مَنْ شهدَ القتالَ بالأمسِ".

قال: فخرجَ سعدُ بنُ معاذٍ راجعًا إلى داره، يأمرُ قومَهُ بالمسير، قال: والجِرَاحُ في النَّاسِ فاشيةٌ، عامَّةُ بني عبدِ الأشهلِ جريحٌ بلْ كلُّها، فجاءَ سعدُ بنُ معاذٍ فقال: "إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمرُكُمْ أن تطلبوا عدوَّكُمْ"، قال: يقولُ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ -وبه سبعُ جراحاتٌ وهو يريدُ أن يُدَاوِيَهَا-: "سمعًا وطاعةً لله ورسوله"، فأخذَ سلاحَهُ ولم يُعرِّجْ على دواءِ جراحِه، ولَحِقَ برسولِ الله ﷺ، وحالُهُ:

وإنِّي لَأُغْضِي مُقْلَتِي على القَذَى *** وألبسُ ثوبَ الصَّبرِ أبيضَ أبلجَا
وإنِّي لأدعو اللهَ والأمرُ ضيِّقٌ *** عليَّ فما ينفكُّ أن يتفرَّجَا
وكَمْ مِنْ فتًى سُدَّتْ عليهِ وجوهُهُ *** أصابَ لها في دعوةِ اللهِ مخرجا

وجاءَ سعدُ بنُ عبادةَ قومَهُ بني ساعدة، فأمرَهُمْ بالمسير، فتلبَّسُوا ولحقوا، وجاءَ أبو قتادةَ أهلَ خُرْبَا وهُمْ يُدَاوُوْنَ مِنَ الجراح، فقال: "هذا منادي رسولِ الله ﷺ يأمركُمْ بطلبِ عدوِّكُمْ"، فوثبوا إلى سلاحِهِمْ، وما عَرَّجُوا على جراحاتِهِمْ، فخرجَ من بني سلمةَ أربعونَ جريحًا، بالطُّفيلِ بنِ النُّعمانِ ثلاثةَ عشرَ جرحًا، وبخراشِ بنِ الصُّمَّةَ عشرُ جراحات، وبكعبِ بنِ مالكٍ بضعةَ عشرَ جرحًا، وبابنِ عامرِ بنِ حديدةَ تسعُ جراحات؛ حتَّى وافوا النبيَّ ﷺ عليهِمُ السِّلاح، وقد صفُّوا له -عليه الصلاة والسلام-، فلمَّا نظرَ رسولُ الله إليهِمْ والجِرَاحُ فيهِمْ فاشيةٌ قال: (اللهُمّ ارْحَمْ بَنِي سَلِمَةَ)[١].

قال الواقديُّ: وحدَّثني عتبةُ بنُ جبيرةَ عنْ رجالٍ من قومِهِ قال: إنَّ عبدَ اللهِ بنَ سهلٍ ورافعَ بنَ سهلِ بنِ عبدِ الأشهلِ رجعا مِنْ أُحُد، وبهما جِرَاحٌ كثيرةٌ، وعبدُ اللهِ أثقلهُمَا مِنَ الجراح، فلمَّا أصبحوا جاءهُمْ سعدُ بنُ معاذٍ يخبرُهُمْ أنَّ رسولَ اللهِ يأمرُهُمْ بطلبِ عدوِّهم، قالَ أحدُهُمَا لصاحبه: "واللهِ، إنَّ تَرْكَنا غزوةً مع رسولِ اللهِ لغبنٌ! واللهِ، ما عندنا دابةٌ نركبُهَا، وما ندري كيفَ نصنعُ"، قالَ عبدُ الله: "انطَلِقْ بنا"، قالَ رافعٌ: "لا واللهِ، مَا بي مشيٌ"، قال أخوهُ: "انطلقْ بنا نَتَجَارَّ ونقصدْ"، فخرجا يزحفان، فضَعُفَ رافعٌ، فكانَ عبدُ الله يحملُهُ على ظهرِهِ عقبةً ويمشي الآخرُ عقبةً، حتَّى أتوا رسولَ الله ﷺ عندَ العشاء، وهُمْ يُوقِدُونَ النِّيران، فأُتِيَ بِهِمْ إلى رسولِ الله، وعلى حرسِهِ تلكَ اللَّيلة عبَّادُ بنُ بِشْرٍ، فقال: (مَا حَبَسَكُمَا؟)، فأخبراهُ بعلَّتِهِمَا، فدعا

---

١ رواه الواقدي في المغازي.

لهُمَا بخيرٍ، وقال: (إنْ طالتْ لكُمَا مدَّة، كانتْ لكُمْ مراكبُ مِنْ خيلٍ وبغالٍ وإبلٍ، وليسَ ذلكَ بخيرٍ لكُمْ).

مسيرُ أحمدَ مرهبًا لعدوّهِ *** شُهُبُ الهُدَى ظهرتْ بحمراءِ الأَسَد
بطلٌ شجاعٌ كم له مِنْ غزوةٍ *** أردى بها أهلَ الضَّلالةِ والحَسَد

وأقاموا ثلاثًا ينتظرونَ لقاءَ عدوِّهم، فبلغَهُمْ مسيرُهُمْ فرجعوا، فأنزلَ اللهُ سبحانه: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)} [سورة آل عمران].

نعمْ معاشرَ المسلمين، على ذي السِّيَرِ ينبغي أنْ نسير، وبذي الأمثلةِ نحتذي في المَسِير؛ حتَّى نجانبَ التَّقصير، ونكونَ مِنْ أهلِ الصَّوابِ لا التَّقصير، فأينَ، أين؟! أينَ أهلُ الصَّبرِ وطُلَّابُ الأجر؟! يا أبناءَ الخلافةِ الميامين، وجنودَ أميرِ المؤمنين، وكرامَ المجاهدين؛ إذا نَفَثَ المصدورُ برأ؛ لذا فخُذْ وصيَّتي؛ فإنَّهُ مَنْ أحبَّكَ نهاك، ومَنْ أبغضَكَ أغراك، اصبروا على كيدِ العدوِّ وكدِّه، فعسى اللهُ أن يأتيَ بالفتحِ أو أمرٍ مِنْ عندِه؛ فلستُمْ -واللهِ- مِنْ فراريجِ الذَّبح، بل أنتُمْ في الصَّبرِ والشَّجاعةِ أهلُ مدح.

أخيَّ اصْبِرَنْ فالعودُ تنمى عروقُهُ *** قويمًا ويغشاهُ إذا ما الْتَوَى التَّوَى
ولا تطعِ الجَزِعَ المُذِلَّ وكنْ فتًى *** إذا التهبتْ أحشاؤه بالطَّوى طوى
وعاصِ الهوى المردي فكَمْ مِنْ محلِّقٍ *** إلى النَّجمِ لمَّا أن أطاعَ الهَوَى هَوَى
وحافظْ على مَن لا يخونُ إذا نبا *** زمانٌ ومَن يَرعَى إذا ما النَّوى نوى
وإيَّاكَ والشَّكوى فلم ترَ ذا نُهًى *** شكا بلْ أخو الجهلِ الَّذي مَا ارعَوَى عَوَى

فيا أيُّها المجاهدُ، ويا مَنْ لحلفِ الكفرِ متربِّصٌ قاعدٌ: تجلَّدْ وتصبَّرْ، وتحمَّلْ ولا تتضجَّرْ: فلا تُطلَبُ الحلوى بلا شَوكٍ، وكلُّ شيءٍ بثمنه، وكلُّ زائدٍ ناقصٌ، وما ينفعُ الكبدَ يضرُّ بالطِّحال، فمدُّ رجليك على قدرِ الكساء، وإنَّه مَن طلبَ عظيمًا: خاطرَ بعظيم، والأموالُ في الأهوال، ومَنِ اعتادَ البطالةَ فلا يفلحُ أبدًا، فالصَّبرَ الصَّبر؛ فإنَّ

الصَّبرَ مفتاحُ الفرج، وأفضلُ أخلاقِ الرِّجالِ التَّصبُّرُ، وإنَّ عاقبةَ الصَّبرِ الجميلِ جميلةٌ.

وأخلقْ بذي الصَّبرِ أن يَحظَى بحاجتِهِ *** ومدمنِ القَرْعِ للأبوابِ أن يَلِجَا

ومعَ أنَّ الصَّبرَ أوَّلهُ مُرٌّ مذاقتُه، لكنَّ في الصَّبرِ الغنيمةَ والنَّجاح، والصَّبرُ خيرُ ما استعملَهُ الممتحنون، والصَّبورُ يُدرِكُ أحمدَ الأمور، ومن ساعةٍ إلى ساعةٍ فَرَج، قد يصبرُ الحرُّ على السَّيف، ويأنفُ الصَّبرَ على الحَيْث، ويؤثرُ الموتَ على حالةٍ يَعجَزُ فيها عن قِرَى الضَّيف.

وإنَّه في كلِّ دارٍ غمَّةٌ وبليَّة، فاصبرْ؛ فإنهنَّ غمراتٌ ثمَّ ينجلين، ولكلِّ حيٍّ أجلٌ، فكنْ عندَ وقوعِ المصائبِ أقسى مِنَ الحجر؛ فإنَّه مَنْ صبر قدر، ومَن تأنَّى أدركَ ما تمنَّى، ومن غَلَبَ سَلَب، ومصائبُ الدُّنيا أكثرُ مِنْ نباتِ الأرض، ولا بدَّ في الدُّنيا من الهم، فلُذْ بالصَّبر؛ فإنَّ الصَّبرَ جيشٌ لا يُهزَم، والحرُّ حرٌّ ولو مسَّهُ الضُّرُّ، وربما اتَّسعَ الأمرُ الَّذي ضاق، والصَّبرُ مفتاحُ ما يُرجَّى، والخيرُ أجمعُ فيما يصنعُ الله، وكفايةُ اللهِ خيرٌ مِنْ تَوَقِّينا.

وإنِّي لَمِنْ قومٍ كرامٍ يزيدُهُمْ *** شماسًا وصبرًا شدَّةُ الحَدَثَانِ

فيا معاشرَ المجاهدين، وسادةَ المحاربين: إنَّ الصَّبرَ قطبُ الأمرِ الَّذي عليه تدورُ الأمور، وليسَ عَلَمٌ مِنْ أعلامِ الفَضْلِ إلَّا والصَّبرُ سببُهُ ومُسَبِّبُه؛ فالصَّبرُ ينجزُ لك الموعود، والجزعُ لا يردُّ عليكَ المفقود، فلْيَسْبِقْ صبرُك جزعَك؛ تسلمْ مِنَ المصيبةِ بالأجر، وإلَّا رجعتَ إليهِ بعدَ الفوتِ حسيرًا، فاصبروا على الأحزابِ والتَّحالفات، وتوالي الكرَّات، والصِّعابِ الجسيمات، وحِمَمِ الطَّائرات، وشراسةِ الهجمات، وكثرةِ العداوات، وشدَّةِ الابتلاءات؛ تنالوا -بإذن الله- أعلى الدَّرجات، وسَمِيَّ المكرمات، وشريفَ الصِّفات، وعظيمَ الحسنات، ونصرًا وثناءً مِنْ ربِّ البريَّات.

يا أمَّتي صبرًا فالمُنَى *** لا تستجيبُ لِمُقْعَدِ
كوني كما كانَ الجدودُ *** أبيَّةً لا تَخْمَدِي
صِيرِي شُوَاظًا لَاهِبًا *** يَشْوِي جلودَ المُعتدي
شُقِّي بطونَ حقودِهِمْ *** يا بنتَ دَوْلَةِ وَارعُدِي

فالنَّصرُ لا يأتي جُزَافًا *** بَائنًا عَنْ مَقْصَدِ
لكنَّه بالصَّبرِ والإيمانِ *** لا الفعلِ الرَّدي
يا قومُ إنَّ اللهَ أكبرُ *** مِنْ جموعِ الحُسَّدِ
فامضُوا على نهجِ الرَّسولِ *** وعزمِهِ المُتَوَقِّدِ
واستجمِعُوا أشتاتَكُمْ *** وَافْرُوا المُغِيرَ المُعْتَدِي
واستبسِلُوا فالنَّصرُ *** بالصَّبرِ الجَسُورِ المُرْعِدِ
بالعقلِ لا بحماقةِ *** السُّفهاءِ أو صِفْرِ اليَدِ
المُتَّكِينَ على الأرائكِ *** والحِمَى المُسْتَبْعَدِ
المائلينَ خيامَهُمْ *** جُبنًا ولَوْثَةَ مُجْهَدِ
يا أمَّتي يا تاريخَ عزٍّ *** باليقينِ تَجَلَّدِي
أمَّتي، يا تاريخَنَا *** الوَضَّاءَ لا تتبلَّدِي
قولي لهم: كانَ الرَّشيدُ *** هنا يُسدِّدُ مِقْوَدِي
قولي لهُمْ: ما زالَ *** يُسْرِجُ خيلَهُ لم يَهْمدِ

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [سورة الصافات].

شحذ الهمم
لدفع عادية الأمم

الحلقة الخامسة عشرة



الحلقة الخامسة عشرة: بالتَّحمُّلِ والصَّبر؛ يكونُ على أممِ الكفرِ النَّصرُ ٢

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وليِّ الصَّالحين، ومعينِ الموحّدين، ومبيدِ الطُّغاةِ والمارقين، وناصرِ المستضعَفِينَ على مَن سلكَ سبيلَ المجرمين، الَّذي جعلَ العاقبةَ لهُمْ ليكونوا هُمُ الوارثين، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريك له، إلهُ الأوَّلينَ والآخرين، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسوله، مَن جاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ حتَّى أتاهُ اليقين، صلواتُ الله وسلامُهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه ناشري لواءِ الدِّين، وعلى مَن تبعهُمْ واقتفى آثارَهُمْ في كلِّ وقتٍ وحين؛ ثمَّ أمَّا بعدُ معاشرَ المسلمين:

حيَّاكُمُ اللهُ وأحياكُمْ، وجعلَ الجنَّةَ مأوانا ومأواكُمْ، وقوَّى تقواكم، وأحسنَ أعمالَكم، وأعانَنا على مَن عادانا وعاداكم، وذخرًا للخلافةِ أعدَّكم، ترفعونَ راياتِهَا، وتذودونَ عنْ حياضِهَا، تحاربونَ عدوَّها، وتنصرونَ جنودَها، ترصُّونَ صفوفَها، وتشيِّدونَ صروحَها، وتضمِّدونَ جروحَهَا، وعلى منهاجِ النُّبوَّةِ تحملونَهَا.

ما زلنا معكم -معاشر المسلمين- نبيِّنُ ونوضِّح، ونقوِّمُ ونصحِّح، ونشرحُ ونصرِّح، وعَنِ النُّفوسِ بالحقِّ نروِّح، فإنْ وافقتْ كُلَيْمَتِي قبولًا فالحمدُ لله، وإنْ وافقتْ ردًّا فمن نفسي والشَّيطان، وأستغفرُ الرَّحمن، راجيًا مِنَ اللهِ أنْ تنالَ هذهِ الكلماتُ القبولَ والإعجاب، وأنْ ينتفعَ منها صاحبُها والأهلُ والأصحاب، ومَنْ يخافُ يومَ الحساب، وأنْ تكونَ لنا زادًا على الطَّريقِ ومنارًا للسَّبيلِ وحجَّةً لنا لا علينا يوم اللِّقاء.

إنْ تَجِدْ عيبًا فسُدَّ الخللا *** جلَّ مَن لا عيبَ فيهِ وعلا

معاشرَ المسلمين، نواصلُ الحديثَ عن الأمرِ العظيم، والذي به يُستَعَانُ على دفعِ المصائبِ وتلقِّي الزَّلازل، وشدَّةِ العدوِّ وحربِهِ وكيدِهِ وجمعِهِ وضربِه، وهو الصَّبرُ يا معاشرَ الصَّابرين، والذي هو مِنْ أعظمِ أخلاقِ الدِّين، وأجلِّهَا نفعًا للعالمين، وها هي الدُّنيا مُلِئَتْ بالرَّزايا، وشُحِنَتْ بالبلايا، وجُبِلَتْ على النَّقص، ولزم أهلَها البلاءُ والفتنةُ والمحنة؛ ليعلمَ اللهُ الذينَ صَدَقُوا وآمنوا، ويعلمَ المنافقينَ والكاذبين.

ففي ظلِّ تكالبِ الأممِ وكثرةِ السَّقم، وتعدِّي الأوغادِ اللِّئامِ الطَّغامِ السَّفلةِ الأراذلِ الفجرةِ والمرتدِّين، والملاحدةِ الكفرةِ والمنافقينَ، والصَّليبيينَ الحَقَدَةِ واليهودِ الغَدَرَة؛ فلا بدَّ لدفعِ عاديتِهمْ وردِّ شرِّهمْ وإبطالِ مكرهم، مِنَ القتالِ والجهادِ والجلاد، ولا بدَّ في كلِّ ذلك أن يصاحبَهُ ويلازمَهُ في كلِّ وقتٍ وحينٍ الصَّبرُ الرَّاسخُ والتَّجمُّلُ الشَّامخ؛ حتَّى تُدفَعَ الأمم، وتُحفَظَ العقائدُ والشَّرائعُ والأخلاقُ والقِيَم، فالصَّبرَ الصَّبر! والجَلَدَ الجَلَد! فإنَّ لكلِّ عملٍ رجالًا، ولكلِّ مقامٍ مقالًا، ولكلِّ داءٍ دواءً، وإنَّما الصَّبرُ عندَ الصَّدمةِ الأولى.

والصَّبرُ على البليَّة أهونُ من ركوبِ الهلكة، والصَّبرُ كَاسْمِه، ولئنْ كانَ الصَّبرُ مرًّا؛ فإنَّ عاقبتَهُ حلوةٌ -إن شاء الله-، والصَّبرُ حيلةُ مَن لا حيلةَ له، فاصبرْ مختارًا مأجورًا، وإلَّا صبرتَ مضطرًّا موزورًا.

تمسَّكْ بحبلِ الصَّبرِ في كلِّ كربةٍ *** فلا عسرَ إلَّا سوفَ يعقبُهُ يسرُ
ترى المرءَ في بعضِ الأحايينِ راضيًا *** وبعدَ قليلٍ شاكيًا يتذمَّرُ

وإنَّ الصَّبرَ تجرُّعُ الغُصَص، وانتهازُ الفُرَص، ومَن تبع الصَّبرَ تبعَهُ النَّصر، والصَّبرُ صبران: صبرٌ على مَا تكره، وصبرٌ عمَّا تحبُّ، والرَّجلُ مَنْ جمعهما، وإنَّ اللِّئامَ تجدُهُمْ أصبرَ أجسادًا، والكرامَ تجدُهُمْ أصبرَ أنفسًا، وإنَّ الصَّبرَ على المصيبةِ مصيبةٌ على الشَّامتِ بها، فادفعِ المصيبةَ بالصَّبر، وإنَّ الجَزَعَ لَأَحَدُ المصيبتين، وما أحسنَ الصَّبرَ في مواطنه! وعاقبةُ الصَّبرِ الجميلِ جميلةٌ، ولئنْ غلا اللَّحمُ فالصَّبرُ رخيصٌ.

عواقبُ الصَّبرِ ما لها مِنَنٌ *** وأفضلُ أخلاقِ الرِّجالِ التصبُّرُ

ثمَّ إنَّ حيلةَ مَن لا حيلةَ له الصَّبرُ، ولم أر لهذا الدَّهرِ دواءً إلا الصَّبْرَ عليه، وإنَّ الصَّبرَ على المُلِمَّاتِ فضيلةٌ نافيةٌ لكلِّ رذيلة، ومَنْ لم يعزمْ على الصَّبرِ لم يَظفَرْ بما يحبُّ، والصَّبرُ يقلِّمُ أظفارَ الخُطُوب، وهو ربيعُ القلبِ مرٌّ، لا يتجرَّعُهُ إلَّا حرٌّ، وعمَّا قليلٍ يفرِّجُ الله.

حلولُ ما حلَّ مِنَ البلاءِ *** كالضَّيفِ يومًا حلَّ في الفناءِ

فاصبرْ لضيفٍ بك يومًا نَزَلَا *** لا يلبثُ النَّازلُ أنْ يرتحلَا

وإنَّ الصَّبرَ في مواطنِ البأسِ ممَّا يفرِّجُ اللهُ بِهِ الهمَّ، ويُنجِي به مِنَ الغمِّ، وتُدرِكُونَ به النَّجاةَ في الآخرة، وما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ مِنَ الصَّبر، ويا أهلَ الإسلام، إنَّما شَرَيْنَا لله، ومَن شرى لله لم يكنْ عليه ما أصابَهُ مِنْ أذى وألم، فالصَّبرَ الصَّبر! وشَدَّةً كشَدَّاتِكُمْ في مواطنِ الكريهة.

ثمَّ يا معاشرَ المجاهدين، لا يغرنَّكم كثرةُ مَن ترونَ من التَّحالفاتِ والأحزابِ عليكم مِنْ أممِ الكفر؛ فإنَّ النَّصرَ مع الصِّدق، والفلحَ مع الصَّبر، بلْ وما قامتِ الدَّولةُ ولا رُفِعَتِ الرَّايةُ وحُمِيَتِ البيضةُ إلَّا بالأحرار، مِنَ المجاهدينَ الصَّابرينَ الأطهار.

ما كانَ يمنعُ عن أذى حريَّةٌ *** مَا لم تكنْ دونَ الحِمَى أحرارُ
شرفُ الدِّيارِ مردُّهُ لعصابةٍ *** غلتِ الدِّيارُ بهم وعزَّ الجارُ

وقد وجبَ -والله- على ذي اللبِّ والمعرفةِ رفضُ الدُّنيا، والأخذُ منها بالبُلْغَة، ووجبَ عليه الصَّبرُ على مكابدةِ النَّوائبِ والنَّوازلِ والفجائعِ الواردة، إذا علم أنَّ لها انقطاعًا لا محالة، وإنَّ الدَّوْلَةَ تسلبُها والأيَّامُ وتزيلُها وتغيِّبُها، فإذا صحَّحَ هذا عندَهُ اليقين؛ استخفَّ بالمكارهِ واستحقرَ بعزائِهِ المصائبَ، ولم يعرِّجْ من الدُّنيا إلَّا على بُلْغَة.

لا تأسفنَّ لذاهبٍ أو فائتٍ *** يُرجَى ولا تتبعْهُ وفرةَ نادمِ
واصبرْ على الحَدَثَانِ صبرَ مسلِّمٍ *** متيقِّنٍ أنْ ليسَ منهُ بسالمِ
فغضارةُ الدُّنيا كظلٍّ زائلٍ *** والعيشُ فيها مثلُ حلمِ النَّائمِ
والدَّهرُ يمنحُ ثم يمنعُ نَزْرَ ما *** أعطى ويبخلُ بالسُّرورِ الدَّائمِ
والنَّاسُ مَن لم يصطبرْ لمصابِهِ *** صَبْرَ الرِّضا، صَبَرَ اصطبارَ الرَّاغمِ

هذا، وقد دخلَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ المسجدَ، وابنُ الزُّبيرِ قد قُتِلَ وصُلِب، فقيل له: هذهِ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ في المسجد، فمالَ إليها وقال: "اصبري؛ فإنَّ هذهِ الجثثَ ليستْ بشيء، وإنَّما الأرواحُ عندَ الله"، فقالتْ: "وما يمنعُني مِنَ الصَّبر؛ وقد أُهدِيَ رأسُ يحيى بنِ زكريَّا إلى بغيٍّ مِنْ بغايا بني إسرائيل؟!".

فصبرًا فليسَ الأجرُ إلَّا لصابرٍ *** على الدَّهرِ إنَّ الدَّهرَ لم يخلُ مِنْ خَطْبِ

قـالَ ابنُ الأثـير: "كانَ أبـو مسلـمٍ الخراسـانيُّ شُجاعًا ذا رأيٍ وعقـلٍ وتـدبيرٍ وحـزمٍ ومـروءة، فقيـلَ لـه: بمَ نلتَ ما أنتَ فيـه مِنَ القهـرِ للأعـداء؟ فقـال: ارتـديتُ الصَّـبر، وآثـرتُ الكتمـان، وحـالفتُ الأحـزانَ والأشجان، وشـامختُ المقـاديرَ والأحكام؛ حتَّى بلغتُ غايةَ همَّتي، وأدركتُ نهايةَ بغيتي".

نعمْ عبـادَ الله، هـذا، واعلمْ -هُـدِيتَ لرشـدِك- أنَّ النَّصـرَ مـع الصَّبر، والفـرجَ مـع الكـرب، وأنَّ مع العسـرِ يسـرًا، وأنَّ المعونـةَ مِنَ الله -عـز وجـل- تـأتي على قـدر المؤونـة، وأنَّ الصَّبرَ يأتي على قـدر شـدَّةِ البلاء، وكانَ يُقَال: مَنِ اتَّبعَ الصَّبرَ اتَّبعهُ النَّصر، وإذا أصـابتك مصيبةٌ؛ فـاعلمْ أنَّـه قـد يكونُ أجلُّ منهـا، فلتَهُنْ عنـدَ ذلـك عليـكَ مصيبتُك، قـالَ أعـرابيٌّ: "إنَّ مِنْ أفضـلِ آدابِ الرِّجـالِ أنَّـه إذا نـزلَ بأحـدِهِمْ جائحـةٌ؛ اسـتعملَ الصَّبرَ وألهم نفسَـهُ الرَّجـاءَ لزوالهـا، حتَّى كأنَّـه لصـبرِهِ يعـاينُ الخلاصَ منهـا والغنـاء؛ تـوكُّلًا على الله -عـز وجـل- وحسـنَ ظنٍّ بـه، فمتى لـزم هـذهِ الصِّـفةَ لم يلبثْ أن يقضيَ اللهُ حاجتَه، ويزيلَ كربتَه، وينجحَ طلبتَه، ومعهُ دينُهُ وعرضُهُ ومروءتُه".

وإنَّا لنرجو اللهَ حتَّى كأنَّنا *** نرى بجميلِ الظَّنِّ ما اللهُ صانعُ

تعزَّ فإنَّ الصَّبرَ بالحرِّ أجملُ *** وليسَ على ريبِ الزَّمانِ مُعوَّلُ
فلو كانَ يغني أن يُرَى المرءُ جازعًا *** لنازلةٍ أو كانَ يغني التَّذلُّلُ
لكانَ التَّعزي عندَ كلِّ مصيبةٍ *** ونازلةٍ بالحرِّ أولى وأجملُ
فكيفَ وليسَ كلٌّ يعدو حِمَامَهُ *** ومَا لمرءٍ ممَّا قضى اللهُ مزحلُ

ومَـا المِحَنُ إلَّا آدابُ الله -عــز وجـل- لخلقِـهِ وتـأديبُ اللهِ لعبـادِه؛ ليفتحَ القلـوبَ والأسماعَ والأبصار، وبالصَّبرِ يُتوقَّعُ الفرج، ومَنْ يُدمِنْ قرعَ البابِ يَلِجْ بحولِ الله.

ترفَّقْ يا غريبُ فكلُّ عبدٍ *** تطيفُ بحالِهِ سعةٌ وضيقُ
وكلُّ مصيبةٍ تأتي ستمضي *** وإنَّ الصَّبرَ مسلكُهُ وثيقُ

قـال تعـالى: {وَلَنَبْلُـوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَـوْفِ وَالْجُـوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْـوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَـرَاتِۗ وَبَشِّـرِ الصَّـابِرِينَ (١٥٥) الَّـذِينَ إِذَا أَصَـابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَـالُوا إِنَّـا لِلَّهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعُـونَ (١٥٦) أُولَٰئِـكَ عَلَيْهِمْ صَلَـوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَـةٌۖ وَأُولَٰئِـكَ هُمُ الْمُهْتَـدُونَ (١٥٧)} [سورة البقرة].

قالَ صاحبُ الظِّلالِ في ظلالِ هذهِ الآياتِ بكلماتٍ عظيمات: "تكرَّر ذكرُ الصَّبرِ في القرآنِ كثيرًا؛ ذلكَ أنَّ اللهَ سبحانه يعلمُ ضخامةَ الجهدِ الَّذي تقتضيهِ الاستقامةُ على الطَّريقِ بينَ شتَّى النَّوازعِ والدَّوافع، والَّذي يقتضيهِ القيامُ على دعوةِ اللهِ في الأرض بينَ شتَّى الصِّراعاتِ والعَقَبَات، والَّذي يتطلَّبُ أن تبقى النَّفسُ مشدودةَ الأعصاب، مجنَّدةَ القوى، يقظةً للمداخلِ والمخارج.

ولا بدَّ من الصَّبرِ في هذا كلِّه، لا بدَّ من الصَّبرِ على الطَّاعات، والصَّبرِ عَنِ المعاصي، والصَّبرِ على جهادِ المُشَاقِّينَ لله، والصَّبرِ على كيدِ العدوِّ بشتَّى صنوفِه، والصَّبرِ على بطءِ النَّصر، والصَّبرِ على بعدِ المشقَّة، والصَّبرِ على انتفاشِ الباطل، والصَّبرِ على قلَّةِ النَّاصر، والصَّبرِ على طولِ الطَّريقِ الشَّائك، والصَّبرِ على الْتِوَاءِ النُّفوسِ وضلالِ القلوبِ وثقلةِ العنادِ ومضاضةِ الإعراض".

ثمَّ قال: "وبعد ذا؛ فلا بدَّ مِنْ وقفةٍ أمامَ هذهِ الخاتمةِ في تلك التَّعبئةِ للصَّفِّ المسلم، التَّعبئةِ في مواجهةِ المشقَّةِ والجهدِ والاستشهادِ والقتلِ والجوعِ والخوف، ونقصِ الأموالِ والأنفسِ والثَّمرات، التَّعبئةِ في هذهِ المعركةِ الطَّويلةِ الشَّاقَّةِ العظيمةِ التَّكاليف، إنَّ اللهَ يضعُ هذا كلَّهُ في كفَّة، ويضعُ في الكفَّةِ الأخرى أمرًا واحدًا: {صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}، إنَّه لا يعدُهُمْ هنا نصرًا، ولا يعدُهُمْ هنا تمكينًا، ولا يعدُهُمْ هنا مغانمَ ولا يعدُهُمْ هنا شيئًا إلَّا صلواتِ اللهِ ورحمتَهُ وهدايتَه.

لقد كانَ اللهُ يُعِدُّ هذهِ الجماعةَ لأمرٍ أكبرَ من ذواتها، وأكبرَ مِنْ حياتها، فكانَ مِنْ ثَمَّ يجرِّدُها مِنْ كلِّ غايةٍ ومن كلِّ هدف، ومِنْ كلِّ رغبةٍ من رغباتِ البشريَّة، حتَّى الرَّغبةِ في انتصارِ العقيدة، كانَ يجرِّدُها من كلِّ شائبةٍ تشوبُ التَّجرُّدَ المطلقَ له ولطاعتِهِ ولدعوتِه، وكانَ عليهِمْ أن يَمضُوا في طريقِهِمْ لا يتطلَّعونَ إلى شيءٍ إلَّا إلى رضا اللهِ وصلواتِهِ ورحمتِهِ وشهادتِهِ لهُمْ بأنَّهُمْ مهتدون.

هذا هو الهدفُ، وهذهِ هي الغايةُ، وهذهِ هي الثَّمرةُ الحلوةُ التي تهفو إليها قلوبُهم، فأمَّا ما يكتبُهُ اللهُ لهُمْ بعدَ ذلك مِنَ النَّصرِ والتَّمكين؛ فليسَ لهم، إنَّما هو لدعوةِ اللهِ الَّتي يحملونَها، إنَّ لهم في صلواتِ الله ورحمتِهِ وشهادتِهِ جزاءً على التَّضحيةِ بالأموالِ والأنفسِ والثَّمرات، وجزاءً على الخوفِ والجوعِ والشِّدَّة، وجزاءً على القتلِ والشَّهادة،

إنَّ الكفَّةَ لترجحُ بهذا العطاء؛ فهو أثقلُ في الميزانِ من كلِّ عطاءٍ، أرجحُ من النَّصر، وأرجحُ من التَّمكين، وأرجحُ من شفاءِ غيظِ الصُّدور، هذهِ هي التَّربيةُ التي أخذَ اللهُ بها الصَّفَّ المسلمَ ليُعِدَّهُ ذلك الإعدادَ العجيب، وهذا هو المنهجُ الإلهيُّ في التَّربيةِ لمن يريدُ استخلاصَهم لنفسِهِ ودعوتِهِ ودينِهِ مِنْ بينِ البشرِ أجمعين"، انتهى كلامُهُ -رحمه الله من سيِّدٍ صابرٍ متجلِّدٍ عزيزٍ متين-.

فيا أيُّها المجاهدُ والموحِّد، إيَّاك إيَّاك، إيَّاك إنْ كثرتْ عليك التَّحالفاتُ واشتدَّتْ بك النَّكباتُ، وتتابعتْ عليك المُلِمَّاتُ، وغَشِيَتْكَ المدلهمَّات، وتحشَّدتْ عليك جيوشُ العداوات، وحامتْ في سمائك الطَّائرات، وغُشِيتَ بالحِمَمِ والقذائفِ العابرات؛ أنْ تكونَ رجلَ سوءٍ وَهَنَ بِهِ صبرُه، ووهى جلدُه، ورقَّ تجلُّدُه، وخارَ اصطبارُه، وضعُفَ احتمالُه، وانحلَّتْ عقدةُ صبرِه، وانهارَ جرفُ اصطباره، وتداعتْ حصونُ اصطبارِه، ومزِّقتْ كتائبُ صبرِه، قد خانَهُ الصَّبرُ وأسلمهُ الجلد، وباتَ رهينَ البلابلِ ونجيَّ الوساوس، قَدِ استسلمَ للوَجدِ واستكانَ للعبرة، وأخلدَ إلى الشُّجون، وباتَ لا يملكُ دمعَهُ ولا يملكُ قلبَه، ولا يتمالكُ من الوَجَد، ولا يتماسكُ من الكرب، ولا تكنْ ممَّنْ إذا حلَّتْ به الحوادثُ وشملَهُ البلاءُ؛ يُرى حائرَ الطَّرفِ مُدَلَّهَ العقلِ ذاهبَ القلبِ مُستطَارَ الفؤادِ مُزدهلفَ اللُّبِّ، قد هفا فؤادُهُ جزعًا، وقد طار قلبُهُ شعاعًا، وتساقطتْ نفسُهُ حسرة، وكادتْ تَزهَقُ نفسُه مِنَ الهلع، وكادَ يُقضَى عليه مِنَ الغم، لكن ينبغي أنْ تقولَ عند المصيبة: "صبرٌ جميلٌ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهمَّ ألهمْنَا الصَّبر، واللهمَّ أفرغْ علينا صبرًا".

نعمْ عبادَ الله، لقد قرنَ اللهُ الصَّبرَ في كثيرٍ من الآياتِ بالجهادِ والقتال، وما ذلك إلا للدَّلالةِ على عظيمِ نفعِ الصَّبرِ ومكانتِهِ وفضلِهِ في الجهاد، بلْ ولأنَّه لا يصلحُ ولا يكونُ الجهادُ والقتالُ إلا بالصَّبرِ والتَّحمُّلِ والتَّجمُّل؛ قالَ تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)} [سورة آل عمران].

إذا طلبتَ عظيمًا فاصبرنَّ لَهُ *** أو فاحشدنَّ رماحَ الخطِّ والقُضُبَا
ولا تعدَّ صغيراتِ الأمورِ لَهُ *** إنَّ الصَّغائرَ ليستْ للعُلَا أُهُبا
ولن تَرَى صُحبَةً تُرضَى عواقِبُهَا *** كالحقِّ والصَّبرِ في أمرٍ إذا اصْطَحَبَا

في صحيحِ الإمامِ مسلمٍ عن أمِّ سلمةَ أنَّها قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ -عز وجل-: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إلاَّ أَخْلَفَ اللهُ -عز وجل- لَهُ خَيْرًا مِنْهَا)، قالتْ -أيْ أمُّ سلمة-: "فلمَّا ماتَ أبو سلمةَ قلتُ: أيُّ المسلمينَ خيرٌ مِنْ أبي سلمة؟! أوَّلُ بيتٍ هاجرَ إلى رسولِ الله ﷺ، ثمَّ إنِّي قلتُها، فأخلفَ اللهُ -عز وجل- لي رسولَ اللهِ ﷺ".

وفي الصَّحيحينِ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ -رضي الله عنه- أنَّ ناسًا مِنَ الأنصارِ سألوا رسولَ الله ﷺ فأعطاهم، ثمَّ سألوهُ فأعطاهم، ثمَّ سألوهُ فأعطاهم، حتَّى نَفِدَ ما عندَهُ فقال: (ما يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطاءً خَيْرًا وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) وذلك لأنَّ مقامَ الصَّبرِ أعلى المقامات، ولأنَّه جامعٌ لمكارمِ الصِّفاتِ والحالات.

وعَنِ ابنِ عبَّاسٍ -رضي الله عنه- أنَّهُ قالَ لعطاءٍ: ألا أُريكَ امرأةً مِنْ أهلِ الجنَّة؟ قلتُ: بلى، قال: هذهِ المرأةُ السَّوداءُ، أتتِ النبيَّ ﷺ قالت: "إنِّي أُصرَعُ وإنِّي أتكشَّفُ، فادعُ اللهَ لي"، قال: (إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ)، قالتْ: "أصبرُ، قالتْ: فإنِّي أتكشَّفُ فادعُ اللهَ أن لا أتكشَّفُ"، فدعا لها[١].

وعندَ [ابن حبان][٢] في الصَّحيح عَنْ مصعبِ بنِ سعدٍ عَنْ أبيه قال: قلت: يا رسولَ الله، أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: (الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ)[٣].

وقد امتدحَ السَّلفُ الصَّالحُ وأهلُ العلمِ الصَّبرَ وحضُّوا عليه ورغَّبوا فيه، قالَ عليُّ بنُ أبي طالب: "الصَّبرُ مطيَّةٌ لا تكبو، والقناعةُ سيفٌ لا ينبو"، وعَنْ إبراهيمَ التَّميميِّ قال: "مَا مِنْ عبدٍ وهبَ اللهُ له صبرًا على الأذى، وصبرًا على البلاء، وصبرًا على المصائب؛ إلَّا وقد أُوتِيَ أفضلَ ما قد أُوتِيَهُ أحدٌ بعدَ الإيمانِ بالله"، وعَنِ الشَّعبيِّ قالَ

[١] رواه البخاري.
[٢] ذكر المتحدث: وعند البخاري، ولم يروه.
[٣] رواه أحمد وابن ماجه والحاكم، والترمذي، وقال: حسن صحيح.

شريحٌ: "إنّي لَأُصَابُ بالمصيبة، فأحمدُ اللهَ عليها أربعَ مرَّات، أحمدُهُ إذْ لم يَكُنْ أعظمَ منها، وأحمدُهُ إذْ رزقني الصَّبرَ عليها، وأحمدُهُ إذْ وفَّقني للاسترجاعِ لما أرجو مِنَ الثَّواب، وأحمدُهُ إذْ لم يجعلْهَا في ديني"، وقالَ أبو حاتم: "الصَّبرُ على ضروبٍ ثلاثة: فالصَّبرُ عَنِ المعاصي، والصَّبرُ على الطَّاعات، والصَّبرُ عندَ الشَّدائد، وأفضلُها الصَّبرُ عَنِ المعاصي"، وقالَ زيادُ بنُ عمرو: "كلُّنا نكرهُ الموتَ وألمَ الجراح، ولكنَّنا نتفاضلُ بالصَّبر"، وعَنْ عمرِو بنِ قيسٍ قال: "{فصَبْرٌ جَمِيلٌ} [سورة يوسف: ١٨] قال: الرِّضَا بالمصيبةِ والتَّسليم".

وعَنْ ميمونِ بنِ مهرانَ قال: "ما نالَ عبدٌ شيئًا مِنْ جسمِ الخيرِ من نبيٍّ أو غيرِهِ إلَّا بالصَّبر"، وقالَ يحيى بنُ معاذ: "حُفَّتِ الجنَّة بالمكارِهِ وأنتَ تكرهُها، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ وأنتَ تطلبُها، وما أنتَ إلا كالمريضِ الشَّديدِ الدَّاء، إنْ صبر نفسَهُ على مضضِ الدَّواء؛ اكتسبَ بالصَّبرِ عافية، وإنْ جَزِعَتْ نفسُهُ ممَّا يُلاقَى؛ طالتْ به العلَّة"، وقالَ أبو حاتم: "الصَّبرُ جماعُ الأمر، ونظامُ الحزم، ودعامةُ العقل، وبذرُ الخير، وحيلةُ مَن لا حيلةَ له، أوَّلُ درجتِهِ الاهتمامُ ثمَّ التيقُّظُ ثمَّ التثبُّتُ ثمَّ التصبُّرُ ثمَّ الصَّبرُ ثمَّ الرِّضا، وهو نهايةُ الحالات"، وقال عمرُ بنُ ذرٍّ: "مَن أجمعَ على الصَّبرِ في الأمور؛ فقد حوى الخيرَ والتمسَ معاقلَ البرِّ وكمالَ الأجور".

يقولُ ابنُ القيِّم: "إنَّ الإنسانَ لا يستغني عن الصَّبرِ في حالةٍ من الأحوال؛ فإنَّه بينَ أمرٍ يجبُ عليه امتثالُه وتنفيذُه، ونهيٍ يجبُ عليه اجتنابُهُ وتركُه، وقد يجري عليه اتفاقًا، ونعمةٍ يجبُ عليه شكرُ المُنعِمِ عليها، وإذا كانتْ هذهِ الأحوالُ لا تفارقُه؛ فالصَّبرُ لازمٌ له إلى الممات، وكلُّ مَا يلقى العبدَ في هذهِ الدَّارِ لا يخلو مِنْ نوعين: أحدُهما يوافقُ هواهُ ومرادَه، والآخرُ يخالفُه، وهو محتاجٌ إلى الصَّبرِ في كلٍّ منهُمَا، وينبغي للعبدِ أن يعلمَ أنَّه سبحانه لم يُرسِلْ إليهِ البلاءَ ليُهْلِكَهُ بِهِ ولا ليُعَذِّبَهُ به ولا ليَجْتَاحَهُ؛ وإنَّما افتقدَهُ به ليمتحنَ صبرَهُ ورضاهُ عنه وإيمانَه، وليسمعَ تضرُّعَهُ وابتهالَه، وليراهُ طريحًا ببابِه، لائذًا بجنابِهِ مكسورَ القلبِ بينَ يديه، رافعًا قصصَ الشَّكوى إليه".

فالصَّبرَ الصَّبر! فقد حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكاره، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهوات، وينبغي للعبدِ أن يكونَ صبرُهُ حُسْبَةً وقربةً لا سلوةً بلا نيَّة؛ قالَ سبحانه: {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)}

[سورة المدثر]، ولأنَّ نبيَّنا -عليه الصلاة والسلام- كانَ من أعظمِ الصَّابرين، وأكثرَ مصابًا مِنْ أهلِ البلاءِ أجمعين، ولم أجد أصبرَ منه على خَطْبٍ ولا أقوى جَلَدًا منه على محنةٍ ولا أثبتَ جأشًا عندَ نازلة، وكأنَّما هو في الشَّدائدِ صخرةٌ وادٍ وطَوْدٌ من الأطواد؛ فقد صبر النبيُّ المُعْتَبَرُ حتَّى علا أمرُهُ وظهر، فخذوا هذهِ السِّيَرَ مِنْ خيرِ البشر، عسى أنْ تكونَ منارًا وزادًا ينفعُ اللهُ بها مَنْ حضر.

في الصَّحيحينِ عَنْ عائشةَ قالت: "لقد كانَ يأتي على آلِ محمَّدٍ ﷺ الشَّهرُ مَا يُرَى في بيتٍ من بيوتِهِ الدُّخانُ"، قلتُ: فما كانَ طعامُهُمْ؟ قالت: "الأَسْوَدَان: التَّمرُ والماءُ".

وفي مسندِ أحمدَ بإسنادٍ صحيحٍ عَنْ أنسِ بنِ مالكٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: (لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ فِي اللهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا مَا يُوَارِي إِبِطُ بِلَالٍ).

والصَّبرُ أفضلُ شيءٍ تستعينُ بِهِ *** على الزَّمانِ إذا مَا مَسَّكَ الضَّررُ

وعنه[١] بإسنادٍ صحيحٍ عنْ جابرٍ -رضي الله تعالى عنه- قال: "مكثَ النبيُّ ﷺ وأصحابُهُ وهُمْ يحفرونَ الخندقَ ثلاثًا، لم يذوقوا طعامًا، قالَ جابرٌ: فحانتْ منِّي التفاتةٌ فإذا رسولُ الله ﷺ قد شدَّ على بطنِهِ حجرًا مِنَ الجوع"، وعن أنسٍ قال: "خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرونَ والأنصارُ يحفرونَ الخندقَ في غداةٍ باردة، ولم يَكُنْ لهم عبيدٌ يعملونَ ذلك لهم، فلمَّا رأى ما بهم مِنَ النَّصَبِ والجوع قال: (اللهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَهْ فَانْصُرِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ)، وفي رواية: (فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ)، فقالوا مجيبينَ له:

نحنُ الَّذينَ بايعوا محمَّدًا *** على الجهادِ مَا بقينا أبدًا

وروى البخاريُّ في صحيحِهِ عَنْ أبي إسحاقَ قال: سمعتُ البراءَ بنَ عازبٍ يحدِّثُ قال: "لمَّا كانَ يومُ الأحزاب، وخندقَ رسولُ الله ﷺ؛ رأيتُهُ ينقُلُ مِنْ ترابِ الخندقِ حتَّى وارى عنِّي الغبارُ جِلْدَةَ بطنِه، وكانَ كثيرَ الشَّعر، فسمعتُهُ يرتجزُ بكلماتِ ابنِ رواحة وهو ينقلُ التُّراب، يقولُ:

---

[١] أي الإمام أحمد.

(اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ ما اهْتَدَيْنا *** وَلَا تَصَدَّقْنا وَلَا صَلَّيْنا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنا *** وَثَبِّتِ الأَقْدامَ إِنْ لَاقَيْنا
إِنَّ الأُلَى[1] قَدْ بَغَوْا عَلَيْنا *** وَإِنْ أَرادُوا فِتْنَةً أَبَيْنا)

قال: ثمَّ يمدُّ صوتَهُ بآخرِهَا".

هذا، وقد صبر نبيُّكم على الأذى والطَّعنِ والانتقاصِ والفِرْيَة، فقالوا: ساحرٌ وكاهنٌ ومجنونٌ وشاعرٌ وغيرَ ذلك؛ فعَنِ ابنِ عبَّاسٍ قال: "إنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مكَّةَ مِنْ أزد، وكانَ يرقي مِنْ هذهِ الرِّيح، فسمع سفهاءَ مِنْ أهلِ مكَّةَ يقولون: إنَّ محمَّدًا مجنونٌ، فقال: لو أنِّي رأيتُ هذا الرَّجل، لعلَّ اللهَ أن يشفيَهُ على يديَّ، قال: فلَقِيَهُ فقال: يا محمَّدُ، إنِّي أرقي مِنْ هذهِ الرِّيح، وإنَّ اللهَ يشفي على يديَّ مَنْ يشاءُ، فهل لك؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: (إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ)، فقال: أَعِدْ عليَّ كلماتِكَ هذه، فأعادها عليهِ رسولُ الله ﷺ ثلاثَ مرَّات، فقال: لقد سمعتُ قولَ الكَهَنَةِ وقولَ السَّحَرَةِ وقولَ الشُّعراء، فما سمعتُ مثلَ كلماتِكَ هؤلاء، هاتِ يدَكَ أبايعْكَ على الإسلام، فقال رسولُ الله ﷺ: (وَعَلَى قَوْمِكَ؟) فقال: وعلى قومي، فبايَعَهُ"[2].

وما المجدُ إلَّا وثبةٌ تملأ الورى *** أحاديثَ تُتلَى في الأنامِ وتُذكَرُ
ومَن لم ينلْ فيها حياةً عزيزةً *** فإنَّ طريقَ الموتِ للعزِّ أقصرُ

في الصَّحيحينِ عَنْ عمرِو بنِ ميمون، عَنْ عبدِ الله قال: "بينما رسولُ الله ﷺ ساجدٌ وحوله ناسٌ؛ إذ جاءهُ عقبةُ بنُ أبي معيطٍ بسلى جَزُورٍ فقذفَهُ على ظهرِ رسولِ الله ﷺ فلم يرفعْ رأسَه، فجاءتْ فاطمةُ فأخذتْهُ مِنْ ظهرِه، ودَعَتْ على مَنْ صنع ذلك، وقال: (اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ: أَبا جَهْلِ بْنَ هِشامٍ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ)، قال: فلقد رأيتُهُمْ يومَ بدرٍ وأُلْقُوا في بئر؛ غيرَ أنَّ أميَّة تقطَّعتْ أوصالُهُ فلم يُلْقَ في البئر".

---

[1] أي: الأعداء.

[2] رواه مسلم.

وفي الصَّحيحينِ أيضًا عَنْ أنسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ كُسِرَتْ رباعيتُهُ يومَ أُحُد، وشُجَّ وجهُهُ حتَّى سالَ الدَّمُ على وجهه، فقال: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ؟!)[١] فنزلت: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)} [سورة آل عمران].

ومَنْ تكنِ العلياءُ همَّةَ نفسِهِ *** فكلُّ الذي يلقاهُ فيها مُحبَّبُ

وفي الصَّحيحينِ عَنْ سهلِ بنِ سعدٍ أنَّه سُئِلَ عَنْ جُرْحِ رسولِ الله ﷺ يومَ أُحُد، فقال: "جُرِحَ وجهُهُ وكُسِرَتْ رباعيتُه، وهُشِمَتِ البيضةُ على رأسِه، وكانتْ فاطمةُ بنتُ رسولِ الله تغسلُ الدَّم، وكانَ عليٌّ -رضي الله عنه- يسكبُ عليها بالمِجَن، فلمَّا رأتْ فاطمةُ أنَّ الدَّمَ لا يزيدُهُ الماءُ إلَّا كثرة؛ أخذتْ قطعةً مِنْ حصيرٍ فأحرقتْهُ حتَّى صارتْ رمادًا، ثمَّ ألزقتها بالجُرْحِ فاستمسكَ الدَّمُ".

فإنْ تسأليني كيفَ أنتَ فإنَّني *** صبورٌ على ريبِ الزَّمانِ صعيبُ
حريصٌ على ألَّا يُرَى بي كآبةٌ *** فيشمتَ عادٍ أو يُسَاءَ حبيبُ

وفي صحيحِ البخاريِّ عَنْ جندبِ بنِ عبدِ الله: أنَّ رسولَ الله ﷺ دميتْ إصبعُهُ في بعضِ المشاهد، فقال ﷺ:

(هل أنتِ إلَّا إصبعٌ دميتِ *** وفي سبيلِ اللهِ ما لقيتِ؟!).

وأورد الواقديُّ في المغازي وصيةَ النبيِّ لأصحابِهِ يومَ أُحُدٍ يحرِّضُهُمْ على الصَّبرِ والتَّحمُّلِ والثَّبات، فقال: قامَ رسولُ الله ﷺ فخطبَ النَّاسَ فقال: (أيُّها النَّاس، أوصيكُمْ بما أوصاني اللهُ في كتابِهِ مِنَ العملِ بطاعتِهِ والتَّناهي عَنْ محارمِه، ثمَّ إنَّكُمُ اليومَ بمنزلِ أجرٍ وذُخْرٍ لمن ذَكَرَ الَّذي عليه، ثمَّ وطَّن نفسَهُ له على الصَّبرِ واليقينِ والجدِّ والنَّشاط؛ فإنَّ جهادَ العدوِّ شديدٌ كربُه، قليلٌ مَنْ يصبرُ عليه إلَّا مَنْ عزمَ اللهُ رشدَه؛ فإنَّ اللهَ مع مَنْ أطاعه، وإنَّ الشَّيطانَ مع مَنْ عصاه، فافتحوا أعمالَكُمْ بالصَّبرِ على الجهاد، والتَمِسُوا بذلك ما وعدكُمُ الله، وعليكم بالذي أمركم به؛ فإنِّي حريصٌ على رشدِكُمْ؛ فإنَّ الاختلافَ والتَّنازعَ والتَّثبيطَ مِنْ أمرِ العجزِ والضَّعفِ، ممَّا لا يحبُّ اللهُ ولا يعطي عليهِ النَّصرَ ولا الظَّفر)، فلا إله إلَّا الله! هذا ما

---

[١] هذا لفظ رواية أحمد والدارمي، ولفظ البخاري ومسلم: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فقال: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟!).

يوصي بـه النبيُّ المجاهـدينَ عنـدَ اللِّقـاء، يوصيهمْ بالصَّبرِ والثَّباتِ والتَّحمُّلِ لشدَّةِ العدوّ وكَلَبِه، ولنِعْمَ الوصيَّةُ واللهِ!

فاصبرْ لكلِّ مصيبةٍ وتجلَّدِ *** واعلمْ بأنَّ المرءَ غيرُ مخلَّدِ
أوَما ترى أنَّ الحوادثَ جمَّةٌ *** وترى المنيَّةَ للعبادِ بمَرْصَدِ
مَنْ لَمْ يُصَبْ ممَّن ترى بمصيبةٍ *** هذا سبيلٌ لستَ فيه بأوحدِ
وإذا ذكرتَ مصيبةً تَشْجَى بها *** فاذكرْ مصابَكَ بالنبيِّ محمَّدِ ﷺ

وأمَّا صحابةُ النبيِّ ﷺ فلنعم الصَّابرونَ كانوا، هـذا بلالُ بنُ ربـاحٍ -رضي الله عنـه- يعذَّبُ مِنْ أجلِ إيمانِهِ فيصبرُ ويُصَابِرُ؛ ففي مسندِ الإمامِ أحمدَ بإسنادٍ صحيحٍ عَنْ عبدِ اللهِ قال: "إنَّ أوَّلَ مَنْ أظهرَ إسلامَهُ سبعةٌ: رسولُ الله ﷺ، وأبو بكرٍ وعمَّارٌ وأمُّهُ سميَّةُ، وصهيبٌ وبلالٌ والمقدادُ -رضي الله عنهم-. فأمَّا رسولُ اللهِ فمنعَهُ اللهُ بعمِّهِ أبي طالبٍ، وأمَّا أبو بكرٍ فمنعَهُ اللهُ بقومِه، وأمَّا سائرُهُمْ فأخذهُمُ المشركونَ فألبسوهُمْ أدراعَ الحديدِ وأوقفوهُمْ في الشَّمس، فما مِنْ أحدٍ إلَّا وقد واتاهُمْ على مَا أرادوا غيرَ بلال؛ فإنَّه هـانتْ نفسُـهُ عليـهِ في الله، وهـانَ على قومِـهِ فـأعطوهُ الوِلْـدَانَ فجعلـوا يطوفونَ بِهِ في شعابِ مكَّة، وجعلَ يقولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ، أَحَدٌ أَحَدٌ".

صبرتُ ولم أُبدِ اكتئابًا ولن تَرَى *** أخا جزعٍ إلَّا يصيرُ إلى الصَّبرِ
وإنّي وإنْ أبديتُ صبرًا لَمُنْطَوٍ *** على حَزَنٍ منهُ أحرَّ مِنَ الجمرِ
ويومٌ كأنَّ المصطلينَ بحرِّهِ *** وإنْ لم تَكُنْ نارٌ قِيَامٌ على الجمرِ
صبرنا له حتَّى يبوخَ وإنَّما *** تفرَّجُ أيَّامُ الكريهةِ بالصَّبرِ

ومِنَ المواقفِ العظيمةِ في الصَّبرِ والتَّحمُّلِ والتَّجمُّلِ والثَّباتِ حتَّى المماتِ: موقفٌ مِنْ أحدِ الغلمانِ الشُّجعانِ أصحابِ الثَّباتِ على دينِ الرَّحمن، موقفُ الغلامِ وقومِهِ مع الملكِ الطَّاغيةِ الكافرِ الظَّالم، فكانَ مِنْ أمرِهِ أنَّه بعد يأسِ الملكِ مِنْ قتلِهِ قالَ لَهُ -كما عندَ مسلمٍ في الصَّحيح-: "إنَّك لستَ بقاتلي حتَّى تفعلَ ما آمرك، فإنْ فعلتَ ما آمرُك بِهِ قتلتَني، وإلَّا فإنَّكَ لن تستطيعَ قتلي"، قالَ: وما هو؟ قالَ: "تجمعُ النَّاسَ في صعيدٍ ثمَّ تصلبُني على جِذْع، فتأخذُ سهمًا مِنْ كنانتي، ثمَّ قل: بسمِ اللهِ ربِّ الغلام؛ فإنَّكَ إذا فعلتَ ما آمرُكَ بِهِ قتلتَني، وإلَّا فإنَّك لن تستطيعَ قتلي"، ففعل، ووضعَ

السَّهْمَ في كَبِدِ قوسِهِ ثمَّ رمى، فقال: "بسمِ اللهِ ربِّ الغلام"، فوقعَ السَّهمُ في صدغِهِ فوضعَ الغلامُ يدَهُ على موضعِ السَّهمِ ومات، وحالُهُ:

ونحنُ أناسٌ لا توسُّطَ بيننا *** لنا الصَّدرُ دونَ العالمينَ أوِ القبرُ
تَهونُ علينا في المعالي نفوسُنا *** ومَنْ خطبَ الحسناءَ لم يُغلِهَا المهرُ

فقالَ النَّاسُ: "آمنَّا بربِّ الغلام"، فقيلَ للملك: "أرأيتَ ما كنتَ تحذَرُ، قد -واللهِ- نزلَ بك، وقد آمنَ النَّاسُ كلُّهم"، فأمر بأفواهِ السِّكَكِ فخُدَّتْ فيها الأخدودُ، وأُضْرِمَتْ فيه النِّيرانُ، وقال: "مَنْ رجعَ عَنْ دينِهِ فدعوهُ، وإلَّا فأَقْحِمُوهُ فيها"، فكانوا يتقاعدونَ فيها ويتدافعون، فجاءتِ امرأةٌ بابنٍ لها ترضعُه، فكأنَّها تقاعستْ أنْ تقعَ في النَّار، فقال الصَّبيُّ: "أيْ أُمَّهْ، اصْبِرِي؛ فإنَّكِ على الحقّ"، فجعلَ يلقيهمْ في تلكَ الأخدود، قالَ اللهُ -عز وجل-: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥)} [سورة البروج].

نعمْ عبادَ الله، إنَّهم طلبوا الجنَّةَ وهي عاليةٌ، فخاطَرُوا بكلِّ غال، وباعوا النُّفوسَ للمتعالي، فرحمةُ الله عليهِمْ مِنْ رجال، ونفع بسِيَرِهِمُ الأجيال.

وإنَّ المجدَ أوَّلُهُ وعورٌ *** ومصدرُ غِبِّهِ كرمٌ وخيرُ
وإنَّكَ لن تنالَ المجدَ حتَّى *** تجودَ بما يَضُنُّ به الضَّميرُ
بنفسِك أو بمالِكَ في أمورٍ *** يهابُ ركوبَهَا الوَرِعُ الدَّثورُ

وإنَّ مِنَ العجبِ أنْ تجدَ من النِّساء -وهنَّ مَنْ يغلبُ عليهنَّ الضَّعفُ والجَزَع- ما فاقتْ بعضُهُنَّ بِهِ صبرَ شدائدِ الرِّجالِ وكرامِ الأبطال، وذي صورةٌ من أروعِ صُوَرِ الثَّباتِ حتَّى المماتِ، صورةٌ مِنْ صبرٍ وثباتِ امرأةٍ على القتلِ والجهدِ والبلاءِ والنَّار، فتبًّا لمن كانَ النِّساءُ أصبرَ منه!

وهل مِنْ حكيمٍ ضيَّعَ الصَّبرَ بعدما *** رأى الحكماءُ الصَّبرَ ضربةَ لازمِ؟!
خُلِقْنَا رجالًا للتَّجلُّدِ والأسى *** وتلكَ الغواني للبكا والمآتمِ

ففي مسندِ الإمامِ أحمدَ بإسنادٍ صحيحٍ عَنْ سعيدِ بن جبيرٍ عَنِ ابنِ عبَّاسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا - قَالَ:- قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى

مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الحَقِّ . - قَالَ:- فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ)، قالَ ابنُ عبَّاس: "تكلَّمَ أربعةُ صغار: عيسى ابنُ مريمَ - عليه السلام-، وصاحبُ جُرَيْجٍ، وشاهدُ يوسفَ، وصبيُّ ماشطةِ ابنةِ فرعون".

قالَ تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)} [سورة يوسف].

قالَ صاحبُ الظِّلالِ في ظلالِ هذهِ الآيةِ: "تلكَ سنَّةُ اللهِ في الدَّعوات، لا بدَّ مِنَ الشَّدائد، ولا بدَّ مِنَ الكُرُبَات؛ حتَّى لا تبقى بقيةٌ مِنْ جهدٍ ولا بقيةٌ مِنْ طاقة، ثمَّ يجيءُ النَّصرُ بعد اليأسِ مِنْ كلِّ أسبابِهِ الظَّاهرةِ التي يتعلَّقُ بها النَّاس، يجيءُ النَّصرُ مِنْ عندِ الله، فينجو الذينَ يستحقُّونَ النَّجاة، وينجونَ مِنَ الهلاكِ الذي يأخذُ المكذِّبين، وينجونَ مِنَ البطشِ والعسفِ الذي يسلِّطُهُ عليهِمُ المتجبِّرون، ويحلُّ بأسُ اللهِ بالمجرمينَ مدمِّرًا ماحقًا لا يقفونَ له ولا يصدُّهُ عنهُمْ وليٌّ ولا نصيرٌ؛ ذلك كي لا يكونَ النَّصرُ رخيصًا، فتكونَ الدَّعواتُ هزلى، فلو كانَ النَّصرُ رخيصًا لقامَ في كلِّ يومٍ دعيٌّ بدعوةٍ لا تكلِّفُهُ شيئًا أو تكلِّفُهُ القليل، ودعواتُ الحقِّ لا يجوزُ أن تكونَ عبثًا ولعبًا، فإنَّما هي قواعدُ للحياةِ البشريَّة، ومناهجُ ينبغي صيانتُها وحراستُها مِنَ الأدعياء، والأدعياءُ لا يتحمَّلونَ تكاليفَ الدَّعوة؛ لذلك يُشفِقُونَ أن يدَّعوها، فإذا ادَّعَوهَا عجزوا عن حملِهَا وطرحوها، وتبيَّنَ الحقُّ مِنَ الباطلِ على محكِّ الشَّدائدِ الَّتي لا يصمدُ لها إلَّا الواثقونَ الصَّامدونَ الصَّادقون، الَّذينَ لا يتخلَّونَ عن دعوةِ اللهِ ولو ظنُّوا أنَّ النَّصرَ لا يجيئهم في هذهِ الحياة.

إنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ ليستْ تجارةً قصيرةَ الأجل، إمَّا أنْ تربحَ ربحًا معيَّنًا محدَّدًا في هذهِ الأرض، وإمَّا أن يتخلَّى عنها أصحابُها إلى تجارةٍ أخرى أقربَ ربحًا وأيسرَ حصيلة،

والَّذي ينهضُ بالدَّعوةِ إلى اللهِ في المجتمعاتِ الجاهليَّة -والمجتمعاتُ الجاهليَّةُ هي التي تدينُ لغيرِ اللهِ بالطَّاعةِ والاتِّباعِ في أيِّ زمانٍ ومكان- يجبُ أن يوطِّنَ نفسَهُ على أن لا يقومَ برحلةٍ مريحة، ولا يقومَ بتجارةٍ ماديَّةٍ قريبةِ الأجل، إنَّه ينبغي له أن يستيقنَ أنَّه يواجهُ طواغيتَ يملكونَ القوَّةَ والمال، ويملكونَ استخفافَ الجماهيرِ حتَّى ترى الأسودَ أبيضَ والأبيضَ أسودَ، ويملكونَ تأليبَ هذهِ الجماهيرِ ذاتِها على أصحابِ الدَّعوةِ إلى الله باستثارةِ شهواتِهَا وتهديدِهَا بأنَّ أصحابَ الدَّعوةِ إلى اللهِ يريدونَ حرمانَهَا مِنْ هذهِ الشَّهوات.

ويجبُ أن يستيقنوا أنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ كثيرةُ التَّكاليف، وأنَّ الانضمامَ إليها في وجهِ المقاومةِ الجاهليَّةِ كثيرُ التَّكاليفِ أيضًا، وأنَّه مِنْ ثَمَّ لا تنضمُّ إليها في أوَّلِ الأمرِ الجماهيرُ المستضعَفَة، إنَّما تنضمُّ إليها الصَّفوةُ المختارةُ في الجيلِ كلِّه، الَّتي تُؤثِرُ حقيقةَ هذا الدِّينِ على الرَّاحةِ والسَّلامة، وعلى متاعِ هذهِ الحياةِ الدُّنيا، وإنَّ عددَ هذهِ الصفوةِ يكونُ دائمًا قليلًا جدًّا"، انتهى كلامُهُ -رحمه الله-.

فاصبروا عبادَ الله، اصبروا على طلبِ المعالي، واصبروا في جهادِ عدوِّكم، وقدِّمُوا لذلك كلَّ ما تستطيعون، واعلموا أنَّه بالتَّحمُّلِ والصَّبرِ يكونُ على أممِ الكفرِ النَّصرُ، فاستعينوا باللهِ واصبروا، إنَّ الأرضَ لله يورثُها مَن يشاءُ مِنْ عبادِه، والعاقبةُ للمتَّقين.

كأنَّ اللهَ إذْ قَسَمَ المعالي *** لأهلِ الواجبِ ادَّخرَ الكمالَا
ترى جدًّا ولستَ ترى عليهِمْ *** ولوعًا بالصَّغائرِ واشتغالا
وليسوا أرغدَ الأحياءِ عيشًا *** ولكنْ أنعمُ الأحياءِ بالا
إذا فعلوا فخيرُ النَّاسِ فعلًا *** وإنْ قالوا فأكرمُهُمْ مقالا

لا يمتطي المجدَ مَنْ لا يركبُ الخَطَرَا *** ولا ينالُ العُلا مَنْ قدَّم الحَذَرَا
ومَنْ أرادَ العُلَا عفوًا بلا تعبٍ *** قضى ولم يقضِ مِنْ إدراكِهَا وَطَرا
لا يُبلَغُ السُّؤلُ إلَّا بعدَ مؤلمةٍ *** ولا يتمُّ المُنَى إلَّا لمن صَبَرَا

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)} [سورة الصافات].

لا تنسوا إخوانكم من الدعاء




الخلافة